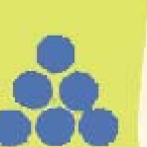


مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

في هذا العدد



تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية

العدد الاول والثاني ــ السنة الرابعة عشرة ــ ذو القعدة 1390 ــ يناير 1971

ثمن العدد درهم واحد

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد الأول والثاني
السنة الرابعة عشرة
ذو القعدة 1390
يناير 1971
ثمن العدد : درهم واحد

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

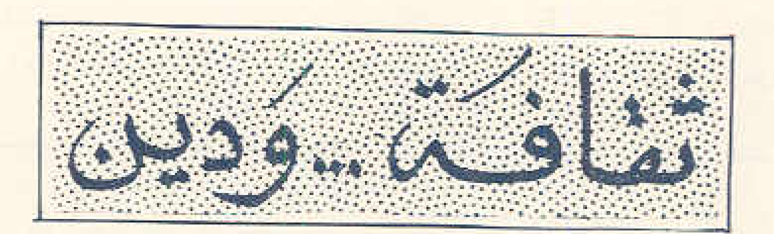
او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم **الاوقاف** ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط

كلمة العدد



سئل احد الرجال الذين هداهم الله اخيرا الى اعتناق دين الاسلام بعد بحث واستقراء لما عرف فى هذا الكوكب من ديانات وثقافات .. عن السبب الذى حدا به الى الاقدام على هذا العمل .. فاجاب على الفور :

انني كنت أبحث عن عقيدة ذات ثقافة .. وفى الوقت نفسه كنت أبحث عن ثقافة ذات عقيدة .. فكانت رحلتي شاقة .. واتعابي مضنية .. فكم وجدت من ثقافات لا تربطها بالعقائد رابطة .. ولا تجمعها بها جامعة .. وكم وجدت من عقائد لا تصلها بالثقافات صلة تذكر .. فهي فى واد .. وثقافة اهلها فى واد اخر ...

وقد علمتنا التجربة التاريخية ان كل حضارة لم تعمق جذورها فى ثقافة ذات عقيدة .. وعقيدة ذات ثقافة .. فانها تكون فى مهب الرياح ..

ولا يعنينا هنا ان يكون هذا الجواب معبرا صادقا عن واقع هذا الرجل .. ولا يعنينا ايضا ان يكون هذا الجواب صحيحا او غير صحيح .. وانما يعنينا اولا وقبل كل شيء ان نعرف اصل الفكرة التى يشير اليها ومقدار عمقها او سطحيتها ...

فالباحث الدارس الذى يستهدف فى بحثه النزيه الصلة الوثقى بين الاسلام وثقافة معتنقيه .. يجد ان الاسلام من حيث هو يتلخص فى شيئين اثنين :

دين .. وثقافة .. وكل منهما يعمق فى الآخر معاني الخير والطمانينة من جهة .. ومعاني البحث والفهم والمعرفة من جهة اخرى .. وبذلك تمتد خيوط الصلة بين الدين والمجتمع .. وتقاس اعمال الخير والصلاح والفساد والنفع والضر .. بمقاييس دقيقة تجعل الناس على بينة من امرهم فى كل عمل يربطهم بالآخرين .. كما تجعل الانسان يسمو فى مطامحه الشخصية والاجتماعية عن الانانية والوصولية والغش والخداع .. لان عليه رقابة من ضمير شريف ...

واذا كانت نوازع الانسان متعددة .. يملي بعضها العقل .. بينما يملي بعضها الآخر القلب والوجدان .. فان من السخافة والجهل بطبيعة الاشياء .. ان يحاول دين ما .. او ثقافة ما أن تجعل من الانسان ذا نوازع عقلية صرفة .. أو ذا نوازع وجدانية صرفة .. في حين أن الانسان عقل ووجدان ...

وهذا ما يشير اليه الجواب الذي قدمناه ءانفا .. حيث ان هذا الرجل الذي هداه الله الى الدين الحق .. كان يبحث عما يروي ظماه العقلي .. وظماه الوجداني في وقت واحد .. ولا شك ان ذلك هو الخط المستقيم الذي يمر عليه كل تفكير مستقيم ..

واخطاء العصر .. ومآسيه .. ومشكلاته .. التي يتخبط فيها الاقوياء والضعفاء .. والمنتصرون والمنهزمون والاثرياء . والبؤساء .. هي نتائج وليست مقدمات .. هي نتائج التنكر لطبيعة الانسان مفردا .. ومجتمعا .. والتذكر لطبيعة الاشياء في الحسيات والمعنويات .. وحفر هوة عميقة بين عنصري الحيوانية .. والانسانية .. في بني الانسان ..

فبقدر ما يحقق الانسان انتصارات علمية .. واختراعات بشرية .. وتقدم يسير .. ويطير بقدر ما يسجل على نفسه في عصر الذرة والصاروخ سخافات وتفاهات وحماقات .. افقدت السعداء سعادتهم .. وضاعفت في الاشقياء شقاوتهم .. ولو كان الانسان يحقق انتصارات اخرى في الميدان الذي تهيم فيه الارواح والقلوب .. وتتلوث الاخلاق .. والضمائر .. وتنتهك فيه الحرمات الانسانية .. لكان بذلك يحفظ توازن الحضارات والثقافات ويضمن استمرار المجتمعات وتسلسل حلقات الحياة .. عبر الزمان والمكان ..

ولقد اخطأ الانسان في ماضيه يوم كان يخرج من وثنية الى اخرى .. عبد الشمس .. والنار .. والكواكب والاشجار .. والحيوانات .. وقدس الازمنة والامكنة .. وهام بعدد من المخلوقات هياما شبيها بالعبادة .. ان لم يكن عينها ..

ثم كفر بمعبوداته كلها ونبذها وانقلب عليها وءامن بالله .. لانه ادرك انه المعبود الحق الذي توحد عبادته بين القلوب .. وتؤلف بين الشعوب .. وتسمو بالانسانية الى درجة السمو الممكنة في اطار هذه الحياة ..

واليوم يعيد الانسان سيرته الاولى .. فيعمد الى المادة .. والى المادة وحدها .. ليجعلها علما وعملا .. وثقافة .. وقيمة .. ومقياسا .. وبذلك يجدد عهد الوثنية البغيض ...

وعلى العادة .. فسيكفر الانسان بالمادة .. وسيتنكر لها وسينبذها .. لاننا الفنا منه ذلك في تاريخه الطويل .. وسيدرك الانسان انه بنى قصورا على الرمال .. وشاد صروحا على الفضاء .. يوم اعتمد على المادة وحدها وجعلها فلكا يدور فيه في كل حركاته وسكناته .. وتنظيماته واستعداداته لانه بعمله ذلك زرع الخوف .. كما زرع الالم .. وزرع الحقد كما زرع الانحلال ..

واذا صح ما يتنبأ به مفكرو عصرنا فان مصير الانسانية بعد عصر الذرة والصاروخ لن يكون الا الى الايمان ..!



مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي المنعقد بكراتشي

شهدت كراتشي عاصمة الباكستان يوم السبت 27 – 12 – 70 افتتاح مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي الذي تحتل تطورات الشرق الاوسط مكان الصدارة في جدول اعماله، واشترك ثلاث وعشرون وفدا في اعمال المؤتمر الذي استمر ثلاثة ايام والذي يعتبر استكمالا لمؤتمر مماثل عقد في جدة في شهر مارس الماضي، وكان مؤتمر جدة قد انبثق بدوره من مؤتمر القمة الاسلامي في الرباط الذي عقد بعد احراق المسجد الاقصى في القدس قبل ستة عشر شهرا ، وقد ازدانت طريق مطار كراتشي بأعلام الدول المشتركة ، كما رفعت الاعلام في الفندق الذي نزلت فيه الوفود .

وافتتح الرئيس الباكستاني الجنرال يحيى خان في كراتشي المؤتمر الثاني لوزراء خارجية الدول الاسلامية ، وقال في كلمة القاها :

« ان الاسلام يعني السلام ولكنه السلام القائم على العدل والكرامة ، واضاف يقول : ان المسلمين يطالبون بانسحاب قوات العدوان من جميع الاراضي المحتلة لانهم يريدون السلام المشرف»

وتحدث الجنرال يحيى خان عن اهمية مؤتمر القمة الاسلامي الذي عقد في الرباط وقال : انه كان استجابة للاساءة التي لحقت بمشاعر المسلمين بانتهاك حرمة المسجد الاقصى وقد وقف موقفا موحدا في تأييده للشعب الفلسطيني لاسترجاع حقوقه المغتصبة ودعوته الى ضرورة انسحاب القوات العسكرية الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها في حرب يونيو 1967 .

وبعد كلمة الافتتاح من طرف الرئيس الباكستاني القى السيد طانكو عبد الرحمن الامين العام للامانة الاسلامية كلمة قال فيها : انني مبتهج على الثقة التي اوليتموها الي وقد تركت في نفسي اثرا بالغا جعلني ان اقبل تعييني كأمين عام للمؤتمر الاسلامي وان اتخلى عن مهامي كرئيس لوزراء ماليزيا بعد ان بقيت في هذه المهمة طوال سنوات عديدة .

وانني على يقين من انه ما دامت رغبتكم هي أن تقوم الامانة العامة بوظيفتها كهيئة لتحقيق الوحدة الاسلامية وتقدم الاسلام فانه لا بد ان اؤكد لكم من الاهمية بمكان لجميع الدول الاعضاء ان تلتزم بدستور المؤتمر وتدعمه بمجرد اقراره .

هذا وقد صادق المندوبون على ترشيح الامير عبد الرحمن رئيس وزراء ماليزيا السابق امينا عاما للامانة الاسلامية التي سيكون مقرها جدة واختار المؤتمر رئيس وفد باكستان رئيسا له ووزير خارجية الصومال مقررا وناطقا باسان المؤتمر .

ثم اعطيت الكلمة للسيد عمر السقاف ، رئيس وفد المملكة العربية السعودية بوصفه رئيس دورة المؤتمر السابق وذكر السيد عمر السقاف في كلمته

بالقرارات التاريخية التي اسفرت عن مؤتمر القمة الاسلامي الذي انعقد فى السنة الماضية بالرباط ، كما أعاد الى الاذهان ما اسفرت عنه اجتماعات وزراء الخارجية بجدة خلال شهر مارس الماضي واشار السيد السقاف فى كلمته الى ما تعانيه الامة العربية والاسلامية نتيجة للعدوان الصهيوني . وفى الاخير رشح باسم وفد العربية السعودية الدكتور عبد المطلب طالب نائب الرئيس الباكستاني ورئيس وفد بلاده لرئاسة المؤتمر .

وبعد ذلك تحدث السيد حسين التهامي مستشار الرئيس أنور السادات ورئيس الوفد المصري فأيد ترشيح الدكتور عبد المطلب طالب لرئاسة المؤتمر مشيدا بكفاءة هذه الشخصية الباكستانية الفذة ، وعندما تناول الكلمة الدكتور عبد المطلب هنأ طانكو عبد الرحمن على تعيينه كأول أمين عام للؤتمر الاسلامي ، كما دعا الى ضرورة توحيد الجهود والقضاء على الاحتلال الاجنبي ومكافحة التخلف بجميع وجوهه فى مجموع البلاد الاسلامية .

وقد بدات اشغال المؤتمر بالمصادقة على اقتراح السيد عمر السقاف وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية بمنح رئاسة المؤتمر الى السيد عبد المطلب طالب رئيس الوفد الباكستاني ، اما النقط المدرجة فى جدول اعمال المؤتمر فهي :

دراسة الحالة فى الشرق الاوسط .

تحديد يوم لاحياء ذكرى الاعتداء على المسجد الاقصى .

انشاء وكالة دولية للاخبار على المستوى الاسلامي .

تحديد الوسائل الكفيلة بتنمية التعاون الاقتصادي والثقافي والاجتماعي بين الدول .

وسارت المناقشات فى جو من الوفاق بين الوفود المشاركة فى مؤتمر وزراء خارجية العالم الاسلامي ، وقد صرح وزير خارجية الصومال ان الدول المشاركة فى مؤتمر كراتشي نددت جميعها باسرائيل وبنواياها التوسعية ، كما درست الوضع الناجم عن العدوان البرتغالي ضد غينيا .

انشاء بنك اسلامي للتجارة والتنمية

ويلاحظ بأن قضية الشرق الاوسط كانت من بين النقط الرئيسية فى اشغال المؤتمر التي استمرت ثلاثة ايام .

والجدير بالذكر ان منظمة التحرير الفلسطينية اشتركت فى اشغال المؤتمر بصفة مراقب ، اما الجامعة العربية فمثلها السيد عبد الخالق حسونة بصفته مراقبا .

ولوحظ كذلك تغيب اربع دول عربية هي : السودان وسوريا والعراق والجمهورية الشعبية الديمقراطية اليمنية .

واكدت الوفود المشاركة عزمها على تحرير الاراضي العربية من السيطرة الاسرائيلية وان آخر مندوب تناول الكلمة فى المناقشات هو السيد خالد الحسن مندوب منظمة التحرير الفلسطينية الذي قدم عرضا حول خطورة الوضع الراهن فى الشرق الاوسط ، كما طالب من المؤتمر ان يتخذ قرارا يطالب بسحب اسرائيل لقواتها من الاراضي العربية المحتلة .

وندد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامي باي تمديد لوقف اطلاق النار فى الشرق الاوسط اذا لم تستأنف مفاوضات السلام فى وقت قريب .

وافادت بعض المصادر المقربة من المؤتمر ان لجنة قد شكلت لتحرير بيان باسم المؤتمر حول قضية الشرق الاوسط التي درسها المؤتمر بكل اهتمام .

ومن ضمن المواضيع التي درسها المؤتمر فى مناقشاته السرية مسألة انشاء وكالة اسلامية للاخبار وانشاء بنك اسلامي للتجارة والتنمية ، كما درس التدابير الرامية الى بعث الثقافة الاسلامية .

وتجدر الاشارة الى ان المغرب الذي رأسه الدكتور يوسف بلعباس وزير الخارجية قد قام بنشاط ملحوظ خلال اشغال مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية ، فقد القى خطابا امام المؤتمر اعلن فيه على الخصوص وقوف المغرب الى جانب الشعب الفلسطيني فى كفاحه لاسترداد حقوقه والى جانب غينيا فى مواجهتها لكل تهديد تتعرض له .

وشرح السيد الوزير وجهة نظر المغرب فى القضايا المدرجة فى جدول الاعمال ، وتنقسم هذه القضايا الى ثلاثة اقسام ، أولها - القضايا السياسية وهي قضية الشرق الاوسط وقضية غينيا ، وذكر السيد الوزير ان أهم الاحداث التي طرات منذ مؤتمر جدة والتي يجب اخذها بعين الاعتبار هي ظهور القضية الفلسطينية على المستوى الدولي واعتراف الامم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني ، اكد ان على المؤتمر أن يأخذ بعين الاعتبار الكيان الفلسطيني وأن يصدر قرارا يدعو فيه جميع الدول الاسلامية الى دعم الكيان الفلسطيني ماديا ومعنويا .

وبخصوص قضية غينيا اكد السيد الوزير ان المغرب كان دائما الى جانب غينيا ، كما دعا المؤتمر الى اتخاذ قرار يشابه قرار مجلس الامن بادانة العدوان ضد غينيا .

أما القسم الثاني من جدول اعمال المؤتمر فهو يتعلق بالناحية التنظيمية للامانة العامة ويعتبر المغرب هذا الموضوع من اهم المواضيع المطروحة على المؤتمر اذ يجب ان تكون الامانة العامة جهازا قويا على مستوى اهداف المؤتمر .

اما القسم الثالث من جدول الاعمال فيتعلق بالتعاون الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بين الدول الاسلامية ، والمغرب يحبذ هذا التعاون الذي لن يكون مثمرا الا بعد أن تقوم الامانة العامة بدراسات تحدد فيها الميادين المفيدة لذلك لتعاون .

هذا وقد تقدم الوفد المغربي باقتراح يهدف الى تعزيز وتقوية المراكز الثقافية بين لدول الاسلامية ووضع الوفد المغربي مذكرة يطالب فيها اضافة نقطة جديدة الى جدول الاعمال تتعلق بانشاء مراكز ثقافية اسلامية جديدة فى عدد من العواصم غير الاسلامية .

هذا وقد تقابل الدكتور يوسف بلعباس وزير الشؤون الخارجية المغربي مع رئيس جمهورية باكستان يحيى خان واستمرت المقابلة حوالي نصف ساعة .

وأجرى وزير خارجيتنا اتصالات مع وزير خارجية الصومال ورئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة وممثل منظمة التحرير الفلسطينية كما انعقد اجتماع مشترك بين رؤساء وفود دول المغرب العربي ودار الحديث خلال هذه الاجتماعات حول تنظيم الامانة العامة وقضية فلسطين والشرق الاوسط وقضية العدوان على غينيا .

كما تقابل السيد الوزير مع طانكو عبد الرحمن الامين العام للمؤتمر الاسلامي ومع رؤساء وفود السنغال والمملكة العربية السعودية وماليزيا وايران وافغانستان وغينيا ، وتحادث معهم حول مواقف المغرب بخصوص القضايا المدرجة فى جدول الاعمال

هذا وقد تميزت المناقشات بجو من الوفاق بين جميع الوفود وحول جميع النقط المدرجة الى درجة ان الوفود التي كانت تبدي فى أول الامر توعا من التحفظ بخصوص تنظيم الامانة العامة قد تخلت عن هذا التحفظ ، واستمع المؤتمرون الى تقرير من السيد حسن التهامي ممثل الجمهورية العربية المتحدة

وبعد انتهاء المناقشات العامة تكونت لجنتان عضويتهما مفتوحة لجميع الوفود تكلفت اللجنة الاولى بصياغة البلاغ المشترك ووضع التوصيات بينما قامت الثانية بدراسة تنظيم وتمويل الامانة العامة والمغرب مثل فى هاتين اللجنتين .

وصدر عن المؤتمر بيان سياسي هام اكد فيه عدم شرعية ضم الاراضي التي احتلتها اسرائيل بالقوة وطالب بسحب جميع القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة ، وكذا تطبيق قرارات الامم المتحدة بهذا الشأن ، كما اعترف المؤتمر بمشروعية الكفاح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني حيث قرر تقديم العون المادي والمعنوي والسياسي للشعب الفلسطيني فى كفاحه التحرري ، وقرر تسهيل تعيين ممثلين لحركة المقاومة الفلسطينية فى البلدان الاسلامية .

وفيما يتعلق بالخلاف بين المقاومة الفلسطينية والحكومة الاردنية نوه البيان بالاتفاقيات التي تم التوصل اليها فى كل من عمان والقاهرة بين المقاومة وحكومة عمان،وناشد الجانبين الالتزام بهذه الاتفاقيات واعرب البيان عن مساندته لغينيا وتنديده بالبرتغال وطالب الدول المشاركةفى المؤتمر تقديم المعونة المادية الضرورية لغينيا .

وذكر البيان بتصريح مؤتمر القمة الاسلامي بالرباط بشأن احراق المسجد الاقصى ، وأكد عزمه على احياء ذكرى الحريق يوم 21 غشت 1971 وجعل هذا اليوم يوم تضامن اسلامي .

وفيما يخص مشروع احداث بنك اسلامي كلف المؤتمر الجمهورية العربية المتحدة بتحضير مشروع دراسة يقدم للامانة العامة في ظرف الستة اشهر القادمة لعرضه على المؤتمر القادم بقصد مناقشته واتخاذ قرار بشأنه ، كما اتخذ قرار مماثل بشأن مشروع احداث وكالة اسلامية للانباء حيث تم الاتفاق على المبدأ وتقرر عقد اجتماع للخبراء في ايران بدعوة من الحكومة الايرانية لتحضير الدراسات الضرورية .

وفيما يخص تدعيم الثقافة والحضارة الاسلاميتين وضمان اشعاعها فى العالم ذكر المؤتمر بالقرار المتخذ فى الرباط وطلب من الامين العام ان ينظم اجتماع لممثلي وخبراء البلدان الاعضاء بقصد دراسة الامكانيات العلمية وعرض تقرير على المؤتمر الثالث ، وسيتم هذا الاجتماع فى الرباط بدعوة من الحكومة المغربية .

هذا وقد اختار المؤتمر جدة كمقر للاجتماع التحضيري للمؤتمر القادم،وسيكون على هذا الاجتماع أن يدرس مشروع مذكرة حول اهداف ومسطرة المؤتمر القادم ، وقد كلفت الامانة العامة بتزويد البلدان المعنية بهذا المشروع فى ظرف شهر على ان يتم الاجتماع فى ظرف اربعة اشهر من نشر المشروع وسيعقد المؤتمر القادم فى كابول فى بداية شتنبر 1971 .

وتناول الكلمة الدكتور يوسف بلعباس وزيرنا فى الخارجية فطالب بوضع ميثاق اسلامي يحدد المبادىء الاساسية وكذا الاطار العام لاشغال المؤتمرات الاسلامية المقبلة على مستوى القمة وطالب بان يعرض هذا الاقتراح على مؤتمر القمة الاسلامي المقبل .

وقد حظى اقتراح الدكتور بلعباس بموافقة الوفد الباكستاني الذي اقترح على مندوبي الدول المشاركة تكليف الامانة العامة باعداد الميثاق المذكور فى جدة وعرضه على المؤتمر القادم لوزراء الخارجية لدراسته قبل رفعه الى مؤتمر القمة .

واعطى الوزير المغربي من جهة اخرى ايضاحات حول مشروع اقامة مراكز اسلامية وخاصة فى الدول الاوربية ، وطالب باعداد توصية فى الموضوع وان تقوم الامانة العامة للمؤتمر الاسلامي بتشكيل لجنة دراسية تجتمع فى الرباط قبل انعقاد الاجتماع القادم لوزراء خارجية الدول الاسلامية وقد وافقت مختلف الوفود على هذا الاقتراح .

وتأكد من جهة اخرى أن مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية القادم سينعقد فى سبتمبر المقبل بكابل عاصمة افغانستان ...

ميزانية الامانة العامة للمؤتمر الاسلامي

صرح مصدر مقرب من وزراء خارجية الدول الاسلامية الذي انعقد فى كراتشي ان ميزانية الامانة العامة للمؤتمر الاسلامي تبلغ حوالي 450 الف دولار وان كل دولة من الدول الاعضاء ستساهم فى أول الامر بمبلغ 10 000 دولار ، اما المملكة العربية السعودية فقد عرضت مساهمة اضافية تبلغ 25 000 دولار .

ومن جهة اخرى اعرب الامير عبد الرحمن الامين العام للمؤتمر الاسلامي عن ارتياحه للنتائج التي اسفر عنها مؤتمر كراتشي الاسلامي.

وقال ان القرارات التي اتخذها المؤتمر تعتبر خطوة الى الامام فى سبيل تحقيق الوحدة الاسلامية .

دراسات اسلامية

الإسلام والقوميات

للأستاذ عبد الله كنون



طغت في هذا العصر الدعوات التي تصد عن سبيل الله ، وهو وحده سبيل الالتقاء بين اجناس البشر . والدعوات التي تفرق بين الشعوب والامم، وهم احوج ما يكون الى الاجتماع والائتلاف . ومن اعظمها اثرا في النفوس ، واكثرها ضررا على المجتمع الانساني ، هذه النزعات القومية التي شاعت وذاعت عند الغربيين في القرنين الثامن والتاسع عشر ، وتسببت في كثير من المآسي والحروب لدول اوروبا وامريكا ، ثم ذر قرنها في البلاد الاسلامية والعربية مع مطلع هذا القرن الذي نعيش فيه ، وكانت هي العلة في تشتيت كلمة اهلها وتفتيت وحدتهم ، الامر الذي جرا عليهم ارذل القوم ، ومكن لخصومهم من التحكم فيهم حتى بعد استقلالهم .

ولعل بعض الناس يتساءل : هل الاسلام ضد القوميات المختلفة بالطبع ، ام هو يؤيدها ولا يعارضها ؟

ان الوعي القومي في العصر الحديث قد تغلغل في نفوس الافراد والجماعات من كل شعب وقبيل ، بحيث يصعب اقتلاع جذوره لتعميق الشعور الاسلامي واحلاله محله ، فما هو موقف الاسلام اذن من هذه المعضلة ؟ أو ما هو الاتجاه السليم بازاء الفكرة القومية ، والعالمية ؟ . .

والجواب ان الاسلام لم يتجاهل الشخصية المميزة ولا الواقع التاريخي للشعوب . وما اتى به من نظام عام للحكم ، وتوجيه شامل للاقتصاد ، وتربية روحية للانسان ، انما قصد به بناء المجتمع البشري على أساس من العدالة الحق ، وعدم استغلال الغني للفقير ، وتطهير النفوس من الرذائل التي تورث العداوة بين الناس .

فاسناد الحكم الى النخبة المختارة من ذوي الخبرة والنزاهة والسابقة في خدمة الصالح العام ، كما يتوخى الاسلام ، انما يراد به ابعاد المتسلطين والانتهازيين ممن لا كفاءة لهم ولا فضل الا التغرير بالجماهير واغتنام الفرص التي يظهر فيها امثالهم . وتحريم الربا — مثلا — الذي يعد دعامة ثابتة في المعاملات المالية في الاسلام ، فهو من اعظم العوامل على تحرير الاقتصاد من الاستغلال والاحتكار والتصرف في موارد الدولة بالغرض والشهوة والمصلحة الشخصية ، الذي كثيرا ما يكون السبب في انحلالها . وتربية الناس على مراقبة الخالق عز وجل ، والاستعداد ليوم الميعاد ، تجعلهم يبتعدون عن كثير من الرذائل ، خوف مناقشة الحساب وشديد العقاب .

واذا قامت المجتمعات على هذه المبادىء الحميدة والخصال الكريمة ، سادت فيها روح التفاهم والتقارب ، وانعدمت بينها او كادت ، موجبات العداوة والبغضاء ، ووجد التعايش السلمي بين الافراد والجماعات والامم والشعوب ، الذي هو الغاية من قيام المنظمات الدولية ، كعصبة الامم

المنحلة ، ومنظمة الامم المتحدة اللتين لم تحققا ـ وباللاسف ـ هذه الغاية قط ، كما حققها الاسلام في عهوده الزاهرة ، لما كانت اكثرية شعوب القارات الثلاث المعروفة اذ ذاك ، تنضوي تحت لوائه !

وهذه المقاصد النبيلة التي هي مجمل دعوة الاسلام ، ورسالته الخالدة ، لم تمس ـ كما راينا ـ بوجه من الوجوه ، المشخصات الجنسية للشعوب ولا كيانها الخاص . بل اننا لنجد في شريعة الاسلام ما يؤكد الفوارق الجنسية ، ويعترف بأن لكل قوم كيانهم المستقل ، لكن لا على اصل التنابز والمنافرة كما هو في الواقع حال معظم الشعوب اليوم ، ولاسيما المتمدنة منها ، التي كلما تمدنت توحشت ، وانما على اصل التعارف والمعاملة ، لتبادل المصالح وعمارة الارض .

ولنستمع الى هذا النداء الالهي الكريم ، في القرآن العظيم : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » فقد اثبت اولا، مساواة الناس بعضهم لبعض في اصل التكوين والولادة والنشأة الاولى . وبذلك نفى ان يكون لبعضهم فضل على بعض ، بحكم تساويهم في الاصل . واثبت ثانيا ، انه جعلهم شعوبا وقبائل ، وهذا اعتراف بوجود القوميات المتعددة لا مرية فيه ، لانه امر مشاهد ، لكنه نبههم الى ان حكمته ليست هي التعصب والانانية والتعالي ، بل التعارف المثمر للتقارب والتعاون على الصالح العام ، وذلك في قوله تعالى (لتعارفوا) فهي كلمة توزن بالذهب ، لانها لخصت موقف الاسلام من القوميات ، وحكمه عليها ، والاتجاه السليم الذي يجب ان تتجه فيه ، وذلك بأوعب عبارة وادقها واخصرها .

فالاسلام لا ينكر القوميات بل يعترف بها ، لان وجودها شيء طبيعي ، ومما تقتضيه ضرورة العمران. غير انه يميل بها عن عبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والاجداد ، وعن تعصب الشعوبية وانانيتها ، وعن نظرية الجنس السامي والعنصرية المقيتة ، التي تسود الآن اجزاء من العالم برغم تقدمها في العلم والحضارة المادية . فالشعور القومي اذا بلغ الى هذه الدرجة من الغلو والحدة ، لا يرضيه الاسلام ولا يقره بحال . لكنه لا يلغيه اطلاقا ، بل يلطفه ويهذبه حتى يصير معقولا ومقبولا ، من اجل ان القومية ما وجدت الا لتكون سبيلا للتعارف والتعاون ، فلا ينبغي ان نحرف بها الى ما يضيع الحكمة من وجودها ، فضلا عن ان ادعاء التفوق لجنس على جنس بمجرد الاصل والعرق ، هو ادعاء باطل ولا نصيب له من الصحة ، مع ما علم من تساوي الناس في اصل الوجود ومبدأ الخليقة .

نعم اقر الاسلام مبدأ التفاضل بين الناس بشيء آخر غير الجنس والاصل ، وهو التقوى ، كما يستفاد من ذلك النداء الالهي الآنف الذكر الذي يقول في الآخر : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

والتقوى قيمة خلقية عظيمة تندرج تحتها جميع الفضائل الانسانية . ومبناها على خوف الله عز وجل واجلاله ، ومن ثم كان صاحبها مامون البوائق ، فلا يصدر عنه ما ينقض العهد الذي التزمه باعتناق الاسلام ، وهو عدم الزيغ عن المحجة البيضاء . ولذلك كان الاسلام وما يزال دعوة حققت وتحقق المساواة بين الشعوب على اختلاف عناصرها والوانها ولغاتها .

وجاء في حديث صحيح ان النبي (ص) سئل عن اكرم الناس ، فقال اتقاهم ! قيل ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألني ؟.. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا(1) .. فلم يهدر ماضي القوم ، ولا اهدر مفاخرهم ، بل اقرها واكدها بشرط ان يتفقهوا في الدين ويعلموا حلاله وحرامه . ولا شك انهم حينئذ سيتخلون عن كثير مما كانوا يحسبونه فضلا وشرفا ، وما هو الا عنجهية خرقاء ، ان اعتد بها أهل الجاهلية ؛ فهي عند من هذبتهم تعاليم الاسلام تظاهر سخيف .

ولنستمع الى قوله (ص) في حديث آخر : « ان الله قد اذهب عنكم عبية (2) الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، انما هو مومن تقي او فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب (3) . فصرح بما يفهم من الحديث السابق ، وهو النهي عن التكبر

---

(1) رواه البخاري ومسلم
(2) بضم العين وكسرها مع تشديد الباء والياء : الكبر
(3) رواه ابو داود والترمذي .

والترفع والاعتداد بمآثر الجاهلية التي ليس لها في شرع الانسانية الرشيدة وزن .

وهذا ان كان ورد في حق العرب الذى بعث الله نبيه الكريم منهم ، فهو يجر ذيله على غيرهم من الامم والشعوب بالاحروية ، لاسيما والمعتاد ان اصحاب الدعوات المختلفة ، درجوا على ان ينسبوا لقومهم من الفضل والسمو على غيرهم ما هو معروف، فاذا نفى النبي (ص) ان يكون للعرب اي فضل الا بالعلم والعمل ، فهو ينفيه كذلك عن غيرهم . بل انه صرح بذلك في الحديث القائل : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لاحمر على اسود الا بتقوى الله » .

فبان بهذا ان الاسلام ليس ضد القوميات ، ولا يحاربها ، وانما هو ضد ما ينشا عن الغلو فيها ، ويحاربه حدة الشعور بها ، كيلا تصبح وسيلة للتفرقة والعداوة والبغضاء. وبالضرورة هو ايضا لا يقبل ان تكون الها معبودا وشعارا يؤلهه الجهلة والقادة الذين يستغلونهم ، فيلقنونهم أن الموت في سبيلها شهادة وان تقديسها من المعتقدات القلبية ، فالشهادة انما تجب لمن مات في سبيل الله ، لا لمن دافع عن مطامع واغراض شخصية مما يكون (غالبا) باعثا على الحروب ومنازعات الدول . والشهادة انما هي الجزاء الالهي لمن جعل كلمة الله هي العليا ، لا لمن حارب ليسود فلان او حزب او حلف من الاحلاف.

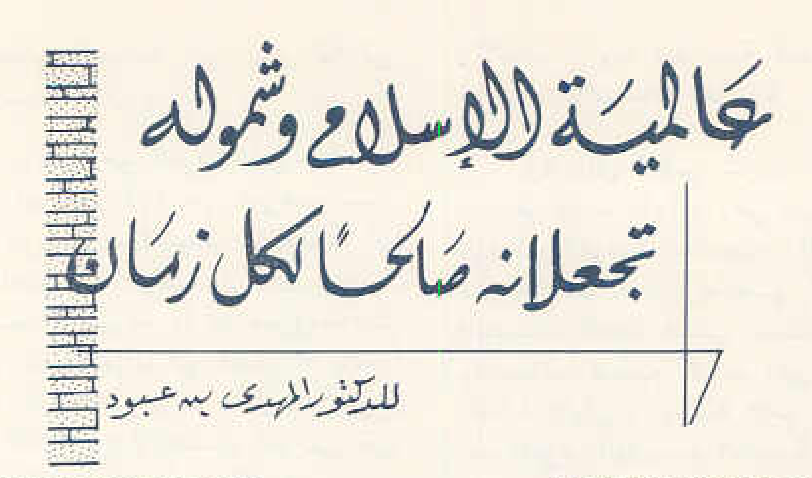
واما القدسية فانما هي لله عز وجل ، وليست لمخلوق مهما علا شانه . ولا يستطيع المخلوق ان يوجبها لاحد ولا لمعنى من المعاني ، ما لم يكن لله الجانب الاوفر فيه ، بل القصد الاول والاخير .

وهذا المنحى الاعتقادي لا تحوم القوانين والمذاهب المعاصرة حوله ، أعني انها لا تعتبره ولا تعطيه اي اهمية لانها اسقطت مراعاة جانب الله من حسابها ، فلذلك اوجبت للقومية ولغيرها من الشعارات كالعلم الوطني ما لله من قداسة واجلال وعظمة وتمجيد وخضوع . فنشا عن ذلك من الجهالات والمحاذير ما هو معلوم ، واشرك الناس مع الله غيره وهم لا يشعرون . ولذا فنحن ننبه عليه المسلمين ، ونرشدهم الى ما ينبغي لهم ان ياخذوا به في هذا الصدد من التمييز بين ما هو عقيدة وما هو واجب ، وما يختص بجلال الله من العبارات والالفاظ ، وما فيه سعة للتعبير عن التكاليف الوثنية والالتزامات القانونية .

ولما راى الناس شرور الحروب الكبرى وعانوا من اهوالها ما عانوا ، وهي التى انما تنشب من اجل النعرات القومية الجامحة الطائشة ، ارادوا ان يتلافوا اخطارها ويعالجوا اضرارها ، فانشأوا الجمعيات العامة التي تشارك فيها جميع الامم والشعوب كعصبة الامم التى وجدت بعد الحرب العالمية الاولى ، وهيئة الامم المتحدة التي وجدت بعد الحرب العالمية الثانية ، وانحلال الاولى دليل على عدم نجاحها في تحقيق الغاية التى وجدت من اجلها ، اما الثانية فانها سائرة في سبيلها ، والدليل على ذلك انها لم تستطع ان تمنع حتى الميز العنصري السائد في افريقية الجنوبية ، ولا أن تكف العنصريين الجدد في روديسيا عن الاستبداد بالحكم وتسخير اهل البلاد الاصليين لمصالحهم الخاصة ! كما ظهرت بعض المذاهب السياسية التي تكتسي صبغة العالمية ، وتريد أن تلاشي الفروق وتقضي على الخلافات بين الامم والشعوب كالشيوعية ، ولكن هل نجحت هي ايضا في بلوغ هذا الهدف ؟ ام انها زادت الطين بلة ، وقسمت العالم الى معسكرين متطاحنين ؟ بل انقسمت على نفسها الى جبهات عديدة يوشك ان يصطدم بعضها ببعض!. والمهم هو ان ما لم تحققه الامم المتحدة وهي الآن تنيف عن مائة وخمسين دولة ، والشيوعية الدولية ، قد حققه الاسلام بمفرده ، وعاشت في ظل حكمه العادل ، قوميات لا تعد ولا تحصى ، محتفظة بدينها وخصائصها، ومتمتعة بحريتها الكاملة . ولم يقم بينها خصام قط ، خلال تاريخ الاسلام الطويل ، الا في بعض الظروف القليلة ، وكانت الايدي الخفية من اعدائه ، هي التى تهيجه وتستفز شعور المواطنين وتستغل سذاجتهم ، وذلك كما وقع في أواخر أيام الدولة العثمانية وفي خصوص بعض الاقاليم .

واهم من ذلك كله ان موقف الاسلام من القوميات موقف معقول وحكيم ، وفضلا عن عدم معارضته لها في الجملة ، فان المنظمات العالمية والمذاهب السياسية الكبرى لم تجيء بافضل منه!.

طنجة : عبد الله كنون



عقد ، يوم 12 ــ 17 شوال 1390 ، المؤتمر الاول « للدعوة الاسلامية » اجتماعاته بطرابلس حيث بدأ أعماله بقاعة مجلس النواب سابقا بطرابلس ، وحضر حفل الافتتاح : الرائد الخويلدي الحميدي ، والرائد مختار القروي ، والرئيس امحمد المقريف واعضاء مجلس الثورة ...

وقد افتتح العقيد معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة ، ورئيس الوزراء مؤتمر « الدعوة الاسلامية » الاول بكلمة رحب فيها بالعلماء المسلمين الذين يمثلون أقطارا مختلفة من انحاء المعمور ، كما تحدث عن شمولية الاسلام ... ودعا علماء المسلمين الى العمل جماعة وبكل امكانيات المسلمين لنشر لواء الاسلام والى تفسير القرآن الكريم تفسيرا صحيحا يظهر التقدمية الموجودة فيه ، والى تحرك علماء المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية ، وترجمة معاني القرآن الكريم الى كل اللغات .

وكان من بين المؤتمرين الاستاذ مالك بن نبي ، والاستاذ محمد المبارك ، والاستاذ مصطفى الزرقاء واللواء الركن محمد شيت خطاب من العراق ، والسيد عبد العزيز العلي من الكويت ، والدكتور عبد الحليم محمود من مصر ، وكذلك الدكتورة بنت الشاطىء ، والدكتور عمر فروخ ، وقد ترأس المؤتمر السيد صالح مسعود بويصير الوزير الليبي السابق .

وقد اتخذ المؤتمر من القرارات أنواعا ثلاثة :

1) قرارات عامة
2) قرارات خاصة بنشر الدعوة الاسلامية
3) قرارات خاصة بالداعية الاسلامي

ومن المقررات العامة :

تكوين هيئة عامة دائمة للمؤتمر مقرها ليبيا .
انشاء صندوق للدعوة الاسلامية .
الوقوف الى جانب حق الشعب الفلسطيني فى وطنه .

ومن المقررات الخاصة بنشر الدعوة :

المطالبة بنشر اللغة العربية بين ابناء الدول الاسلامية .
وتفسير القرآن الكريم تفسيرا ميسرا ، وترجمة هذا التفسير .
تاليف ونشر الكتب الاسلامية .
العناية بالتربية الاسلامية فى التعليم .
وعلى الحكومات الاسلامية أن تراعي وضوح الخط الديني فى السياسة ، وتامين حرية وحماية الدعوة الاسلامية .
تقنين التشريع الاسلامي .
اختيار الملحقين الثقافيين فى السفارات الاسلامية ممن يهتمون بالدعوة الاسلامية .

ومن القرارات الخاصة بالداعية المسلم :

وقد اشتملت هذه القرارات على :

اعداد الداعية ــ صفاته ــ واجباته ــ ما يجب له ــ الدعاة الحاليين .

واستمر المؤتمر فى اجتماعات متوالية حيث اعلن فى الاخير كبار علماء العالم الاسلامي ما توصلوا اليه من توصيات وقرارات ايجابية ...

وقد مثل المغرب فى هذا المؤتمر الدكتور المهدي بنعبود والاستاذ محمد داود ... وقد اناب المؤتمرون الاخ الدكتور المهدي بنعبود ليلقي باسمهم ونيابة عنهم كلمة الافتتاح ، وكانت هذه النيابة بالاقتراع مرتين من طرف المؤتمرين حيث رشح البعض الاستاذ السيد حسن الباقوري من ج. ع. م. لكن الاستاذ السيد المهدي بنعبود فاز فى المرة الثانية والاولى بخمسة وعشرين صوتا ضد سبعة عشر صوتا لفائدة الاستاذ الباقوري ...

واثر ذلك قام السيد ابن عبود ورحب فى كلمته ألقاها باسم المدعوين بفكرة المؤتمر ثم قال :

« بعد الاجتماع المغلق مساء البارحة حمدنا الله سبحانه وتعالى على أن هدانا الى عمل اخذ نوعه يندر شيئا فشيئا فى هذا العصر .. عصر التناقض والفتنة .. وهو العمل الخالص لوجه الله العليم بذات الصدور لانه هجرة الى الله ورسوله من جديد علما من كل واحد منا ان معيار النجاح هو احقاق الحق بالحق على أساس الايمان والاعمال الصالحة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر اهتداء بكتاب الله وسنة رسوله .

ان العالم اليوم ينقسم الى قسمين :

قسم يطلق عليه متخلف ماديا ومعنويا فلا هو بمتاع الدنيا ولا هو بخير الاخرة انتظارا لحساب الله، وقسم متخلف معنويا مع تمتعه ببعض من الترف والرفاهية التي ادت به الى السأم والقلق والبؤس النفساني والشقاوة الروحانية مع الطغيان والجور على الغير البريء .

واصبح هذا العالم الذي يتبجح بالتقدم بالحقيقة عالما متخلفا شاعرا بانه فى اشد الحاجة الى نور يهديه الى صراط مستقيم .

وفى القسم الاول فرع ذو شان وهو فى غفلة عن الامانة التي يحملها والتي تنتظر كالكنز المدفون من يحسن التصرف بها ويؤدي الرسالة لخير البشرية برمتها وهذا الفرع هو الامة الاسلامية .

وبناء على التخلف العام الذي تقهقرت اليه البشرية فى (جاهلية) جديدة فانه من الواضح ان العالم بأكمله اصبح يدور فى الفراغ العقائدي والشيطان يزين له اعماله ويوهم له انه اكتشف عقائد حديثة تغنيه عن الخرافات القديمة ، وينصب له الحبائل كسراب بقيعة على شكل الشعارات السياسية والاقتصادية تكتب عليها عناوين خادعة كالراسمالية والشيوعية والفوضوية والنازية والفاشيستية والوجودية .. الى غير ذلك .

لانه كلما فرغ القلب من الايمان القوي الثابت الصادق ملاه الشيطان بخداع العناوين .. (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) .

والادهى من هذا هو أن هذا العالم يظهر الغالب فيه فى ضلال مبين رغم بهرجة الترف والقوة الطاغية والمغلوب أو الضعيف يقلده بحكم قانون المحاكاة فاذا سقط الغالب فى البئر تبعه المغلوب باسم الرقي والتقدم .

لكن الحرية الصادقة هي فى استقلال العقل وانارته بالشرع لاحياء الكنز المدفون . فان الفترة التاريخية التي يجتازها العالم اليوم اقامت البرهان على تحويل خطير فى الفكر البشري وهو أن صراع الامم انتقل من شكله القديم فى الغزو والحروب لاستعمارية الصريحة الى شكل جديد يسمونه تمويها بالصراع العقائدي الذي يتفرع الى معسكرات أهمها اربعة :

واحد منها صادق امين .. والباقي على ضلال ويطلق عليها التيارات العقائدية الحديثة .

اولا : التيار الراسمالي .

ثانيا : التيار الماركسي (وكلاهما من منبع واحد بشهادة اصحابهما ، يقول : (وينبغي أن نكرر هذا فى كل وقت وحين) احد الكتاب علامته فى اسمه (كدمي كوهين) .. فى كتاب عنوانه (الرجل) .. يقول ما نصه ترجمة الى العربية :

(ان اسم تروسكي .. (يعني اقصى اليسار).. واسم روتشلد (يعني الراسمالية المتطرفة) .. يمثلان تموجات العقلية اليهودية .. ويضيف بين هذين المعلمين : تتقمص الجماعة كلها فى القرن العشرين .. والحضارة كلها فى القرن العشرين).. انتهى كلامه ولا يحتاج الى شرح .

فالتيار الاول : التيار الراسمالي .. والتيار الثاني : التيار الماركسي .. والتيار الثالث : أبوهما معا التيار الصهيوني ..

والتيار الرابع : كما يقول أحد الفلاسفة الغربيين اسمه (هيرمان دو كزرليج Herman de Keyserling فى كتيب صغير اسمه (العالم الناشيء) (رغم تمزق رقعته .. ورغم ضعفه المؤقت ، هذه هي عباراته — هو التيار الاسلامي الشامل) لكن المشاهدة النزيهة المجردة اوضحت للخاص والعام أن ارقى الناس ماديا اشقاهم معنويا .. بكثرة الانتحار وتعاطي المخدرات لاطفاء لهيب الحق المنادى من قلوب البشر والفسق والفجور كسبات ونهج للقوة المنادية بداعي الحق . ثم انه لم يعبد العجل الذهبي فى اي زمن من الازمان مثلما هو معبود اليوم فأصبح الاقتصاد أو العجل الذهبي هو اله العصر والابناك مساجده واجهزة الوعظ والارشاد هي الاشهار فيه وظهر جاليا للعيان أن الخطط السياسية والاقتصادية من ماركسية وصهيونية

وراسمالية او التيارات الفلسفية كيفما كان شعارها ليست بالمعنى الصحيح العميق لا عقائد ولا مذهب شامل او بحسب التعبير الحديث الذي يمجه ذوق الاسلام ولكنه كالهم الذي لا يفارق ولا يوافق اعشي الايديولوجية .. ظهر للعيان بانها ما هي الا تصميمات وتدابير مؤقتة بعيدة كل البعد عن ارضاء النفس البشرية والاستجابة لداعي الحق في الميادين الجسمانية والنفسانية والروحانية . واخذ يتجلى للباحثين ان الانسانية ما فتئت تبحث عن نظام او مذهب او ايديولوجية او عقيدة جامعة مانعة تتصف بالشمول لتوحيد البشرية واسعادها .

نظام ينبغي ان يبنى أولا على العلم بفروعه الايمانية والعقلية والشرعية والصناعية مثل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا الى غير ذلك .

ولا اجل في هذه النقطة الاولى من كون الدين الحنيف الذي لا يعتبر بالطبقات (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) يعترف باثنين ويقول : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

ثانيا : يبنى على ناموس للسلوك الفردي لتبادل المعرفة بين الله عن طريق الوحي للبشر ومعرفة الانسان ربه عن طريق نفسه وعن قوانين للسلوك الاجتماعي على اساس خلق البشرية كلها من نفس واحدة، وعن سياسة اقتصادية لا يعبد فيه العجل بعد بزوغها كشمس اشرقت على من هم في سراب بقيعة، وعن سياسة للدولة والحكومة قائمة على الحكم بما انزل الله لان العقل البشري يعترف باستطاعته على تحصيل بعض العلوم ولكنه بتواضعه اي برفعته في نفس الوقت يعترف بأن الله سبحانه وتعالى هو المتصف بالكمال المطلق وان اجنحة البشر تحتاج الى قوة الهية فوق طاقتها وهو الوحي ويبنى على الايمان بوحدة النفس البشرية في سياسة دولية تحترم الكرامة الانسانية عن طريق النزاهة والاخلاص والعمل لله بقولها الانسان يتأثر لان هذه الالفاظ اصبحت فارغة اليوم تملاها شعارات كلها سراب ويتالم المؤمن من تقلب الشر على الخير امتحانا للمؤمنين والخير في ايديهم وهم غافلون) .

واخيرا يبنى على احترام الحرية التي لا تترعرع الحياة العقلية والثقافية الا ضمن نظامها وتحت رعايتها وعكس ذلك تنطفىء الحركات الثقافة والعقلية وتموت بطمس هذه الحرية والتضييق عليها .

شــروط الدعــوة

هذا هو الكنز المدفون لكن الله سبحانه وتعالى حافظ على الذكر وهو يحرك القلوب في أنحاء المعمور كلها لقيام الدعوة من جديد ؛ وهذه الدعوة لها شروط :

اولا : ضرب المثل بتكوين دولة اسلامية دستورها القرآن وهدى الرسول لان الله سبحانه وتعالى يسال الداعية لا مستفسرا (فهو بكل شيء عليم) ولكن منبها من خاف مكر الله .. ومحرضا (يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) .

الشرط الثاني : العمل لوجه الله على مناهج وبركة ما يسمى عندنا بصدقة سر حيث لا تعرف اليد اليمنى ما تعطيه اليد اليسرى او العكس وعلى مناهج التجرد طبعا (وبالتخطيط) على الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان خصوصا في الميدان العسكري

و لشرط الثالث: الاستنارة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم سواء في ميدان الاستراتيجية او في ميدان التطبيق وفيها استجابة لله وللرسول اذا دعانا لما يحيينا ومن منة الله وفضله على الامة الاسلامية ان قام فيها رجل لا هو بالنبي ولا هو بالمرسل ليقيم البرهان على ان الدوله الاسلامية ليست بالصورة الخيالية ولا بما هو فوق طاقة البشر وفي ظرف زمن وجيز لا يتعدى سنتين وخمسة اشهر .. قامت الدولة فيه على أساس الكتاب والسنة وراس الحكمة (مخافة الله) وانتشر فيها الامن والعدل والرفاهية وذهب عنها الظلم والخوف والاستبداد واصبحت اية من آيات الله .. نبراسا ورحمة بالمؤمنين .. وتشجيعا لهم على ان الاعمال بالنيات .. وان لكل امرىء ما نوى (يطبق على المسلم وغير المسلم) الا وهو عمر بن عبد العزيز الذي لم يستلهم نهجه لا من وحي ماركسي ولا من وحي روتشلد ...

الاول من نوعــه

ان هذا المؤتمر طبعا هو الاول من نوعه في القرن العشرين وقد هدانا الله لانعقاده بسبب الشعور بالحاجة العامة اليه غير ان ما يرمي اليه قد طبقه البعض من السلف الصالح واننا سنعطي الحساب الى الله في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، فعظمة الدعوة مرتبطة بقيمة المؤمن .. وقيمة المؤمن مستقاة من عظمة الاسلام وصدق رسالته ، وهذا لا يتأتى الا اذا اصبحت حياتنا اليومية اسلامية في ايمانها بأن كل عمل عبادة حتى قبلة الاب للابن والبنت .

هذه هي الروح العربية الاسلامية المؤمنة التي تذكرنا فى ايام الرخاء بكون الرسول صلى الله عليه وسلم لما كان ياتي واحد من الخارج لا يعرفه يبحث عنه ويقول : اين هو محمد .. وهو مختلط مع جماعته ، وفى حالة الشدة : والله لو راينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

هل هناك عظمة اكثر من الحرية فى الرخاء والحرية فى الشدة .

وهذا لا ياتي الا اذا اصبحت حياتنا اليومية اسلامية فى ايمانها بان كل عمل عبادة فى المصنع .. وفى الحقل .. وفى الحكومة .. وفى التعليم خصوصا الذي يجب اعادة النظر فى برامجه وكتبه وفروعه بنفخ الروح الاسلامية فى سائر الكليات من طب وهندسة واقتصاد واجتماع واخلاق وفلسفة الى غير ذلك . الكليات التي تتالف منها الجامعة التي ينبغي ان تكون اسلامية فى مظهرها وجوهرها فى دولة اسلامية للدعوة الاسلامية حتى يبارك الله فى الاعمال فيها ، هذا مطلوب من كل مسلم على اساس التقوى (ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات)

ديـن لكـل زمـن

وفى الختام نرى الامة الاسلامية هي الوحيدة التي يمكن ان تطلق على نفسها بحق وبدون مكابرة بانها امة ذات رسالة كان الله سبحانه قدر ظهورها من جديد لمعارضة الباطل فى المذاهب العلمانية والصهيونية وساق عن طريق الوعي والاستدراج تاريخ البشرية الحاضر الى الشعور بحاجة الى توحيد البشرية تدريجيا على نظام قدر له منذ الازل ان يسمى بدين التوحيد .

(وانه لحق اليقين ... ولتعلمن نباه)،وعالمية الدين الاسلامي وشموله يجعله صالحا لكل زمن ..

بل بعض وجوهه يكون سابقا لاوانه لان البشرية التي ينبغي فى فسادها ان تتطور نحو الحق لا ينبغي للدين الصالح ان يقال عنه انه يتطور نحوها .

فخذوا مثلا مسالة الربا :

بعد الحرب العالمية الثانية تهافت المعسكران على النفوذ فى المناطق فى سائر المعمورة وتمويهما اخذوا يسلكون منهاجا يسمى بالمساعدة المالية وهي لا مساعدة ولا مالية لانها بضائع ويقولون انها لوجه الله تعالى لا تقترض فيه الا 5 ر 6 بالمائة من الربى فقام المعسكر اليساري وقال هذا اختلاس وسرقة ينبغي النزول الى الربى الذي نعترف به الى 5 ر 4 فقط ، فقامت المعسكرات الاخرى وقالت من 5 ر 6 الى 5 ر 3 ، ثم جاء ماوتسي تونج وتوجه الى تنزانيا وقال لها القرض مجانا لا ربى فيه ، وهو يجهل بان هذا شرع منذ 14 قرنا واذا هذا المنهج هو فى نفس الوقت نظرا لكونه يشتمل على العلم الذي فوق طاقة البشر وعلى الحرية المفتوحة للعقول لان أمرهم شورى بينهم صالح لكل أوان وسابق للبشرية التي لم تنضج بعد حتى ترتفع الى مستواه .

فالعلم كذلك اخذ يظهر بملايين الاشعاعات التي لا تحصى لانها هي كلمات ربي ويظهر بانه صالح لكل اوان ولكل جزئية لان تزكية الناس لا تكون الا بالنيات وانه فى نفس الوقت تنتظره البشرية لانها كالايمان تعلو وتسفل فى مظاهرها الجوهرية والظاهرية وانها فى يوم ما ستفعل بفعل المسيو جوردان الذي اكتشف بانه يتكلم بالنثر اذ ستكتشف البشرية فى المستقبل بانها كما قال بعض النزهاء كجيته : اذا كان الاسلام هكذا فاننا كلنا نحيا ونموت مسلمين .

المهدي بنعبود

موقف جمال الدين الأفغاني من الحضارة الغربية

للأستاذ الدكتور محمود قاسم

لقد ادرك جمال الدين الافغاني في الثلث الاخير من القرن الماضي ان الحضارة الغربية اصبحت الحضارة العالمية ، اذ انها اتجهت ، منذ عصر النهضة، اتجاها علميا ، واتخذت الوسائل الحربية والسياسية للسيطرة على الشرق ، ثم زادت سطوة هذه الحضارة بسبب التقدم العلمي في جميع المجالات الحضارية والانسانية ، وبسبب الاتجاه نحو تقرير الحرية السياسية للافراد . وقد تحقق توسع الغزو الاوربي على حساب الشرق الاسلامي وشمال افريقية وبلاد الهند .. ولذا فقد استيقظ المسلمون على حلم رهيب ، وهو ان حضارتهم ، التي سيطرت بدورها خمسة قرون على العالم ، اصبحت لا تغني عن الشرق شيئا ، ولاسيما بعد ان تلوثت مصادرها الثقافية والدينية باوشاب وءاراء غريبة حتى اصبح التعرف على اصولها الاولى يكاد يكون من اشق الامور . ذلك ان حضارتهم الاسلامية ، التي ايقظت اوربا منذ القرن الثالث عشر ، انحرفت عن طريقها السوي ، ثم زاد انحرافها عندما فشا الجهل ، وركن الناس الى التواكل بسبب نوع من التصوف الخادع او الشرك الخفي .

ونقول ان جمال الدين فطن الى هذه الحقيقة التي لا ريب فيها ، وهي ان الشرق انما تدهور بسبب عدائه للعلم الصحيح ، وان العلم ، وما يترتب عليه من فنون علمية مثمرة ، قد اصبح غريبا ، بعد ان ضاق الشرق به وحارب ذوي النزعة العلمية العقلية . ورغم هذه الحقيقة المذهلة فان الافغاني لم يفقد الامل في نهضة المسلمين عن طريق عودتهم الى العلم والى مناهجهم التجريبية التي اخذها الغرب عنهم ، والتي نادى « روجر بيكون » منذ القرن الثالث عشر بضرورة اتباعها .. لانها هي التي تكشف عن القوانين الطبيعية ، ولان فلسفة ارسطو ومنهجه اصبحا لا يصلحان للعصر ، ولا يؤديان الى التقدم الذي انتهى اليه المسلمون بسبب اشتغالهم بالرياضة والجبر والتجارب العلمية .

ونقول ان الافغاني لم يفقد الامل قط في ان المسلمين في عصره فهموا ، او سيفهمون سريعا ، ان القديم لا يستطيع البقاء او استرجاع نضرته وحيويته الا اذا طعم بالجديد ، بمعنى ان كل محاولة يقوم بها اعوان الجمود وانصاره ، ممن يتشبثون في الواقع بتراث عصور التدهور والركود ، لن تفلح في الوقوف امام تيار الحضارة الجديدة التي قامت على العلم اساسا ، بل سوف تلقى هذه المحاولة اسوأ مصير . ذلك ان الامم لا تستطيع ، في عالمنا المتحرك، ان تعيش على القديم وحده ، وبخاصة اذا كان هذا القديم مليئا بالاخطاء والاوهام التي لا تتفق في اكثر الحالة مع الطهارة الاولى للدين الاسلامي ، وعقائده الواضحة التي تدعو الى الحرية والمساواة وتدفع الى العلم والعمل دفعا . ومما يبشر بالخير ان محاربة العلم والحرية السياسية باسم الدين غدت اسطورة لا تخدع احدا . واذا كانت الفكرة الجديدة

عن ضرورة تحصيل الثقافة العلمية اصبحت راسخة فى أذهان المسلمين منذ مطلع القرن العشرين فان الفضل فى هذا يرجع الى الافغاني . ومن علامات الصحة ان الازهر ، الذى وقف بعض علمائه فى وجه حركة الاصلاح الثقافية التى نادى بها جمال الدين وتلميذه محمد عبده ، بدات تدب الحياة فيه من جديد ، ويفسح صدره لاعداد ضخمة من ابناء البلاد الاسلامية ليجدوا فيه الثقافة الاسلامية المطهرة من الخرافات ، الى جانب الثقافة العلمية والعملية التى خصصت لها كليات الهندسة والطب والتجارة والزراعة وغيرها من الكليات .

ولا ريب فى ان ظاهرة النهضة العلمية التى دعا اليها الافغاني اصبحت واضحة ، وقد اصبحنا نشهد اليوم تفاعلا عجيبا فى كثير من البلاد الاسلامية بين الثقافة الاسلامية الصحيحة وبين الثقافة العلمية الاوربية . وفى اعتقادنا ان الغلبة ستكتب لهؤلاء الذين لا يقطعون ماضيهم عن حاضرهم ومستقبلهم ، اي لهؤلاء الذين يأخذون عن حضارة الغرب احسن ما فيها ليوفقوا بينه وبين العناصر الاسلامية الاصيلة فى العقيدة والخلق . وقد بدا هذا التفاعل الضخم يؤدي الى تطهير العقائد والعادات من كثير من الشوائب والاوهام والاراء الفلسفية الهجينة والقيم المزيفة ، اذ فطن المسلمون الى انه ليس ثمة عداء أو شبه عداء بين العقيدة الواضحة والخلق الحسن من جانب ، وبينها وبين العلم الطبيعي من جانب آخر .

انا نرى «الافغاني» يلح ، فى توضيح فكرته هذه ، الالحاح كله حتى تنفذ الى عقول معاصريه الذين بلغ بهم اليأس غايته ، حتى ظنوا انهم لن يستطيعوا السير فى طريق النهضة العلمية الصحيحة. لكن هذه الفكرة ، التى دعا اليها والتى تؤكد لنا انه لن تقوم للمسلمين قائمة الا بالعلم ، اصبحت من البداهات فى عصرنا هذا . وهو لا يريد بالعلم هنا ذلك العلم المتحجر الذى كان يطبع عقول شبان المسلمين بطابع الجمود وضيق الافق والذى تتميز به عقلية العصور الوسطى ، بل العلم الاسلامي الانساني فى عصور القوة .. والعلم الطبيعي الذى كان للعرب وللمسلمين بصفة عامة اكبر الفضل فى وضع اسسه . فالعلم ، الذى يحتاج اليه المسلمون، الى جانب معرفتهم بعقائدهم المطهرة واخلاق القرءان التى لا تضارعها اخلاق اخرى، هو العلم الذى يكشف عن قوانين هذا الكون ويتجه الى تسخير الظواهر الطبيعية وقواها لصالح الانسانية ، والذى يستطيع تجديد حيوية الامة الاسلامية ويساعدها على العودة الى المصادر الاولى التى استغلقت على افهام كثير من ابنائها ، مع انها اكثر وضوحا وبداهة مما الفه اهل الجدل واللجج فى خلال عصور التدهور . وتلك حقيقة يعرفها حق المعرفة من تخصصوا فى دراسة التراث الاسلامي فى جميع فروع الدراسات الانسانية .

ومع هذا ، يجب ان نشير الى أن احد الكتاب المعاصرين ظن ان الافغاني كان رجعيا ، وانه حارب الحضارة الغربية ، لانه حاول الوقوف امام العلوم الطبيعية لانها علوم اوربية ، ونخشى ان يكون هذا الراي نتيجة للتسرع فى البحث ، حتى لا نقول انه اوحى اليه به من بعض من يحاربون الفكر الاسلامي فى عصوره المختلفة قديمة او حديثة بشتى الوسائل. وايا ما كان الامر فانا لا ندري كيف خدع هذا الكاتب فى فهم حقيقة موقف الافغاني من العلوم الحديثة ، مع انه موقف صريح واضح . ويغلب على ظننا ان هذا الكاتب ربما استنبط رايه هذا من موقف الافغاني تجاه احمد خان فى بلاد الهند ، الذى دعا الى اقتباس الحضارة الغربية بحذافيرها ، ومال قليلا او كثيرا الى مهادنة المستعمر فى الوقت نفسه . غير ان حقيقة الامر فى هذه المسالة تنحصر فى ان الافغاني لم يهاجم احمد خان الا لميله الى التعاون مع الانجليز ، مع ما نعلمه من شدة كراهية جمال الدين لهؤلاء القوم . ثم انه هاجمه لانه كان قد اخذ يؤول القرءان تأويلا يبعد به عن روحه الصحيحة ؛ وهذا هو السبب الحقيقي فى ان الافغاني تصدى له بالنقد، ونقول من جانبنا انه ربما غلا فى نقده اياه بعض الشيء .

اما فيما يتعلق بالناحية العلمية فانا نجد ان الرجلين ، على ما بينهما من خصومة ، متفقان تماما على ضرورة الاخذ بالعلوم الحديثة ، لانها السبيل الحقة الى قوة المسلمين وتحررهم ، ومن المحتمل ان يكون الامر قد اشتبه على ذلك الكاتب عندما رأى جمال الدين يحارب بعض الآراء الفلسفية الهدامة فى رسالته « الرد على الدهريين » ، مع ان هذه الرسالة ، التى قد يعيبها الاسلوب الخطابي ، الذى كان سائدا فى أواخر القرن الماضي ، بينت بوضوح فساد المذاهب الالحادية وبرهنت على وجهة نظر صادقة وجدت تأكيدا لصدقها فى الدراسات الاجتماعية فى القرن العشرين . ذلك ان « ليفي

بريل » حاول ان يضع اخلاقا تقوم على العلم لا على الدين ، ثم عاد الباحثون واعترفوا بان الصلة بين الدين والاخلاق لا تنفصم (1) .

وعندئذ فلنا ان نسأل : هل يجوز لاحد ان يتهم « الافغاني » بانه كان عدوا للتفكير الفلسفي بصفة عامة اذا هو حارب مذاهب الالحاد ، وبين ان الاخلاق ترتبط بالدين اولا وءاخرا ، او اذا برهن لرينان مثلا ، عندما لقيه فى باريس ، ان الاسلام لا يحارب العلم الصحيح ، وانما يحارب الآراء الميتافيزيقية الخاطئة او المذاهب الالحادية التي تدور منذ عهد طاليس حتى يومنا هذا فيما يشبه ان يكون حلقة مفرغة .

اما الشيء الذى نعرفه ، بناء على ما تركه الافغاني فى كتاباته أو فى عقول تلاميذه ، فشيء مختلف جدا عن هذا الذى يود بعض الناس ان ينسبه اليه ، ذلك انه يعرف للعلم الحديث قيمته . وهو لا ينكر ان تقدم أوربا يعتمد فى المقام الاول على اساس من العلم الصحيح اي العلم التجريبي ، لا على الآراء الفلسفية او على الالحاد (2) ، بل نراه ياخذ على المسلمين عامة ، وعلى رجال الدين منهم بصفة خاصة، انهم يقفون من هذا العلم موقف العداء بحجة المحافظة على العقائد والتقاليد . كذلك نعلم ان الافغاني لم يكن غرا حتى يجهل ان الدين الاسلامي هو الذى حرر العقول من الاوهام ودعا الى تحصيل العلم حتى يحقق مبداه السوي وهو الجمع بين الدين والدنيا . وكيف يجهل ذلك والقرءان الكريم يعجب لهؤلاء الذين يسوون بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون .؟ وكيف يتصور ان الافغاني كان يجهل موقف الاسلام من العلم ، وهو الذى كان لا يفتأ يكرر فى كل مناسبة ان الاسلام ليس عدوا للعقل او مناهضا له ، بل انه ليمتاز من غيره من الاديان بانه اتخذ العقل حليفا له ، ودعا الى تحصيل العلم ايا كان مصدره ؟ نقول كيف يمكن ان يناقض جمال الدين نفسه بعدائه للعلم الحديث ، وهو الذى يقول : « للعلم قشور ولباب ، فالواقف على القشور يغرق فى بحر الغرور ، والمبتديء فى اوليات العلوم يظن انه تبحر وانتهى . اما الراسخ المحقق فيعتقد انه ما زال فى الابتداء » . ثم يقول : « كل عناصر الوجود فى هذا العالم خاضعة للعقل المطلق الانساني .. فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سيكون ممكنا غدا » ، ثم يقارن بين حضارتنا وبين حضارتهم الراهنة فيقول : « الفخر بالقول المجرد يبطنه المجد بالفعل ... ثمرة العقول لا تجتني الا باطلاقها من قيود الاوهام . قيد الاغلال اهون من قيد العقول بالاوهام » .

فهل لاحد ان يزعم أن الافغاني كان رجعيا ، وانه حارب علوم الغرب ؟ حقا انه دحض بعض الآراء الالحادية التى ارادت انشاء خلق على غير اساس ديني ، وناقش انصار المذهب الوضعي وهو المذهب العلمي المزعوم الذى ساد فى فرنسا واوربا فى اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي ، ثم رجع مفكرو العصر الراهن عنه . ذلك ان هذا المذهب كان يدعي ، على لسان صاحبه « اوجست كونت »، ان العلم قد ادرك غايته ، فمن العبث ان نبحث عن القوانين الجديدة ، ومن السخف ان نحاول الكشف عن كوكب جديد ، فان هذا الكشف لا يهم سوى ساكني هذا الكوكب الذي كشف عنه ، ان وجدوا ، وانه من الافضل للعلم ان يكف عن البحث عن التركيب الكيميائي للمواد الخ ... فهل يعد جمال الدين الافغاني رجعيا ومناهضا للعلم الاوربي التجريبي لانه حارب مثل هذا المذهب ، ونادى من جانبه بان كشوف العلم لن تقف عند حد فى مجال الصناعة والطب ؟ اليس مما يطابق العقل أن نعترف له بانه كان اصدق حدسا وانفذ بصيرة من « اوجست كونت » الذى اراد ان يقضي على روح العلم عندما ضيق الخناق عليه ، والذى حاول ربط الاخلاق بالمذهب الوضعي فلم يفلح ، ولم يفلح تلاميذه ولا تلاميذ تلاميذه من بعده . لقد اراد انشاء دين جديد سماه دين الانسانية ليمسخ به الاديان السماوية ، فمات دينه قبل ان يولد .

والواقع أن الافغاني ياخذ على المسلمين فى عصره ، وربما فى عصرنا ايضا ، انهم يقتبسون هذه الآراء الفلسفية الواهية ، ويسرعون الى اختيار كل العناصر التى تزيدهم انحلالا وتدهورا ، بدلا من ان يتجهوا راسا الى اقتباس العلوم الحقيقية ، كعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والميكانيكا والطب، وهي

---

(1) مبادىء علم الاجتماع الديني اروجيه بستيد ، وقد نقلناه الى العربية . (مكتبة الانجلو المصرية)

(2) يريد بعض انصاف المثقفين من السذج ان يربطوا بين الالحاد والتقدم العلمي المعاصر . ومن العبث ان نشغل انفسنا بالرد عليهم ، فكثير من الامم المتقدمة علميا ليست ملحدة ..

علوم اساسية وضرورية للرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ومصدر للقوة الحربية .

ومما يقطع بعثرة هذا الكاتب ، الذى اتهم جمال الدين بالرجعية ، ان الافغاني نفسه هو الذى يقارن لنا بين مسالك المسلمين واليابانيين تجاه حضارة الغرب . فقد فتن الاولون بالمظاهر السطحية لهذه الحضارة او بقشورها ، وشغلوا عقولهم بالآراء الالحادية ، بينما احتفظ الآخرون بعقائدهم الوثنية ووقفوا فى طريق التبشير بالدين المسيحي، وحرصوا كل الحرص ، فى الوقت نفسه ، على تقليد الاوروبيين تقليدا صحيحا ، فاخذوا جميع علومهم ونقلوها الى لغتهم وطبقوها فى مصانعهم . ومن لغو الحديث ان نتحدث عن نهضتهم العلمية والصناعية ، رغم كارثة الحرب العالمية الثانية التى نزلت بهم ، فان ذلك شيء نسلم به جميعا .

ان سبب نهضة اليابانيين يتلخص فى انهم ادركوا ان حاجتهم الى العلوم والفنون التطبيقية اشد من حاجتهم الى الادب والفلسفة او الى الالحاد ، لانه ينبغي للانسان ان يحيا قبل ان يتفلسف . اما موقف المسلمين المعاصرين لجمال الدين الافغاني والذين احتكوا بالغرب منذ عصور طويلة فهو خلاف موقف اليابانيين ، بل نقيضه .

وهناك عوامل كثيرة ادت الى تاخر المسلمين فى نهضتهم حتى اواخر القرن الماضي . واهم هذه العوامل ، فيما نعتقد ، هو ان الاستعمار خدعهم وخدرهم عندما اوهمهم انهم اهل خيال وعاطفة ، لا اهل علم وصناعة ، وذلك رغبة منه فى القضاء لدى المسلمين على كل محاولة جدية لاقتباس العلوم الحديثة . ولقد شهدت مصر فى ايام الاحتلال كيف صرف المستعمر المصريين عن المناهج العلمية الصحيحة ، وادخل فى روعهم ان بلادهم لا تصلح للصناعة ، وبخاصة صناعة النسيج الذى يتطلب جوا انجليزيا لا مصريا . وقد سقطت هذه الشعارات والقيم المزيفة ، وفتحت ابواب التصنيع والتنمية الاقتصادية واسعة لبناء مجتمع جديد استعاد الثقة بنفسه ، واسترد روح التفاؤل الاسلامية . كذلك شهدت مصر فى ايام الاحتلال كيف اعد المستعمر طبقة من الموظفين الذين يشبهون الآلات الصماء والذين لا يقطعون براي دون الرجوع الى رؤسائهم من الاجانب ، مما تطلب وقتا طويلا لاعداد طبقة جديدة بدات تؤمن بنفسها وتستطيع اجادة التصرف

وهذا ما يفسر لنا حكمة جمال الدين الافغاني : « ان حياة اهل الشرق بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم » .

ان فكرة جمال الدين عن الاصلاح العلمي ليست فكرة عامة غامضة تحلق فى الفضاء ، بل تتسم بالعمق وتنم عن الفهم السليم . فهو يوصي المسلمين الشرقيين بصفة عامة ، بان يحرروا فكرتهم عن العلم تحريرا كاملا ، بحيث لا يكون ثقافتهم سطحية هي الى الجهل اقرب منها الى شيء آخر ، اذ لابد من ان يهدف التعليم الى الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية . ونلاحظ ان اكثر البلاد الاسلامية تقدما فى الناحية العلمية هي التي جمعت بين هاتين الناحيتين ، فكثر فيها الخبراء والمختصون فى مختلف فروع العلم . اما فى عصر الافغاني ، الذى كان عصر يقظة لا نهضة ، فاننا نجده يقول : « ولا بأس ان يعلم الطفل الحدادة والنجارة وتربية الحيوان الى جانب القراءة والكتابة والحساب، حتى يخرج رجل علم وعمل، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل ، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع به احد » . لكن تغير الامور فى عصرنا هذا ، وفى بلدنا خاصة، فاصبح الشبان اكثر اقبالا على الكليات العملية منهم على الكليات النظرية ، وبدات تقل الفصول الثانوية الخاصة بالآداب والعلوم الانسانية .

ويلاحظ جمال الدين الافغاني انه اذا وجب ان تأخذ عن الغرب علومه النظرية التى تؤدي الى فنون عملية فليس معنى ذلك ان نعتقد ان الحضارة الاوربية المادية هي المثل الاعلى .

فقد غلبت النزعة المادية على هذه الحضارة فسخر العلم للحروب واستنفاد ثروات الشعوب ، واصيب الغرب نفسه بكثير من الامراض الاجتماعية، مما دعا بعض مفكري اوربا الى القول بأن الحضارة الغربية مهددة بالخطر .

وهذا هو ما أكده احد كبار علمائه فى حديثه عن مرض الحضارة الغربية ، التى بدات تخرج على

قوانين الحياة (1). ومن قبل قال الافغاني شيئا من هذا القبيل فى أحاديثه الخاصة . وهذا ما ردده غاندي من بعده ، وما بدأ عقلاء الاوربيين يخشونه على انفسهم فى منتصف القرن العشرين ..

ومن جانب ءاخر اهتدى الافغاني الى فكرة علمية اصبحت بديهية فى عصرنا ، وهي نسبية العلم الذى لا يقف عند حد ، لا كما تخيل « اوجست كونت » عندما اتخذ معرفة عصره مقياسا لمعرفة الاجيال المستقبلة . وهو العلم الذى يتطور ويكمل مع الزمن ، اذ ان « كل ما وصل الينا من العلوم ، مع خدمة الوف الرجال لها متعاقبين .. وعلى مدى الاجيال العديدة ، لم تزل بالنسبة الى الحقائق الثابتة فيها علوما ناقصة ، او هي فى حقيقتها قشور لتلك العلوم فى غايتها وحقيقتها » .

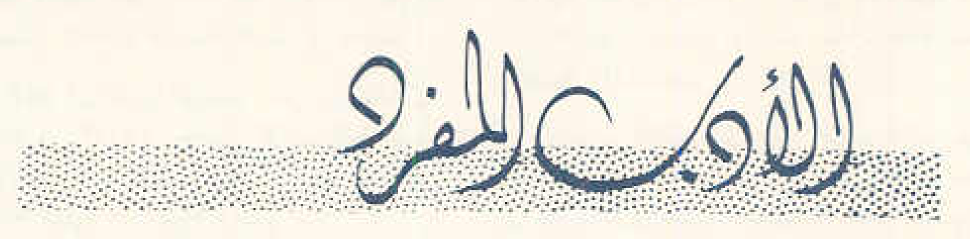
وهكذا يبدو أن الافغاني كان اكثر فهما لحقيقة العلم من هؤلاء الذين ربما اتهموه بأنه كان مناهضا للثقافة العلمية لانها غربية ، وانه عاد بالمسلمين الى الوراء ، وشغلهم عن مستقبلهم بالدعوة الى الهياج والثورة والعودة الى القديم . ولعل هؤلاء لم يقرأوا له شيئا عن اصلاحه الديني والسياسي والعلمي . فانهم لو قرأوا له لعلموا أنه أراد الثورة فى هذه الاتجاهات جميعها لانها مترابطة، اذ لا يمكن ان توجد حركة علمية قوية الا بالمال والرجال ، ولا يوجد المال والرجال فى امة حرمت حريتها وثروتها . ونقول انهم ربما قرأوا له شيئا دعاهم الى ان ينسبوه الى الرجعية . فالحق انه هاجم هؤلاء الذين يقلدون قشور الحضارة الاوربية معتقدين انهم اذا قلدوهم فى الثقافة العامة تحققت لهم شروط القيام بجلائل الاعمال . فالافغاني يقول فى شأن هؤلاء : « وربما وجد بينهم افراد يتفيقهون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة مبتورة ، لا تعرف غاياتها ولا تعلم بداياتها ، وسموا انفسهم بزعماء الحرية او بسمة اخرى على حسب ما يختارون ، ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم . فقلبوا اوضاع المساكن والمباني ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وتنافسوا فى تطبيقها على اجود ما يكون منها فى الممالك الاوربية وعدوها من مفاخرهم » .

اما هؤلاء الذين فهموا مناهج جمال الدين الافغاني فى الاصلاح فهم الذين عنوا ، فى جميع الاقطار الاسلامية التى ارادت ان تتحرر بالفعل من سيطرة الغرب ، بأن اتجهوا مباشرة الى العمل فى ميدانين وهما الاصلاح الديني ثم الثورات المسلحة، واخيرا فتح لهم الميدان الثالث وهو ميدان العلم الصحيح الذى سيكون اهم العوامل فى القضاء على النفوذ الغربي فى هذه المنطقة ، ومما يعجل بفتح الميدان الثالث هو ان توجد اعداد هائلة من هؤلاء الذين يجمعون بين خير ما فى القديم والجديد ، أي من هؤلاء الذين يحصلون العلم دون ان ينسوا اصولهم وتراثهم القومي الاسلامي .

القاهرة : دكتور محمود قاسم

---

(1) انظر كتاب الكسيس كارل ..
وهو كتاب نشر بعد وفاته، وترجمه الدكتور محمد محمد القصاص منذ عشر سنوات الى اللغة العربية .



تقديم : الشيخ المفتي ضياء الدين خان ابن ايشان خان

رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان

تسلمنا بيد الشكر والتقدير في الايام الاخيرة ، من السيد المفتي الشيخ ضياء الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان كتاب «الادب المفرد» لامام المحدثين أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الذي تم طبعه بالاوفست في شعبان الاخير 1390 بمدينة طشقند ...

وقد قررت الادارة الدينية طبع هذا الكتاب ، نظرا الرغبة الاكيدة التي يبديها مسلمو هذه الديار ، ليكون مادة تدريس في المعاهد الدينية بمدن ما وراء النهر ...

ومما هو جدير بالذكر ان مسلمي بلاد التركستان قد قرروا في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في طشقند في الآونة الاخيرة أن يحتفلوا بمناسبة مرور 1200 عام على ميلاد الامام البخاري ، وذلك في عام 1394 .. وسيحضر هذا الاحتفال جميع علماء العالم الاسلامي ...

وقدم لكتاب « الادب المفرد » في طبعته الجديدة الشيخ ضياء الدين بابا خانوف ، ومما جاء في هذا التقديم ...

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله ، واصحابه المتمسكين بسنته السنية الذي قال (تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه) .

اما بعد : من المؤكد لدى كل مسلم ان الاحاديث النبوية بعد الآيات القرآنية تعتبر من اهم اسس الدين الاسلامي . ومن اصح الكتب في السنة هي الكتب الستة التي تضم الاحاديث الصحيحة النبوية الشريفة. وان العلماء اجمعوا على أن اصح الكتب بعد كتاب الله هو صحيح البخاري ثم الكتب الاخرى الداخلة في الصحاح الستة . والاحاديث التي وردت في هذه الكتب الستة هي قول رسول الله يقينا .

وان العمل بالاحاديث النبوية ليس بمقصور ، كما يقول البعض ، على شخص او مكان أو زمان وانما هي صالحة لكل شخص ومكان وزمان وليس لاحد حق في ان يمنع شخصا أو يحرمه من التمسك او العمل بالسنة ولان علماء السلف الصالحين كانوا يطبقون الاحاديث في جميع مجالات الحياة ويتسابقون فيما بينهم في العمل بها .

ومن المقرر كذلك انه في العمل بالقرءان والاحاديث لا يشترط ان يكون الشخص مجتهدا بل ان معرفة مضمون الآيات القرءانية والاحاديث النبوية بمساعدة اللغة العربية كافية لكل مسلم . لان الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم قد شرح مبادىء الدين واحكامه بمنتهى الوضوح بحيث يفهمه كل واحد .

ومن الشروط التي تساعدنا في فهم الاحاديث هي المعرفة التامة باللغة العربية ، كما قلنا ، ومعرفة قواعدها واستعمال الفاظها قديمة كانت او حديثة .

وجاء في الآثار ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يوصي أمراءه في الاقطار بحفظ الادب الجاهلي واتقان اللغة العربية ، كما كان يأمرهم بالعمل بفرائض الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك يشترط في معرفة الاحاديث الالمـام بترجمة المحدثين وعصرهم الذي عاشوا فيه . ومن الضروري لمن يشتغل بدراسة الاحاديث ان يعرف أيضا أسماء الصحابة والرواة والقابهم وقبائلهم وعصورهم وتاريخ ولادتهم ووفاتهم .

انتشار الاحاديث النبوية في بلاد ما وراء النهر

بعد ما استقر الدين الاسلامي في ارجاء هذه البلاد اخذ يزداد عدد المحدثين ورواة الاحاديث الذين تركوا للاجيال التي فيما بعدهم علوما جمة من اساليب رواية الحديث . ولا شك ان من اعظم المحدثين للقرن الثالث الهجري كان فخر الامة الامام محمد بن اسماعيل الذي ولد عام 194 في مدينة بخارى وتلقى علومه الاولية فيها ، ثم قضى جل حياته في طلب الحديث مترددا بين مختلف المدن للعالم الاسلامي كخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر وغيرها ، حيث اجتمع خلالها بالمحدثين الكبار ورواة الحديث في ذلك العصر وبفضل موهبته الالهية وقدرته العظيمة كان قد بلغ المرتبة العالية في معرفته لاحاديث الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم كما يروى ان الامام البخاري اجتمع في مجموع اسفاره ورحلاته الى ما يزيد على الف من المحدثين ورواة الحديث واخذ عنهم عشرات الآلاف من الاحاديث النبوية الشريفة . وقد اخذ الامام البخاري الحديث كذلك لدى الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه .

ويروى انه حينما وصل في آخر حياته الى بغداد احاطه عدد كبير من المحدثين وجرى بينه وبينهم – ما هو مذكور في الكتب – من الامتحان والمناقشات في علوم الحديث ورواته ، فاعربوا عن اعجابهم الكامل بمعرفة الامام البخاري بالاحاديث النبوية .

وان معاصري البخاري كانوا على اعجاب من انه كان يحفظ حوالي مائة الف حديث صحيح وحوالي مائتي الف من الاحاديث دون ذلك ، وان ائمة المحدثين كالامام مسلم والامام الترمذي وغيرهما اخذوا الحديث عن الامام البخاري وكانت مجالسه غاصة بالمئات من الطلبة والمستمعين .

وان الامام كان على جانب عظيم من الاخلاق السنية . وانه حينما بلغ آخر حياته عاد الى مسقط راسه بخارى حيث احاط به عدد كثير من محبي الحديث واخذ يروي لهم الاحاديث فدعاه امير بخارى خالد بن احمد اليماني وأمره ان يحدث ابنائه في القصر ولكن الامام البخاري رد طلب الامير . وهذا ما بعث الامير الى نفي الامام البخاري من المدينة فتوجه الامام الى جانب سمرقند بطلب من اهاليها ، ولما وصل الى قرية خرتنك على مسافة غير بعيدة منها توفاه الله في سنة 256 هجرية في آخر شهر رمضان المبارك وقبره الان معمور بالزوار وهو تحت رعاية الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان .

مؤلفات الامام البخاري

من مؤلفات الامام البخاري : « الجامع الصحيح » و « والادب المفرد » و « أسماء الصحابة » و « كتاب افعال العباد » و « كتاب بدء المخلوقات » و « كتاب بر الوالدين » و « كتاب الثقاة والضعفاء » و « تاريخ بخارى » و « كتاب الثلاثيات » و « الجامع الكبير » و « كتاب خلق افعال العباد » و « كتاب القراءة خلف الامام » و كتاب الكنى » و كتاب الهبة » و « كتاب المسند الكبير » وغير ذلك .

الادب المفـرد

وقد سمى الامام البخاري احد ابواب الجامع الصحيح « بكتاب الادب » واورد فيه الاحاديث المتعلقة بالاخلاق والآداب الاجتماعي بما يربو على ثلاثمائة حديث في 168 باب . ولكن سعة هذا الموضوع الديني الاجتماعي قد اقتضت ان يفرد له كتاب خاص ، فالف كتابه الشهير « الادب المفرد » وجمع فيه 1366 حديثا في ستمائة واربع واربعين بابا . وتمسك في تاليفه باسلوب كتابه « الجامع الصحيح » وبوب فيه الاحاديث حسب مواضيعها وآثار الصحابة واورد عند بعض الاحاديث آيات من القرآن الكريم .

— * —

وقد انجب بلاد « ما وراء النهر » عددا لا يحصى من العلماء العباقرة فى مجالات شتى من العلوم والآداب وخاصة اشتهر هذا البلد بعلمائها الافذاذ فى علم الحديث والتفسير والفقه واصول الفقه واللغة العربية. ونشكر الله عز وجل . بان اسماء هؤلاء العلماء الاجلاء العظام لا تزال تذكر بكل تقدير فى صفحات التاريخ ويشغل مكان الصدارة فى صفوف هذه العباقرة الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (194 ، 254) امام المحدثين وفخر الامة الاسلامية جمعاء . والحافظ ابى عيسى الترمذي من ترمذ (259 — 279 ﻫ) . والامام الحافظ أبو بكر محمد بن علي القفال الشاشي من طشقند (291 — 366 ﻫ) وابو اسحاق ابراهيم المروزي (المتوفى 340 ﻫ) والامام احمد بن حنبل رضى الله عنه من مرو (164 — 214 ﻫ) والعلامة احمد بن محمد الخوارزمي (484 — 593 ﻫ) والامام احمد بن شعيب النسائي (614 — 303 ﻫ) وابو بكر بن عبد الله الدبوسي البخاري (المتوفى 470 ﻫ) والشيخ الرئيس ابو علي ابن سينا البخاري (370 — 430 ﻫ) وابو الريحان البيروني الخوارزمي (626 — 443 ﻫ) وأبو النصر بن ترخان الحكيم الفارابي الاتراري (المتوفى 339 ﻫ) والمفسر الشهير العلامة أبو القاسم محمود الزمخشري الخوارزمي (467 — 538 ﻫ) وغيرهم ممن خدموا الاسلام و المسلمين وتركوا آثار جليلة ، يرحمهم الله تعالى جميعا . ولا يفوت الاذهان ، ان هؤلاء العلماء كانوا يمتازون بشدة التمسك والاعتصام بالقرءان الكريم والسنة والدعوة اليهما فحققوا كثيرا من الفوز والنجاح فى هذا السبيل وبفضل مجهودهم الجبار نشأ بعدهم علماء تركوا آثارا ثقافية ودينية ضخمة .

ولكن حينما ننظر الى ثلاثة عصور مضت قبلنا نجد ان آثار هؤلاء العلماء الاجلاء العظام اصبحت مرفوضة وصار العلم عبارة عن التقليد المحض ، والشرع الاسلامي أصبح آلة فى يد الامراء والملوك فى هذا البلد فاصبحوا يستخدمون مبادئها الغراء فى منافعهم الشخصية ومصالحهم الخاصة وادنوا من انفسهم رجال الدين المزيفين وابعدوا عنهم العلماء المحدثين وهكذا اصبح الاسلام غريبا فى بلده ، فضل الناس بضلال علمائهم وعم البلاد البدع والخرافات والنزاع المذهبي ، وانحصر تدريس العلوم الدينية على كتب الفقه والاصول والمنطق وعلم الكلام فحسب ، والعلماء كانوا يبثون بين المسلمين روح التعصب المذهبي . ولو ان بعض المدارس الدينية ببخارى وسمرقند وطشقند كانوا يدرسون التفسير لبعض الايات والاحاديث ولكنها هذه أيضا كانت تدرس لاجل دراسة الاساليب النحوية والبلاغية لهذه الايات والاحاديث. وظهرت ادعاءات بين العلماء فى انه «لا يجوز ترجمة الآيات القرآنية الى لغات اخرى وكانوا يدعون « ان المجتهدين من السلف قد هيئوا لنا كل شىء ولا يجب على الخلف ان يجتهدوا » وبل ذهبوا الى حالة بحيث كان العلماء ينكرون على شخص « يجرؤ على دراسة معاني الايات الكريمة والاحاديث النبوية ويتهمونه بانه مارق من الدين .

هكذا كان الحال حينما قدم الى هذا البلد فى اواخر القرن الماضي المحدث الجليل السيد علي بن عبد الظاهر الوتري المدني الذي انعش روح الحب والعمل بالاحاديث بين علماء ما وراء النهر ، ثم تلاه العالم الجليل عام 1910 م وهو المحدث الكامل والعالم الشهير الشيخ سعيد بن محمد العسلي الطرابلسي استاذي واستاذ كثير من العلماء المحدثين ، واخذ العلماء يتلقون علومهم من الحديث والايات عند هذا الاستاذ الجليل ويبلغون مبادىء القرءان والحديث الى افكار عامة المسلمين فى ارجاء البلاد فاخذوا يسلكون الطريق القويم فى تمسكهم بمبادىء الدين الاسلامي .

ويجدر بنا ان نقول ان الورثة الحاليين لامجاد البلد بفضل عملهم الدائب واجتهادهم المثمر اصبحوا يدخلون فى كافة مجالات العلوم العصرية مثل الكيمياء ، والتكنيك والرياضيات وغيرها وكسبوا شهرة عالمية منهم يوسف وعبد الله يف وغيرهما كثير .. والله ذو الفضل العظيم .

ونظرا الى الرغبة فى معرفة الاحاديث بين مسلمي بلادنا التي تزداد عاما بعد عام قررنا ان نطبع هذا الكتاب « الادب المفرد » للامام ابي عبد الله اسماعيل بن محمد البخاري كي يكون أيضا مادة تدريس للاخلاق الكريمة والاداب الاسلامية فى معهدنا الديني بمدينة بخارى والله ولي التوفيق .

طشقند : المفتي الشيخ ضياء الدين خان
ابن ايشان بابا خان

الحكم الشرعي بين مختلف المذهب

للمرحوم الأستاذ محمد الصائغ

(فتوى) فيما لو قال مجتهد شافعي لمجتهدة حنفية انت بائن ، ثم قال راجعتك والرجل يعتقد الحل والمراة تعتقد الحرمة وفيما لو تزوج مجتهد امراة بغير ولي ثم تزوجها بعدها مجتهد بولي لانه يرى صحة نكاحه بطلان الاول ، قال العضد بوجوب اتباع الحكم للموافق والمخالف وقد نص على هذه المسالة ايضا السيوطي فى كتابه : « **الرد على من اخلد الى الارض، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض** » واليك كلامه ولهذه الغاية سقناه لا للاحتجاج على الفقه المالكي فى المسالة ولما فيه من ايضاح ما عند ابن الحاجب قال

ابن السبكي فى شرح منهاج البيضاوي : « اذا نزلت بالمجتهدين حادثة لا يمكن الصلح فيها ، كما اذا كان الزوجان مجتهدين فقال لها انت بائن مثلا من غير نية الطلاق فراى الزوج ان اللفظ الصادر منه كناية

فيكون (بياض بقدر كلمة ولا شك انها كلمة «الارتجاع» بدليل كلام المستصفى بعده) باقيا ورآته المرأة صريحا فيكون الطلاق واضحا فللزوج طلب الاستمتاع بها ولها الامتناع منه ، وطريق قطع المنازعة بينهما ان يرجعها الى مجتهد ثالث ، فاذا حكم بشيء وجب عليهما

الانقياد اليه ، والمسالة مذكورة فى المستصفى للغزالي ، وعبارته : «اذا نكح مجتهد مجتهدة ثم قال لها انت بائن وراجعها ، والزوج يرى الرجعة والزوجة ترى الكنايات قاطعة الرجعة فتسلط على مطالبتها بالوطء، وجب عليها منعه ، فاذا نشب الخصام بينهما احتمل وجهين : (1) احدهما ان تقول يلزمها الزوج الى حاكم مجتهد فان قضى بثبوت الرجعة لزمها تقديم اجتهاد الحاكم على اجتهاد نفسها وحل لها مخالفة اجتهادها اذن اجتهاد الحاكم اولى من اجتهادها لضرورة دفع الخصومات ، فان عجزا عن حاكم مجتهد فعليهما تحكيم مجتهد فان لم يفعلا اثما وعصيا ، ويحتمل ان يتركا متنازعين ، ولا يبالي بتنازعهما ، فانه تكليف بنقيضين فى حق شخصين فلا يتناقض ، وقد افاد ما سلف من

النصوص ان حكم الحاكم يحل ولو كان خلاف ما يعتقده المحكوم ، والمسالة ذات خلاف فالذى عليه ابن شاس وابن الحاجب انه لا يحل ، والذى عليه ابن عرفة انه يحل ، قال وهو مقتضي المذهب ، وقال فى نقل ابن شاس لا اعلم له مستندا الا ما فى الوجيز للغزالي وتعقبه البناني بالقصور لوجود مثله فى النوادر ، واليك نصوصا فى ذلك قال ابن الحاجب ولا

يحل القضاء حراما كمن اقام شهود زور على نكاح امراة فحكم له بذلك . وكذلك لو حكم الحنفي للمالكي بشفعة الجوار (التوضيح) ومما ذكره من قوله وكذلك لو حكم بالنفي ظاهر التصور ، ونقله ابن محرز عن

---

1) ويظهر انه اذا كان يمكن التوفيق بين المذهبين فانه يدعى اليه اولا كاشتراط الشافعية معينات الالفاظ فى النكاح بان يكون بلفظ الانكاح والتزويج دون المالكية فانهم يكتفون باللفظ الاعم ، ابن عاصم ، (فالصيغة النطق بما كانكحا ✻ من مقتض تابدا مستوضحا) فيدعي المالكي ان ياتي باللفظ الاخص ليتفق المذهبان .

ابن الماجشون الى فسخ حكمه ومثل ذلك الحكم بالشفعة للجار وتوريث ذوي الارحام وترك الحكم بالشاهد واليمين ، قال وخلاف اهل العراق في هذا ظاهر ، وهي من المسائل التي شرع فيها الاجتهاد وقد ذهب جماعة الى توريث ذوي الارحام من الصحابة والتابعين ولا ادري ما هذا وقد ذكر ابن حبيب عن ابن عبد الحكم ان القاضي اذا حكم بخلاف كائنا ما كان انه يمضي ولا يرد ، وهذا هو الصواب ، ولذلك استشكل ابن عبد السلام النقض في مسئلة شفعة الجوار ، قال لان ما تقدم الظاهر فيه مخالف للباطن ولو علم القاضي بكذب الشهود ، لما حكم بهم اجماعا بخلاف مسئلة الشفعة فانها مختلف فيها وحكم القاضي يرفع الخلاف ، فيكون كالمجمع عليه ، وما هذا سبيله يتناول الظاهر والباطن ، والذي قلناه هو ظاهر كلام السيوري في بعض مسائله ، قال وعلى هذا لو غصب غاصب شيئا فنقله مكان الغصب وكان مما اختلف فيه هل يفوت بنقله ام لا فقضى القاضي لربه باخذه ، وكان مذهب ربه انه يفوت وتجب فيه القيمة فينبغي على هذا ان يكون له التصرف فيه، وقال ابن غازي على قول المصنف لا احل حراما ، قال ابن الحاجب في تمثيله كما لو اقام شهود زور على نكاح امراة فحكم له به ، وكذلك لو حكم الحنفي للمالكي بشفعة الجوار ، اما المثال الاول فظاهر واما الثاني فقال ابن عبد السلام يعني بانه لا يحل للمالكي الاخذ بهذه الشفعة ، لانه يعتقد بطلان ما حكم لديه القاضي فيعود الامر فيه الى ما قبله هكذا قالوا وليس بالبين لان ما تقدم الظاهر فيه مخالف للباطن ولو علم القاضي بكذب الشهود لما حكم به اجماعا ، وفي هذه الصورة القاضي والخصمان يعلمون من حال الظاهر ، والمسئلة مختلف فيها ، وحكم القاضي يرفع الخلاف فينزل ذلك بعد ارتفاع الخلاف منزلة الاجماع ، وما هذا سبيله يتناول الظاهر والباطن والذي قلناه هو ظاهر كلام السيوري في بعض مسائله ، وعلى ما قاله ابن الحاجب لو غصب الغاصب شيئا فنقله عن مكان الغصب وكان مما اختلف فيه هل يفوت بنقله ام لا فيقضي القاضي لربه باخذه ، وكان مذهب ربه انه يفوت وتجب فيه القيمة فينبغي على هذا ان لا يكون لربه التصرف فيه ابن عرفة ظاهر قوله هكذا قالوا مع عزوه ما ظهر له من خلاف ذلك للسيوري ان المذهب هو ما قاله ابن الحاجب تبعا لقوله ابن شاس انما القضاء اظهار لحكم الشرع ولا اختراع له ، فلا يحل للمالكي شفعة الجوار ان قضى له بها الحنفي وليس كذلك بل مقتضى المذهب ، قال المازري في اتباع الشافعي بالمالكي وعكسه الاجماع على صحته واعتذر من قول اشهب ان من صلى خلف من لا يرى الوضوء من القبلة يعيد وفي كتاب الزكاة، من المدونة ان لم يبلغ حظ كل واحد من الخليطين ما فيه الزكاة ، وفي اجتماعهما ما فيه الزكاة فلا زكاة عليهما ، فان تعدى الساعي فاخذ من غنم احدهما شاة فليترادا فيها على عدد غنمهما قلت، فتحليه لمن اخذت الشاة من غنمه الرجوع على خليطه بمنابه منها ، نص في صحة عمل المحكوم عليه بلازم ما حكم به الحاكم المخالف لمذهب المحكوم عليه فأحرى اذا كان نفس ما حكم به له ، ولاسيما على القول بأن كل مجتهد يصيب واتباع ابن الحاجب لابن شاس في ذلك قصور ، ولا اعلم لابن شاس فيه مستندا الا اتباع وجيز الغزالي ، وهذا لا يجوز له لانه انتصب للنقل عن المذهب فلا ينسب اليه ما ليس منه ، واما المصنف في التوضيح فقال قول ابن الحاجب ، وكذلك لو حكم الحنفي في نقله ابن محرز عن ابن الماجشون فقال ان حكم القاضي باجتهاده بقول شاذ فمذهب ابن الماجشون الى فسخ حكمه ، وذلك كالحكم بالشفعة الجاره ثم اشار الى استشكال ابن عبد السلام لما هنا، كاستبعاد المازري لقول ابن الماجشون بنقض الحكم شفعة الجار ونظائره المذكورة في المختصر قبل هذا، وفي النفس من هذا شيء ، ومقتضى كلام ابن عرفة ان التحليل والتحريم لا ينبني على امضاء حكم القاضي ونقضه فانه ذكر كل مسئلة منهما في موضعها على حدتها ، ولا اشار للملازمة بينهما فتأمله (هـ) كلام ابن غازي ملحقا ببعض ما اسقطه من كلام ابن عرفة وفي جسوس فقد نقل ذلك فقال ابن عاشور قد اطال ابن غازي وغيره في قوله لا احل حراما ، وحاصله بتقريب واختصار ، ان الحرام الذي يحله قضاء الحاكم قسمان ما احله لاقتضاء ظاهره الحلية وباطنه محمل بخلاف ذلك وما احله لاقتضاء رايه واجتهاده مع كون المقضي له بذلك لا يحل له في اجتهاده او في رأي مقلده، والاول نوعان : فروج واموال .. فاما الاموال فتحريمها محل اجماع واما الفروج فخالف في حرمتها الحنفية ، وهذان النوعان هما المعارضان بقوله في اختلاف المتبايعين وفسخ الحكم به ظاهرا وباطنا ، واما القسم الثاني فقال ابن شاس وتبعه ابن الحاجب لا يحل ، وتعقبه ابن عرفة بأن مقتضى المذهب خلافه وقال البناني في حواشي الزرقاني لدى قول المتن لا احل حراما هذا مخصص بما اذا كان باطنه بخلاف

ظاهره ، وهو قسمان اموال وفروج خلافا للحنفية فى الثاني وبما اذا حكم بامر يعتقد حليته وكان المحكوم له لا يرى حليته لكونه مجتهدا اوليس قول مقلده ، فالحرام الذى لا يحله حكم القاضي هو هذان القسمان على نزاع فى هذا القسم الثاني فان ابن شاس وابن الحاجب قالا لا يحله وتعقبه ابن عرفة فانهما تبعا وجيز الغزالي ومقتضى المذهب خلافه ومحل كلام ابن شاس فى هذا الثاني ان حكم المخالف بقول شاذ كالشفعة للجار وحمله فى التوضيح على قول عبد الملك بنقض الحكم بالشاذ الذى جرد عليه المصنف فيما تقدم وقد علمت بذلك ان الاقسام ثلاثة ما باطنه بخلاف ظاهره وهذا محمل قوله لا احل حراما وما حكم فيه المخالف بقول غير شاذ وهذا محمل قوله ورفع الخلاف وما حكم فيه بالشاذ وهذا عند ابن شاس حكمه كالاول ، فيدخل فى قوله لا احل حراما وعند ابن عرفة حكمه كالثاني فيدخل فى قوله ورفع الخلاف وهذا مقتضى المذهب وما مر عن التوضيح من ابتناء مالابن شاس على القول بنقض الحكم خلاف ما يقتضيه ابن عرفة من ان قول ابن شاس لا يحل الحرام سواء قلنا بنقض ام لا راجع غ. ح والله اعلم انتهى كلام البناني ، ونص الحطاب عن النوادر فى كتاب الاقضية فى ترجمة ما يحل بحكم الحاكم ولو طلق امراته البتة فخاصمه الى من يراها واحدة ، والزوجة مذهبها انها ثلاث والزوج ايضا ، فمن يرى ان البتة ثلاث فلا يحل للزوج ان يقربها حتى تنكح زوجا غير زوجها ولا يبيح له الحاكم تمكنه من نفسها حتى تنكح زوجا غيره من قبله ان الحكم لا يحل لهما ما هو عنيهما حرام وكذلك لو قال لعبده اسقني الماء يريد بذلك عتقه والسيد يرى انه لا يلزمه فى مثل هذا عتق وان نواه ، والعبد يراه عتقا فللعبد فى هذا ان يذهب حيث شاء بما حكم له ، ولو قال لزوجته اختاري فقالت قد اخترت نفسي ، وهي تذهب الى ان الخيار ثلاث والزوج يراه واحدة ، فان الحكم لا يبيح للمراة ان تمكن الزوج منها ولتمنعه جهدها ولو رفعها الى قاضي يرى الخيار طلقة فارتجعها الزوج فلا يبيح لها الحكم ما هو عندها حرام ولا يحل لها ان ياتيها الزوج الا وهي له كارهة (ه كلام النوادر) فائدة وتاييد ذكر فى تكميل الديباج ، ان ابا اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات كان لا ياخذ الفقه الا من كتب الاقدمين ، ولا يرى لاحد ان ينظر فى هذه الكتب المتاخرة كما قرره فى مقدمة كتاب الموافقات ، وتردد عليه الكتب فى ذلك من بعض صحابه فوقع له واما ما ذكرتم من عدم اعتمادي على التاليف المتاخرة فليس ذلك مني محض راي ولكن اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر فى كتب المتقدمين مع المتاخرين واعني بالمتاخرين كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ، ولان من لقيته من العلماء بالفقه اوصاني بالتحامي عن كتب المتاخرين واتى بعبارة خشنة ولكنها محض النصيحة ويتساهل فى النقل من كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله ، ومثله ما اذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض الاصحاب لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ونص ذلك القول لا يوجد لاحد من العلماء فيما اعلم قال والعبارة الخشنة التى اشار اليها كان ينقله عن صاحبه ابي العباس القباب انه كان يقول فى ابن بشير وابن شاش افسدوا الفقه قات وقوله ونقله عن بعض الاصحاب لا تجوز مخالفته كانه يعني به ابن لب (انظر كلامه فى سنن المهتدين) ، ولما نقل فى التكميل تحت ترجمة القباب مقالته السابقة قال وكانه يعني بذلك والله اعلم ان الاخيرين ابن شاس وابن الحاجب ادخلا جملة مسائل من وجيز الغزالي فى المذهب مع انها مخالفة له ، كما نبه عليه الناس ، والاول يعني ابن بشير بنى فروعا على قواعد اصولية وادخلها فى المذهب مع انها مخالفتها ، كما بنى عليه فى الديباج فى ترجمته ، وقال ابن عرفة فى باب الوديعة فى مختصره بعد بحثه مع ابن الحاجب فيما ذكره من الاقوال فى مسالة دعوى ردها ما نصه ولاشتمال كتابه على مثل هذه كان محققوا شيوخنا ينكرون كتاب ابن الحاجب الفقهي ونحو هذا الكلام له فى باب الهبة وباب السرقة (تنبيهات) الاول حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو مذهب مالك والجمهور، ومعناه انه لا يسوغ لحاكم ءاخر نقضه ولا سماع الخصومة فيه ويستثنى من ذلك مواطن اربعة فان احكام القاضي لا تستقر فيها وهي المجموعة فى قول الزقاق (وانقضى خلاف قواعده ونص واجماع وقيس قد انجلا ، والكلام فيها على طرف الثمام وقال القرافي قد ينفذه ويمضيه واعترضه ابن الشاط بان فيه تحصيل الحاصل والحكم بما يخالف راي الحاكم ، وراى انه اراد انه يقرره ولا ينقضه ويزجر عن الخصومة فيه لانه حكم قد نفذه حاكم فذلك صحيح وكلام ابن الشاط وجيه وقد قال ابن غازي ، وقد كان شيخنا الاستاذ ابو عبد الله الصغير رحمه الله تعالى يحكي عن شيخه العكرمي انه قال ، قال لي الشيخ الصالح الزاهد الورع ابو حفص عمر الرجراجي عليك

بقواعد القرافي ولا تقبل منها الا ما قبله ابن الشاط ، وكما ان حكم الحاكم يبطل الحكم كذلك يبطل الافتاء كما بالاحكام للقرافي واما وجه عدم النقض فلانه لو ساغ نقضه لساغ نقض النقض وهلم فيسترسل النزاع وتتمادى الخصومات وهو خلاف المقصود من نصب الحكام ، واجرى القرافي في الفروق والتنقيح والاحكام لذلك وجها ءاخر وهو ان الحاكم مخبر عن الله تعالى بذلك الحكم فحكمه كالنص الوارد في كتاب الله تعالى في خصوص تلك الواقعة فيصير الحال الى تعارض الخاص والعام ، فيقدم الخاص على القاعدة الاصولية وقد احتفل بهذا الوجه حتى صرح في الاحكام بتعينه ، ورد ما سواه حيث قال هذا هو السر في ان الحكم لا ينقض لا ما يعتقده بعض الفقهاء من ان النقض انما امتنع ليلا تنتشر الخصومات الخ .. وبحث فيه ابن الشاط بأنه ان اراد انه من باب العام والخاص المتعارضين على التحقيق، فلبس كذلك ، وان اراد ان يشبه العام والخاص المتعارضين بوجه فذلك صحيح . ورفع الخلاف هو في تلك النازلة المعينة لا في غيرها ، ومعناه على التوجيه الاول انه لا يسوغ لحاكم ءاخر نقضه لما يؤدي اليه من المفسدة ، وعليه فالخلاف فيها لم ينتف من اصله وانما منع الله من نقض احكام المجتهدين لما في ذلك من المفسدة فقد قال ابن الشاط ان الخلاف بقي على حاله الا انه لا يسوغ للمخالف الفتوى فيها بعينها .

الرباط : المرحوم محمد السائح

القلــوب النظيفــة

قال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ارأيتم لو كان لاحدكم عسل وله اناآن فيم كان يجعل عسله ؟ قالوا : في انظفهما أو أطهرهما ، قال : فكذلك الله تعالى لا يجعل العلم الا في أنظف القلوب وأحبها اليه .

التوحيد وتحرير الضمير الانساني تحت ضوء الإسلام

للدكتور عثمان يحيى

- 2 -

2) علم التوحيد عند السلفية

قدر لفكرة التوحيد ، في البيئة السلفية ، ان تقوم بنفس الدور الهام الذى قامت به في الوسط الاعتزالي ، كما اتيح لها ان تلقى لديهم ذات العناية الخاصة ، التى لقيتها لدى المعتزلة ، ولكن على نمط واسلوب آخرين . بل زيادة على ذلك ، لقد ظهرت هذه الفكرة الاساسية ، عند المتاخرين من كبار السلفية (عند شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية) في صورة جديدة ، تمثل الالوهية في مجالي عظمتها ، وتحيط بالنشاط الانساني من سائر جوانبه .

ان الحركة السلفية ، في اسسها وفي مثلها ، مشيدة على مبدا التوحيد ، كما لاحظ ذلك بحق ، المستشرق الفرنسي العظيم هنري لاووست Henri Laoust والتوحيد في نظر علماء السلف ، كما هو عند الاسلاميين جميعا ، هو عقيدة وعبادة : وهذا هو الجانب الالهي في التوحيد . وهو ، في نفس الوقت ، سلوك فردي ومعاملات اجتماعية : وهذا هو الجانب الانساني في التوحيد . فالتوحيد اذن ، هو مبدا الهي وبشري ، انه فكرة دينية وزمنية في آن واحد .

ويرى رجال السلف ان هيكل الدين بأسره ، ان في عقائده او شعائره او نظمه ، ليس الا تعبيرا عما ينطوي عليه مبدأ التوحيد من سمو ورفعة . انه الصورة المجسدة لذلك المبدا الكلي ، في نهاية كماله وعظمته .

ويرون ، ايضا ، ان الفرض الاقصى للشريعة ، هو انتصار « كلمة الله » في الحياة : في حياة الفرد وفي حياة الجماعة على السواء . و « كلمة الله » هي نظامه الابدي ، وهي ناموسه الازلي ، وهي سنته الخالدة . انها مثل الحق والخير والكمال . فانتصار «كلمة الله» في الحياة ـ الهدف الاقصى للشريعة ـ هو ، في الحقيقة ، انتصار الضمير البشري في جهاده الدائم ، من اجل الافضل والاكمل ابدا . وهذا الجهاد الدائب الدائم ، هو الضمان التام لكل تقدم وتطور وازدهار ، في مستوى الروح وفي مستوى المادة ، على صعيد الفكر وعلى صعيد الحضارة . وتلك هي المفاتيح السحرية لكنوز الارض ولكنوز السماء !

ـ مظاهر التوحيد عند السلفية

يقرر شيخ الاسلام ابن تيمية ، ان مبدا التوحيد ينتظم ثلاث حقائق كليه ، او بتعبير ادق : يتجلى في ثلاثة مظاهر اساسية ، كل مظهر منها يبرز الذات الالهية في جانب من جوانب كمالها المطلق ، ويحدد موقف الانسان من ربه ، عقيدة وعبادة ومعاملة . وكذلك تظهر فكرة التوحيد في

(*) انظر الجزء الاول من هذا البحث في العدد السابع من « دعوة الحق » ، السنة الثالثة عشرة ـ ربيع الثاني 1390 يونيه 1970 ص 30 ـ 34 .

صورة المبادىء السامية الشاملة ، تحيط بالجانب الالهي والجانب الانساني معا ، وتلتقي في ظلالها الرحيبة ، عظمة الخالق وعظمة المخلوق .

أ ـ توحيد الالوهيـة

المظهر الاول ، الاساسي والوطيد ، من مظاهر التوحيد ، هو ما يسميه شيخ الاسلام ابن تيمية : توحيد الالوهية. وهذا اعتراف من قبل العبد بحقيقة الاله ، ونفي الالوهية بتاتا عمن سواه . ومفهوم الالوهية ، عند ابن تيمية ، ينتظم الماهية والوجود المطلقين . اي ان الله هو حقيقة موضوعية ، ذات صفات ثبوتية ايجابية . والصفات هي مجالي عظمة الذات الابدية ، وهي عنوان كمالاتها اللا نهائية . انها كثيرة ، انها متنوعة : هي كثيرة من حيث اعدادها ، هي متنوعة من حيث دلالاتها . انها جميعا يجب الايمان بها ، طالما نطق بها الشرع ، او جاءت عن طريقه . وهناك ـ وهناك فقط ـ يجب اجراؤها على ظاهرها ، من غير تأويل او تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تكييف .

ان « توحيد الالوهية » يكشف لنا عن الجناب الالهي في كماله المطلق ، اي يظهرنا على « وحدة الذات » و « كثرة الصفات » . والوحدة والكثرة ، في مقام الالوهية ، لا تتعارضان او تتزاحمان ، بل تأتلفان وتتحدان . (وموقف شيخ الاسلام ، في هذه القضية ، هو في غاية الخطورة والاهمية ، وهو يختلف تماما عن موقف المعتزلة ، في هذه المسألة المعضلة .) ـ والسبب في هذا ، هو ان الله له ، من نفسه بنفسه ، الاطلاق الكلي والشمول اللا نهائي ، فهو اذن يتنزه عن كل مزاحمة ، او معارضة، او مناقضة . من اجل ذلك جميعا ، وجب الايمان بالصفات الواردة في القرآن والسنة عموما ، وبصفات التشبيه الواردة خصوصا ، واجرؤها على ظاهرها ، من حيث هي شؤون او نعوت الهية . ان « صفات التشبيه » هي في المخلوقات دالة على حدوثهم وامكانهم ، وهي في الخالق دالة على ازليته وسرمديته .

وكذلك الامر بالقياس الى « كثرة الصفات » و « وحدة الذات » . ان تلك الكثرة لا تتنافى وهذه الوحدة . بل على العكس ، انها تكشف عنها ، وتدل عليها . « اذ كثرة الصفات » في الله ـ تعالى ! ـ هي ، في الحقيقة ، من طبيعة « الكيف » لا من طبيعة « الكم » . انها اذن ، ليست كثرة مادية ولا في ذي مادة . بل هي كثرة روحية ، معنوية ، حقيقية ، تبرز لنا غناء الذات الالهية ، وتظهرنا على مجدها الاعظم .

ب ـ توحيد الربوبية

والمظهر الثاني من مظاهر مبدا التوحيد في الحياة الدينية ، عند شيخ الاسلام ابن تيمية ، هو ما يطلق عليه هذه التسمية البارعة الدقيقة: « توحيد الربوبية » . وهذا اللون الخاص من التوحيد ، في نظر المدرسة السلفية ، لا يعني به مجرد اقرار من جانب الفرد الانساني بوجود الله ووحدانيته ، كما هو الشان في « توحيد الالوهية » . بل « توحيد الربوبية » هو بالحري وعي عميق بشمول الفعل الالهي لكل شيء ، وسيطرته على كل شيء ، وسريانه في كل شيء ، وهدايته كل شيء ، وحضوره مع كل شيء !

في حظيرة «التوحيد الالهي» تقوم العقيدة على مبدا وحدة الذات والوجود الالهيين . وفي صعيد « توحيد الربوبية » تنهض هذه العقيدة نفسها على مبدا وحدة الفعل الالهي، وسموه، وشموله . ولكن، ما معنى هذا بكل دقة ؟ ما هي الفروق الحاسمة ، الاساسية ، بين هذين المظهرين الخاصين من مظاهر التوحيد ؟ ما هي صلاتها الحقيقة بتحرير الضمير البشري وتكامل الشخصية الانسانية ؟ ..

ـ للاجابة عن جميع هذه الاسئلة ، نجمل القول فيما يلي :

في ضوء المنهج الفكري والديني لشيخ الاسلام ابن تيمية ، تضطلع مشكلة « الصفات » بدورين هامين واساسيين . فمن جهة ، تدل « الصفات » على المعاني او الحقائق الذاتية ، الثبوتية ، الايجابية، لواجب الوجود بنفسه ، وهو الله ـ تعالى ! ـ وذلك: كالحياة والعلم والقدرة والمشيئة والارادة ، الخ .. وتسمى هذه المعاني او الحقائق بالصفات الذاتية او النفسية للحضرة العلية . ومن جهة اخرى ، تكشف هذه « الصفات » ذاتها عن الافعال او الشؤون الخاصة لواجب الوجود بنفسه . وهذه الافعال والشؤون لله ـ سبحانه ! ـ تنقسم بدورها الى قسمين : افعال وشؤون في مستوى الوجود :

كالخلق والايجاد والتصوير والاماتة ، وافعال وشؤون فى مستوى كمال الوجود : كالهداية والرحمة والمغفرة والاحسان والمحبة .

فـ « توحيد الالوهية » يتعلق بواجب الوجود بنفسه ، أي بالحق — تعالى ! — كما هو فى صفاته الذاتية ، وحقائقه الثباتية الايجابية . اما «توحيد الربوبية» فهو خاص بالله — سبحانه ! — بالنظر الى افعاله الخارجية ، وشؤونه التخصيصية . وبتعبير اشد وضوحا ، « توحيد الالوهية » يعانق الذات المقدسة ، من حيث هي هي ، ومن حيث كمالها المطلق ، اي من حيث الوحدة الوجودية ، والكثرة الاسمائية ، وعلى هذا الاعتبار يكون هذا اللون الخاص من التوحيد بمثابة تامل مجرد، فى قمة الفكر والمنطق ، للجناب الالهي ، العزيز المنال . اما «توحيد الربوبية» فهو يعانق الذات المقدسة ، من حيث هي فى افعالها الخارجية، وشؤونها التخصيصية : فهو ، اذن ، توحيد ، عملي، تطبيقي ، فى مستوى الذوق والاختبار ، ان صح مثل هذا التعبير ، فى مثل هذا المقام . . .

❋ ❋ ❋

ومرة اخرى : افعال وشؤون الهية فى مستوى الوجود ، — افعال وشؤون الهية فى مستوى كمال الوجود ، — ما معنى هذا كله على وجه التحديد ؟ ما هو محور هذا التقسيم والتمييز وما هو اساسه ؟ ثم اليست افعال الله وشؤونه متصفة ، جميعا ، بالكمال والاطلاق ؟

— الواقع، ان هذه الاسئلة على غاية الاهمية، والموضوع جد خطير ، ولازالة كل لبس او اشكال فى الامر ، نقول :

ان لله — سبحانه ! — تدبيرين فى خلقه ، يتصل الاول منهما بوجودهم وحياتهم ، ويتصل الثاني بحفظهم وبقائهم . فالكائنات موجودة بايجاد الله لها ، حية باحيائه اياها ، محفوظة بحفظ الله لها ، باقية بابقائه اياها . وكل من الايجاد والاحياء والحفظ والابقاء ، هو من مظاهر العناية الالهية العامة، السارية فى جميع الاشياء .

ولكن ، لله — تعالى ! — تدبير ءاخر ، يختص بهذا «الآدمي» وحده ، وبه يمتاز عن سائر الموجودات الارضية . وهذا التدبير الالهي الخاص ، يتصل بـ « **كمال وجود** » الفرد البشري وحياته ، اي بـ « **وجوده وحياته فى الابد** » . ذلك ، لان الانسان فيه « **الروح الالهي** » وهو « **الخليفة فى الارض** » و « حامل امانة السماء » . انه « **مستقر** » ذلك كله ، و « **مستودع الاسرار** » . وهذه النعوت جميعا هي سمات الخلود فى الكائن البشري ، بل هي الخلود عينا وحقيقة . انها قوام حياة المرء ومعنى وجوده .

فـ « ابن آدم » هو لله ، واليه يعود . فوجوده الحقيقي — اعني كمال وجوده — لا يتحدد بسيره فى مشارق الارض ومغاربها ، بل بعروجه صعدا الى اعالي السماء . وحياته الحقيقية — اعني كمال حياته — لا تنحصر بنشاطه فى ارجاء الكون ، بل بتالقه فى آفاق النور . ووسيلته المباشرة ، لتحقيق ذلك الوجود الاكمل وتلك الحياة الاتم ، لا تتوفر له من نفسه او بنفسه ، (وانى لاسير المادة والزمان والمكان ان يتسامى بذاته ، الى سماء الاطلاق ؟ او لابن الفناء ان يحقق لنفسه بنفسه عناصر الخلود ؟) بل يتلقى الانسان هذه الوسيلة المباشرة والاداة الموصلة للوجود الكامل والحياة التامة ، منحة عظمى من الله، مصدر الوجود والحياة والكمال . وهذا هو « التدبير الخاص » الذي هو ابدع مظهر لعناية الله بالانسان ، واسمى تعبير عن مدى حبه له . وموضوع هذا «التدبير الالهي الفائق» وجوهره وحقيقته هو الوحي السماوي : من حيث هو نور ورحمة منبعثان من ينبوع الحق المطلق ، — والنعمة الالهية : من حيث هي الاداة الفعالة التى تقود المرء مباشرة الى الله ، وتفتح عين قلبه لمشاهدة ملكوت السماء ، — والولاية الربانية : من حيث هي تعبير عن دفاع الله عن الانسان الذى هو وليه ، ودفاع الانسان عن الله الذى هو وليه !

❋ ❋ ❋

والخلاصة : الافعال والشؤون الالهية ، التى هي فى مستوى الوجود — والتى هي موضوع «توحيد الربوبية» — تتصل بحياة الانسان الطبيعية ، فى عالم الكون والفساد . أما الافعال والشؤون الالهية ، التى هي فى مستوى كمال الوجود (والتى هي ايضا موضوع « توحيد الربوبية » — تتصل بحياة الانسان الطبيعية ، فى عالم الكون والفساد . اما الافعال والشؤون الالهية ، التى هى فى مستوى كمال

الوجود (والتى هي ايضا موضوع « توحيد الربوبية ») فانها تتصل بحياة الانسان الفائقة ، في ظلال الخلود .

* * *

ويلاحظ شيخ الاسلام ، بكل دقة ومهارة ، ان غرض الاديان جميعا ، في تعاليمها وفي آدابها ، ليس هو بيان « توحيد الالوهية » فحسب ، بل بصورة خاصة هو تقرير « توحيد الربوبية » والكشف عن حقائقه ، وجعله الاساس الثابت لسلوك الفرد في الحياة ، والقاعدة الراسخة لنظرته في الكون . ذلك لان « توحيد الالوهية » هو في مستوى القيم النظرية التجريدية ، وهو في متناول العقل البشري . فالمرء يستطيع ، من تلقاء نفسه ، ان يستقل بادراك الوجود الالهي ، كناموس ازلي ، وقانون سرمدي ، وحق ثابت ، عبر الاشياء والكائنات . بيد ان مشكلة الانسان الكبرى ، في كل زمان وفي كل مكان ، هي بان يعي تماما وحدة الفعل الالهي في كل شيء ، وسيطرته على كل شيء ، وسريانه خلال كل شيء . فهذا الوعي العميق لشمول الفعل الالهي الخالق ، ولكليته واحديته وتساميه ، تنوء به حقا العصبة اولو القوة من ملكات الفرد ومدركاته وطاقاته . من اجل هذا ، تعددت الاسباب الخالقة امام العقل البشري ، وبالتالي تعددت الارباب المعبودة رغبا او رهبا ، طوعا أو كرها .

فكما ان ذات الحق ـ تعالى ـ في دائرة « توحيد الالوهية » هي وحيدة في الوجود وفي كمال الوجود ، في الحياة ، وفي كمال الحياة ، ـ كذلك هي ، في « دائرة توحيد الربوبية » وحيدة في الخلق وكمال الخلق ، في الايجاد وكمال الايجاد ، في الفعل وكمال الفعل .

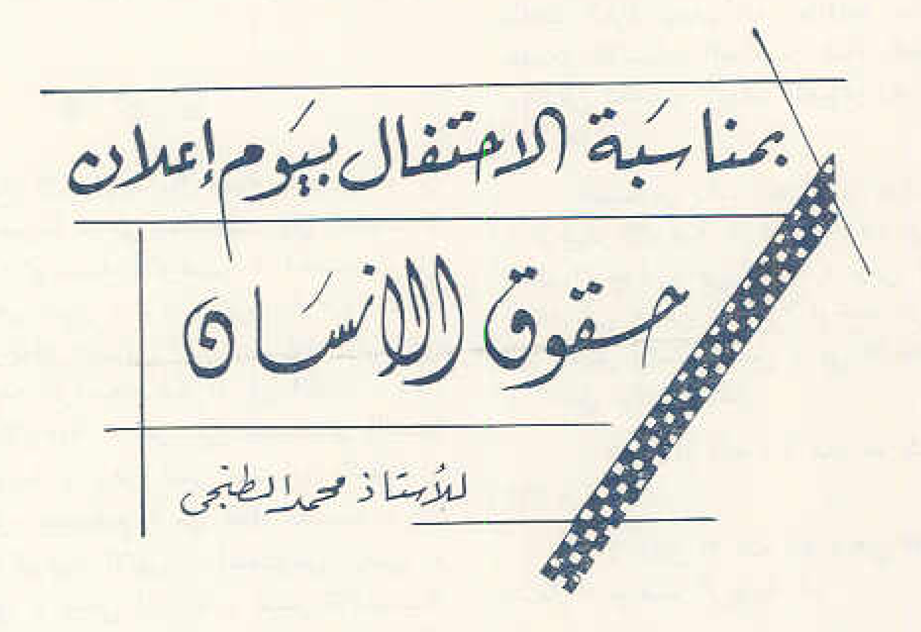
« لا اله الا الله ! » هذا هو شعار « توحيد الالوهية » .

« لا خالق الا الله ! لا هادي الا الله ! » هذا هو شعار « توحيد الربوبية » .

وكذلك تتوحد ذات الحق ـ سبحانه ! ـ في الضمير الانساني ، وجودا وحضورا ، حياة وشهودا . وكذلك تزول الوسائط بين الرب والمربوب ، وترتفع الحجب بين الخالق والمخلوق! .

باريز : دكتور عثمان يحيى





تشريع حقوق الانسان والرفق بالحيوان في الاسلام سبق اعلان هذه الحقوق في الامم المتحدة وانشاء جمعيات الرفق بالحيوان في الدول الغربية

لكل مجتمع اسس ومباديء يتخذها قواعد لسلوكه في الحياة ، وبقدر سمو هذه الاسس والمباديء ورعايتها للخير العام الشامل للانسان وغيره من الاحياء غير الضارة يرتفع مستوى المجتمع الذي توجد فيه حتى يكون مجتمعا راقيا متحضرا مهذبا تهذيبا روحيا عاليا لا رقيا صناعيا ماديا بحتا ويتجلى هذا التهذيب الروحي في التشريع الاسلامي في العهد الذي كان مطبقا فيه ، فكان الطابع البارز الذي يشهد بكمال تشريع المجتمع الاسلامي الذي تركه الرسول على تطبيق ذلك التشريع كما سيتبين حتى ان ولد عمرو بن العاص ضرب ولدا قبطيا فاستعد عليه امير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر رضي الله عنه الولد القبطي بالقصاص من ولد عمرو بضربة مثلها وقال تلك الكلمة المشهورة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ».

حقيقة توجد في المجتمعات الاوروبية وغيرها جمعيات للرفق بالحيوان كما يوجد ميثاق حقوق الانسان الذي اعلنته الامم المتحدة يوم عاشر دجنبر سنة 1948 والذي احتفلت الامم المتحدة في العالم بذكراه يوم عاشر دجنبر الماضي الا ان جمعية الرفق بالحيوان تتبع شكليات في تطبيق مبدئها فتكون احيانا مبعثا للسخرية والضحك وقد كنت قديما علقت في الاذاعة المغربية على ما قررته جمعية الرفق بالحيوان في الولايات المتحدة من منحها مدالية الشرف مع شهادة التنويه الى اللفيف الاجنبي الفرنسي وذلك لما قامت به هذه الفرقة من اسعاف حمار كاد يموت جوعا في بعض جهات الجزائر..! ان انقاذ الحمار عمل نبيل ، ولكن ينبغي ان يقدر فاعله وليشكر اذا كان له ضمير حي يحترم كل الاحياء المأمونة .. اما اذا كان فاعل ذلك ممن آجر نفسه وسخرها لقتال اهل الشعوب المظلومة المستعمرة بالقهر عنها فليس ذلك في محله بل الذي كان يجب على هذه الجمعية ان تحترم ما هو اعلى قيمة من الحمار وهو الانسان وان تحتج لدى الدول التي

تتخذ اللفيف الاجنبي ليشارك فى المجازر البشرية ويقتل النساء والعجزة والاطفال والشيوخ والمظلومين لا دفاعا عن حق ولا قياما بواجب لحفظ عزته وكرامته ، ولكن فى سبيل كسب الدراهم الملطخة بدماء الابرياء فاين تطبيق ميثاق حقوق الانسان فى هذه الدنيا الصاخبة ان الدول العظمى تتحمل اكبر مسؤولية لعدم تطبيق هذا الميثاق وان صانعت ونوهت به وافتخرت باصداره وخصصت له الذكريات فى مختلف انحاء العالم ، كما ان جمعيات الرفق بالحيوان لا يسمع لها صوت مهما عم الظلم الحيوانات وفى طليعتها الانسان بواسطة القنابل المحرقة والجرثومية التى تحصد مختلف الارواح حصدا فى حروب ظالمة فى افريقيا وآسيا وفى غيرهما ، وفى سبيل النعرات العنصرية والتيارات المعادية للانسانية بوجه عام .

اما اذا التفتنا للمجتمع الاسلامي فى موضوع حقوق الانسان والرفق بالحيوان فاننا نجد تشريعا ساميا مطبقا فيه فى خير العهود مما ينبغي لشبابنا المثقف ثقافة اجنبية ان يطلع عليه ويفخر به فى هذا المجتمع الغربي المادي الذى لا يعترف للشعوب الضعيفة بحقها فى الحياة وفى تقرير مصيرنا الا اذا كافاته بخيرات بلادها وفتحت له آفاقا لاستغلال ثرواتها .. يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم فى معاملة المخالفين لنا فى الدين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين»

ويقول فى تعارف الشعوب وعدم تفاضلها الا بتقوى الله ومكارم الاخلاق « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » .

فتنوع الشعوب والقبائل لم يجعلها الله لاجل ظلم بعضها بعضا وتناكرها وغصب خيراتها بما كسبته امم منها من قوة وحول وعزة وطول ولكن جعلها الله كذلك لتتعارف وتتعاطف فى ميادين الخير وحسن المعاملات ولتتقارب بجلب السعادة لها ولجيرانها فى جميع الحالات .

وفى ميدان الرفق بالحيوان ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : دخلت امراة النار فى هرة (اي قطة) حبستها فلا هي اطعمتها ولا هي ارسلتها تأكل من خشاش الارض .

وفى هذا الحديث تحذير من ظلم الحيوان بحبسه وعدم اطعامه ووعيد لمن فعل مثل فعل تلك المراة بدخول النار ، وهذا اعظم نهي وزجر .

وفى حديث شريف اخرجه الامام البخاري فى صحيحه والامام مالك فى الموطا عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قال بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بي فنزل البئر فملأ خفه ثم امسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له.

قالوا يا رسول الله وان لنا فى البهائم لاجرا ؟ فقال «فى كل ذات كبد رطبة اجر» فارسل النبي هذه الكلية العامة فى الرفق بجميع الحيوانات ذوات الكبد الرطبة، وقد وردت عدة احاديث فى النهي عن تصبير البهائم اي قتلها وهي مربوطة كما يفعل اصحاب محافل القمار من نصب الطيور حماما وغيره لرميها بالرصاص ممن يريد المقامرة عليها ، فرميها على هذه الصفة حرام فى نفسه زيادة على حرمة القمار ، وكذلك مصارعة الثيران التي شاعت شيوعا عظيما فى اسبانيا الكاثوليكية المسيحية مع يقينها ان المسيح عليه السلام لا يرضى فعلها .

ومن المعلوم ان هذا التشريع الصادر من النبي عليه السلام يعتبر تشريعا مقدسا عند المسلمين تجب طاعته على الجميع وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على تطبيقه غاية الحرص لا يقبلون فى ذلك هوادة ولا محاباة .

ففى صحيح البخاري من حديث اسحاق بن سعد بن عمرو عن ابيه انه سمعه يحدث عن ابن عمر انه دخل على يحيى بن سعيد وغلام من بني يحيى رابط دجاجة يرميها فمشى اليها ابن عمر حتى حلها ثم اقبل بها وبالغلام معه فقال ازجروا غلامكم عن ان يصبر هذا الطير للقتل فاني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم نهى ان تصبر بهيمة او غيرها للقتل ، وفى حديث آخر لعن من فعل هذا فعن سعيد بن جبير قال كنت عند ابن عمر فمروا بفتية او بنفر نصبوا دجاجة يرمونها فلما راوا ابن عمر تفرقوا عنها .. وقال ابن عمر من فعل هذا ..؟ ان النبي صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا »

ويفهم كل سامع لهذا الحديث ان النفر الذين نصبوا تلك الدجاجة للرمي كانوا عارفين بأنهم خالفوا

الواجب ولذلك تفرقوا عنها لما راوا ابن عمر، وكذلك صح في الحديث ان النبي لعن من مثل بالحيوان ، والتمثيل تشويه الخلقة بقطع بعض اجزائها

نعم ورد ان النبي (ص) سال صبيا كان عنده طير بقوله : يا ابا عمير ما فعل النغير .. فحمل العلماء ذلك على جواز حبس الطير ولكن بشرط عدم تضييعه او تعذيبه ويستانس لذلك بقول النبي في حديث الهرة السابق حبستها فلا هي اطعمتها. ومن هذه القضايا واشباهها استنبط الفقهاء احكاما تفصيلية تتعلق بمعاملة الحيوانات قال ابو علي بن رحال المعداني الفقيه المغربي الشهير بعد ان ذكر انه اخذ من المدونة جواز حصر الطير في القفص ما نصه: « وما ذكر جواز حبس الطير انما هو اذا لم يكن فيه تعذيب او تجويع او تعطيش ولو بمظنة الغفلة عنه او بحبسه مع طير آخر ينقب راسه كما تفعله الديوك في الاقفاص ينقب بعضها راس بعض حتى ان الديك يقتل آخر وهذا كله حرام باجماع لان تعذيب الحيوان لغير فائدة لا يختلف في تحريمه والفائدة يتأتى وجودها بلا تعذيب في هذا كان يحبسه وحده أو مع من لا ينقبه او يعمل بينهما حائلا بحيث لا يصل بعضها الى بعض ويتفقده بالاكل والشراب كما يتفقد اولاده ويضع للطير ما يركب عليه كخشبة واما ان يضعه في الارض بلا شيء فذلك يضر به غاية في البرد وهذه الامور لا يحتاج لجلب نص فيها لوضوحها ، وكم رأينا ممن يعذب الدجاج في الاقفاص على وجوه مختلفة من العذاب وكذلك حبس الكبش بلا اكل ولا شرب او بغل يربطه في موضع ويغلق عليه الباب حتى يكاد يموت جوعا ، ومن لا رحمة فيه لا يعتبر في الدفع عن الدواب الا ما يقتلها او يضعف بدنها واما عذابها في نفسها اذا سلمت مما ذكر فلا يبالي به وذلك كله حرام في الدنيا والآخرة ان لم يعف الله تعالى ، فان هذه الحيوانات غير الانسان لا تتكلم فمن ينادي عليها انها في الحاجة في كذا ان لم تكن رحمة من مالكها ، ومن مارج الناس وامعن النظر بقلبه وتفكر راى من عذاب الحيوانات من هذه الجهات ما لا يسامح فيه الا من له مائة رحمة ثم قال ابو علي رحمه الله : والحاصل ان هذا باب من العقاب ، ترك كثير الهروب منه فينبغي لمن فيه رحمة ان ينبه على هذا كل من لا يعرفه . ثم زاد قائلا وكثير من الناس يسمع مثلا ان الطير يجوز حبسه وان العصفور يجوز ان يلعب به ويستدل بحديث « يا ابا عمير ما فعل النغير » ويعتمد على ذلك بلا شرط عدم تعذيبه وهذه مسالة عظيمة الاجر والعقاب . وكذلك تحميل الدواب اكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك، وهذا كله من نزع الرحمة من القلوب ، ولكن انما يرحم الله من عباده الرحماء .

فلينتبه الى هذه المسئولية الخطيرة الفلاحون المستعملون للدواب واصحاب الماشية والحمالون وتجار الطيور والدجاج حتى يعملوا بما تفرضه شريعة الاسلام من الرفق وعدم الاضرار بالبهائم وغيرها من الحيوانات وليعلم الجميع ان هذه ليست شريعة خاصة او مبادىء لجمعية معينة وانما هي شريعة عامة لكل المسلمين ولو طبقت هذه الشريعة بما فيها من عدل ورحمة لكان العالم الاسلامي غير ما هو عليه الآن ولا نسبة بينه وبين أمم ترفق بالحيوان وتقتل الامم وتستعبدها بانواع من العذاب والتنكيل في سبيل مطامعها المادية الصرفة .. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

الرباط : محمد الطنجي



صفحات من تاريخ اليقظة العربية الإسلامية

تحرير الفكر والعقيدة من الجمود والدخيل

للأستاذ أنور الجندي

ظهرت اليقظة الفكرية العربية قبل بوادر حركة النفوذ الاجتماعي بوقت طويل وجاءت حركتها منبثقة من ضمير الفكر العربي الاسلامي وله سوابقه ، وكان للفكر الاسلامي والثقافة العربية موقف وراي من كل ما استقدمه الاحتلال من حضارة وفكر ، لم يكن هنالك تسليم كامل او تقبل كامل لحضارة الغرب او فكره ، وانما كانت هناك مراجعة وتقدير للموقف وعرض له على ضوء مفاهيم الاسلام وقيمه ، ولقد واجه العرب والثقافة العربية ، كما واجه المسلمون والفكر الاسلامي هذه الحملة الغربية الاستعمارية مواجهة شاملة في مختلف الميادين : واهمها ميادين الحرب والسياسة والفكر.

كانت المقاومة العسكرية هي سلاح المقاومة الاول ، وقد توقف هذا السلاح بعد ان قدم الضحايا والشهداء ، لان الاسلحة الحديثة الغربية كانت اقدر قدرة على الانتصار ، بالاضافة الى سلاح المؤامرة والغدر الذى حقق به العدو انتصاره فى المعارك الفاصلة ، مع الامير عبد القادر فى الجزائر ، وعرابي فى مصر ويوسف العظمه فى الشام ، وعبد الكريم الخطابي فى المغرب ، وكان التفوق العسكري الغربي عاملا هاما دفع المسلمين والعرب الى الجهاد فى ميدان السياسة بهدف بناء وحدة او جامعة او رابطة تقف فى وجه النفوذ الغربي الزاحف ومن هنا ظهرت حركة الجامعة الاسلامية كمحاولة سياسية للمجتمع غير ان الغرب استطاع ان يفل هذا السلاح ويحول دون تحقيق الوحدة بسيطرته على الاقطار المختلفة وعزلها عن جاراتها واقامة حكومات خاضعة لنفوذه ، هنالك تحولت المقاومة الى السلاح الاقوى: سلاح الثقافة والفكر، هذا السلاح الذى كان اكثر قدرة على المقاومة ، كانت الحركات المختلفة : ذات الطابع الاسلامي الخالص ، ثم ذات الطابع القومي الخالص ، وذات الصبغة السياسية الثقافية ، وذات الصبغة الفكرية الخالصة ، وفى مجالات التربية والصحافة والخطابة والكتابة ، كلها تمثل فى مجموعها تحركا بالغ المرونة والصلابة في مواجهة النفوذ الاجنبي الزاحف للسيطرة والاستعمار . وهذا النفوذ ايضا لم يكن نفوذا سياسيا ولا عسكريا فحسب ، ولكنه كان الى ذلك نفوذا ثقافيا يعرف مدى الخطر الذى ينبعث من آفاق الفكر الاسلامي ومن قيمه كقوة بعيدة المدى فى المعارضة والمواجهة والمقاومة .

ومن هنا برزت خطط النفوذ الاجنبي المتمثلة فى خلق تيارات التغريب والشعوبية وتغذيتها وذلك كسلاح اكثر خطورة واشد فتكا من سلاح الجيوش المقاتلة للقضاء على الروح المعنوية ، والقيم الاساسية المواجهة ، وخلق طابع من تمييع القيم ، واعلاء مفاهيم الغرب ، وبناء محطات التقاء فى منتصف الطريق ترضى بالحلول الوسط ، وتتنازل عن الحقوق والحريات ، وترضى بصداقة المستعمر ، وتعلي ثقافته ، وتحتقر مقوماتها الاصلية ، وتتقبل تاريخه ومثله ومفاهيمه .

هذه هي المحاولة الخطيرة التى حرص الاستعمار على تحقيقها عن طريق الثقافة ، وهي نفس الهدف الذى حرصت الثقافة العربية المنبثقة من الفكر الاسلامي ان تقاومها فى اصرار ، لم تكن هذه المقاومة مقاومة متعصبة مغلقة ، ولكنها كانت مرنة نيرة ، فالمسلمون والعرب لم يرتضوا الفكر الغربي كلية ، وانما رفضوا قيمه المتعارضة ، مع مثلهم العليا

وانتفعوا باساليبه ومناهجه ، وكانوا وفق مفهومهم الاساسي قادرين على الانفتاح على مختلف الثقافات ، وفق مقوماتهم الاساسية ، يأخذون ويدعون ، فقد كانت لهم تجربة سابقة ، فى مرحلة الترجمة والنقل من الثقافات اليونانية والهندية والفارسية ، وان كان هناك خلاف جذري بين الموقفين ، الموقف الحاضر والموقف الاول ، فقد كانت لهم اذ ذاك الحرية الكامنة فى النقل والاقتباس والاستيعاب والصهر والبلورة والتمثل للفكر الانساني ، حيث هم الذين سعوا اليه بارادتهم ، ونقلوه ، اما اليوم فليس لهم مطلق الحرية فى الاقتباس والنقل، فقد غزاهم هذا الفكر غزوا وفرض وجوده عليهم فرضا ، ونقل اليهم عن طريق القوى المحتلة المسيطرة القادرة بارادتها واساليبها على فرض هذا الفكر واذاعته ، وهي قوى ذات نفوذ لا تريد ان تنقل الى العرب والمسلمين الا المفاهيم والقضايا البالغة الاضطراب والمبيتة بالشكوك والشبهات بقصد الاثارة والبلبلة ، وهزيمة الفكر الاسلامي فهي لا تعني الا بنقل قضايا الالحاد والاباحة وكل ما يتصل باحتقار الاديان والاخلاق والقيم ، واثارة الاهواء حول القيم الاساسية العربية والاسلامية .

وقد حجبت من حضارتها وفكرها عن المسلمين والعرب الجوانب الايجابية القوية فى ميدان العلم والتكنولوجيا ، هذه التى اعطت ثمرات الصناعة والقوة والسيطرة المادية .

فالالتقاء بين الفكر العربي والفكر الاسلامي فى مرحلة النفوذ الاجنبي لم يكن التقاء حرا مطلقا ، ولم يكن متاحا للفكر العربي فيه ان يأخذ جوانب القوة والحيوية ، بل على العكس من ذلك كان النفوذ الاجنبي قادرا بالسيطرة على وسائل الثقافة : المدرسة والصحيفة وعن طريقها اخذ يبث دعويين خطيرين : دعوى الانتقاص للتاريخ واللغة العربية والاسلام باثارة الشبهات والشكوك ، ودعوى اذاعة مذاهب الالحاد والاباحة والمادية .

ولقد كان حرص النفوذ الاستعماري قويا على ان يركز فى هذا الغزو الثقافي على الامة العربية بعد ان زلزل الرابطة القائمة بين الدولة العثمانية والامة العربية وارث بينهما خصومات اساسية اتصلت بكثير من المفاهيم والقيم .

وكان مصدر هذا الحرص هو اليقين بأن الامة العربية هي اقدر اجزاء العالم الاسلامي قوة على فهم الاسلام ، وفيها تتمثل اصدق مفاهيمه واصفى مقوماته ، ومن قلبه برزت دعوة التوحيد وتوالت دعوات الوحدة الاسلامية والاصلاح وتحرير الفكر من قيود التقليد .

ولقد كانت الدعوة الى الوحدة العربية فى اول امرها سلاحا اراد به الاستعمار ان يخرق وحدة العرب والترك المتمثلة فى « الدولة العثمانية » فلما حمل المسلمون لواء الوحدة العربية ، عمد الى تدمير هذه القوة الجديدة التى استهدفت اقامة وحدة جديدة بعد ان تفرقت الجامعة الكبرى ، فأخذ يثير حولها الشبهات ويضربها من الداخل بتحريف مفهومها وعزله عن جذور الثقافة العربية او اثارة الخلافات بين الاجزاء العربية .

ولم يكن مفهوم الدين فى الفكر الاسلامي شبيها بمفهوم الدين فى الفكر الغربي ، وليس الاسلام اساسا دينا فحسب ، ولكن الدين جزء منه ، وهو نظام مجتمع وحضارة وفكر ، هذا المجتمع ليس مجتمع المسلمين وحدهم بل هو مجتمع كل من اظلتهم الدولة الاسلامية ، وليس هذا الفكر هو فكر المسلمين وحدهم ، ولكنه فكر المنطقة كلها ، وقد انصهرت فيه كل الفلسفات والمذاهب والعلوم والثقافات القديمة وتبلورت فى اطاره، وليست الوحدة العربية الا « وحدة فكر » قبل ان تكون وحدة سياسية او وحدة اقتصادية ، والثقافة العربية مستمدة اساسا من الفكر الاسلامي ولها كل مقوماته وقيمه الاساسية وجوهره ومضمونه، واذا كان بعض المفكرين يرى ان اللغة والتاريخ هما اساس الوحدة فالواقع ان اللغة والتاريخ ليسا فى الحقيقة الا : « ضمير » الثقافة العربية ، فليس هناك انفصال بين الوحدة العربية وقاعدتها ، ولا سبيل لان تقوم الوحدة العربية بعيدة عن وحدة الثقافة العربية او قاعدة الفكر العربي الاسلامي ، وهذا هو الخطأ فى الفهم الذى جر الى كثير من المساجلات والمجادلات.

واذا كانت الوحدة العربية هي وحدة لغة ، فاللغة العربية هي اساس للفكر الاسلامي والثقافة العربية جميعا ، ومن هنا ، فان تحرير القومية من مفهوم الدين الصحيح ولكن تحرير الوحدة العربية من الفكر الاسلامي امر مستحيل ، واذا كانت الوحدة

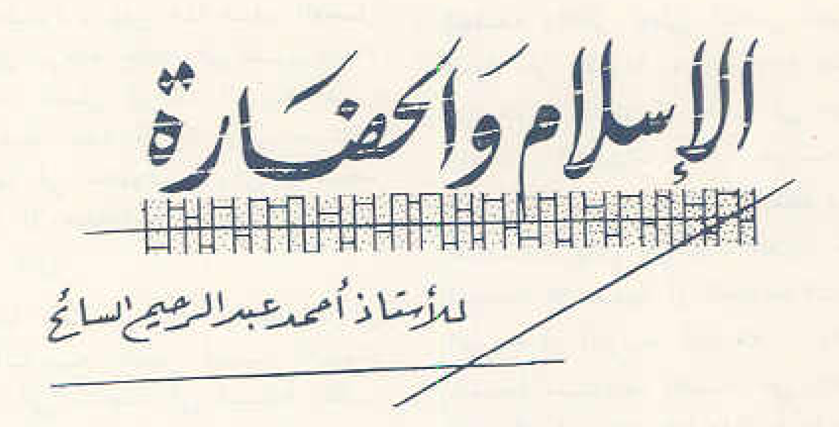
الاسلامية وحدة يقوم بها الاسلام كفكر ودين وحضارة فان الوحدة العربية وحدة امة قاعدة تاريخية ولغتها مستمدة من الاسلام كفكر وحضارة ، ومن هنا فان العمل للوحدة الاسلامية كان مرحلة جاءت فى ظل قيام الدولة العثمانية ، اما العمل للوحدة العربية فهي مرحلة تالية بعد سقوط هذه الدولة وعلى مستوى اكثر تناسقا ، ولكنها فى مجموعها وفى مختلف صورها ، ليست الا محاولة لمقاومة النفوذ الاجنبي : سياسيا وفكريا .

والحق ان الامة العربية حين استيقظت فى منتصف القرن التاسع عشر انما كانت تتطلع الى ان تعود الى مكانها فى قيادة الفكر الاسلامي وهو دور طبيعي فى دوره التاريخي ، غير ان هذا العمل لم يتأت له ان يتحقق على الوجه الصحيح فقد جاءت سيطرة النفوذ الاجنبي على العالم الاسلامي لتضاعف عمل اليقظة وتضيف اليه عملا جديدا فى ميدان المقاومة ومن هنا فان الفكر الاسلامي والثقافة العربية واجهت مرحلة خطيرة كان عليها ان تعمل فى ميدانين فى وقت واحد :

- اليقظة وتحرير العقيدة والفكر .
- مقاومة النفوذ الاجنبي .

وقد كانت كل واحدة من القضيتين تحقق نتائج هامة فى محيط القضية الاخرى ، فتحرير العقيدة والفكر يعطي النفس العربية والاسلامية القوة على المقاومة ، والمقاومة تشحذ الهمة للكشف عن جوهر الفكر الاسلامي فى مواجهة الحملة عليه ولدحض الشبهات المثارة حوله ومن هنا يصدق القول بان جميع حركات اليقظة دينية ام وطنية ام ثقافية ، وكل حركات المقاومة سواء فى نطاق الجامعة الاسلامية او الجامعة الشرقية او الجامعة العربية او القومية الضيقة ، والوطنية انما كانت جميعها تستهدف القضاء على النفوذ الاجنبي اساسا ولم تكن فى مجموعها مغلقة وانما كانت مرحلة تستهدف ان تتوسع بعد ان تحقق هدفها الفرعي . ومما استرعى النظر ان يفهم هذا المضمون كثير من مفكري الغرب امثال « الفريد كانتول سميث » حين يقول : بدت الحركات القومية جامحة تهدف الى التخلص من التدخل الاجنبي ولم تكن هذه الحركات مطابقة للاسلام فحسب بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام » .

القاهرة ــ انور الجندي



العلم والدين : كلمتان من اشيع الكلمات قديما وحديثا ، ولكل كلمة مدلولها ومفهومها وفلسفتها . فالدين هو القوانين الاعتقادية التى جاءت من طريق الوحي الالهي . وهو ضالة الارواح وانشودة العواطف وبلسم جراح الحياة ونسيم الراحة والطمانينة ومهب نفحات الحق وهو واحد لا تعدد فيه بعث الله به الانبياء كافة الى الامم رفعا لما طرا عليهم من الخلاف قال تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين » وجاء فى دائرة معارف القرن العشرين حرف « د » « ان الدين هو الطاعة والانقياد واسم لجميع ما يعبد به الله ».

والعلم لغة بمعنى المعرفة ولا حاجة بنا الى ان نستشهد بكل ما ورد فى المعاجم « ففي اللسان مثلا : علمت الشيء اعلمه علما : عرفته ، وعلم بالشيء : شعر ، وعلمت بالشيء بمعنى عرفته وخبرته والعرفان : العلم وعرفه الامر اعلمه اياه والتعريف : الاعلام . ومثل هذا فى سائر المعاجم .

والمعنى المشارك فيه هو مفهوم : لفظ الادراك ، والاحرى ان اقول : ادراك النفس على الوجه العام الشامل حسيا كان أو ذهنيا .

فالاحساس والشعور وادراك الاشياء وتصورها وفهم معاني الالفاظ : مفرداتها ومركباتها ومؤلفاتها ، وما يعقل وما يتخيل وما يتوهم كل ذلك يصح لغة ، أو لعلة يصح ان يؤدى حصوله فى النفس لفظ العلم ولفظ المعرفة على حد سواء .

والعلم ضربان : ادراك ذات الشيء والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له او نفي شيء هو منفى عنه .

والعلم نظري وعملي : فالنظري ما اذا علم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم والعملي ما لا يتم الا بان يعمل كالعلم بالعبادات والمعاملات . والعلم هو مجموع المعارف الانسانية المؤيدة بالدلائل الحسية والعلم لا يعترف بمسالة الا اذا قبلها العقل وايدها الحس وقبلت الخضوع لاسلوبه من الاختبار والتمحيص والغربلة والتحقيق والتدقيق .

ويطلق العلم ايضا : على ما يضاد الجهل على الاطلاق . وقد يقصد بالعلم تلك المعرفة الرياضية والطبيعية التى قامت على تجارب دقيقة والتى وصل عن طريقها الانسان الى كشف قوة البخار والكهرباء والذرة والفضاء والقمر الى ما شاء الله .

واذا كانت هذه التعاريف تعطي فى مضمونها الحد التام لمعنى كلمتي الدين والعلم فهل يجتمعان او لا يجتمعان ؟

فى نظر الماديين والطبيعيين انهما نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يلتقيان فمفهوم العلم عندهم لا يعدو حدود الطبيعة المادية ولا يجتاز اسوارها .

يقول « هكسلي » يطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من انواع الآلات .

ويقول الاستاذ بلفور : يتوقف العلم فى تحصيله والتثبيت منه على المقاييس ، فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء فهو خارج او يكاد يكون خارجا عن حدود الطبيعة .

ويقول ونـدل : العلم ـ سواء استعـان بالآلات ام لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه من الكائنات وما تهديه اليه فى المعامل الكيمائية والمعامل الطبيعية بالتجارب والآلات التى تمكنه من انتـــزاع غوامض اسرار الطبيعة من مكامنها العميقة .

وما ورد وراء هذا القدر الضئيل يريد العلم المادي الا يصل اليه ولا يجهد نفسه فى البحث فيه. فما هي الطبيعة ومن الذى اوجدهـا ؟ ومن الـذى يمسك الارض والسماوات ان تزولا ؟ وما هي الآلات التى تكبر او تقرب لنا العواطف والميول فى نفـس الانسان من جمال وسرور وسعـادة ؟ وما المقاييس التى نقيس بها درجات تفكير الانسان ومدى ادراكه ووقت فهمه وتحدد لنا ساعة يقظته وساعة نومه ؟..

الحقيقة التى لا يسوغ انكارها ان العلم والدين يلتقيان فى اسعاد البشريـة ورفاهيـة الانسانيـة والوصول بها الى ذروة ما قـدر لها من الاطمئنـان والنجـاح .

غاية العلم : الكشـف عن الحقيقـة وخدمـة الانسـان فى الحياة وغاية الدين : اسعاد الانسانية فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة .

فالدين : اداة لمعرفة الحقيقة والعلم اداة لمعرفة الحقيقة .

اذن : وبدون مجانبة للحق نقـول ان العلـم والدين يواجهان الحقيقة الا ان الطرق مختلفة .

فالدين يعطي المعرفة من طريق الوحـي الالهـي مدركة ببصيرة خاصـة او لقائه فطرية خاصة . على حين ينشـد العلم المعرفة عن طريق البحث والملاحظة ومقاييس التصميم والاختبار والتجربة . والعلم لا يحكم بصدق قضية الا اذا خضعـت لاسلوبـه وقام عليها البرهان .

وان الطرائق العلمية والدينية لتعرف الحقيقة ليست متعارضة ولا ينفي بعضها بعضا . فان الدين والعلم يعالجان حقيقة واحدة غير انهما يمثلان نواحي مختلفة ، والعلم وحده هو الذى يخضع للتجارب فى المعامل ويرى فيها جوهر الحياة وعناصر القوة .

قال العلامة اينشتاين : العلم يخبرنا بما هو كان ولكن الوحي وحده هو الذى يخبرنا بما ينبغـي ان يكون .

وهذه التفرقة التى ذكرها اينتشتاين مهمـة وحقيقة واقعة لا جدال فيها .

فالعلم يصف ويحلل والدين يأمر ، وقد يستطيع العلم ان يفيدنا ما هو الانسـان وكيف اصبح على ما هو عليه ، ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا ام يعيش الانسـان .

قال تعالى « افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » وقال تعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا » والدين وحده : هو الذى يخبرنا ايضا . الى اي غايـة يجب ان توجـه حيـاة الانسـان ، تخلص من هـذا الى ان التطـور الفكـري والبحث العلمي لا يتعارضان مع الاسـلام فـي شيء الانسان ؟..

وليـس لدينا ما يمنع من قبول تلك الآراء التى ذهب اليها الفيلسوف « وليم جيمـس » فى قولـه « ان موضوع العلم وطرق البحث واساليب المعرفـة تختلف عنها فى الدين ومع هذا لا يناقض احدهمـا الآخر . ولكن مما ينبغي معرفته ان الفيلسوف وليم جيمس يتحدث عن دين تنحصر وظيفته فى النهوض بروح الانسـان فحسب .

والاسلام غير هذا لانه ينظم الحياة من جميـع وجوهها . فهو نظام عالمي عام يوجه الانسان فى الحياة ويساعده على ان يحصل لنفسه وللجماعة الانسـانيـة اسمى درجة من الكمال الانساني فى الروح والخلق والمادة والعقل والقيم والتقدم . لانه قانـون الفـرد والجماعة وكل تكييف لعمـل الانسان حسب تعاليـم الاسلام يعتبر عبادة مشروعة .

لهذا كله فسح الاسلام مجـال العلـم للعقـل الانساني وتعدى به اسوار الطبيعة وتغلغل به اسرار الكون والحياة ولم يقف به عند حدود الماديات الطبيعية بل تعداها الى كل شيء فى الحيـاة يفيد الانسـان ويعود عليه بالسـعادة .

والاسلام لا ينـسجم مع نتائج البحث العلمـي والعقلي فحسـب بل قدس هذا النوع من البحث وجعل

متابعته واجبا دينيا يؤجر عليـه الانســان . « طلب العلم فريضة على كل مسلمة » .

وكلمة العلم فى القاموس الاسلامـي اطلقت ولم تخصص بمادة معينة من مواد العلم فوجب ان تبقى مطلقة دون تقييد بمعلوم مخصوص . « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون» «وما يعقلهاالا العالمون» « وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك » «يرفع الله الذين آمنوامنكم والذين أوتوا العلم درجات» «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك » « انما يخشى الله من عباده العلماء » « ويرى الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك من ربـك هـو الحق » .. ويرشدنا هذا الاطلاق الى ان العلم فـي نظر الاسلام ليـس خاصا بعلم الشرائع والاحكام وانما المراد بالعلم فى نظره هو كل ادراك يفيد الانسان توفيقا فى القيام بمهمته التى القيت على كاهله منذ قدر خلقه وجعل خليفة فى الارض وهي عمارتها واستخـراج كنوزها واظهار واسرار الله فيها. فادراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر « علم » وادراك موارد الصناعة على اختلاف انواعها وكيفياتها وتوزيعها : « علم »

وادراك الامراض وعللها وكيفية الوقاية منهـا وعلاجها : « علم » وادراك ما تعرفه الامم من وسائل الدفاع والهجوم حفظا للاوطان والبـلاد من الدخيـل والواغل « علم » . ولقد جاء الايماء بهذا كله واضحـا جليا فى القرءان الكريم وبه كـان العلـم بمعنـاه الشامل العنصر الاول من عناصر الحياة فى نظـر الاسلام .

فالعلم فى القرءان : يشمل كل انواع المعرفـة ومجالاتها التى تتصل بكل ما ينفع الناس فى دينهـم ودنياهم وفى معاشهـم ومعـادهم وفى اجسادهـم وارواحهم ، وهذا امر طبيعي باعتباره نظامـا كامـلا خالدا للبشر كافة ينظم شؤون الدين والدنيا معا . وليس ابلغ فى بيان هذه المجالات من قول صاحـب الرسالة عليه الصلاة والسلام « ان الله انـزل على القرءان ءامرا وزاجرا ومثلا مضروبا فيـه نبؤكـم وخير ما كان قبلكم ونبا ما بعدكم وحكم ما بينكـم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه هو الحق ليـس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن قسم به اقسط ومن عمل به اجر ومـن تمسك به هدي الى صراط مستقيم ».

ولقد اشتمل القرءان على ستة ءالاف ومائتين وثلاثين ءاية منها حوالي سبعمائة وخمسين ءاية كونية وعلمية احتوت اصولا وحقائق تتصل بعلـوم الفلـك والطبيعة وما وراء الطبيعة والاحياء والنبات والحيوان وطبقات الارض والاجنة والوراثة والصحة والصحة الوقائية والتعديـن والصناعـة والتجـارة والمـال والاقتصاد .. الخ . واحتوت باقي الآيات على الاصول والاحكام فى المعاملات وعلاقات الامم والشعوب فى السلم والحرب وفى سياسة الحكم واقامة العدل والعدالة الاجتماعية والتضامن الاجتماعي وكل ما يتصل ببناء المجتمع وفى رسم شخصية المسلم الكامل خلقا وادبا وعلما ، وفيما يجب ان يحتذيه من المثل العليا ومـا يتحلى به من مكارم الاخلاق .

وهذا كله بخلاف العبادات والعقائد والتكاليـف وبخلاف القصص وما احتواه من مواعظ وامثـال ، وغير ذلك من شتى امور الدين والدنيا مما كان محلا الدراسة والاستنتاج والتأصيل والبحث والتنقيب ، وكان اساسا لعلوم الفقه والتفسير والحديث والاصول والاخلاق والاجتماع والبلاغة والادب وغيرهـا سواء اكانت عقلية ام نقليـة .

وكانت معانيه دائما كالماء الصافـي فى بلـور الاناء ومهما تشكل الماء بلون الانـاء بحسب الزمـان والمكان فهو هو نفس الماء ، الذى لا يتغير لونه ولا ينضب معينه ولا يتسنه طعمه ويظـل هـو نفـس القرءان الذى لا تبلى على الزمان جدته ، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقه طول الرد كمـا قال الرسول عليه الصلاة والسلام . ذلك انه من العمق والاتساع ومن العموم والشمول بما يقبل تفهم البشـر له ايا كـان مبلغهم من العلم وبما يفي بحاجاتهـم فى كل عصـر ويتجاوب فى يسر مع فهم اهل البداوة لانه لا يلتوي على الافهام، ويبهر فى عمقه اهل الحضـارة الذيـن صعدوا فى سلم التقدم والرقي وبرعوا فى فنـون العلم والمعرفة لانه يزخر كما يزخر البحر فى قاعـه الدر واللآلىء لمن استطاع الغوص اليها .

احتوى من الآيات الكونية ما ينبه الاذهان ويوجه الانظار الى البحث والتنقيب واستكناه حقائق الاشياء واستكشاف اسرار الكون وتطبيقهـا فيمـا ينفـع واستغلال ثروات الارض وما اودعهـا الله من كنـوز وقوى كونية .

— * —

ومن أوضح سمات القرءان الكريم التى لفتت نظر الباحثيـن فـى القـرءان من المسلميـن وغيـر

المسلمين اشادة القرءان بالعقل وتوجيه النظر الى استخدامه للوصول الى «الحقيقة» فقد دعا القرءان بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه .

ويحرص القرءان على تأكيد هذا المعنى حتى انه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام. ويشير القرءان الى العقل بمعانيه المختلفة ومشتقاته وترادفاته فى نحو ثلاثمائة وخمسين اية مستخدما لذلك كل الالفاظ التى تدل عليه او تشير اليه من قريب أو بعيد من التفكير والقلب ، والفؤاد ، واللب ، والنظر ، والعلم ، والتذكر ، والرشد ، والحكمة ، والراي ، والفقه الى غير ذلك من الالفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها، مما يعتبر ايحاءات قوية بدور العقل واهميته بالنسبة للانسان .

قال العقاد : ففى كتب الاديان الكبرى اشارات صريحة او مضمونة الى العقل او الى التمييز ولكنها تاتي عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القاريء بعض الاحايين شيئا من الزراية بالعقل او التحذير منه لانه مزلة العقائد وباب من ابواب الدعوى والانكار .

ولكن القرءان الكريم لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ولا تاتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الاية بل هي تاتي فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتتكرر فى كل معرض من معارض الامر والنهي ، يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله او يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبوله لحجر عليه ولا ياتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من اصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف اعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرك ولا فى العقل الذى يناط به التامل الصادق والحكم الصحيح بل يعم الخطاب فى الآيات القرءانية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة او وظيفة وهي كثرة لا موجب لتفصيلها فى هذا المقام المجمل اذ هي جميعا مما يمكن ان يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعاني والاشياء .

فالعقل فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الاخلاقي او المنع عن المحظور والمنكر ومن هنا كان اشتقاقه من مادة « عقـل » التى يؤخذ منها العقال وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية ان تتوارد فى اللغات الانسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر . فان كلمة « مايند » وما خرج من مادتها فى اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة ويتادي بها على الغافل الذى يحتاج الى التنبيه ونحسب ان اللغات فى فروعها الاخرى لا تخلو من كلمة فى معنى العقل لها دلالة على الوازع او على التنبيه والاحتراس .

ومن خصائص العقل ملكة الادراك التى يناط بها الفهم والتصور وهي على كونها لازمة لادرك الوازع الاخلاقي وادراك اسبابه وعواقبه تستقل احيانا بادراك الامور فيما ليس له علاقة بالاوامر والنواهي او بالحسنات والسيئات .

ومن خصائص العقل انه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه واسراره ويبني عليها انتاجه واحكامه وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة «الحكم» وتتصل بها ملكة الحكمة، وتتصل كذلك بالعقل الوازع اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغي له ان يطلبه وما ينبغي له ان يأباه .

ومن اعلى خصائص العقل الانساني « الرشد » وهو مقابل لتمام التكوين فى العاقل الرشيد ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم لانها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليهامزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال وقد يؤتى الحكيم من نقص فى الادراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص فى الحكمة ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك .

وفريضة التفكير فى القرءان الكريم تشمل العقل الانساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومداولاتها . فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الاديان .

فمن خطابه الى العقل عامة — ومنه ما ينطوي على العقل الوازع — قوله تعالى فى سورة البقرة : « ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل

والنهار والفلك التى تجري فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

ومنه فى سورة المؤمنون : « وهو الذى يحيي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار ، افلا تعقلون » .

ومنه فى سورة الروم « ومن ءاياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون ، وله من في السماوات والارض ، كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه ، وله المثل الاعلى فى السماوات والارض، وهو العزيز الحكيم ، ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الايات لقوم يعقلون » .

ومنه فى سورة العنكبوت : « وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » . ومنه ما يخاطب العقل وينطوي على العقل الوازع كقوله تعالى فى سورة الملك : « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير » .

وفى سورة الانعام « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون » .

ومنه بعد بيان حق المطلقات فى سورة البقرة « كذلك يبين الله لكم ءاياته لعلكم تعقلون » .

ومنه فى سورة يوسف : « وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم من اهل القرى ، افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الاخرة خير للذين اتقوا ، افلا تعقلون » .

ومنه فى سورة الحشر ، بيانا لاسباب الشقاق والتدابر بين الامم « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بانهم قوم لا يعقلون » .

وهذا عدا الايات الكثيرة التى تبتديء بالزجر وتنتهي الى التذكير بالعقل لانه خير مرجع للهداية فى ضمير الانسان كقوله تعالى « اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون»

وكقوله « يا اهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون » .

وكقوله تعالى: « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزؤا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

« وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الاخرة خير للذين اتقوا ، افلا تعقلون » .

« يا قوم لا اسالكم عليه من اجر، ان اجري الا على الذى فطرني ، افلا تعقلون » .

«اف لكم ولما تعبدون من دون الله، افلا تعقلون»

وفى غير هذه الآيات تنبيه الى العقل فى مثل هذا السياق يدل عليه ما تقدم فى هذه الآيات .

ان هذا الخطاب المتكرر الى العقل الوازع يضارعه فى القرءان الكريم خطاب متكرر مثله الى العقل المدرك او العقل الذى يقوم به الفهم والوعي وهما اعم واعمق من مجرد الادراك وكل خطاب الى ذوي الالباب فى القرءان الكريم فهو خطاب الى اللب هذا العقل المدرك الفاهم لانه معدن الادراك والفهم فى ذهن الانسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية .

« والراسخون فى العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الالباب » .

« قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا اولي الالباب لعلكم تفلحون » .

« الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله ، واولئك هم الالباب » .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لاولي الالباب » .

« يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ، وما يذكر الا اولوا الالباب » .

« وتزودوا ، فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا اولي الالباب » .

« ولكم فى القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون » .

ومن هذه الآيات نتبين ان اللب الذى يخاطبه القرءان الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذى يتلقى الحكمة ويتعظ

بالذكر والذكرى وخطابه خطاب لاناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعي اوفر من نصيب العقل الذى يكفي صاحبه عن السوء ولا يرتقي الى منزلة الرسوخ في العلم. والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والاحسن في القول.

اما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الراي والروية فالقرءان الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى احيانا وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق في احيان اخرى فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التى تتفق احيانا في المدلول – كما قدمنا – ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الاخرى.

« ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون ».

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ».

« قل هل يستوي الاعمى والبصير، افلا تتفكرون ».

« ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

« اولم يتفكروا في انفسهم، ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق »

« انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ».

« اولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء ».

« قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون »

« افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ».

« من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه، افلا تبصرون ».

« اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تاكل منه انعامهم وانفسهم افلا يبصرون ».

« والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ».

« افلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت ءاباءهم الاولين »

« كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا ءاياته »

« افلا يتدبرون القرءان ام على قلوب اقفالها ».

« فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا اولي الابصار ».

« ويبين ءاياته للناس لعلهم يتذكرون ».

« وهذا صراط ربك مستقيما، قد فصلنا الايات لقوم يذكرون ».

« افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوا الالباب »

« وما ذرا لكم في الارض مختلفا الوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون ».

« او يذكر فتنفعه الذكرى »

« فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

« ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ».

« ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

« قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم ».

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ».

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

« يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجت ، والله بما تعملون خبير ».

« هو الذي جعل لكم الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

« قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا »

« خلق الانسان علمه البيان »

« الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

« وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا اولوا الالباب ».

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير فى الاسلام وتبين منها ان العقل الذى يخاطبه الاسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الامور ويوازن بين الاضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار والرواية وانه هو العقل الذى قابله الجمود والعنت والضلال وليس بالعقل الذى قصاراه من الادراك انه يقابل الجنون فان الجنون يسقط التكليف فى جميع الاديان والشرائع وفى كل عرف وسنة ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف فى الاسلام وليس لاحد ان يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه فانها لا تدفع الملامة ولا تمنع للمؤاخذة بالتقصير .

ويندب الاسلام الى من يدين به الى مرتبة فى التفكير اعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة او تمنع عنه المؤاخذة فيستوجب له ان يبلغه بحكمته ورشده ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من ءايات متعددة فى الكتاب الكريم يدل عليها ان الانبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين .. كما جاء فى قصة موسى واستاذه عليهما السلام .

وقبل ان ندخل فى بعض التفاصيل نلقي نظرة احصائية على عدد من الكلمات الموحية او الدالة على العقل والتي لها ارتباط به او بوظيفته فى القرءان الكريم :

العقـــل :

وردت مادة «عقل» بصيغة المضارع (يعقلون ، تعقلون ، يعقل ، تعقل) فى خمسين ءاية من ءايات القرءان وردت بصيغة الماضي فى ءاية واحدة « من بعد ما عقلوه » .

التفكيـــر :

وردت مادة « التفكر » بصيغة الفعل المضارع فى سبع عشرة ءاية وبصيغة الماضي فى ءاية واحدة « انه فكر وقدر ».

الفقـــه :

وردت مادة « الفقه » فى عشرين ءاية بصيغة المضارع (يفقهون ، تفقهون ، نفقه)

الذكـــر :

وردت مادة «الذكر» فى ثلاث وسبعين ومائتي ءاية بصيغتها المختلفة الماضي والمضارع والامر والمصدر والمجرد والمزيد والمضعف والمبني للمجهول والمبني للمعلوم وكلها ذات صلة بالمعنى المراد . ولا يدخل فى ذلك ما ورد تحت هذه المادة مما له صلة بمعنى الذكورة (ضد الانوثة) .

مـدكـــر :

ومذكر من صيغ الذكر او التذكر وردت ست مرات فى ست ءايات فى سورة القمر بصيغة واحدة « ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر » .

الـــراي :

ومادة « راى » فى القرءان كثيرة منها راى البصرية ، ومنها «راى» العلمية ، ومنها ما يحتمل الوجهين غير انني وجدت

ان « راى » التى لها صلة بالتفكر موضوع بحثنا – واضحة بصفة قاطعة فى كل ما استفهم عنه بالهمزة كقوله تعالى « الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه . الم تر الى ربك كيف مد الظل . افلا يرون انا ناتي الارض ننقصها من اطرافها . اولم يروا الى الطير . افرايتم الماء الذي تشربون . وهكذا .. ويزيد عدد الآيات التى وردت فيها «راى التفكرية» عن ثمانين ءاية فى مختلف سور القرءان الكريم .

التدبر :

وورد التدبر فى اربع ءايات فى القرءان : وهي بصيغة المضارع « افلا يتدبرون القرءان . افلم يدبروا القول . مبارك ليدبروا ءاياته » .

القلب :

ووردت كلمة «قلب» فى ستة وعشرين ومائة آية . جاءت مفردة حينا، كقوله تعالى « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد» وجمعا حينا آخر كما في قوله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » .

ووردت مضافة الى الضمائر كقوله تعالى « فانه ءاثم قلبه » «ولكن ليطمئن قلبي» «وربطنا على قلبها» ، «فانه نزل على قلبك»، «وبما كسبت قلوبكم» «ولكن قست قلوبكم » .

اولوا الالباب :

ووردت كلمة الالباب ست عشرة مرة فى ست عشرة ءاية كلها مقرونة بأولي أو اولو وقد جاءت مسبوقة بياء النداء نحو يا اولي الالباب . وبمادة التذكر نحو «ذكرى لاولي الالباب» ، «انما يتذكر اولوا الالباب» ، وبكلمة «عبرة» نحو عبرة لاولي الالباب وبالضمير هم نحو « هم اولوا الالباب» .

الابصار :

و«ابصر»، مثل «راى» لها معنى حقيقي وهو الرؤية بالعين الباصرة ومعنى مجازي وهذا يتصل بالفكر او التفكر والابصار بالمعنى الاخير ورد فى القرءان اكثر من اربعين ءاية نحو « افلا تبصرون – ام انتم لا تبصرون – تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »، وفى ءايتين سبقت بأولي وهي قوله تعالى « فاعتبروا يا اولي الابصار » وقوله « اولي الايدي والابصار » ولا يدخل فى ذلك ما جاء على وزن فعيل (بصير) منسوبا الى الله تعالى نحو « خبير بصير » وقد وردت هذه فى اكثر من اربعين ءاية اخرى .

النهى :

و «النهى» معناها «العقل» وقد وردت فى ءايتين بصيغة واحدة «ان فى ذلك لآيات لاولي النهى» .

الرشد :

و«الرشد» من المعاني ذات الصلة بالعقل. وقد وردت فى القرءان فى تسع عشرة ءاية بصيغ مختلفة منها المضارع « لعلهم يرشدون » والمصدر الرشد والرشاد « وهيىء لنا من امرنا رشدا » ، « قد تبين الرشد من الغي » ، « اهدكم سبيل الرشاد » ومنها صيغة رشيد كفعيل نحو « وما امر فرعون برشيد » .

العلم والعلماء :

ومادة « العلم » من اكثر الكلمات شيوعا فى القرءان هو فيما عدا صيغ « العالمين وعليم ومعلوم واعلام » ، ورد العلم بصيغة المضارع والماضي فى حوالي اربعين وخمس مائة ءاية وردت كلمة « العلماء » فى موضعين هما قوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وقوله تعالى « يعلمه علماء بني اسرائيل »

الفــؤاد :

وردت كلمة « الفؤاد » و « الافئدة » فى القرءان الكريم فى ست عشرة ءاية

الحكمــة :

وردت كلمة «الحكمة» فى تسع عشرة ءاية هذا عدا كلمة «حكيم» المنسوبة لله والتى وردت فى اكثر تسعين ءاية فى القــرءان الكريــم .

العبــرة :

وردت بصيغة الامر فــى آيــة واحــدة « فاعتبروا يا اولي الابصار » وبصيغة المصدر « عبرة » فى ثلاث آيات « ان فى ذلك لعبرة » « ان لكــم فــى الانعــام لعبرة » .

هذه هي بعض الالفاظ التى وردت فى القرآن الكريم مما له صلة وثيقة بالعقل والتفكيــر والعلــم وهي فى مجموعها تكون دائرة واحدة يتصل معناهــا بالعقل ووظائفه فى اوسع معانيه ، هذا وكلمة العلم التى وردت فى القرآن فى اربعين وخمسمائة آيــة ليس المقصود بها فى القرآن (علم الدين) وحسب وانما قصد بها كل علم نافــع ، يرفــع مــن قــدر الانسان وينمي مواهبه العقلية ويجعله اكثر خبــرة ومعرفة بأمور الدين والدنيا واستفادة منها وافادة بهــا .

القاهرة : أحمد عبد الرحيم السائح

« كلمــات مشرقــة »

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت هند بنت عتبة امــرأة ابــي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ان ابا سفيان رجل شحيح لا يعطينــي مــن النفقة ما يكفيني ويكفي ولدي الا مــا اخذت من ماله بغير علمه فهل فى ذلك من جناح ؟ فقال لهــا صلى الله عليــه وسلم : خذي من ماله بالمعروف مــا يكفيك وولدك . . رواه مسلم والبخاري

انتشار الاسلام في الرحاب

للدكتور حامد غنيم أبو سعيد

كلمة الرحاب اصطلاح جغرافي اطلقه المقدسي على احدى مناطق العالم الاسلامي فى القرن الرابع الهجري ، ويعني بها المنطقة التى تضم اقاليم اذربيجان وارمينية واران (او الران) وعلى الصفحات التالية سيدور الحديث عن انتشار الاسلام فى هذه المنطقة من المناطق المحصورة بين آسيا الصغرى وبحر قزوين .

ونبدا الحديث عن انتشار الاسلام فى هذه المنطقة بتحديدها من الناحية الجغرافية فنقول : ان الرحاب هي تلك المنطقة التى تعتبر امتدادا نحو الشمال لاقليم الجبال والعراق وديار ربيعة ؛ حيث يوجد اقليم اذربيجان الى الشرق واقليم ارمينيه الى الغرب ، واخيرا اقليم اران الى الشمال من اذربيجان ويتصل فى الوقت نفسه بالشاطئ الغربي لبحر قزوين . والمنطقة ككل تجاورها من الغرب بلاد الروم وقسم من حدود الجزيرة ، وتحدها من الشرق بلاد الديلم فاقليم جيلان ثم موقان واخيرا بحر قزوين ، اما من الجنوب فانا نجد اقليم الجبال والعراق وبعض حدود الجزيرة، وفى الشمال توجد بلاد الكرج (جورجيا) وبلاد اللان وجبال القبق .

كانت هذه المنطقة تضم عددا من الاجناس البشرية ، ففى اذربيجان كانت الاغلبية الساحقة للاكراد ، فى حين ان الارمن كانوا هم الجنس البشري السائد فى ارمينية . اما اقليم اران فان اهله كانوا خليطا من الاكراد والخزر والارمن ، ولعل ذلك يعود الى اتصال الاقليم الاخير ببحر قزوين ، الامر الذى جعله يستقبل الكثيرين ممن يعملون بالتجارة على اختلاف اجناسهم .

ومن الناحية الدينية فان النصرانية كانت هي الديانة السائدة فى اقليم ارمينية . وبجانب ذلك كانت توجد فى هذا الاقليم ايضا اقليات من اتباع اليهودية والمجوسية . هذا ، وفى الوقت الذى كانت فيه النصرانية هي الديانة السائدة بين الارمن فان المجوسية كانت هي عقيدة الاغلبية الكبيرة من الاكراد. اما الاقلية من الاكراد فان افرادها كانوا يعتنقون النصرانية من وجهة نظر اليعاقبة ، ويضاف الى هذا وذاك وجود بعض الجماعات اليهودية .

وبالنسبة للاقليم الثالث ، اقليم اران ، فانه كان يوجد تشابه كبير بينه وبين اقليم ارمينية ، وذلك من حيث المعتقدات الدينية التى كانت موجودة فى كل ؛ غير أن عدد اليهود فى اقليم أران كان كثيرا اذا قورن بعدد اخوانهم فى اقليم ارمينية ، ويعود ذلك الى أن اقليم اران كان فيما سبق من مملكة الخزر ، ومعروف عن الخزر انهم فى عمومهم كانوا يدينون بالديانة اليهودية .

فاذا انتقلنا الى الجانب السياسي فان اذربيجان كانت واحدة من المناطق المكونة للامبراطورية الساسانية . هذا ، مع انها كانت تتمتع فى نطاق هذه

الامبراطورية بما يشبه الاستقلال الذاتي ، شأنها فى ذلك شأن معظم الاقاليم الفارسية وقت الفتح الاسلامي . وكان حاكم اذربيجان يحمل لقب « المرزبان » ويتخذ من مدينة اردبيل مقرا له .

اما ارمينية فانها كانت فيما مضى تحت حكم الروم ، وقد استطاع كسرى انوشروان ان ينتزعها من ايدي الروم ويضمها الى الامبراطورية الساسانية، وظلت على هذا الوضع حتى قامت الدولة الاسلامية، مع ملاحظة ان الحكم الداخلي فيها ظل فى ايدي عدد من البطارقة من اهل البلاد الاصليين ، ومعنى هذا ان السلطة الفعلية فى ارمينية اثناء محاولات الفتح الاسلامي لها كانت فى ايدي رجال الدين المسيحي ، وسيتضح لنا فيما بعد الى اي مدى كان له تاثيره على محاولات نشر الاسلام فى هذا الاقليم .

والامر لا يكاد يختلف بالنسبة لاقليم اران ، فقد كان تابعا للامبراطورية الساسانية ، وكان يقبض على زمام الحكم فى هذا الاقليم وقت محاولات الفتح الاسلامي له رجل فارسي يحمل لقب « مالك » ويسمى شهربراز ، وكان يقيم فى مدينة الباب التى كانت فى ذلك الوقت المركز الرئيسي لاقليم اران . ويستحسن فى هذه المناسبة ان انبه الى ان كثيرا من المؤرخين قد اعتبروا اقليم اران جزءا من ارمينية ، وكان هذا الاقليم ، لدى اصحاب هذا الاتجاه ، يكون مع بلاد السيسجان ما يطلق عليه اصطلاح « ارمينيه الاولى »

يتضح لنا من هذه المقدمة ان التركيب البشري فى منطقة الرحاب كان متنوعا ، فمن اكراد فى الشرق الى ارمن فى الغرب الى خزر فى الشمال . وبجانب تنوع التركيب البشري كان يوجد تنوع ايضا فى المعتقدات الدينية التى كانت موجودة فى المنطقة ككل . وكانت الديانتان البارزتان هما المجوسية والنصرانية . وبجانب هذا وذاك كانت توجد جماعات يهودية فى كل من الاقاليم الثلاثة .

يحاول الدارس المعاصر ان يجد فى تنوع المعتقدات الدينية التى كانت سائدة فى المنطقة فرصة لتبيان موقف هذه العناصر المختلفة من الدعوة للدين الاسلامي . وبمعنى ءاخر اكثر تحديدا : ان تنوع التركيب البشري وتعدد الاتجاهات الدينية فى منطقة الرحاب يفتح الباب امام الدارس المعاصر للتعرف على الدرجات المتفاوتة فى ردود الفعل التى قوبل بها الدين الاسلامي من افراد هذه الاجناس البشرية واتباع هذه الاتجاهات الدينية .

وتناول للموضوع من هذه الزاوية يقدم للقارىء محاولة علمية جادة ، بجانب انه فى الوقت نفسه يشتمل على عناصر الطرافة والتشويق . ومما لا شك فيه ، ان محاولة كهذه كان من الممكن ان تكون ميسورة لو توافرت لها المادة العلمية بدرجة كافية ، وهذا ما لا نستطيع ان نقول به ، وذلك لما هو معروف من ان اهتمامات المؤرخين العرب فى العصور الوسطى قد توجهت فى المرتبة الاولى الى معالجة حركة توسع الدولة الاسلامية ، لا الى تعقب حركة انتشار الدين الاسلامي ، وحتى بالنسبة لاولئك المؤرخين الذين عنوا بالتاريخ لانتشار الدين الاسلامي فانهم لم يلتفتوا بالقدر المطلوب الى هذه الجزئيات التى تشكل الاساس الذى لابد منه لتقدم مثل هذه المقارنة .

مهما يكن من امر ، ففي ثنايا الدراسة التي بين ايدينا سنحاول بالقدر الذى تسمح به المعلومات التى نعثر عليها ان نقارن بين الدرجات المتفاوتة فى الاستجابة (او الرفض) التى قوبل بها الدين الاسلامي في هذه المنطقة ، ونبدا دراستنا هذه بالحديث عن اقليم اذربيجان .

قلنا فيما سبق ان اذربيجان هي تلك المنطقة التى تقع الى الشمال الشرقي من ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية . واذا اردنا تحديد موقع اذربيجان فى الخريطة الجغرافية المعاصرة فمن الممكن ان نقول بان الجزء الاكبر منها يقع ضمن ايران الحديثة ، فى اقصى الشمال الغربي . اما الاجزاء الشمالية لاذربيجان فانها اصبحت ضمن مناطق نفوذ الاتحاد السوفياتي ، كما ان بعض مناطقها الغربية تقع فى هذه الايام ضمن ممتلكات جمهورية تركيا .

وقد اصبحت الاجزاء التى سيطر عليها الاتحاد السوفياتي تشكل مع اقليم اران ما يعرف الآن بالجمهورية الاذربيجانية ، وهي واحدة من جمهوريات اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية . ولا يزال يغلب على هذه الجمهورية الطابع الاسلامي حتى اليوم، وءاخر احصاء للمسلمين فيها يصل بعددهم الى ما يقرب من ثلاثة ملاين ونصف مليون نسمة ، وهم بهذا يشكلون ما يقرب من ثمانين فى المائة من مجموع السكان هناك .

بعد هذا نبدا فى تتبعنا لانتشار الاسلام فى هذه المنطقة ، وبخصوص هذه القضية نقول : انه فى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

اخذت الامبراطورية الفارسية تتهاوى امام زحف الجيوش الاسلامية المنتصرة . وقد ستطاعت الدولة الاسلامية ، بصفتها السياسية ، ان تبسط سيادتها على الاقاليم الفارسية من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق . وكان اقليم اذربيجان من المناطق التي توجهت اليه الجيوش الفاتحة فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ الفتوحات الاسلامية .

اختلف المؤرخون حول الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الاسلامية لفتح اذربيجان ، ولكن هذا الاختلاف ليس من الخطورة بمكان ، اذ انه محصور بين سنة 18 وسنة 22 من الهجرة ، وكما اختلف المؤرخون حول توقيت اول حملة عسكرية وجهتها الدولة الاسلامية الى هذا الاقليم ، فانهم قد اختلفوا بالتالي حول شخص الصحابي الذى كان اول من فتح هذه البلاد ، فمنهم من يقول ان الذي فتحها هو الصحابي عتبة بن فرقد رضي الله عنه ، ومنهم من يعزو فتحها الى الصحابي حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

وتوفيقا بين وجهات النظر التى يبدو انها متضاربة يمكن ان نذهب الى القول بان اولى الحملات العسكرية الاسلامية قد توجهت الى الاقليم موضوع الدراسة فى سنة 18 هـ، وكانت تحت قيادة الصحابي عتبة بن فرقد . وبعد ذلك توالت الحملات الاسلامية الى اذربيجان بقصد السيطرة الكاملة على كل انحاء الاقليم ، وكان ابعدها اثرا تلك التى قادها الصحابي حذيفة بن اليمان فى سنة 22 من الهجرة .

مهما يكن الامر ، فقد كان من نتيجة الحملة الاولى ، التى هزم فيها الاذربيون ، كتاب امان من عتبة بن فرقد لاهل اذربيجان بمقتضاه منحوا الامان « على انفسهم واموالهم ومللهم وشرائعهم ، على ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم» . ووثيقة الامان هذه التى اوردها الطبري (جـ 4 ص 155 طبعة ذخائر العرب) والتى رجع تاريخها الى سنة 18 هـ توضح لنا ان اهل اذربيجان قد اختاروا طريق التمسك بدياناتهم السابقة فى مقابل دفع الجزية للدولة الاسلامية . كما يفهم من هذه الوثيقة ايضا ان اتباع الديانات الثلاث : المجوسية والنصرانية واليهودية قد اتخذوا موقفا موحدا وهو عدم الاستجابة لما دعوا اليه من اعتناق الدين الاسلامي.

لم يلتزم اهل اذربيجان بشروط هذا الاتفاق ، وكانت نتيجة نقضهم له ان توجهت الى الاقليم حملات اخرى ، كان من اهمها تلك الحملة التى قادها الصحابي حذيفة بن اليمان سنة 22 هـ ، وقد توغل حذيفة بقواته فى اذربيجان حتى وصل الى مدينة اردبيل ، عاصمة الاقليم ، وهنا تصدى المرزبان للقوات الاسلامية . وبعد قتال شديد طلب المرزبان من القائد المسلم ان يعقد معه صلحا ، واستجاب له حذيفة بن اليمان ، وتم بين الاثنين الاتفاق على أساس ان يدفع اهل اذربيجان للدولة الاسلامية جزية سنوية مقدارها ثمانمائة الف درهم « على ان لا يقتل منهم احدا ولا يسبيه ، ولا يهدم بيت نار ، ولا يعرض الاكراد البلاسجان وسبلان وساترودان ، ولا يمنع اهل الشيز خاصة من الزمن فى اعيادهم واظهار ما كانوا يظهرونه (1) » .

وكما هو واضح فان الاتفاق الذى عقده الصحابي حذيفة بن اليمان مع المرزبان يلتقي مع الاتفاق الذى سبق ان عقده عتبة بن فرقد مع اهل اذربيجان فى نقطة واحدة هي التى تسترعي انتباه المهتم بدراسة انتشار الاسلام ، وهذه النقطة هي تعهد القوات الاسلامية الفاتحة بعدم التعرض للاذربيين فيما يختص بشؤون معتقداتهم ، اي عدم اجبارهم على نبذ دياناتهم واعتناق الدين الاسلامي .

وينفرد اتفاق حذيفة بتفصيل اكثر فيما يختص بتوضيح تسامح المسلمين مع اتباع الديانة المجوسية، ويتضح لنا ذلك من النص على ان لا يهدم المسلمون للمجوس بيت نار ، كما يتضح لنا ذلك ايضا من تخصيص طوائف معينة من الاكراد وانه لا يحق للقوات الاسلامية ان تتعرض لها فيما يتصل بممارسة هذه الطوائف لشعائرها الدينية ، وسيتضح لنا فيما بعد سر تخصيص هذه الطوائف بالتحديد .

ولا شك ان المسلمين فى هذا التسامح الديني قد وصلوا الى المدى الذى لا مندوحة بعده ، وخاصة اذا عرفنا ان الاذربيين هم الذين نقضوا الاتفاق الذى سبق ان عقد بينهم وبين الجانب الاسلامي . وهذا التسامح الذى بدا فى موقف كل من عتبة ابن فرقد وحذيفة ابن اليمان ازاء اهل اذربيجان من مجوس ونصارى ويهود هو سمة من السمات الرئيسية التى لازمت حركة انتشار الاسلام بين مختلف الجماعات وفى

---

(1) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة دار النشر للجامعيين ص 455 – 456 .

شتى الانحاء وليس هذا القول مجرد شهادة من فرد يعتنق الاسلام ، بل انه اتفاق التقى حوله الكثير من الدارسين غير المسلمين .

رغم هذا التسامح الديني وهذه المرونة السياسية قامت في اذربيجان سلسلة من الحركات المناوئة للسيادة الاسلامية ، سواء أكان ذلك في العام الاخير من خلافة عمر بن الخطاب ام في اوائل عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما . وقد استطاعت الدولة الاسلامية ان تتغلب على هذه الحركات المناوئة ، محافظة بذلك على المكاسب السياسية التى حققتها .

ومن الممكن القول بأن العلاقة بين الدولة الاسلامية واقليم اذربيجان في هذه الفترة ، والمراد بها الفترة التى تجمع بين السنوات الاخيرة من خلافة عمر بن الخطاب والشهور الاولى من خلافة عثمان بن عفان ، كانت ذات صبغة سياسية خالصة ، اذ لم تسجل المراجع التى بين ايدينا عن المسلمين انهم قد نظموا حملة معينة او وضعوا خطة خاصة لدعوة او حمل اكراد اذربيجان على اعتناق الدين الاسلامي .

ليس معنى هذا القول ان المسلمين لم يسبق لهم ان دعوا الاكراد الى الاسلام ، اذ انه من المعروف عن الفاتحين المسلمين انهم كانوا يلتزمون بخطوات محددة مع اهالي البلاد المراد فتحها ، خطوات تصاعدية تترتب اللاحقة منها على عدم استجابة اهل البلاد للسابقة ، وهذه الخطوات هي : الاسلام فالجزية ثم اخيرا السيف ـ ولكن الذى نعنيه ان العلاقة بين الطرفين فى اثناء تلك الفترة قد تجمدت عند الحدود السياسية ، بل داخل الاطار الرسمي منها ، فقد كان المرزبان فى كلتا المعاهدتين المشار اليهما سلفا يعتبر نفسه هو الممثل لجماهير الاكراد ، وذلك بوصفه الحاكم الرسمي لاذربيجان . وقد قبل الجانب الاسلامي منه هذه الصفة وتعامل معه على اساسها دون القيام بمحاولة لاستطلاع راي الجماهير ، وهذا ما نعنيه بتجمد العلاقة بين الطرفين اثناء تلك الفترة في داخل الاطار الرسمي للحدود السياسية .

ولكني فى الوقت نفسه اسارع فاقول ان هذا المستوى من العلاقات كان مؤقتا بفترة قصيرة ، وقد اعقب ذلك ان انتقل الجانب الاسلامي بعلاقته مع اهالي هذا الاقليم الى مستوى جديد اساسه الاتصال المباشر بجماهير الاذربيين والعمل على نشر الدين الاسلامي بينهم .

وبعون الله تعالى سنفتتح المقال التالي بالحديث عن هذا المستوى الجديد ومدى النجاح الذى حققه بالنسبة لانتشار الاسلام فى هذا الاقليم من منطقة الرحاب .

القاهرة ــ د. حامد غنيم ابو سعيد

من إعجاز القرآن الكريم

للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

- 2 -

ونتحدث هنا عن الجدة في الصورة الادبية القرآنية ، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون بعد ان تحدثنا عن الجدة في الصورة الادبية القرءانية التي يراد منها الجنس الادبي وطريقة الاداء والمنهج الذى ينتهي المتكلم فى التعبير .

والصورة التي نريد ان نتحدث هنا عنها ، ونريد بها الشكل فى النص القرءاني ، لا يمترى احد ، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام فى انها والجدة صنوان ، وفى انها تعلو ببلاغتها على كل بيان .

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للالفاظ والعبارات ، ويضاف اليها مؤثرات يكمل بها الاداء الفني ، من الايقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التي يشقها التعبير ، ثم هناك طريقة تناول الموضوع ، اي الاسلوب الذى تعرض به التجربة الادبية .

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره ، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الادبي وتظهر فيها شخصية الاديب وتخيره للالفاظ تخيرا دقيقا .

ويقف البليغ امام اللفظ طويلا ، يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل كلمة على كلمة ، ويقول كثير من النقاد : اننا نفكر بالالفاظ ، اي ان الالفاظ هي مظهر ادراكنا الفكري ، وعمل الاديب تهيئة الجو الفني للالفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والايقاع وترسم الصور ، وتؤدي المعاني فى رشاقة وحركة وتتابع وعذوبة ، نقرا قوله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة « والضحى ، والليل اذا سجا » فنجد جوا من الهدوء والطمانينة والنعمة ، ونقرا قوله تعالى : «فاصبح فى المدينة خائفا يترقب» ، فتجد كل لفظ فى التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت فى كل جانب خوفا وطلبا لموضع الامن ، ونقرا قوله تعالى « عتل بعد ذلك زنيم » فتجد البلاغة فى ارفع منازلها ، ولا نجد لفظا يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة .. وهكذا نجد الفاظ القرءان الكريم تمثل المعاني تمثيلا دقيقا رائعا كاملا غير منقوص ..

والخيال فى الصورة الادبية يبدو فى مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل ...

والايقاع او اللحن فى الصورة الادبية عنصر لا يقل اهمية عن الخيال .

وموهبة البليغ تجعل اسلوبه مملوءا بالحيوية والمتعة والتأثير ، وتجعله لا يقلد احدا فى لفظه ولا

فى عبارته . وليس الاسلوب حشدا من الالفاظ المرصوصة ، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية ، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى فى الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام ان يراعى فيه مقامات الكلام واحوال لاغته ، فتوضع الجزالة فى موضعها، والرقة والعذوبة فى موضعها ، ويوضع التقديم والتاخير ، والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والايجاز والاطناب ، كل فى موضعه ، وبذلك تكمل الصورة ، وترتفع منزلة الاسلوب فى البلاغة ، ومن البديهي ان ابلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالاحكام الفكرية جزافا ، وانما يجب ان يصور الاسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم واحساسه بالتجربة الشعورية التى يصورها .

والصورة الادبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هو كل شيء فى البلاغة ، او اهم شيء فيها ولو اردنا أن نقول ان الصورة الادبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل او النظم او الاسلوب جاءت على ابلغ ما يكون الاداء فى القرءان الكريم ، وعلى اروع ما يكون التصوير فى اسلوب الذكر الحكيم ، لما اتينا بجديد فى الموضوع .

ان البلاغة القرءانية تحمل عناصر جديدة كل الجدة ، عما الف العرب فى بلاغاتهم ، وليس معنى ذلك ان القرءان الكريم خرج فى أسلوبه وصوره عن النطاق الذى كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتاخير ، والقصر ، والوصل والفصل ، والايجاز والاطناب ، والتشبيه والتمثيل والمجاز والايجاز والاستعارة والكناية والتمثيل والتعريض ، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية الى مستوى القمة ، وحد الاعجاز ، ومنزلة السحر والروعة ، ولو اردنا أن نوازن بين تشبيه قرءاني وبين نظرائه من كلام العرب لوجدنا البون شاسعا ، والفرق بعيدا ، ويطول بنا الامر لو وازنا بين أساليب القرءان وأساليب العرب ، فان النتيجة التى سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الاسلوب والسحر فيه .

والعناصر الاخرى الجديدة فى الصورة الادبية القرءانية كثيرة لا يمكن حصرها ، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير فى طريقها محاولة الكشف عنها، من مثل الوحدة العضوية فى الصورة الادبية ومن مثل التجربة الادبية التى يؤديها البليغ ويجملها كلامه ، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال فى الصورة ، ومن مثل النظم والشكل فى النص ، ومن مثل اثر الالهام او الصفة فى الصورة الادبية ومن مثل الرمزية فى الاساليب او الفكرة ، ومن مثل الوضوح والجمال والتاثير فى الاسلوب ، وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الادبية، كالرقة والجزالة ، وكالتعريض والكناية ، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والعناصر القرءانية للصورة الادبية فيه تمثل الجدة كل الجدة ، فى كل جوانبها والوانها ، سواء منها العناصر القديمة التى تدوول استعمالها فى الاسلوب ، او العناصر الجديدة التى كشف عنها النقاد المحدثون ، او القضايا السائبة المتصلة بالصورة التى كشف عنها النقاد القدماء ، ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف اكون كمن يحاول ان ينقل ماء البحر كله فى ساعة او بعض ساعة ، وكمن يظن ان فى قدرته الاحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد فى اسرار بلاغة القرءان الكريم واعجازه .

— 3 —

وحسبك أن اسلوب القرءان نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن اشراق البيان وجمال الديباجة ، وعبقرية التصوير والتعبير .

اسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، وبين القوة والعذوبة ، وبين حرارة الايمان وتدقيق البيان ، فهو السحر الساحر والنور الباهر ، والحق الساطع والصدق المبين .

نظم رائع والفاظ عذبة ، وخيال صادق ، وعاطفة حارة ، وفكر رفيع ، يملك على القاريء والسامع لبه ووجدانه ، وعقله وبيانه ، ولما سمعه فصحاء العرب وارباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين ، وما ايمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع «فصلت» ، وما تردد بلغاء العرب على الاماكن التى كان يتعبد فيها محمد ليلا ، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، الا دليل السحر القرءاني الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم : «ان هو الا سحر مبين»، وقولهم«ان هذا الا سحر يؤثر » ، السحر القرآني الذي يتمثل فيما يتمثل فى صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، واحكام البيان ، وروعة التصوير .

اي وربي ، وهل تجد افصح ولا اجـزل ولا أسلس من الفاظه ، وهل ترى نظما احسن تاليفا ، واشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب ، واسلوبه القريب ، الآخذ بمجامع القلوب ، ومشاعر النفوس.

ان بلاغة الصورة الادبية وجدتها في القرءان الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع ان يكشف عن خصائصها واسرار اعجازهـا باحث او نـاقـد .

وحسبك روعة القـرءان وجدتـه وحيويتـه واخذه بالافئدة ، والاسماع والمشاعـر والعواطـف والنفوس ، وحسبك خلوده على مر الايام ، واختلاف البيئات والعصور .

هذه البساطـة في الاسلـوب ، والوضـوح والجمال والدقة والقوة فيه . والجزالة والعذوبة في اطرافه ونواحيه تمثل فيما تمثل جانبا من جوانـب عظمة التصوير في القرآن الكريم .

وهذا اعرابي سمع قوله تعالى : « فاصـدع بما تومر ، واعرض عن المشركين » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، وهذا ءاخر سمع قوله تعالى : « فلما استياسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على هذا الكلام ..

وماذا تقول في حسن التأليف تخير الالفاظ ، والتئام الكلمات ، واحكام الصنعة ، وجودة السبك، وكمال البيان ، وجمال الرونق ، ومتانة النسج ؟ وماذا تقول في هذا النظام الفريد ، والنسق الغريب، وفي هذه النضارة والجلالة ومن ذلك الاشراق والبهاء ودقة الصوغ ؟ ..

الفاظ كأنها السحر ، وكأنها الدر ، تشع نورا كما يشع الفجر ، وتهدر حركة وحياة ونموا وتجددا كما يهدر البحر ، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر .

وصور تموج كما تموج العواصف ، وتتحـرك كما تتحرك الاشباح لراكب مسرع في السير .

وبلاغة هي حديث الايام ، والتي سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالى الاعوام ، وما هي الا الضوء السافر ، والهدي الباهر ، والوحي الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

اورايت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيـرة ، وقد تردد على الرسول وسمع منه ، فقال لقومه : والله ما فيكم رجل اعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيره ، ولا باشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئا من هذا ، والله ان لقوله الذي يقـول حلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر اعلاه ، مغدق اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه .

والسورة القرءانية تطول وقد تقصر ، وهي مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات ، مشرقة الصور والقسمات والصفحات ، نسق هو السحر ، وتآخ وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنـه الوحـدة الالهية التي دعا اليها القرآن ، ممثلة في كلمات .

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة قصيرة في نظمهم ، ولكل جملة معنى ، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام ، وجاء القرءان الكريم ، فصـارت الجملة تمثل ارفع المعاني وادقها وسار نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر ، وقد تطول الجملة القرءانية ، وتتركب فيها الصـور ، وتتوالى المشاهد ، وتتعاقب المعاني ، وقد لا يؤدي المعنى القرءاني ءاية او ءايات ، بل عشرات الآيات ، ومع ذلك فان تجد الا فكرا مهذبا ، ونظاما محكما ، وتصويرا منمنما ووشيا منمقا ، واحكاما في الصياغة، ودقة في الصناعة ، ولن تجد الا وشيـا يبهـرك جماله ، ويسحرك جلاله ، ولن تجـد الا العذوبـة والرشاقة والسلاسة والوضوح .

والصورة القرآنيـة تتميـز بالحركـة ودقـة التصوير ، وابراز معالم المعنى جزءا جزءا ، وحركة بعد حركة ، وان شئت فاسمـع قولـه تعالـى : « وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا »، وقوله تعالى : « وعنت الوجوه للحي القيـوم وقد خاب من حمل ظلما » ، وقوله تعـالى : « وتركنـا بعضهم يومئذ يموج في بعض، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » ولو وقفنا عند هذه الآية الاخيرة وهي مـن سورة الكهف لرايـنـا فيها هـذه الحركـة العنيفـة المتدافعة ممثلة في اروع بيان ، وابسـط تعبيـر ، ولراينا فيها هذا الايجاز الرفيع البليغ مع اداء المعنى كاملا غير منقوص ، ولرايـنـا فيها هـذه الصـورة البديعة الممثلة لاروع تصوير للغرض المقصود ، الآية ثلاث جمل قصار :

1 ـــ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض

2 ـــ ونفخ في الصور

3 ـــ فجمعناهم جمعـا .

وترى فى الجملة الاولى الحـركة والتدافـع والاختلاف والاضطراب وما يصيـب النـاس من اثر ذلك من اهوال وعذاب وشدة ، والسر فى ذلك هو كلمة يموج التى ادت لك الصورة كاملة ، والمشهـد رائعا ، والمعنى ممثلا ادق تمثيل ، وادت لك الحركة والحياة ، ومشت بك الى ءافاق رحيبة من جـلال الاداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير .

وفى الجملة الثانية لا تجـد ابلـغ من هـذا التمثيل الذى يصور لك قدرة الله معلنـــة باروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها الى الناس ان قد جاء امر الله ، وان نهاية الامر لابد ان توضع ، وان الناس وهم فى امر مريج لابد ان يستيقظوا لحدث جديد ، وامر عتيد ، وقدر شديد .

وتجيء الجملة الثالثة تعلن لك ان الله عز وجل يجمع الناس جميعا الى ساحته العظيمة ليفصـل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وان قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم ، وشدة شتاتهم ، ومن ثم جاء التاكيد بالمصدر « جمعا » ليدلك على عظمة القدرة ، وروعة المشهد ، وجلال اليد المصرفة لامر الخلق فى هذا الموقف العصيب .

ولو ان بليغا من الناس ، ومن اذكاهم واحذقهم بصناعة البيان ، حاول ان يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره ، وان يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه ، لما استطاع ان يقول ، ولما قدر ان يتكلم ، ولما امكنه ان يؤدي هذا المعنى فى عمقه ودقته بمثـل هـذا الاسلوب السـاحر بجماله وجلاله وروعته .

اي وربي انه القرءان الحكيـم ، انه الذكـر المبين ، انه الجلال والعظمة ، والايجـاز والاعجـاز ، وروعة التصوير التى لا تقف عند حد ، ولا تنتهي الى بيـان .

وماذا اقول ، وانا مهما قلت فلن اقول شيئا ولن ابلغ بكلامي مبلغا ما ؟

يا كتاب الله ، يا معجـزة القـرءان يا ءايـة البيان ، يا روعة الدهور ، يا عظمـة العصـور ، يا جلال السـماء ، يا حكمة الانبياء ، يا وحيا نزل على محمد بن عبد الله .. يا كتاب الله حسبـي ، فـان الانسان لاعجز عن ان يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان ، ودقائق الفرقان ، وروائع التصوير والتبيان .

الرياض : محمد عبد المنعم خفاجي

حقـوق ... وواجبـات ...

قال القاضي ابو حامد : قدمت امراة بعلها الى ابى عمـر القاضـي ، فادعت عليه مالا ، فاعترف به فقالت :« أيها القاضي، خذ بحقي ولو بحبسه، فتلطف لها لئلا تحبسه ، فأبـت الا ذلك ! فأمر به فلما مشى خطوات صاح أبو عمر بالرجل وقال له : « ألست ممن لايصبر على النساء ؟ ففطن الرجل ، فقال : بلى أصلح الله القاضي فقال :خذها معك الى الحبس ، فلما عرفت الحقيقة ندمت على لجاجها وقالت : ما هذا أيها القاضي ؟ فقال لها : لك عليه حق ، وله عليك حق . وما لك عليه لايبطل ما له عليك ، فعادت الى السلامة والرضـــا .



اكثر الماركسيين العرب لا زالوا يحمون بامكانية القضاء على الاسلام. ومن بين هؤلاء العباقرة الدكتور صادق جلال العظم فى كتابه (نقد الفكر الديني) وهذا البحث نظرة نقدية فاحصة ، تتناول كتاب نقد الفكر الديني وبعض الردود عليه ...

— * —

كتاب نقد الفكر الديني – حسب تقديم مؤلفه – : مجموعة ابحاث تتصدى بالنقد العلمي والمناقشة العلمانية والمراجعة العصرية لبعض نواحي الفكر الديني السائد حاليا بصوره المختلفة والمتعددة فى الوطن العربي ، ص 7 .

بهذه الخصائص النادرة الاجتماع ، استهدف الدكتور العظم بمواجهته النقدية الجذرية ، وبصورة رئيسية : المعتقدات والمؤسسات الاسلامية ! فهو يقصد بالدين : (مجموعة المعتقدات والتشريعات والشعائر والطقوس والمؤسسات التي تحيط بالانسان لا باعتباره ظاهرة روحية نقية وخالصة) ! ص 17 .

ومن ثمة فان موضوعات كتاب نقد الفكر الديني، تتصل بالجدال العقائدي والمعترك الفكري الذي يدور فى المنطقة العربية – وفى مناطق عديدة من العالم الاسلامي – ، حول علاقة الاسلام بالهزيمة والتخلف ، والنزاع بين العلم والدين ، والتوفيق بين الاسلام والحياة المعاصرة ، ثم التمركس وانتقاد المعتقدات الاسلامية انطلاقا من الالحاد الماركسي..

ومن المؤسف حقا ان لا نجد اي رد يمكن ان نعتبره وجهة نظر اسلامية قطعية وشمولية تعبر عن الموقف الحقيقي للاتجاه الاسلامي الخالص من هذه القضايا الاساسية ، وتحدد بالتدقيق وتعليل قاطع: الجواب الاسلامي الحاسم على كل المزاعم والاتهامات .

— * —

علاقات الاسلام بالهزيمة

يقول الدكتور صادق جلال العظم : (تبين بعد هزيمة 1967 ان الايديولوجية الدينية هي السلاح النظري والاساسي والصريح للرجعية العربية فى حربها ومناوراتها على القوى الثورية والتقدمية فى الوطن .. كما ان بعض الانظمة التقدمية العربية وجدت فى الدين عكازا تتكىء عليها فى تهدئة الجماهير العربية وتغطية العجز والفشل الذي فضحته الهزيمة عن طريق مماشاة التفسيرات الدينية والروحانية للانتصار الاسرائيلي والخسارة العربية وصمتها حول انتظار النصر الجديد من عنده تعالى ...) ص 9 من كتاب نقد الفكر الديني .

يقرر الدكتور العظم فى هذه الفقرة :

– أولا : الرجعية العربية تحارب القوى التقدمية بالايديولوجية الدينية .

ـ ثانيا : بعض الانظمة التقدمية تستغل الدين في تغطية فشلها وعجزها .

ـ ثالثا : ارجاع الهزيمة للذهنية الدينية والتمسك بالمعتقدات الدينية .

احسن تعليق على النقطتين الاولى والثانية نجده في بيان الاستاذ محمد كامل طبارة امين جمعية المحافظة على القرآن الكريم ببيروت : (اما عن الاسلام واستعماله سلاحا بيد كل الانظمة القائمة من تحررية وثورية واشتراكية ومحافظة فليس للاسلام من يد فيه)

فما هي علاقة الاسلام بالهزيمة ؟ .

الاجابة على هذا السؤال يمكن ان تنطلق من اساسين :

ـ **الاول** : ارجاع الهزيمة الى وجود المجتمع الغيبي التقليدي في العالم العربي. وهو الاساس الذي انطلق منه الدكتور العظم وجماعة من الماركسيين والتقدميين والملحدين . وهم يقصدون بالدرجة الاولى : العقائد والمؤسسات الاجتماعية المنتمية للاسلام .

ـ **والثاني** : ارجاع الهزيمة الى القيادة والتنظيم والتوجيه والفكر السائد.. وهذه كلها لم تخضع الفكرة الاسلامية ، وانما خضعت منذ بداية النكبة الفلسطينية لاتجاهات راسمالية واشتراكية او متراوحة بينهما !

فالاسلام منذ بداية المعركة مع اسرائيل انحسر في العقيدة الشخصية الضميرية ، باستثناء بعض المؤسسات التي لا تأثير لها في مصادر القوة ووسائل العمل !! والمعركة مع اسرائيل كانت باسم القومية العربية ، وجميع الانظمة تبرات من الاسلام خوفا من الحرب الدينية .. !!

واذا اخذنا بعين الاعتبار هذه الحقائق ، تبين لنا بوضوح ، ما يسميه الاستاذ محمد الناصر :بالتعدي السخيف للاسلام ! (1) .

لقد رد المتفلسف كمال يوسف الحاج على راي الدكتور العظم بقوله : (يدعى الدكتور العظم انه يثور على الدين لاجل ثورة فلسطين . ولكن ما هي علاقة الموقف الثوري بالصوم والصلاة ؟ .. أمن الضروري ان نخسر فلسطين اذا صمنا وصلينا ، ثم أمن الضروري أن نسترجع فلسطين اذا كفرنا والحدنا ؟) (2) .

ـ ان هذه الفقرة تقرر :

اولا : انعدام العلاقة بين الدين ومعارك التحرير!

ثانيا : الانتصار ليس رهينا بالتدين ولا بالالحاد!

وهذا في رأيي رد لا يقوم على رجليه ، وانما يبقى مشلولا ، اذا علمنا ان الروح الاسلامية كانت سببا في انتصارات المسلمين وفي وقف الحملات الجاهلية عبر القرون !

— ❋ —

النزاع بين العلم والدين

وانطلاقا من ادانة المعتقدات الاسلامية خاصة، يثير الدكتور العظم ما يسميه بمشكلة النزاع بين العلم والدين . ولا يكتفي بطرح المشكلة وعرض نظريته بل يتعداهما الى مهاجمة المعتقدات الاسلامية بما يسميه النظرية العامية والمناقشة العلمانية والمراجعة العصرية !

ومن المؤسف حقا ان اغلبية الردود على الدكتور العظم لم تكن ردودا في مستوى تهجماته ، اذ هي تبدا وتنتهي بأن الاسلام يحث على طلب العلم ، وتؤكد على التوافق والتناسق بين العلم والدين ، دون تعليق ولا توضيح للتعارض الموجود بين النظرة الاسلامية والنظريات والمفاهيم التي يصفها الدكتور العظم بانها « علمية » ! .

اننا لا نجد في تلك الردود جوابا شافيا قويا على هذه الفقرة : (النظرة الاسلامية نظرة غائية تعتمد في تفسيرها لطبيعة الكون على العلل الغائية والاهداف السامية وعلى مفاهيم اخلاقية مثل الحق والعدل فهي لا تنسجم مع النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصر وثقافته) (3) .

---

1) مجلة جوهر الاسلام ، العدد العاشر ، يونيو 1970 .

2) الايجابية والسلبية في نقد الفكر الديني ، مجلة الفكر الاسلامي ـ العدد الرابع ص 111 .

3) كتاب نقد الفكر الديني ص 37 .

الدكتور العظم يقابل النظـرة الاسلاميـة بمـا يسميه النظرة العلمية في تفسير طبيعة الكون وهـو يقصد بالنظرة العلمية ، نتاج القوى العقليـة الـوارد علينا من المجتمعات الاوربية ! .. وهو نتاج ــ حسب السياق العام للكتاب ــ غير قابل للمناقشة والمراجعة والمواجهة النقدية ! بل ان الايمان بالمعتقدات الاسلامية بعد الاطلاع عليه هو خيانة للامانة الفكرية !!

ليس لي اي اعتـراض على اختيـار الدكتـور العظم للنظرة الجاهلية في تفسير الكون ، فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر ... على ان وصف عقيـدة سبعمائة مليون مسلم بانهـا خرافـات واساطيـر خزعبلات وكلام فارغ ... لا لشيء الا لان مقسنو فليس ورسل ولابلاس ، اعطوا تفسيرات مغايـرة ، غيبية ترتكز اساسا على تحليقات خيالية وتقديـرات سطحية ! .. لهو وصف يكشف عن يـأس التيـارات الجاهلية في مجابهة الاتجاه الاسلامي ، وعن حقـد دفين اصيل لا صلة له بالنظرة العلمية ولا بالنزاهـة الفكرية التي يزعمها لنفسه الكاتب العبقري !!

ولم اجد ردا اكثر سطحية من هذا الرد : (تقبل هذه المعتقدات الدينية التي تقبلها آباؤك واجدادك ولا تخشى شيئا فان تخون مبدا الامانة الفكرية) ! (4) .

ان الدكتور العظم يعلن عن نسخ النظرة العلمية الحديثة للمعتقدات الاسلامية فكيف اذن يطلب منه الايمان بالمعتقدات الدينية ، وبهذه الطريقة الخطابية الازهرية المرتعشة !

ورد الاستاذ محمد كامل طبارة بقولـه : (ان السيد العظم يعلم علم اليقين ان الدين الاسلامي اول دين دعا الى العلم وحض عليه ، كما يعلم ان الاسلام ظهر في عصر جاهلي مليء بالانحطاط ، وقد اعترف بفضل الاسلام على العلم المنصفون من كبار العلمـاء المستشـرقين) !

— * —

ان جميع الردود التي اتجهت الى الدفاع عـن الاسلام من حيث حثه على طلب العلم والـى القـول بالتناسق والتوافق بينه وبين النظريات العلمية .. هي ردود ناقصة ، لان الدكتور العظم يدخل في اطار النظرية العلمية : المناهج العقلية في تقصي المعرفـة والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد ! ، وهذا يقتضي بالضـرورة تحديد مفهوم العلمية والتمييز بين النظرة الاسلامية والنظرة الحديثة للمجتمع والاقتصاد المبنية على رؤية مادية للكون والحياة والانسان !!

العلم في مفهومه الصحيح والاصيل والحديث، هو تلمس ما في عالم المـادة من اشيـاء وظواهـر باستخدام الحس : اي تلمس ما يدخل تحت الاجهزة والآلات تجربة وملاحظة . فلا علاقة للعلـم بما وراء المادة ، ولا شأن له بما ليس في المصنع والمختبـر او المرصـد .

العلم بهذا المعنى لا تناقض ولا تعارض بينه وبين المعتقدات الاسلامية . وهو العلم الـذي حـث على طلبه الاسلام جنبـا الى جنـب مـع علـوم الديـن والشريعة ...

وعلى اساس هذا التمييز ، فان اطلاق الصفة « العلمية » على الاتجاهات العقلانية المادية في الحياة والمجتمع والاقتصـاد ، هو تزيين وتدليـس يتجـاوز نطاق العلم ومفهوم العلمية !! .

يقول الدكتور العبقري : (وهل باستطاعتنا ان ننكر ان الاله الذي مات في اوربا بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تاثير المعرفة والتقدم الصناعـي والمناهج العقلية في تقصي المعرفة والاتجاهـات الثورية في المجتمع والاقتصـاد ؟) !! (5)

هذه الفقـرة تمـزج علـوم الاجهـزة والآلات والمختبرات والتقدم الصناعي ، بالاتجاهات العقلانية والمناهج الثورية في تفسير الحياة والكون والانسان .. والسؤال البسيط الذي يسقط هذا المزج ويبين « لاعلميته » هو : هل ثبت بواسطة الرصد والاختبار والتجريب العلمي ، ان الله تعالى غير موجـود او ان المعتقدات الاسلامية خرافات واساطير وخزعبلات ؟. بداهة هذه الامور لا علاقة لها بموضوع العلم ، لانها لا تدخل تحت المجهر ولا تخضع للتجربة والملاحظة في المختبر ، وانما هي استنتاجات عقلانية وتحليقـات ميتافيزيقية !! .

ونخلص من كل ما سبق ، الى ان النزاع ليس بين الاسلام والعلم ، ولكنه بين المعرفة الاسلاميـة والمعرفة العقلية الحديثة ، وبتعبير آخر هو نـزاع بين الاسلام والفكر المعاصر ...

4) البرهان اليقيني للرد على كتاب نقد الفكر الديني ص 55 .

5) كتاب نقد الفكر الديني ص 28 .

الاسلام والفكر المعاصر

لقد ركز الدكتور العظم طاقاته في ابراز التناقض والنزاع بين النظرة الاسلامية والفكر المعاصر دون تمييز بين المعرفة العلمية والعقلانية . وقد اجابه الاستاذ جابر حمزة فراج بقوله : (ان ادعاءه بوجود الاختلاف الجذري بين الدين والمعرفة العقلية والعلمية ، غير مسلم به ، ويحتاج الى دليل ، وقد سبق ان قدمنا في ردنا التوافق والتناسق التامين بين الدين والمعرفة بمعناها العقلي والعلمي) (6) .

ـ لو افترضنا جدلا مع الاستاذ جابر ان الاسلام يتوافق مع المعارف الراهنة اطلاقا ، لوجدنا ان هذا التوافق غير موجود على صعيد الفكرة والعمل ! ولا استخلصنا ان لا تعارض بين الاسلام والراسمالية والشيوعية والاشتراكية والدكتاتورية !! .. فنعود بذلك الى النقطة التي وجه منها الدكتور العظم سهامه! بل ونجده على صواب جزئي في وصفه لهذا التوفيق بالتوفيق التعسفي والخطابي بين العلم والدين !! .

ان الاسلام يفرض على المسلم ان ياخذ بالمعرفة العلمية ولكنه يعطيه في نفس الوقت تصورات ومفاهيم عن الكون والحياة ، ونظريات وشرائع تنتظم الفكر والمجتمع والاقتصاد .. ثم ان المعرفة العلمية تخضع للتغيير والتحوير والتبديل والتطوير ، وان وجد اختلاف بينهما وبين المعارف الاسلامية ، فذلك يرجع الى قصورها وتخلفها ، ولا نجد عمليا اي اختلاف بينهما الا حين تتدخل التفسيرات العقلية !

ومن ثمة فان المعرفة العقلية الحديثة تختلف من حيث المبدا مع المعرفة الاسلامية لانطلاق كل واحدة منهما من اسس ومرتكزات فكرية متباينة ، الاولى تنطلق من تفسير مادي للكون والحياة. والثانية تنطلق من الالوهية والعبودية والحاكمية لله ..

— ✻ —

هناك رأي آخر للدكتور كمال يوسف الحاج : (لما كان الشرق العربي يواجه دلالة اخرى من دلالات الحضارة الانسانية بسبب التقدم العلمي والاغتصاب الصهيوني ، فقد انبغى له ان يتعرض في مراسيمه الدينية لتحديات الفكر المعاصر . من هنا كان التجديد لازما عندنا حتى في نظرتنا الى المراسيم الدينية ... فهل هذه الصادقية ــ الجلالية ــ العظيمة من تلك المحاولات ؟ ...) (7) .

هذه عبقرية اخرى يجب ان نضيفها الى عبقرية الدكتور العظم ! .. نحن يا دكتور لسنا بحاجة الى تطوير لمعتقداتنا ومراسيمنا الدينية حتى نساير الفكر المعاصر ، فقطاره يسير في اتجاه معاكس لقطار فكرنا الاسلامي .. نحن بحاجة الى انجازات الفكر المعاصر في ميدان التقنولوجيا ، اما تمراته الايديولوجية فلتحتفظ بها المجتمعات الجاهلية !

ان الدكتور كمال الحاج لم يضف جديدا من عنده ، فهو يجتر ما قاله الدكتور العظم : (يجب تحرير الشعور الديني المسحوق تحت عبء المعتقدات الدينية التقليدية المتحجرة وتحت ثقل الطقوس والشعائر الجامدة) ! ! .

وباسف ، اقترح على الدكتور كمال الحاج : ان يضيف الى عقدته حول المسيح : (انسنة الاله والهنة الانسان) ركنا ثالثا هو (عظمة الشيطان) !! ، فالصادقية ــ الجلالية ــ العظيمة تمزج العلم بالشيطان ، وتؤمن اتم الايمان بان (الصراع هو في الانسان بين العلم والدين) (8) .

ان الصراع ليس بين العلم والدين ، والدين عند الله الاسلام، ولكنه بين الدين والتصورات والنظريات الحديثة ... وهو صراع يتجلى بصورة واضحة فيما اسماه الدكتور العظم بالتوفيق « التبريري » بين الاسلام والاوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة !

— ✻ —

الاسلام والفكر التوفيقي

يقول الدكتور العظم : (يهتم هذا النوع من الفكر التوفيقي بين الاسلام والحياة المعاصرة ، بتبرير

---

6) البرهان اليقيني للرد على كتاب نقد الفكر الديني ص 143 .

7) الايجابية والسلبية في نقد الفكر الديني ، مجلة الفكر الاسلامي العدد الرابع ص 104 .

8) القضايا المعاصرة ، الجزء الثالث ابريل 1970 ، كارل ماركس وعقدة المسيح ، حيث يؤكد الدكتور ويبرر هذا الصراع بادلة تاريخية وعلمية وفلسفية !! .

الاوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة مهما كان نوعها على اساس انسجامها التام مع الدين وتعاليمه وشرعه ...) ص 45 من كتاب نقد الفكر الديني .

هذه الملاحظة في محلها ! والاعتراض يقف عند وصف صاحبها بجهله للاسلام وفكرته ، او بخداعه ومغالطته ... ونرجح الوصف الثاني !

فاتهامات الدكتور ذات اساس صحيح ونتائج فاسدة .. فهو على صواب حين هاجم النماذج المتناقضة (راسمالية الاسلام وديمقراطيته واشتراكيته وذكتاتوريته !) .. على انه اخطأ وافدح في الخطأ حين نسب هذه النماذج للاسلام والاسلام منها براء . ثم ان الموفقين المبررين جميعهم لا يتكلمون باسم الاسلام ، وانما يتكلمون باسمهم الخاص وباسم نزواتهم وانتهازيتهم وانهزاميتهم ونوازعهم !

وللاسف الشديد نجد كثيرا من الردود التي تزعم انها تدافع عن الاسلام وتمثل المؤسسات الاسلامية ، لا زالت متأثرة بعزة الجاهلية من قومية وعرقية وانسانية و « تجارب علمية » تمجد كلها الواقع العربي بصورته الحالية .

— ✲ —

يرد الاستاذ حسين القوتلي في مقاله (العلم ونقد المنهج في كتاب نقد الفكر الديني) بقوله : (السيد العظم لا يجوز له ابدا ان يدعو الى رفض الفكر الديني لان انسانا مسلما ساذجا زعم ، الاسلام الحق منه براء ... تماما بالقدر الذي لا يجوز لي فيه مثلا ان ارفض الاشتراكية العربية (المؤمنة) كمبدا اجتماعي اقتصادي خاص بمجرد كون السيد العظم الماركسي الاشتراكي يقرر العكس بضحالة علمية)(9)

ان الاستاذ القوتلي لم يات بجديد في موضوع ملاحظة الدكتور العظم ، فهو رغم معرفته بالانحراف والتفسير والفهم غير الصحيح للاسلام ، يقرر ان الاشتراكية العربية « مؤمنة » وينسى بالتالي ان هذا التقرير يدخل في دائرة « التوفيق التبريري » الذي يهاجمه السيد العظم والذي لا صلة له بالاسلام !

لا اريد ان اناقش الاستاذ القوتلي في رأيه ، فهذه المناقشة تخرج عن اطار هذا البحث ، ومع ذلك فهو يعلم ان الاشتراكية العربية تستقى من التجربة العالمية الاشتراكية ومن ينابيع اخرى غير اسلامية .. بل ويعلم جيدا ان « رجال الدين » ولا سيما اعضاء لجان « الافتاء » ! استخدموا في تغطية هذه الحقائق بالتأكيد على عروبة الاسلام واشتراكيته !!

— ✲ —

الاسلام والتطوير

يقول الدكتور العظم : (يجب تحرير هذا الشعور من سجنه ليزدهر ويعبر عن نفسه بطرق ووسائل مناسبة للاوضاع والاحوال التي نعيشها) !! ويبلل هذا التحرير للشعور الديني ، بان الدين أصبح حصنا لقوى الرجعية والتخلف المواجهة لكل فكرة تحررية حقيقية .

هذا الراى يناقض السياق العام لآراء الدكتور العظم ، على انه لاينسخ الحقد الدفين لديه ، المرتب دون شك عن انجازات الحركية الاسلامية المعاصرة .. ثم ان تعليله خاطيء لاستناده الى استغلال الاسلام من طرف قوى عميلة وضالة لا تقل عمالة وضلالة عن الجهة التي ينتسب اليها العظم ! ..

« التطوير » عتيق في تقديمه وموضوعه .. والمناداة به قديما كانت جهلا فاضحا بالاسلام وتعاليمه ومقوماته ، اما المناداة به اليوم ، فهي حرب منسقة بين المتمركسين والمتامركين للاجهاز على التيار الاسلامي الجارف ..

يقول الدكتور كمال يوسف الحاج : (المراسيم الدينية عندنا تحتاج الى بناء مرة ثانية بمقتضى ما تفرضه الروح العلمية والاغتصاب الصهيوني ... والدين لا يعترض على هذا التطوير) !! (10) .

الدكتور المتفلسف متفق مع السيد العظم ! وقد سبق التعليق على فقرة مشابهة !

ورأينا ، انه اذا كان الشباب العربي جائعا الى حياة افضل ، فليس هناك حياة افضل من الحياة الاسلامية ، وهي حياة لا تحتاج الى التطوير والآراء العبقرية ، فاما اسلام واما جاهلية !

---

9) مجلة الفكر الاسلامي العدد الرابع ص 124 .

10) مجلة الفكر الاسلامي العدد الرابع ص 107 .

لقد انطلق الدكتور العظم مؤيدا للانقلابية الجاهلية ، ولم تأت مناداته بالتطوير وتحرير الشعور الديني ، الا عرضا ولغايات معينة ... ذلك انه انطلق من المنهجية الماركسية واستعمل اساليبها الهجومية ، ومفرداتها النتنة ، ليضرب المعتقدات الاسلامية ويصفها بالغيبية والاسطورية !! فهو من الناحية الموضوعية ، وبغض النظر عن كلامه البذيء اللاعلمي يتبنى نظرة مناقضة للنظرة الاسلامية ، تعبر عن احد الاتجاهات الماركسية المتعددة والمتباينة لذلك سوف نقف بعض الشيء عند ظاهرة التمركس وما يعترضها ! .

— * —

الاسلام والتمركس

لقد انطلق الدكتور العظم من الماركسية وانتقد باسم الماركسية ، وانتهى الى نتائج الماركسية،التي اصبحت — حسب تعبير الكثيرين — في خزائن الماضي !

وان تناقش الدكتور العظم في نظريته الماركسية ، ولن نصفها بالخزعبلات والاساطير والكلام البذيء.. وانما سنكتفي ببيان العوائق النظرية والموضوعية والتطبيقية التي تعترض اخذ المسلمين بهذه النظرية.

ان الاسلام على المستوى العقيدي — هو كالماركسية — نظرة شاملة للحياة . وهذه الصفة تجعله غير متوافق مع النظام الماركسي نظريا وتطبيقيا ، لان التناقض يمتد الى قضايا اساسية كالالوهية والحياة والمجتمع والانسان .. وان كان الدكتور العظم يهاجم العقائدية الاسلامية لتعارضها مع النظرية الماركسية فهذه المهاجمة ليس لها من اثر لان مئات الملايين من البشر ، لا زالت تؤمن بالمعتقدات الاسلامية ولا ترضى عنها بديلا ..

والماركسية بالاضافة الى تطبيقاتها المختلفة ، تعرف مراجعات متباينة من طرف المتمركسين هذه الثغرة الكبيرة انعكست على الماركسيين العرب ، فجعلتهم يقفون مواقف متعددة متباينة ضد الاسلام ، تتراوح بين الماوية والرودنسونية (11) ..ثم ان هذه التناقضات الاساسية جعلت مواقفهم على اختلاف تنظيماتهم ونوازعهم الفكرية ، تقوم على عقلية تتخذ من التمركس حرفة في خدمة المنافع والاهواء الشخصية واستغلال الكلمات المثيرة للعواطف ، واستخدام التدليس والتزيين ..

وبالمقابل ، ينسجم الاسلاميون في اجماعهم الايديولوجي على رفض كلي وشامل لجميع اشكال المجتمع سواء كانت قواعدها راسمالية او اشتراكية.

ومن ثمة فان كل نقد يوجه الى المجتمعات القائمة، لا ينال الاسلام ، ولا يمسه ، لانها مجتمعات — وان كان الاسلام عقيدة لجماهيرها — بعيدة عن الحياة التي يرضاها الاسلام ..

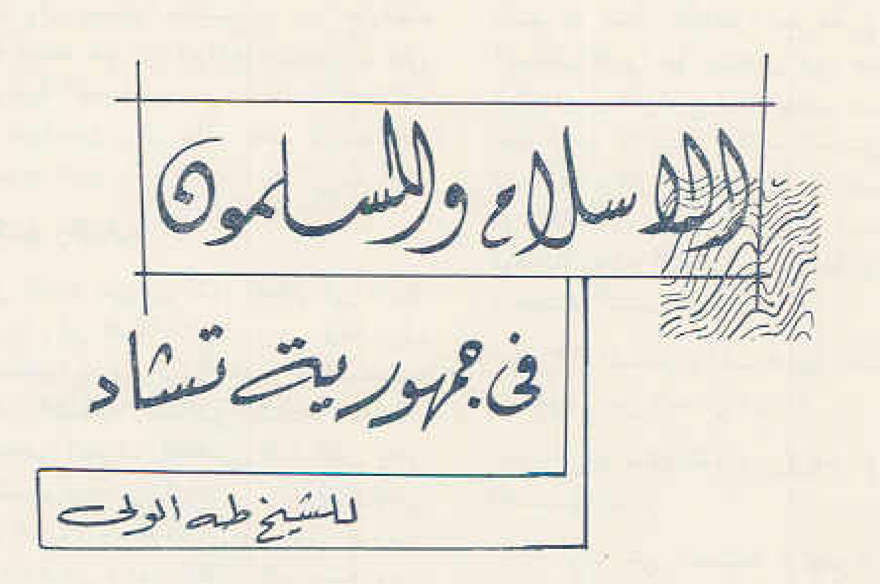
والى جانب التناقضات الفكرية والعلمية بين دعاة الماركسية وثمارها ، نجد العقلية الماركسية تحاول الامتداد والاستقرار في محيط غير قابل للتجدد في اطارها ولا للتفاعل معها ، فاصبحت فريسة البلبلة والفوضى والعجز والتمزق ، لعدم استطاعتها الالتحام مع الواقع الاجتماعي ، وافتقارها الى القدرة على تحطيم بقايا العقلية الاسلامية .

فالماركسية — ولو احترمت الاسلام كعقيدة شخصية — ومشتقاتها — ولو كانت عربية !! اثبتت عجزها وعقمها في محيط الدائرة الاسلامية ، وهو ما ينطبق على مجموع التيارات الجاهلية دون استثناء!.

وجدة : عبد الواحد الناصر

---

11) نسبة الى مكسيم رودنسون المفكر الاجتماعي الفرنسي اليهودي الذي يدعو المسلمين الى الاخذ بالاشتراكية في كتابه الاسلام والراسمالية لعدم **وجود أي تعارض بينها وبين عقيدتهم الاسلام** والراسمالية الاسلامية !! انظر العدد الاول من « دعوة الحق » نونبر 1969 : (نظرات اسلامية في كتاب الاسلام والراسمالية) .



تقع جمهورية تشاد في افريقيا الوسطى . وهي بلاد برية ، ليس لها اي منفذ الى البحر . وتبلغ مساحتها حوالي مليون وثلاثمائة الف كلم مربع . وفيها من السكان زهاء اربعة ملايين نسمة ، ما يزال اكثرهم يعيشون حياة البداوة والفطرة ، على ان بعضهم مستقر في عدد من المدن الصغيرة ، اكبرها فورلامي التي هي عاصمة البلاد وفيها نحو مائة وخمسين الف نسمة ، اما بقية المدن الاخرى فهي اشبه ما تكون بالقرى الكبيرة مثل فور ارشامبو ، وعدد سكانها نحو 35 الف نسمة ، وموندو وسكانها نحو 25 الف نسمة ، واباسه وسكانها نحو 15 الف نسمة .

اما بقية التشاديين فهم مجموعة من القبائل والعشائر التي تنتقل من مكان الى آخر طلبا للامان والكلأ والمرعى .

الملامح الاجتماعية للسكان

يمكن تقسيم بلاد تشاد الى قطاعين كبيرين :

الجزء الشمالي ، حيث تمتد رقعة من الصحاري المتمادية ذات الاقليم القاحل القاسي ، وسكان هذا القطاع اكثرهم من القبائل العربية الذين يمارسون رعاية الماشية ويتعاطون تجارة التمور التي تكثر في نخيل الواحات المنتشرة في هذا القطاع .

الجزء الجنوبي ، حيث تكثر الغابات الكثيفة وتجري بعض الانهار ، وتنمو الزراعات الموسمية . واهل هذا القطاع من العنصر الزنجي وهم يمارسون زراعة القطن او يتعيشون من اعمال الصيد في الانهار والبحيرات والقنص في الغابات .

الاوضاع الدينية السائدة :

بالنسبة للاوضاع الدينية بين سكان تشاد ، فانه يمكن القول بان القطاع الشمالي في هذه البلاد ، غالب اهله من المسلمين على المذهب المالكي ، وتنتشر فيهم الطريقتان الصوفيتان التيجانية والسنوسية . والطريقة الاولى اكثر انصارا من الثانية .

اما في الجنوب ، فانه مع تفشي الاسلام بين سكانه ، فان نسبة كبيرة من هؤلاء السكان ما زالوا على الوثنية الافريقية دين آبائهم الاقدمين . ولقد تمكن المبشرون الاوربيون أن يجذبوا عددا من هؤلاء الوثنيين الى الديانة النصرانية بفرعيها البروتستانتي والكاثوليكي . على ان المتنصرين على المذهب الاول اوفر عددا من الثاني لان المبشرين البروتستانت اكثر فعالية ونشاطا من زملائهم الكاثوليك . ورئيس جمهورية تشاد نصراني على المذهب البروتستانتي .

على انه من الملاحظ ان المسلمين في تشاد يبدون اكثر حرصا على تعاليم دينهم من بقية مواطنيهم لا سيما المتنصرون من هؤلاء المواطنين الذين يكادون

لا يفهمون من النصرانيـة الا ان يتخـذوا لانفسهـم الاسماء التوراتية وان يتصلوا بالمبشرين من اجل قضاء مصالحهم الذاتية بينما هم فى الواقع مستمرون على اتباع التقاليد الوثنية القديمة خصوصا فيما له علاقة بحياتهم العائلية حيث ما يزال نظام تعدد الزوجـات سائدا فيهم والدولة تاخذ به من الناحية الرسمية .

نظـام الحكـم والادارة :

نص دستور البلاد على ان نظام الحكم فى تشاد ديمقراطي جمهوري وفق النظام الرياسي . ويجـري انتخاب رئيس الجمهورية من قبـل افـراد الشعـب مباشـرة . كما ان الشعب التشـادي ينتخب كذلـك نوابه الذين يرشحهم الحزب التقدمي التشادي وهو الحزب الوحيد المسموح به فى البلاد . ويتولى رئيس الجمهورية تعيين اعضاء الحكومة . ومجلس الوزراء فى تشاد يتالف عادة من زعماء الكتل النيابيـة ومن بين اعضاء الحزب التقدمي التشادي . وقـد نـص دستور البلاد على ان الدولة علمانية ليس لهـا مـن قريب او بعيد اي علاقة بعقائـد المواطنيـن الدينيـة والمذهبية . وانه ليس لاى ادارة من الادارات العامة والاجهزة التابعة للحكومة ان تعامل الناس من خلال معتقداتهم الروحية بل من خلال روابطهم القوميـة بالدولة والوطن .

وهكذا فان لكل فرد فى تشاد الحق بممارسة عقيدته الدينية التي يؤمن بها دون ان يسمح القانون لاى انسان بأن يتدخل فى حق غيره باختيـار هـذه العقيدة سواء عن طريـق الترغيـب او عن طريـق الترهيب الا فى الحدود المالوفة لنشر الافكار الدينية بالحكمة والموعظة الحسنة .

وعلمانية الدولة فى تشاد، ظاهرة بشكل واضح، ويكاد الانسان لا يجد اى اثر للطابع الديني فى مختلف القطاعات الرسمية للدولة وغيرها من المؤسسات التي لها علاقة بالاطارات الحكومية العامة .

ولقد تركت حكومة تشاد لمواطنيها امر تنظيم شؤونهم الدينية وما الى ذلك من المعابد والاجهـزة التابعة لها على ان يحافظ هؤلاء المواطنون على البقـاء داخل نطاق الانظمة والقوانين المرعية .

المسلمون وعشائرهم فى البلاد :

كما اشرنا من قبل ، فانه يكثر تكاثف المسلمين فى المناطق الشمالية من بلاد تشاد وهي المناطـق التي تتاخم الحدود الليبية والسودانيـة ، وبسبـب اشتراك تشاد بالحدود مع هذين القطريـن ، فـان السكان كثيرا ما يتنقلون بين هذه الاقطار الثلاثـة ويتبادلون التزاوج فيما بينهم ، وفى تشـاد اعـداد كبيرة من الليبيين والسودانييـن ، منتشـرون فى البوادي والارياف ، وفى المـدن الكبرى جاليـات مرموقة منهم حيث اصبحت مستقرة بصورة دائمـة لمعاطاة انواع التجارة والزراعة واحيانا رعاية الماشية وصيـد السمـك .

أما المسلمون التشاديون انفسهم فهم فى الغالب منحدرون من القبائل التالية :

عرب سلامات، ومركزهم ام التيمان على حدود السـودان .

عرب بني سيـت ، ومركزهم فى العاصمـة « فورلامي » .

عرب الداجو ، وهؤلاء منحدرون من اصل تونسي ومنازلهم فى مناطق « الكانم » .

عرب بني حلبا ، وهم سكان مدينة « اباشة » (العباسية) وما حولها . واقـوى عناصرهـم هـم « الوداى » ذوو البأس والنفوذ فى تلك المنطقة .

زعمـاء المسلميـن فى تشـاد :

ما يزال المسلمون فى تشـاد محافظيـن على تقاليدهم الاجتماعيـة القديمـة وللروابـط القبليـة والعشائرية اثر كبير فى علاقاتهم بعضهم مع بعض . وعندما حاولت الدولة تطبيق القوانين العصرية عليهم اعرضوا عنها وسببوا لها كثيرا من المتاعـب ، ممـا اضطرها فى الآونة الاخيرة الى معالجة المشاكـل الادارية فى المناطق الاسلامية عن طريـق الليونـة والمرونة والاعتراف بالعادات والتقاليد السائدة فى هذه المناطق .

ويطلقون فى تشاد على زعماء المناطق الاسلامية لقب سلطان ، وأهم هؤلاء السلاطين هم :

1 ـ السلطان على بن سليك الذي يرجـع بنسبه كما يقول الى العباسييـن يلقب بأمير المؤمنين، وهو زعيم عشائر الوداى ومركزه مدينة « اباشة » .

2 ـ السلطان اليفاعلي ، زعيم عشائر الكانـم ومركزه مدينة ماو .

3 ـ السلطان ابراهيم مصطفى ، زعيم عشائر الداجو المنتشرين فى منطقة بحر الغزال .

وبالاضافة الى ذلك فانه يعيش فى جنوب البلاد قبائل اسلامية كبيرة لكنها تنتسب الى العرق الزنجي ومن المسلمين فى جنوب تشاد عدد غير قليل من « السارا » الذين كانوا حتى عهد قريب على الوثنية . وهؤلاء السارا مرتع خصب لنشاط المبشرين الاوربيين الذين يحاولون اكتسابهم للنصرانية بمختلف الوسائل .

احوال المسلمين فى تشاد :

يمكن القول ، بأن المسلمين فى تشاد يمتازون باستمساكهم بعروة دينهم الى حد كبير . فهم قوم متدينون ، ولا يكاد المرء منهم يهمل شعيرة من شعائر الاسلام ولا مناسكه . فهم يصومون رمضان المبارك ويؤدون الصلاة فى اوقاتها ، وان المسلم التشادي يحس بسعادة عظيمة عندما يتمكن من اداء فريضة الحج ولو مشيا على قدميه من بلاده الى الديار المقدسة فى الحجاز .

وفى تشاد العديد من المساجد المنتشرة سواء داخل المدن الكبرى او فى المناطق الريفية والصحاري والاماكن الماهولة فى الغابات . وهذه المساجد تتفاوت فى اوضاعها ما بين الفخامة والبساطة بحسب الظروف المحيطة باصحابها من المسلمين ، على ان الغالب فى مساجد المدن ان تكون مبنية بالحجارة والطوب ، او الطين اللازب بينما يغلب على مساجد الارياف والبوادي ان تكون من صنف مساكن هذه الاماكن التي هي عبارة عن اكواخ مصنوعة من اغصان الاشجار وجذوعها ، ويعلوها سقف من اوراق هذه الاشجار او من سعف النخل .

وعلى العموم ، فانه لا تكاد مدينة ولا قرية فى تشاد تخلو من مكان خصصه المسلمون لاقامة صلاتهم فيه . وفى العاصمة « فرلامي » مسجد جامع كبير ، يتسع حرمه الداخلي لاكثر من الف شخص وتحيط به من خارجه ساحة كبيرة . وفى ايام الجمع والمناسبات الدينية الاخرى فان المسجد وهذه الساحة يشغلهما الاف المصلين الذين يتوافدون من جميع اطراف البلد لشهود الجماعة فى مكان واحد وراء امامهم .

ولهذا المسجد الجامع امام ، وهذا الامام هو فى نفس الوقت الرئيس الديني لجميع مسلمي تشاد، واسمه الشيخ موسى ابراهيم . وهو رجل فاضل ، وعلى جانب كبير من التقوى والورع والروح الاسلامية العالية . وبالاضافة الى قيام موسى ابراهيم باداء الشعائر الدينية ورعاية مصالح اخوانه من المسلمين فى تشاد ، فانه مهتم فى الوقت نفسه بتعليم الناشئة قراءة القرآن الكريم وحفظه الى جانب اعطائهم دروسا فى مبادىء اللغة العربية وقواعدها .

وكثيرا ما يتنقل الشيخ موسى بين المدن والقرى والدساكر فى جولة مرة بعد أخرى ، ليتفقد عن كثب شؤون اخوانه فى الدين مستمعا الى مطالبهم وشكاواهم ، وهو ينتهز هذه الفرصة لنصحهم وتوجيههم الى ما يحفظ عليهم دينهم وسلامة ايمانهم .

والامام المذكور ، فضلا عن منصبه الرسمي ، فانه فى نفس الوقت رئيس الطائفة التيجانية فى بلاده وهي الطائفة الاكثر عددا بين مسلمي افريقيا على وجه العموم . ويتمتع الشيخ موسى بمقام محمود ، سواء عند قومه من المسلمين وغير المسلمين وكذلك لدى اركان الدولة والمسؤولين فيها ، لا سيما رئيس الجمهورية السيد فرانسوا تومبالباي الذي يعامله بكل احترام وتوقير ، ويصغى الى مشورته فيما يبديه من الآراء وينفذ له ما هو معقول ومناسب من رغبات الناس ومطالبهم فى حدود المصلحة العامة .

والامام المذكور قد اختير لهذا المنصب من قبل الشيوخ والفقهاء التشاديين ، وهو يعتبر المرجع الاعلى للمسلمين فى الشؤون الدينية فى جميع بلاد تشاد ، واليه شخصيا يرجع البت فى تعيين الموظفين الدينيين من مشايخ المساجد وفقهاء المدارس القرآنية وتدفع له الدولة مبلغا مقطوعا من المال من اصل الميزانية العامة لينفقه على هؤلاء الموظفين وكذلك على بناء المساجد وصيانتها وترميمها وتأمين اثاثها ولوازمها .

وفى العاصمة التشادية ، غير المسجد الجامع الكبير عدة مساجد اخرى موزعة فى اطراف هذه المدينة واحيائها الآهلة بالسكان المسلمين . الا ان هذه المساجد متواضعة نسبيا ان فى حجمها او فى مظهرها . والناس يقصدونها لاداء الصلوات اليومية، بينما هم يحرصون على اداء صلاة الجمعة الاسبوعية فى المسجد الجامع الكبير فقط، وهذا المسجد الذي

تحيط به ساحة واسعة من الارض المظللة باشجار الصنوبر وغيرها، يكتظ بهذه المناسبة الدينية، بآلاف المؤمنين الذين يتوافدون اليه من كل حدب ومن كل صوب .

وقد أمر رئيس الجمهورية مؤخرا ان يرصد فى ميزانية الدولة اعتمادات مالية تكفي لبناء جامع كبير فى فورلامي العاصمة ، وجوامع اخرى فى سائر المدن التشادية التي يتجمع فيها المسلمون . وذلك فى نطاق سياسة الدولة الهادفة الى توثيق علاقتها مع هذه الطائفة من مواطنيها التي سبق ان اشرنا بأنها تؤلف غالبية الشعب التشادي الساحقة .

المستوى الثقافي لمسلمي تشاد :

بينا من قبل ، ان دستور جمهورية تشاد نص على النظام العلماني للدولة . وقد اراد المشرع الدستوري من وراء هذا النص ، ان يأخذ بيد المواطنين الى الخروج من نطاق المنعنات المذهبية والدخول بهم الى بوتقة الاتحاد القومي الذي من شأنه ان يجمع كلمتهم على مواجهة المستقبل بروح وطنية سليمة لا تشوبها المنازعات الضارة التي تستهلك حيويتهم فى المجادلات والمخاصمات التي لا خير فيها ولا طائل من ورائها الا التفرقة والشتات وتأكيد العداوات .

وهنا نحب ان نذكر بأن المسلمين كانوا فى ايام الحكم الفرنسي يتحاشون الدخول فى المدارس الحكومية لاعتقادهم بأن هذه المدارس خاضعة « للكفار » ، لذلك لم يتجاوزوا فى ثقافتهم حدود المعلومات الدينية والعربية التي كانوا يتلقونها فى مدارسهم الاهلية الخاصة التي يسمونها عندهم : المدارس القرآنية .

والمدارس القرآنية هي عبارة عن نوع من الكتاتيب البدائية الملحقة بالمساجد والتي كان يديرها الفقهاء المحليون من ابناء تشاد أو غيرهم من ابناء البلاد الاسلامية المجاورة ، وخصوصا الليبيين والسودانيين المنتشرين بشكل ملحوظ لا سيما فى القسم الشمالي من تشاد .

وتجدر الاشارة فى هذه المناسبة ، الى ان اتصال الاراضي التشادية بالحدود الليبية والسودانية، هو من العوامل الفعالة فى اتصال التشاديين المسلمين باخوانهم من أبناء هذين القطرين المجاورين . لذلك فان كثيرا من اهل تشاد يتزوجون من جيرانهم وكذلك العكس ، كما ان العديد من أهل ليبيا والسودان يتركون بلادهم للاقامة فى اراضي تشاد حيث يمارسون التجارة على أنواعها المختلفة . وقد ادى استقرار هؤلاء الوافدين فى بلاد تشاد انهم ساهموا الى حد كبير فى نشر الاسلام بين السكان المحليين وبناء المساجد وادارة ما فيها من المدارس القرآنية .

ازدواجية الثقافة فى تشاد :

عندما استقلت البلاد فى سنة 1960 ، واجه المسؤولون وبمقدمتهم الرئيس تومبالباي مشكلة أساسية ناتجة عن الشباب المسلم عن الاخذ بأسباب الثقافة العصرية بسبب ما كان يلابس هذه الثقافة من مفهوم اجنبي استعماري فى الاوساط الاسلامية. وعندما اراد الرئيس التشادي توزيع المناصب الادارية والحكومية اصطدم بالفراغ الكبير لدى المسلمين فى صدد العناصر الملائمة لهذه المناصب ولم يتمكن من ايجاد العدد الكافي من الشباب المسلمين الذين يملكون المستوى الصالح من الثقافة العصرية اللازمة مما ادى الى اضطراره للاعتماد على عدد من التشاديين الذين تخرجوا من المدارس الحكومية فى العهد الفرنسي وهؤلاء كانوا فى القالب من النصارى أو بالاصح من المتنصرين الذين اجتذبتهم الارساليات التبشيرية الى مذاهبها الدينية واحتضنتهم فى مدارسها الخاصة . وبطبيعة الحال، فان هذا التدبير الذي فرضه الواقع الاضطراري على رئيس الجمهورية لم يلاق من طرف المسلمين الرضى والقبول ، لانهم وجدوا فيه لونا من رغبة الحكم القائم بأن يجعل مقاليد الامور في البلاد ، تحت تصرف العناصر غير المسلمة التي اعدتها سلفا لمثل هذه الغاية السلطات الفرنسية السابقة بمساعدة المؤسسات التبشيرية اللائذة بها .

يضاف الى ذلك ان الزعماء التقليديين ورؤساء العشائر النافذين فى البلاد ، فسروا تصرف الحكومة بالنسبة الى اشغال المناصب فيها بالمتخرجين من المعاهد الرسمية او غيرها من مراكز الثقافة الغربية والعصرية ، فسروا ذلك بأنه مقدمة تهدف بالنهاية الى القضاء على ما يتمتعون به من مكانة فى مناطقهم وبين انصارهم .

وقد أدى هذا التناقض ما بين الادارة الحكومية واجهزتها من جهة والعناصر التقليدية والدينية من جهة ثانية ، الى فتور العلاقات بين الحاكمين وجمهرة

المسلمين وتوتر اعصاب هؤلاء الاخيرين الى حد تجاوبهم مع النشاطات السلبية لبعض المحرضين السياسيين فى بعض الاحيان .

وهنا يقتضينا الانصاف ان نشير الى ان التعيينات التي لجأ اليها الرئيس تومبالباى فى مختلف اجهزة الدولة وما اليها من الادارات العامة ، لم تكن فى الواقع الا تدبيرا اضطراريا موقتا ، قصد به الرئيس التشادي تحريك عجلة الدولة بما تحت يديه من العناصر التي اصابت حظا من اسباب الثقافة العامة الى أن يتهيأ فى البلاد العدد الكافي من الاشخاص الذين يملكون المؤهلات العلمية والجدارة الفنية بالمستوى المقبول .

الا ان هذا التفسير لاكتظاظ الادارات الحكومية بالموظفين الذين ينتمون الى لون مذهبي معين ، لم يكن من شانه ان يدخل فى روع المسلمين الاقتناع بوجاهته او صوابه ، وبقيت الجمهرة الكاثرة من هؤلاء عرضة للتأثر بمن يستغل فيها هذه الحالة النفسية ويستدرجها الى التعبير عن نقمتها واسهامها باعمال تؤدي فى النتيجة الى خدمة الاغراض الحزبية التي تتناقض واستقرار الامن والهدوء فى طول البلاد وعرضها .

ومن هنا ارتفعت اصوات العديد من المسلمين بطلب المساواة فى البلاد وعلى صعيد الحقوق والمغانم كما انهم متساوون مع غيرهم من الطوائف الاخرى على صعيد الواجبات والمغارم .

ولم تذهب سدى ، هذه الاصوات التي هي فى الاساس بريئة من الدوافع والاغراض الذاتية والانانية ، اذ انها وجدت فى نفس رئيس الدولة ، السيد فرانسوا تومبالباى هوى مستجابا . فلقد اصغى اليها بروح ايجابية . ومن اجل التغلب على الصعوبات التي واجهته ، فان الرئيس التشادي لجا الى تنظيم الدراسة فى البلاد الى نهجين يكمل احدهما الاخر ، اذ جعل الفترة الصباحية من النهار مخصصة للتعليم فى المدارس النظامية الحكومية ، حيث تدرس المواد العصرية من العلوم واللغات ، كما جعل الفترة المسائية من نفس النهار تحت تصرف رؤساء المسلمين من الفقهاء ورجال الدين ، كي يتابعوا مع ناشئتهم ما القوه من الدراسات التقليدية والدينية ، وذلك مراعاة منه لرغبة مواطنيه ، الذين تتالف منهم غالبية البلاد ، فى المحافظة على مدارسهم الخاصة ليتابع ابناؤهم فيها ثقافتهم الروحية والاخلاقية على النحو الذي يطمئنون اليه .

على ان الرئيس تومبالباى ، لم يكتف باباحة المدارس القرآنية والابقاء على مناهجها ، بل انه خصص للانفاق عليها وعلى شيوخها والمسؤولين عنها جزءا من الميزانية العامة للدولة يعطى فى بداية كل عام دراسى الى امام البلاد لشيخ موسى ابراهيم ، الذي يتولى توزيع هذا المال بما يكفي للقيام بأمر التعليم فى المدارس القرآنية المذكورة .

والى جانب هذا التدبير المحلي ، فان الرئيس فرانسوا تومبالباى أعطى أوامره الى المشرفين على مختلف الاطارات التابعة لوزارة التربية والتعليم فى تشاد بان يختاروا من بين أساتذة المدارس عددا فى كل عام لارسالهم فى بعثات رسمية الى المعاهد العليا فى البلاد الراقية كي يتابعوا تحصيلهم العلمي فى نطاق التخصص بمختلف الفروع والاعمال كي يعودوا الى بلادهم مزودين بالخبرة الكافية بما يرفع من مستوى الفكر والثقافة والعلوم بين مواطنيهم حتى يأتي يوم تنعدم فيه ثغرات التفاوت بين هؤلاء المواطنين فى حقول الادارة وغيرها من الاعمال العامة. ولعلنا لا نتجاوز الواقع اذا اكدنا بأن اغلبية أعضاء البعثات التي ترسلها حكومة تشاد الى الخارج هم من المسلمين .

وبهذا الشكل استطاع الرئيس فرانسوا تومبالباى تامين الظروف الملائمة لمواطنيه المسلمين بان يستدركوا ما فاتهم من الوان الثقافة العصرية الى جانب ما هو متوفر لديهم من الثقافة التقليدية ، فضموا الى كفايتهم العلمية ، المناهج الحديثة والاساليب القديمة ، وفى ذلك خدمة شخصية وعامة لهم ولوطنهم فى آن واحد .

المسلمون والادارة فى البلاد :

لا شك فى ان المشكلة الادارية هي أصعب ما واجه بلاد تشاد بعد تحررها من الحكم الاجنبي ، ذلك ان الفرنسيين الذين كانوا يمارسون بأنفسهم السلطة المباشرة فى تلك البلاد ، لم يبذلوا اى مجهود لاعداد التشاديين كي يحلوا فى يوم من الايام محلهم فى ادارة بلادهم وحكم انفسهم بانفسهم، هذا بشكل عام ، سواء بالنسبة للمسلمين او غير المسلمين من ابناء تشاد ، لذلك فانه لما اجري الاستفتاء على تقرير المصير سنة 1959 ميلادية واختار التشاديون

الانفصال عن فرنسا واعلان الاستقلال التام الناجز ، لم يكن يومئذ فى جميع انحاء تشاد أى تنظيم محلي يؤبه له الا الحزب التشادي التقدمي ، الذي كان يضم النخبة المثقفة من الشعب ، وكان هؤلاء النخبة ، على قلتهم ، وحدهم مؤهلين لتولي المراكز الادارية التي شغرت بانسحاب الفرنسيين عنها . وكان اعضاء الحزب المذكور فى الغالب من الشبان الذين تخرجوا من المدارس الحكومية فى حدود الدراسة الثانوية ، واكثرهم من غير المسلمين ، لان هؤلاء الاخيرين كانوا يتحاشون الدخول فى المدارس الفرنسية او التي تشرف عليها الارساليات التبشيرية الاجنبية ، لذلك فان عدد الموظفين الذين استعان بهم رئيس الحزب التقدمي التشادي السيد فرانسوا تومبالباى الذي اصبح أول رئيس جمهورية فى تشاد بعد الاستقلال ، كان عدد هؤلاء محدودا وليس فيهم من المسلمين الا القليل . وهذا أدى بطبيعة الحال الى تذمر الاوساط الاسلامية التي وجدت نفسها شبه معزولة عن المشاركة فى حكم وطنها بعد استقلاله. بيد ان الرئيس تومبالباى سرعان ما عالج الموقف الجديد بما عرف عنه من المرونة والكياسة،واستطاع ان يطوق المضاعفات النفسية لدى مواطنيه المسلمين قبل ان تستفحل وتستشري عن طريق توسيع الصلاحيات الزعماء لتقليديين فى المناطق الاسلامية واصدر التشريعات القانونية التي تخول هؤلاء الزعماء قدرا اكبر من السلطة فى ادارة البلاد التي يمتد اليها نفوذهم فى العادة ، وبذلك افسح المجال امام عدد من رؤساء العشائر الاسلامية للمساهمة مع السلطة الرسمية فى حكم مناطقهم وما فيها من العشائر والقبائل .

واكبر هؤلاء الزعماء هم رؤساء الوداى والكانم والباغيرمي .

ثم ان الرئيس تومبالباى عمد ، فوق ذلك الى اعادة تشكيل حكومته بحيث ادخل فيها عددا اوفى من الوزراء المسلمين الذين اسند اليهم وزارات اساسية فى الحكومة وذلك تاكيدا لرغبته فى ازالة عقدة الكبت والحرمان من نفوس هذه الطائفة الكبرى من مواطنيه . ويؤلف الوزراء المسلمون فى الحكومة التشادية الحالية حوالي نصف اعضائها وهم موزعون كالآتي :

السيد محمد دوبا اليفا : وزير الداخلية ، وهو من الكانم .

السيد أوشاركور غودى : وزير دولة فى رياسة الجمهورية مكلف بشؤون الشبيبة وهو من الوداي .

السيد محمد حسن دادجو ، وزير المياه والغابات والصيد والقنص ، وهو من الداجو .

السيد محمد سنوسي ، وزير الدفاع ، وهو من الوداى .

السيد دنيا مارك ، وزير دولة لشؤون المجلس النيابي ، وهو من السارا .

السيد رحمة صالح ، وزير الاشغال العمومية ، من الوداى .

السيد لامانا عبد الله ، وزير المالية والاقتصاد والمواصلات ، وهو من الباغيرمي .

السيد عبد الرحمن هجار ، وزير دولة لشؤون الزراعة والثروة الحيوانية .

السيد علي سالم ، وزير دولة فى وزارة الاقتصاد والمالية والمواصلات ، وهو من اصل سنغالي .

السيد آدم نشار ، رئيس الجمعية الوطنية ، مجلس النواب ، وهو من الداجو .

والى جانب هؤلاء السادة الوزراء عدد من كبار المسؤولين الرسميين المسلمين يتولون فى القطاع العام بجمهورية تشاد مناصب مهمة سواء فى الجيش أو فى المؤسسات الاقتصادية والصناعية والزراعية التابعة للدولة .

وعلى الرغم من أن الاشخاص الذين عددناهم ، هم من المسلمين ، الا انهم ، فى الواقع ، لم يدخلوا فى الحكومة بصفتهم الدينية ، وانما دخلوها ، باعتبارهم من ذوي الاختصاص والكفاءة ، لان نظام الدولة فى تشاد ، يقوم ، كما اسلفنا من قبل ، على اساس علماني ، ومساهمتهم فى حكم البلاد لا تختلف من حيث المبدا عن طبيعة مساهمة بقية زملائهم غير المسلمين من حيث رغبة رئيس الجمهورية فى التعاون مع ذوي القدرة والاختصاص من بين جميع مواطنيه بصرف النظرعن لونهم الاقليمي أو العشائري أو الديني لان الرئيس المذكور حريص على بناء وطنه على اساس عصري حديث بعيد عن أى تأثير للمنعنات التقليدية الموروثة ، وفى اعتقادنا ان الرئيس التشادي لا يجد حرجا من تاليف حكومته بكامل

اعضائها من المسلمين اذا وجد مصلحة بلاده تقتضي ذلك من اجل تحقيق التقدم والازدهار والاستقرار فى هـذه البـلاد .

تنافس الاديان على اكتساب التشاديين :

قبل ان ناتي على ختام هذا الحديث ، فانه لا بد لنا من التذكير بان بلاد تشاد ما زالت منذ زمن بعيد، تشهد تنافسا شديدا فى ميدان الدعايات الدينيـة والمذهبية ، وذلك فيما بين الارساليات التبشيرية الاوربية التي تدعو للنصرانية وبين رجـال الدعـوة الاسلامية الذين هم فى الواقع اما من نفـس ابنـاء البلاد المحليين او من الليبيين والسـودانيين النازلين فى تشاد عن طريق الهجرة العادية او الذين يمرون بها لاغراض تجارية عارضة .

ان الارساليات الاوربية ، وهي تنتمي لمنظمات مخصصة لاجل القيام بالنشاط التبشيري فى البلدان الافريقية ، تبدي حماسـة تتجاوز فى كثيـر مـن الاحيان حدود المنطق والاتزان لكي تحقـق غاياتهـا المذهبية وتكسب الى جانب الديانة النصرانية اكبر عدد من ابناء البلاد ، لا سيما الوثنيين منهم .

ولعلنا لا نعدو الحق والواقع اذا قلنا بان هـذه الارساليات ، وهي اما بروتـستانتية او كاثوليكية ، تتذرع لتحقيق اغراضها بوسائل لا تخلو احيانـا مـن مظاهر التحدي المقصود بحيث ان هذه الارسـاليات الاجنبية ، قد تسببت مرارا وتكرارا فى اثارة الراي العام الاسلامي ، مما حمل الرئيـس التشـادي على استدعاء المسـؤولين عن هذه الارساليات منبها عليهم وجوب الكبح من جماح انصارهم وردهم الى نطـاق الهدوء والتعقل حرصا منه على مراعاة شعور مواطنيه وضمان حريتهم الشخصية فى ممارسة عقائدهـم الدينية دون اي ضغط او تدخل .

وجدير بالذكر ان المسلمين من اهـل تشـاد قابلوا موقف رئيسهم الحازم من تصرفـات هـؤلاء المبشرين ، بالشكر والتقدير والتاييد .

الدعوة الى الاسلام فى تشاد :

اما اولئك الذين نهضوا للدعوة الى الاسلام ، فانهم كما قلنا منذ قليل ، افراد قد اندفعوا بعامـل الحمية الدينية من تلقاء انفسهم دون ان تنتظمهـم مؤسسـة او تجمعهم رابطـة ، وانما هـم اشخـاص عاديون من ابناء البلاد المحليين الذين تلقـوا العلـم واخذوا ثقافتهم الاسلامية من المعاهـد والمـدارس الموجودة فى البلاد المجاورة ، كالجامعة الاسلامية فى البيضاء بليبيا ، او المعهد الديني فى الخرطـوم بالسودان ، او جامع القرويين فى فاس بمراكـش ، او الازهر الشريف فى القاهرة بالجمهورية العربيـة المتحدة (مصر) وبعض هؤلاء التشاديين درسـوا فى بلادهم نفسها على ايدي بعض المشايخ والفقهـاء من مواطنيهم الذين يدعون « بالفقهاء » .

وهنالك غير هؤلاء من الاشخاص الوافديـن على بلاد تشـاد من خارجها ، وهم رجال الاعمال والتجارة والمزارعون والرعاة الذين هـم من اصـل ليبـي او جزائري او سوداني او مغربي . وهـؤلاء الوافـدون يساهمون بدورهم فى اشاعة الاسلام ونشر دعوتـه بين التشاديين الذين يتصلون بهم بحكم ترددهم على بلادهم او وجودهم المستمر فيها .

وكثيرا ما يقوم الاغنيـاء من هـؤلاء المسلميـن الاغراب ، لا سيما الليبيون منهم ، ببناء المساجـد وتزويدها بالمشايخ الذين يؤمون فيها أداء الشعائـر الدينية وفى نفس الوقت يقومون بدور المعلمين لابناء البلاد من الصبيان والبنات الصغار الذين يرسلهـم آباؤهم وذووهم الى تلك المساجد لكي يتعلموا فيها قراءة القرءان الكريم وحفظه والاخذ بتصيـب مـن قواعد اللغة العربية ومبادئها الاولية الضرورية .

واغلب هؤلاء المسلمين الوافدين اصبحوا مـع الزمن ، مستقرين فى بلاد تشاد ، لا سيما فى المناطق الشمالية من هذه البلاد ، وهم اليوم ، يتمتعون فيها بنفس ما يتمتع به ابناء البلاد الاصليين من الحقوق والامكانيات على جميع المستويات القانونية والرسمية كما ان اغلبهم اصبحوا يحملون الجنسية التشاديـة نتيجة لاقامتهم المتمادية فى البلاد .

موقف المسلمين فى الخارج من مسلمي تشاد :

وهنا لا بد لنا من الاشـارة الـى ان البلـدان الاسلامية الراقية ، تكاد لا تهتم من قريب أو بعيـد بأوضـاع المسلمين فى تشـاد سـواء مـن الناحيـة الاجتماعية او من الناحية الدينية ، ولم يحدث ، على حد علمنا على الاقل ، ان المراجع الروحية فى هذه البلاد توجهت الى شعب تشاد المسلم بالاهتمام الكافي فى ميدان الثقافة والتوجيه . مع ان هذا الشعب هو فى امس الحاجة الى مثل هذا الاهتمام ، كي يتمكن من الحفاظ على شخصيته الاسلامية والصمود بوجه

التيارات التي تتواطأ عليه لتحويله عن عقيدته الدينية وتراثه القومي والروحي .

ونحن لا نجد حرجا في القول بانه كان من الافضل لاولئك الذين يصرون على اتهام الحكومة التشادية على ما يزعمون من تحيزها ضد المسلمين من رعيتها، اندفاعا منهم وراء بعض الدعايات السياسية والاعتبارات الحزبية ، انه من الافضل لهم ان يقلعوا عن مثل هذه الاساليب التي لا تخدم اخواننا في تشاد في قليل او كثير ، وان يبادروا الى التفاهم مع الحكومة المذكورة على رعاية المصالح الدينية الاسلامية عن طريق المبادرات الايجابية البناءة مستفيدين من الرغبة التي يبديها الرئيس فرانسوا تومبالباي من اجل توثيق التعاون الودي المخلص بين بلاده وبين مجموعة البلاد العربية وغيرها من الاقطار الاسلامية.

موقف الرئيس تومبالباي شخصيا من مواطنيه المسلمين :

ولكي تكون منصفين ، واقرب من جادة الحق والعدل ، فاننا نؤكد بهذه المناسبة ، ان الرئيس التشادي ، أعرب اكثر من مرة ، وبصورة لا تقبل الشك والمناقشة ، عن ايمانه الراسخ ، بان مصلحة بلاده العليا تقوم على اساس التعاون المتبادل بينه وبين المسؤولين في بلاد العرب والمسلمين ، **أولا** ، لانه يحكم شعبا أكثريته من المسلمين ، **وثانيا** ، لان تشاد تكاد تكون محاطة من جميع حدودها الاقليمية بالبلاد العربية والاسلامية .

وعلى هذا ، فان سياسة الجفاء والنكاية التي تتبعها بعض الهيئات الاسلامية والعربية نحو تومبالباي ونظامه ، اكراما لبعض الاشخاص الذين لا تخفى اغراضهم الحزبية المحلية ، ان هذه السياسة ليس من شأنها خدمة القضية الاسلامية لا في داخل تشاد نفسها ولا خارجها ، في حين ان الرئيس التشادي ، كما لمسنا عن كثب ، حريص على تأكيد تعاطفه مع الاعتبارات القومية للعالم الاسلامي ، خصوصا فيما يتعلق بقضية فلسطين بالذات ، هذه القضية التي تحتل الاهمية القصوى عند العرب والمسلمين على اختلاف بلادهم وانظمتهم السياسية والتي يجب أن نجعلها محور علاقتنا مع جميع الدول في العالم .

ومن مظاهر السياسة الودية التي يطبقها الرئيس فرانسوا تومبالباي لاظهار حسن نواياه نحو المسلمين والعرب سواء في خارج بلاده او داخلها ما يمكن اعادة تلخيصه فيما يأتي :

1 – رغم ان اسرائيل اعترفت باستقلال تشاد عند اعلان الاستقلال سنة 1960 ، وعينت سفيرا لها في هذه البلاد ، فان التشاد لم تعين بمقابل ذلك سفيرا لها في اسرائيل حتى الان ، مع ان اسرائيل ما زالت تلح على تعيين هذا السفير في كل مناسبة .

2 – أوعز الرئيس تومبالباي الى مندوب حكومة تشاد في هيئة الامم المتحدة بأن يقف بقوة وصرامة الى جانب القرار الذي اتخذه مجلس الامن على اثر العدوان اليهودي في حرب حزيران 1967 .

وعندما زار الرئيس التشادي الاتحاد السوفياتي في غضون العام الماضي ، اصر على ان يتضمن التصريح المشترك الذي اصدره مع الرئيس السوفياتي بهذه المناسبة ، فقرة خاصة بطلب انسحاب القوات اليهودية المعتدية من الاراضي التي احتلتها في الضفة الغربية من فلسطين والاراضي العربية المجاورة خلال الحرب المذكورة .

3 – لم يوافق الرئيس التشادي على السماح لوزير خارجية اسرائيل آباايبان بالمرور في اراضي جمهورية تشاد خلال الجولة التي قام بها هذا الوزير في كثير من الاقطار الافريقية المجاورة .

4 – استصدر الرئيس المذكور من مجلس النواب التشادي مرسوما بقانون اصبحت بموجبه العربية لغة رسمية في البلاد ، ولتعزيز هذه اللغة واشاعتها بين التشاديين تعاقدت الحكومة التشادية مع أكثر من دولة عربية في اتفاقيات ثقافية ثنائية لارسال مدرسين لهذه اللغة الى المدارس الرسمية في تشاد .

5 – الرئيس التشادي برصد اعتمادات ضخمة في صلب الميزانية العامة السنوية من أجل الانفاق على المدارس القرءانية وبناء المساجد وتامين رواتب العاملين فيها من الفقهاء والمشايخ سواء في العاصمة « فورلامي » أو بقية الحواضر والبلدان ذات الاكثرية الاسلامية .

6 – عقدت حكومة تشاد اتفاقات ثنائية مع كثير من الحكومات العربية لايفاد العديد من الشبان التشاديين ، لا سيما المسلمين ، في بعثات علمية موزعة على مختلف الفروع والعلوم والفنون .

7 — اتخذ الرئيس تومبالباى مؤخرا ، قرارا وافق عليه مجلس النواب التشادي ، وهذا القرار يقضي بتوسيع صلاحيات الزعماء المسلمين فى ادارة مناطقهم ورعاية مصالح عشائرهم وفقا للتقاليد المألوفة التي يعتقد هؤلاء الزعماء بانها تحفظ كيانهم ودينهم وتراثهم القومي .

8 — ضاعف هذا الرئيس من عدد الوزراء المسلمين فى حكومته المركزية كما انه اسند الى هؤلاء الوزراء الحقائب الوزارية المهمة فى الحكومة المذكورة .

9 — اجرى اتصالات شخصية مع جميع الحكومات العربية تقريبا ، طالبا اليها اقامة علاقات ديبلوماسية مع حكومة بلاده . وقد تلقى بالفعل من هذه الحكومات اجوبة بالموافقة على طلبه بحيث اصبحت جمهورية التشاد اليوم ممثلة فى البلاد العربية بمستوى السفارات . كما ان العاصمة التشادية اصبحت تضم العديد من السفارات العربية التي تلاقي من رئيس البلاد كل اسباب التعاون واللياقة والاحترام .

ملاحظات فى ختام هذه الدراسة :

وقبل أن نأتي على ختام هذه الدراسة عن الاسلام والمسلمين فى بلاد تشاد ، نحب أن نبادر الى القول بان القارة الافريقية التي كسرت طوق التخلف وانطلقت بسرعة مذهلة فى ميادين النمو والازدهار ، ان هذه القارة اصبحت تضم العديد من الاقطار المستقلة التي تقوم فيها حكومات من ابنائها . وان زعماء هذه الاقطار قد جعلوا كل همهم توفير اسباب التقدم والاستقرار لبلادهم من اي جهة تتجاوب معهم لتحقيق هذه الغاية .

ولعلنا لا نكشف سرا ونأتي بجديد اذا قلنا بهذه المناسبة ، ان القارة الافريقية ، اصبحت للاسباب التي قدمناها ، ميدانا واسعا للمبارزة السياسية التي تقوم بين العرب والمسلمين من جهة وبين الدولة اليهودية والصهيونية العالمية من جهة ثانية ، وان العرب والمسلمين ، فى جميع انحاء العالم ، مدعوون الى مواجهة التحدي اليهودي الصهيوني وخوض هذه المبارزة بجميع الامكانات المادية والوسائل السياسية والدولية كي تفوت على خصومنا فرصة التسلل الى قلب هذه القارة التي هي الآن فى طريق التكامل القومي والتطور الاجتماعي .

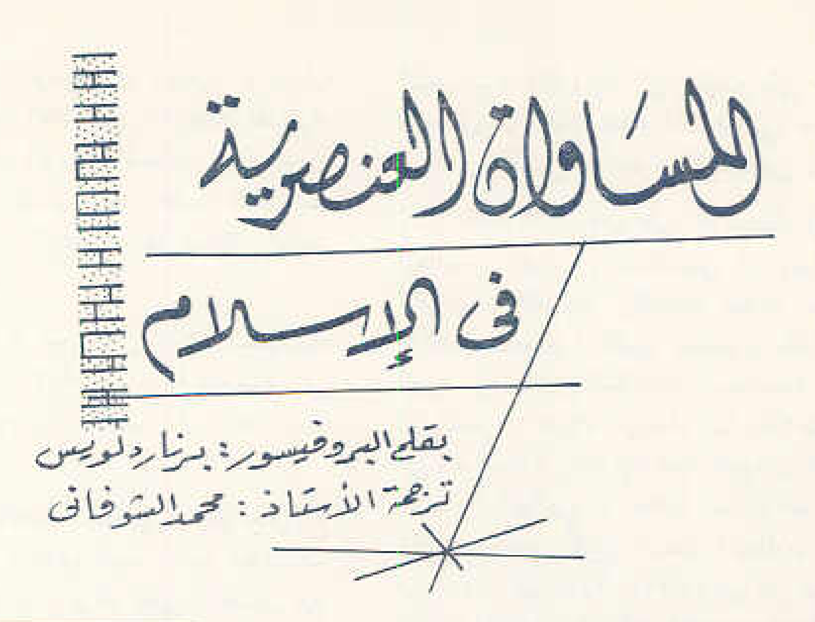
لذلك ، فان على الزعماء والمسؤولين فى العالمين العربي والاسلامي ان يكونوا فى منتهى الكياسة والمرونة واللياقة عندما يتعاملون مع حكام الاقطار الافريقية الذين يحكمون بلادا ما تزال طرية العود فى ميدان العلاقات السياسية ، فلا يجوز بحال ان يتصرف هؤلاء الزعماء بما يفقدهم زمام المبادلة فى افريقيا ، ويتركوا هذا الميدان الهام من ميادين النشاط العالمي ، خاليا لمناورات خصومهم اليهود والصهيونيين الذين اثبتت التجارب انهم لا يتورعون عن انتهاز اي بادرة والافادة من اي فرصة من اجل تثبيت اقدامهم فى أي قطر من الاقطار الافريقية على حساب العرب والمسلمين بشكل عام وعلى حساب قضية فلسطين بالذات بشكل خاص .

بالنسبة لتومبالباى وجمهورية تشاد :

وما دام النظام القائم فى جمهورية تشاد هو المسؤول عن سياسة هذه الدولة وعن علاقاتها الخارجية ، فان على العرب والمسلمين ان يستفيدوا من الرغبة التي يظهرها رئيس الجمهورية التشادية السيد تومبالباى ، فى توطيد علاقته مع العالم الاسلامي من خلال حرصه على مشاركة مواطنيه المسلمين فى بناء وطنه وازدهاره ، فان على الزعماء والمسؤولين فى هذا العالم ان يكونوا عند مستوى المسؤولية القومية التاريخية التي تواجه مصير امتهم ، بصرف النظر عن اى اعتبار آخر ، حتى ولو ادى ذلك الى بذل بعض التضحيات الموقتة والتخلي عن المغانم الحزبية المحدودة . اذ ان الظروف التي تمر بها اليوم بالغة الخطورة والاحداث التي تشهدها امتنا وديننا تمر بسرعة فائقة . وعلى جميع المسلمين سواء فى داخل بلاد تشاد او خارجها أن يضعوا نصب أعينهم القضية المصيرية الكبرى ويجعلوها فوق اي اعتبار آخر .

والله من وراء القصد وهو يهدي الى سواء السبيل .

بيروت : طه الولي



الدراسة التى نقدمها فيما يلي هي للبروفيسور برنارد لويس استاذ تاريخ الشرقين الادنى والاوسط بجامعة لندن . وقد حفزنا على نقلها الى اللغة العربية الجدية التى تناول بها الكاتب الموضوع . والمنهج الذى استعمله فى البحث ، وجدة الموضوع ـ حسب علمنا ـ بالنسبة للدراسات العربية .

وقد قدم هذا البحث كمحاضرة فى لقاء مشترك بين معهد العلاقات العنصرية والمعهد الملكي الانتروبولوجي ، والمعهد الملكي للعلاقات الدولية بانكلترا .

من بين مؤلفات الكاتب « العرب فى التاريخ » ، « ظهور الانسان التركي الحديث » « الشرق الاوسط والغرب » و « الحشاشون »

انني لا ارى اية طريقة اكثر ملاءمة لافتتاح مناقشة هذا الموضوع من ايراد النص الشهير فى كتاب « دراسة التاريخ » للبروفسور توينبي ، الذى يدعم اطلاعه الواسع ، وتزوده بالوثائق فى ذلك العمل الضخم بتجربة شخصية حية .

« فالعرب الاول ، مثلا ، الذين كانوا هم العنصر الحاكم فى الخلافة الاموية سموا انفسهم « بني سمرة » مضمنين التسمية تفوقا عنصريا ، وسموا رعاياهم من الفرس والاتراك « بني الاحمر » مضمنين ذلك وضاعة عنصرهم . اي انهم قاموا بنفس التمييز الذى نقوم به بين الشقر والسمر ، ولكنهم قلبوا القيم التى نعطيها لدرجتي اللون الابيض . يمكن ان يفضل علية القوم النبلاء الشقراوات ، ولكن السمراوات هن الاختيار الاول والمفضل لدى الشعب الذى اصطفاه الله ، وفوق ذلك فان العرب وكل المسلمين البيض كانوا متحررين من عقدة التحيز اللوني ضد الاجناس غير البيضاء ، سواء اكانوا شقرا او سمرا .

وما زال المسلمون يقومون بذلك التقسيم فى الاسرة الانسانية الذى اعتاد المسيحيون الغربيون ان يقوموا به فى القرون الوسطى ، انهم يقسمون الجنس البشري الى مؤمنين وكفار ، الذين هم ايضا مؤمنون بالقوة ، وهذا التقسيم فاصل فى اي اختلاف للجنس الفيزيقي ، وتلاحظ هذه الليبرالية فى المسلمين البيض اليوم اكثر مما كانت عليه عند المسيحيين الغربيين فى قروننا الوسطى ، لانه لم يكن لآبائنا الاولين فى القرون الوسطى الا اتصال ضعيف ، اولم يكن لهم اتصال اطلاقا مع الشعوب المختلفة الالوان ، بينما كان المسلمون البيض فى اتصال مع الزنوج الافارقة ومع الشعوب الداكنة اللون فى الهند منذ البداية ، واستمروا فى تعزيز ذلك الاتصال . وحتى اليوم ، فان البيض والسود

يندمجون تحت راية الاسلام عبر القارة الافريقية والهند طولا وعرضا . وقد برهن المسلمون البيض عن تحررهم من أي شعور عنصري باقوى البراهين والحجج حيث انهم قد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود » (1)

لقد شعر العرب البيض « بنو الاسمر » بسموهم على الشعوب ذات البشرة الاكثر صفاء في الشمال من بلادهم، ولكنهم كانوا متحررين كل التحرر من اي شعور بالتحيز في اللون موجه ضد جيرانهم الاكثر سمرة في الجنوب ، وكان واضحا ان التحيز ضد ذوي اللون الاصفر لم يكن الا مجرد تناقض يبعث على التسلية ، ان التحامل والتحيز ضد اولئك الذين كانت لهم بشرة اكثر سوادا هو المهم ، وحيث ان ذلك غير موجود فمن الممكن القول بان العرب والمسلمين كانوا متحررين من العدوى .

يمكن ان نجد نفس الآراء وقد عبر عنها في كتاباته ملاحظ آخر للاسلام هو مالكوم اكس

«عمى اللون في المجتمع الديني بالعالم الاسلامي ، وعمى اللون في المجتمع الانساني بالعالم الاسلامي ، هاتان القضيتان كانتا تؤثران على تاثيرا عظيما وتمداني باقتناعات معاكسة لطريقتي السابقة في التفكير .

لقد كان هناك عشرات الالاف من الحجاج من كل اقطار الدنيا ، كانوا من كل الالوان ، من الشقر زرق العيون الى الافارقة سود البشرة، ولكننا جميعا كنا نشارك في نفس الطقوس مبدين روح الوحدة والاخوة التي ساقتني تجاربي في امريكا الى اعتقاد انها لن يمكن ان توجد اطلاقا بين البيض وغير البيض . »

ان الشرق الاوسط ارض الاساطير القديمة حيث لم تمت باي شكل من الاشكال ملكة الاسطورة الشعرية ، أي القدرة على انشاء الاساطير والايمان بها وجعل الآخرين يؤمنون بها، وقد يكون من الحكمة اخضاع كل افتراض عام يخص هذه المنطقة الى نقد دقيق .

ويمكن ان يبدا نقد متفحص دقيق مثل هذا بمقطع آخر موح من نفس كتاب السيرة الذاتية لمالكوم اكس :

« لقد كانت هناك ظاهرة لونية في الجماهير المحتشدة ، ولقد حدث ان لاحظت ما يلي وراقبته عن كثب فيما بعد : ان اصلي الامريكي جعلني شديد الحساسية لكل ما يتعلق باللون ، لقد رايت الناس الذين يتشابهون يطوفون مجتمعين ، ويجلسون في الغالب مجتمعين ، ولقد كان ذلك اراديا ، ولم يكن هناك اي سبب آخر ، كان الافارقة مع الافارقة ، والباكستانيون مع الباكستانيين ، وهكذا . وقلت في نفسي انني ساحكي ما لاحظت الى الامريكيين عندما اعود الى بلدي . ساقول لهم انه عندما توجد اخوة بين الالوان ، وحيث لا يشعر اي واحد باي تمييز ، وحيث لا توجد عقدة « الاستعلاء » ولا عقدة « النقص » ، فان الناس الذين هم من جنس واحد يتجاذبون الى بعضهم اراديا وطبيعيا بفعل ما هم مشتركون فيه (2) » .

لقد كان مالكوم اكس ملاحظا دقيقا حساسا انتهت حياته بشكل مأساوي قبل ان تصل طاقاته الى نضجها الكامل ، ولقد كان قادرا مع ادراكه الكامل لمفهوم الزنجي الامريكي ان يرى في الحج بمكة بعض التقليد فيما يخص اللون . رغم ان معتقداته المكتسبة والتي اعتز بها حينئذ منعته من استخراج كل الاعتبارات المختبئة وراء ما رآه .

يمكن حتى للقارىء الذي لا تتعدى معرفته بالادب العربي اكثر من الف ليلة وليلة ان يشعر ببعض الارتياب في صحة هذه الاسطورة ، ويمكن ان تبدا شكوكه منذ بداية الحكاية التالية ، والتي نجد فيها ان الملك شاه الزمن قد غادر بيته للقيام بزيارة لاخيه الملك شهريار ، ولكنه عاد لياخذ شيئا كان قد نسيه ، وعند وصوله الى قصره في منتصف الليل من غير سابق انذار، « وجد زوجته راقدة في فراشه معانقة عبدا اسود من العبيد » ، وتحت تاثير الغضب قتل الملك كلا الآثمين بسيفه وهما ممدان في السرير ، واستانف سفره لزيارة اخيه ،

---

(1) ا. ج. توينبي في كتابة « دراسة التاريخ » (1939) المجلد الاول ص 226 .

(2) السيرة الذاتية لمالكوم اكس (نيويورك ، 1966 ص 9 — 338 ، 340 ، 344 .

وهناك وجد الموقف اكثر سوءا . ففي الوقت الذي كان فيه شهريار في الصيد :

« فتح باب القصر وخرج منه عشرون جارية وعشرون عبدا وامراة اخيه تمشي بينهم وهي في غاية الحسن والجمال حتى وصلوا الى فسقية وخلعوا ثيابهم مع بعضهم واذا بامراة الملك قالت يا مسعود ، فجاءها عبد اسود فعانقها وعانقته ... وكذلك باقي العبيد فعلوا بالجواري ، ولم يزالوا في (....) ! ونحو ذلك حتى ولى النهار » (1).

ومن الواضح ان الملك شاه الزمان والملك شهريار كانا نبيلين جنوبيين ذوي خيال جنسي جامح ، او بالاحرى كانا وكانهما شبحان من الاباما . ويمكن تاكيد هذا الانطباع الجنوبي في الليالي العربية اذا نظرنا من قريب الى الاثر الكبير، فالزنوج يظهرون كثيرا في القصص التي تؤلف الليالي العربية ، وهم غالبا ما يقومون بادوار يدوية كحمالين ، وخدم ، وعبيد ، وطباخين ، وغسالين في الحمام وما شابه ذلك ، ونادرا ما يعلون على هذا المستوى في المجتمع ، وربما كانت حكاية الزنجي العبد الطيب الذي عاش حياته في الفضيلة والتقوى فجوزي على ذلك بتحويل لونه ابيض ، ذات مغزى اكبر (2) .

هكذا نجد انفسنا امام صورتين متناقضتين كل التناقض الاولى يضمها كتاب « دراسة التاريخ » والثانية في تركيب ذلك الاثر الخيالي العظيم ، الف ليلة وليلة ، اولهما يصف المساواة العنصرية في مجتمع متحرر من التحيز او التمييز العنصري ، والثاني يكشف عن ظاهرة مالوفة هي ظاهرة الخيال الجنسي الجامح ، والتمييز الاجتماعي والمهني مع اقتران غير مقصود للون الاصفى بالافضل واللون الادكن الاسود .

ما هو واقع الامر اذن ؟ يجب ان نقوم بتمييز هام عند اية مناقشة للاسلام . ان كلمة « اسلام » تستعمل على الاقل بثلاثة معان ، ويمكن ان يحدث كثير من سوء الفهم عند عدم التمييز بينها . تعني كلمة اسلام اولا الدين الذي جاء به النبي محمد عليه السلام ، والمجسم في القرآن الذي هو الوحي الاسلامي المنزل .

وكلمة اسلام تعني ثانيا التطورات التالية لهذا الدين عبر التقاليد ومن خلال اعمال كبار رجال القضاء وعلماء الكلام المسلمين ، وهي بهذا المعنى تضم بنية الشريعة برمتهاء والقوانين الاسلامية المقدسة ومجموع الكتابات العظيمة في علم الكلام .

اما المعنى الثالث للاسلام فانه لا يقابل المسيحية ولكنه يعني مجموع البلدان والشعوب الاسلامية ، والاسلام بهذا المفهوم ليس ما يؤمن به المسلمون ومن المفروض ان يؤمنوا به ، ولكنه يعني ما قاموا به من اعمال، اي الحضارة الاسلامية كما نعرفها من خلال التاريخ .

وعلي ان احاول توضيح الاختلاف بين تلك المعاني في عرض مناقشتي لمواقف الاسلام من الجنس واللون .

المواقف الاولى

ان اهم النصوص الاسلامية التي ينبغي اللجوء اليها هي القرآن الكريم نفسه ، ومن المناسب هنا ان نبدا بحثنا فيه . وربما كان من المدهش الا توجد الا فقرتان في القرآن الكريم لهما صلة مباشرة بقضيتنا ، اولهما في السورة الثلاثين ، الآية 22 ، وتقول :

« ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين » .

وهي تأتي كجزء من قسم كبير بعدد آيات الله وعظمته ، وتضيف اختلاف الالسنة والالوان كمثال على قدرة الله وابداعه في الخلق لا اكثر .

اما الفقرة الثانية فتاتي في السورة 49 ، الآية 13 ، وهي اكثر تحديدا من سابقتها وتقول :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

---

(1) الف ليلة وليلة ، ترجمة لين ، طبعة منقحة (لندن 1859) مجلد 1 ص 4 ـ 5 .

(2) الليلة 467 والليلة 468 ، بورتون ، كتاب الف ليلة وليلة (لندن 1894) المجلد 4 ص 4 ـ 212 ، هذه الحكاية غير موجودة عند لين ، وموضوع البياض كجزاء شائع .

من الواضح ان القرآن الكريم لا يعبر عن اي تحيز للون او الجنس ، بل ان القرآن الكريم لا يعبر اي انتباه مطلقا لهذا التمييز ، وربما كان لذلك دلالة مطلقة . الفقرتان تعبـران عن وعـي بالاختـلاف ، وثانيتهما تلح على ان التقوى اكثر اهمية من الاصل والمولد، والنقطة المهمة هنا هي بالاحرى اجتماعيـة لا عنصرية ، فالقرآن الكريم ضد الكبرياء القبلية او الارستقراطية لا العنصرية .

وان قضية العنصر ليست موضوعا ملحـا في القرآن الكريم كما هو واضح ، وانما تصبح موضوعا ملحا في عصور تالية كما يمكن ان نجده عند شراح متاخرين لهذين النصين .

ووضوح القرآن الكريم في عدم التحيز للجنس او اللون في عصور ما قبل الاسلام او في العصـور الاولى للاسلام تواكبه نصوص ادبية صحيحة تحدرت الينا من الادب المعاصر .

اننا نجد ادراكا بالاختلاف في القرآن الكريـم كما في الشعر العربي القديم ، نجد شعورا شخصيا عربيا ضد فارسي او يوناني او اية هوية اخـرى ، ولكننا لا نجد اية اشارة واضحة الى ان هذا الشعور كان عنصريا او ذهب أبعـد من الشعـور الطبيعـي بالاختلاف الذى تملكه المجتمعات الانسانية عن نفسـها في علاقاتها مع الاخرين .

الادب العربي القديم يعلمنا الكثير عن مسالـة اللون ، فلقد استعمل الشعـراء الاوائـل عددا من الكلمات المختلفة لوصف الالوان البشرية ، وهي اكثر تعددا مما هو معتاد في الوقت الحاضر ، وهي لا تقابل بالضبط تلك التى نستعملها اليوم والتى تعبر عن احساس مختلف باللـون ، بل هي تهتـم اكثـر بالصفاء والكثافة ودرجة اللـون اكثـر مما تهتـم باختلافه . وتوصف الكائنات الانسانية عادة بكلمات يمكن ترجمتها بالاسود والابيض والاحمر والاخضـر والاصفر ، ودرجتين للبني احداهما ضعيفة والاخرى كثيفة ، وهذه الالفاظ تستعمل عادة بمعنى شخصي لا عنصري ، وهي تقابل الفاظا مثل اسمر ، اشهب ، اشقر ، احمر في استعمالنا الحديـث ، اكثر ممـا تقابل كلمات مثل اسود وابيـض ، وحتـى عندمـا تستعمل بمعنى عنصري فمعناهـا يكون نسبيـا لا مطلقا . فالعرب مثلا يصفون انفسـهم بالسـواد في مقابل الفرس الذين هم حمر ، ويصفـون انفسهـم احيانا اخرى بالحمرة (او حتى البياض) في مقابل الافارقة الذين هم سود ، واللون المميز للبدوي هو الاخضر او البني . وهناك عداء واضح بين الحمر والسود في الشعر العربي ، والمقصـود هم الفرس والعرب ، ولعل ذلك كان رد الفعل للاحتقـار الذى ابداه الفرس المتحضرون للشعوب شبه البربرية في حدود الصحراء ، اما تقييـم الموقـف بين العـرب والافارقة فاكثر صعوبة .

الواقع ان هناك اشعارا كثيرة منسوبـة الى شعراء في عهود ما قبل الاسلام وشعراء في اوائل العهود الاسلامية توحي بشعـور قـوي بالكراهيـة والاحتقار موجه الى اشخاص ذوي اصل افريقي ، ولكن اغلبها ، ان لم تكـن كلهـا تقريبـا ، تنتسب بالتاكيد الى عهود متاخرة ، وتعكس مواقف ومشاكل واهتمامـات متاخـرة . وان الرجـوع الى العهـود الاسلامية الاولى او الى ما قبل الاسلام مظهر مالوف يعترض دائما البحث الاسلامي .

حملت الفتوح الاسلامية العظيمـة العقيـدة الجديدة الى مناطق شاسعة من آسيا وكذلـك الى افريقيا بعد الفترة التى تلت موت الرسول مباشرة، ويمكن ملاحظة كثير من التغييرات في ادب ذلـك الوقت .

اول هذه التغييرات تضيف الفاظ اللون التى توصف بها الكائنات البشرية وتخصيصها ، اذ انها قد اختفت كلها تقريبا باستثناء اسود واحمر وابيض التى اصبحت ذات معنى عرقي ومطلق بـدل كونهـا شخصية ونسبية ، وتعنى كلمة اسود بصفة عامـة ذوي الاصل الافريقي جنوب الصحراء واعقابهم (1) ، وتعني كلمة ابيض (واحيانا احمر خفيف) العرب والفرس واليونانيين والاتراك والسلافيين وشعوبـا اخرى شمال وشرق البلاد السوداء ، ويشار احيانا الى الشعوب الشمالية في مقابل العـرب والفرس

(1) موج لكولدزير مجلد 1 ص 4 ــ 103 و 9 ــ 268 (الترجمة الانكليزيـة ص 100 ــ 99 و 4 ــ 243 ، وانظر كذلك فون كبرانيبوم « طبعة الوحدة العربية قبل الاسلام » في ارابيكـا مجلـد 10 (1963) ، وعن قضية الالفـاظ العربيـةالقديمة لوصف الالوان انظر كتاب فيـش الالمانـي (ويزبادن 1965)

البيض بالفاظ تتضمن ابيض ميتا أو أزرق باهتا وبدرجات اخرى من الاحمر ، ويتسع اللفظ أسود فى بعض المناسبات ليشمل الهنود، ولكن هذا الاستعمال غير شائع .

ويأتي مع هذا التخصيص والتثبيت لالفاظ اللون تضمين جد واضح للنقص الذى يرتبط باللون اكثر دكنة وبالاخص بالبشرة السوداء .

ومما يحكى قصة لها علاقة بالفتح العربي لمصر، والتى يمكن ان تكون آخر ما تبقى من نماذج الموقف القديم اذا كانت صحيحة ، وتقول القصة ان احد القادة العرب واسمه عبادة ابن الصامت اخذ جماعة من المسلمين للقاء المقوقس وهو زعيم قبطي كبير قاد الدفاع عن مصر فى وقت من الاوقات ، ويقول الراوي ان عبادة كان اسود ، وعندما حضر الى مجلس المقوقس يتقدم جماعته ، افزع سواده المقوقس وقال لهم :

« ابعدوا عني هذا الرجل الاسود واتوني بغيره يتحدث الي » فالح العرب على ان عبادة هو افضلهم واحكمهم وانبلهم ، وهو زعيمهم الذى اختاروه يطيعونه ويمتثلون لامره »

فسأل المقوقس : « كيف ترضون ان يتزعمكم رجل أسود ؟ انه من الاليق ان يكون دونكم ؟ »

فاجابوه : لا والله ، رغم انه اسود كما ترى ، فهو افضلنا منزلة وذكاء وحكمة ، لان السواد غير مزدرى بيننا » (1)

يمكن استخراج نقطتين هامتين من هاته الحكاية (*):اولاهما ان الرجل الاسود يظهر كشخصية مرعية لا محتقرة ، ولو ان هذا العنصر غير منعدم تماما ، والنقطة الثانية والاكثر اهمية هي ان عبادة ليس افريقيا ولا حتى من اصل افريقي ، ولكنه نبيل عربي خالص من كلا الطرفين ابيه وامه كما يصر الرواة العرب على التاكيد عليه ، فالسواد هنا ما يزال لفظا شخصيا ونسبيا يصف بشرة الشخص لا عرقيا ومطلقا يتضمن تمييز علامات الجنس والعنصر . « ان السواد ليس مزدرى بيننا » لا تعني اكثر من ان اولئك الاشخاص ذوي البشرة السوداء لا يعتبرون ادنى من اولئك الذين لهم بشرة خفيفة . وقد وقعت حكاية النبيل الاسمر فى اوائل التوسع العربي ، اما فى عهد الخلفاء الراشدين وفى عهد الخلفاء الامويين بصفة خاصة فاننا نجد برهانا قاطعا على تغير جذري فى المواقف.

أغربة العرب

يمكن استخراج البرهان على تغيير المواقف من نوعين من المصادر ، اولهما مصادر ادبية وخاصة من الشعر والحكايات . عدد من الشعراء العرب قبل الاسلام وفى العصور الاولى للاسلام يوصفون بالسواد ويعرفون جماعيا بالنسبة للتقاليد العربية بـ « اغربة العرب » (2) ، وقد كان بعضهم عربا ذوي بشرة سوداء فى عهود ما قبل الاسلام غالبا ، وكان بعضهم الآخر مزيجا من اصل افريقي عربي ، وقد كان السواد بالنسبة لهؤلاء بلوى ، وخاصة بالنسبة للافارقة الخلص. وقد وصفوا فى اشعارهم وقصصهم آلام الاهانة والتمييز التى عانوها ، وكراهيتهم لذلك، وقبولهم لوضعهم الدوني الناتج عن اصلهم رغم ذلك

وكان سهيم احد هؤلاء ، ولد عبدا من اصل افريقي وهو يشتكي فى احد اشعاره بأنه اذا كان لونه اسود ، فان النساء يحببنه ، ولكن الله زوجه مع السواد .

وفى شعر آخر يدافع عن نفسه : (سابقا وليم بايك فى ذلك) :

وان اك حالكا لوني فاني
لعقل غير ذي سقط وعاء

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر طبعة س . س . توري (نيوهافن) 1922 ص 66 وانظر روتر ص 92

(2) تعرض كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (897 — 967) لهؤلاء الشعراء وجاء بنماذج من اشعارهم (طبعة بولاق فى 20 مجلدا 1285 9 — 1868) وهناك طبعة بالقاهرة غير تامة — واحدث وصف غربي هو كتاب ر. بلاشير : تاريخ الادب العربي (66 — 1952)

(*) الذي نعرفه ، وكما ذكره علماء السير ان النبي (ص) بعث حاطب ابن ابي بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية .. وقد ذكر الحافظ بن حجر فى الاصابة فى ترجمة عبادة ابن الصامت وقال : وروى ابن سعد فى ترجمته انه كان طوالا جميلا وسيما ... **التحرير ....**

وما نزلت بي الحاجات الا
وفي عرضي من الطمع الحياء (1)

وفي نفس النطاق يقول :

فان يك من لوني السواد فانني
لكا لمسك لا يروي من المسك ذائقه

وما ضر اثوابي سوادي وتحتها
لباس من العليا ، بيض بنائقه

وتنسب هذه الابيات الى نصيب (المتوفى سنة 726) ، وهو ربما كان انبغ هؤلاء الشعراء السود . وقد كان شاعرا بمولده مدركا للونه وتحمل من اجلهما كثيرا من الاهانات ، وفي احدى المناسبات قال الشاعر العربي الكبير كثير مازحا :

رأيت ابا الحجناء في الناس حائرا
ولون ابي الحجناء لون البهائم

تراه على ما لاحه من سواده
وان كان مظلوما له وجه ظالم

فقيل لنصيب : الا تجيبه ؟ فقال : لا ، ولو كنت هاجيا لاحد لاجبته ! ولكن الله اوصلني بهذا الشعر الى خير فجعلت على نفسي الا اقوله في شر ، وما وصفني الا بالسواد وقد صدق ، افلا انشدكم ما وصفت به نفسي ؟

قالوا : بلى ..

فانشدهم قوله :

ليس السواد بناقصي ما دام لي
هذا اللسان الى فؤاد ثابت

من كان ترفعه منابت اصله
فبيوت اشعاري جعلن منابتي

كم بين اسود ناطق ببيانه
ماضي الجنان وبين أبيض صامت

ومع ذلك :

فان اك حالكا فالمسك احوى
وما لسواد جلدي من دواء (2)

وربما كان آخر الشعراء السود العرب الاوائل هو ابو دلامة (المتوفى سنة 776) وهو عبد اصبح شاعرا ومضحكا للبلاط لدى اوائل الخلفاء العباسيين، وتجد في اشعاره رضى بوضاعة حاله . وهو يستهزيء بمظهره وبأمه العجوز وبأسرته ليسلي مولاه يقول :

ونحن مشتبه الالوان اوجهنا
سود قباح وفي اسمائنا شنع (3)

ويحدث مؤرخو الادب العربي كثيرا عن هؤلاء الناس ، فهناك عدد من النوادر تبين شعور نصيب بلونه وبمشاكله اللونية ، ففي فصل عن سيرته الذاتية يذكر انه قبل سفره الاول الى مصر استشار اخته وهي امراة عاقلة ، فذكرته بانه غريب المنظر في اعين الناس بالاضافة الى سواده ، وعندما انشدها بعضا من اشعاره اقتنعت بأن جودتها تبشر ببوادر نجاحه .

وفي فقرة اخرى يحكي نصيب انه التجأ الى احد الامراء الامويين طلبا لمساعدة بناته « لقد بليت بالبنات وانطلى عليهن لوني فبقين في يدي » (4) .

وتحكي قصة أخرى ان نصيبا دخل على الخليفة الاموي عبد الملك وتغذى معه ثم قال له الخليفة : هل لك فيما تتنادم عليه فقال : تؤمنني ، ففعل ، فقال:

« لوني حائل ، وشعري مفلفل ، وخلقتي مشوهة ، ولم ابلغ ما بلغت من اكرامك اياي بشرف اب او ام او عشيرة وانما بلغته بعقلي ولساني ، فانشدك الله يا امير المؤمنين ، الا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك »

(1) الديوان ط الميماني (القاهرة 1369 — 1950) ص 26 ، 55 ، 69 ، انظر ف . روزنتال « مفهوم الحرية في الاسلام » (ليدن 1960) ص 61

(2) الاغاني م 1 ص 140 — 141 ط جديدة 4 — 352 وللدراسة المفصلة انظر نصيب ابن رباح لريزتانو في مجلة الدراسات الشرقية م 20 (1943) ص 221 — 271 .

(3) ابو دلامة شاعر الخلفاء العباسيين لمحمد ابن شنب (الجزائر 1922) ص 35 ، 136

(4) الاغاني م 1 ص 130 ط جديدة ص 325 . ابن قتيبة في عيون الاخبار م 3 (القاهرة ط ج) ص 126 . ريزيتانو ص 431 — 456 .

والمهم فى الحكاية ان الشاعر يختار الفرصة المناسبة ويستعمل فطنته ليؤمن على نفسه من العقاب ، ولكن الفقرة توضح بشكل حي تقارن السواد بالبشاعة والحال الوضيع ، هذا التقارن الذي اصبح مقبولا فى هذا العهد .

وهناك حكاية اخرى قريبة من السابقة عن الشاعر الاسود ابن المسجح الذي كان يبحث عن ماوى فى دمشق فاستطاع ان يجعل واحدا من جماعة يقبله بينما تناقل به الباقي ، فرافقهم الى دار قينة ، فلما حضر الغذاء ، انسحب قائلا :

« انني رجل اسود ، ولعل فيكم من يقذرني ، فانا اجلس وآكل ناحية ، وقام فاستحيوا منه ، وبعثوا اليه بما اكل وما شرب »

وبعد ذلك خرج الجواري وغنين ، فمدح غناءهن ابن المسجح فغضبن وغضب مولاهن على هذه الوقاحة من « هذا الاسود » والجراة على مدح الجواري ، وحذره الآخرون وطلبوا منه ان يحسن أدبه ، وعندما عرف القوم بعد ذلك انه الشاعر المشهور رغبوا جميعا فى رفقته (1) .

هذان الحادثان يظهران طبيعة وحدود التمييز الاجتماعي معا ضد ذوي البشرة السوداء .

وهنا مظهر آخر للتحيز ، يتعرض له راوية مبكر اسمه الجهشرياري وهو يحكي نادرة فى تاريخ الوزراء والكتاب عن رجل اسمه عبد الحميد ، وهو كاتب آخر الخلفاء الامويين . توصل الخليفة بهدية من عبد اسود مبعوث من احد حكام الاقاليم ، فلم تسره الهدية ، فاعطى امره للكاتب بتحرير رسالة شكر وذم ، فكتب عبد الحميد ما يلي :

« لو انك وجدت رقما اقل من واحد ولونا اسوا من اسود لا هديته » (2) .

وليس التعريض هدف الجهشرياري من سرد هذه القصة وانما ليظهر فكاهة عبد الحميد وحضور بديهته ، ولكن القصة تعكس بشكل حي موقفا مشتركا شائعا .

فخر السودان على البيضان

وقد ناقش المسالة برمتها بحث خاص لجاحظ البصرة (776 — 869) ، وهو احد كبار كتاب النثر فى الادب العربي والذى يقول عنه احد المؤرخين احيانا ، بأن بعض اصله من الزنج . وفحوى رسالته بعنوان « فخر السودان على البيضان » (3) انه يدعي الدفاع عن ذوي البشرة الكالحة ضد مضطهديهم ، ويرفض الاتهامات الشائعة عنهم مبررا ميزاتهم واعمالهم مع ثراء فى البيان الشعري ، فهم شجعاء ، أشداء الابدان ، اسخياء ، وليس ذلك بسبب ضعف فى عقولهم ، ونقص فى الفطنة وجهل بالعواقب » كما يقول الناس ، وهناك تهمة خاطئة اخرى هي الغباء ، فعندما يسأل سائل « كيف اننا لم نر مطلقا عبدا له ذكاء حتى طفل او امراة ؟» . الجواب ، يقول الجاحظ هو ان هؤلاء الناس لم يعرفوا من الزنج الا السبي من اصل وضيع ومناطق متخلفة ، فهل راوا فى سبي الهند قوما لهم عقول وعلم وادب واخلاق فيطلبون ذلك فيما سقط اليهم من الزنج ؟

ويدافع الجاحظ كذلك عن مساواة الزنوج فى الزواج ، ويلاحظ التناقض الحاصل فى ان التمييز ضدهم لم يحصل الا بعد حلول الاسلام ، وهو يقول على لسان الزنج :

« من جهلكم انكم رايتمونا لكم اكفاء فى الجاهلية فى نسائكم فلما جاء عدل الاسلام رايتم ذلك فاسدا»

---

(1) الاغاني م 1 ص 136 ، ط ج ، م 1 ص 341، م 3 ، ص 87 ، ط ، ج م 3 ، ص 3 — 282 ، ريزتانو ، ص 439 ، ليفي ص 3 — 62 ، روترص 90 — 89 .

(2) الجهشرياري : كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة 1938) ص 81 الترجمة الالمانية بقلم ج ، لاتز (ولدورف هيسن 1958) ص 129 .

(3) انظر عن الجاحظ س . بيلا ، الوسط البصري وتكوين الجاحظ (باريس 1953) ، مقالة الجاحظ فى ط ج لانسكلوبيديا الاسلام ، وقد نشر« فخر » الجاحظ لاول مرة ج . فان فلوتن فى تريا ابوسكولا (ليدن 1903) ص 58 — 85 ، واعيدطبعها فى «رسائل الجاحظ» (القاهرة 1385 — 1965) ، ص 173 — 226 الترجمة الالمانية بقلم و . روشر م 2 (اسطنبول ، 1926) ص 26 — 146 .

وهناك مسألة اخرى وهي ان السود اكثر عددا من البيض اذا اشملنا مع الجاحظ سكان الهند وجنوب شرق آسيا والصين (!) وتلي فقرة غريبة تقول :

«السودان اكثر من البيضان ، والصحراء اكثر من الوحل ، والرمل اكثر من التراب ، والماء المالح اكثر من العذب » .

وباختصار فان الجاحظ يجادل المعادلة الشائعة بين السواد والبشاعة ، ويدعي ان الاسود جميل — في الطبيعة ، وفي مملكة الحيوان وفي الانسان ، ومهما يكن ، فالسواد ليس عقابا كما يدعي عامة الناس ، ولكن نتيجة لظروف طبيعية .

« ذلك يوجد في كل شيء ، فنحن نرى الجراد والديدان خضراء فوق النبات ، ونرى القملة سوداء على راس شاب ، بيضاء اذا ابيض شعره ، وحمراء اذا صبغه » .

وقد كان الجاحظ هزليا كبيرا وهجاء ، والقاريء لدفاعه عن السود يشعر بأن نيته ليست جدية كل الجد ، وهذا الشعور يتقوى عندما تقارن الرسالة مع ما يقوله عن السود في كتابات اخرى .

ورغم اصله الافريقي المزعوم ، فانه لم يول الافارقة اعتبارا كبيرا :

« اننا نعرف الزنج اقل ذكاء واقل فطنة في الجنس البشري ، واقل قدرة على ادراك عواقب الامور . . » (1)

« والزنج في الجنس البشري مثل الغراب ، لانهم اسوا الناس واكثرهم فسادا في الطبع والمزاج . »

« قالوا (الشعوبية) : والخطابة شيء في جميع الامم ، وبكل الاجيال اليه اعظم الحاجة ، حتى ان الزنج ، مع الغثارة ، ومع فرط الغباوة ، ومع كلال الحد ، وغلظ الحس ، وفساد المزاج ، لتطيل الخطب . . . » (2)

ان الفقرة الاخيرة تعطينا مفتاح هدف الجاحظ ، فلقد كانت الشعوبية طائفة من المسلمين غير العرب ، اغلبهم فرس وكانوا يحتجون ضد امتياز العرب وعلو مكانتهم في الامبراطورية الاسلامية ، كما كانوا يعارضون الوضع الممتاز الذى منح للثقافة العربية ، ومما امتاز به هجوم الشعوبيين هو الثناء على اعمال وكفاءات اهلهم وانتقاد الاعمال العربية .

وقد كان الجاحظ مدافعا متحمسا عن العرب والتقاليد الثقافية العربية ضد كل الوافدين عليها وخصوصا الفرس ، الذين تحدوا ، من بين الشعوب الخاضعة للعرب ، علو المكانة العربية .

ولهذا يجب فهم دفاع الجاحظ عن السود كمحاكاة ساخرة للدعاية الشعوبية وان كان بعضه جادا من دون ريب ، وغايته هي الاستهزاء بادعاءات الفرس مقدما حججا مشابهة لصالح السود المهانين المزدرين .

يتبع

الرباط : محمد الشوفاني

---

(1) الجاحظ : كتاب البخلاء (دمشق 1357 — 1938) ، ص 253 ، الترجمة الفرنسية بقلم س. بيلات (باريس 1951) ص 232 .

(2) الجاحظ ، كتاب الحيوان م 2 (القاهرة 1937) ، ص 314 ، ثم البيان والتبيين ، م 3 (القاهرة 1380 — 1960) ص 12 — 13 ، وانظر روتر ص 98 .



وقضايا الاسلام وثقافته

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

(6)

حقيقة تعدد الزوجات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

اصبح من المعتاد عند المستشرقين – كموير ودرمنجم – اثناء حديثهم عن تعدد الزوجات في الاسلام التعرض لزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم كي ينفذوا الى الطعن في شخصيته العظيمة ، والتشكيك في رسالته الخالدة ، وتصويره رجلا ميالا الى اشباع نهمه الجنسي ، متهافتا على رغباته الجسدية ، غارقا حتى اذنيه في الشهوانية ، ولكن من ينظر جيدا في هذه الاخلوقة ، ويضعها تحت محك النقد العلمي ، ويعرضها في امانة مجردة عن الاهواء ، يلفها تحذلقا محضا ، وجعجعة بلا طحن ؛ وءاية ذلك ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام بعد توطيده قوائم الدعوة لم يكن بالعسير عليه ان يجمع في بيته من الفتيات الجميلات ، والغيد الدعجاوات من مختلف الاجناس ما يبهر ، كما لم يكن بالعسير عليه ان يعيش في رفه العيش، ورغادة من الحياة مما لا يتسنى لاكبر ملوك الارض طرا . فهل تحقق للرسول عليه السلام كل هذا او بعضه ، وهل بدت منه ايام الشباب بادرة من ذلك تنم عن نزوعه الى اللهو والمجون ؛ كما كان شباب قريش يقصدون الملذات اينما وجدوها ، ومتى اتاحت لهم الظروف الانغماس في حمأتها، كلا ثم كلا ؛ الرسول يختلف عن كل اولئك الشباب الفائر الطائش الذي لا يرى في الحياة الدنيا سوى رشفة كأس ، وقبلة من خد ، واشباع النفس من الملذات . فتلك الجماعة الاستشراقية جهلت او تجاهلت جواهر الحقائق لهذا التعدد، ومنطق الظروف التاريخية التي لابست الدعوة المحمدية في مسيرتها المباركة ، وقد اشار الى بعض هذه الظروف فليب حتى – وكم لهذا المؤرخ من دسائس حشاها كتابه تاريخ العرب – حين قال : « ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسي او اجتماعي » (1).

فالرسول صلى الله عليه وسلم عاش مثالا حيا للاخلاق السامية،وانموذجا محتذى للفضائل الكريمة، لا تهمه البهرجات الخداعة ، والزخارف البراقة ، لانه بغريزته الندية عرف ان ذلك انما هو نذالة لاتجدي نفعا ، لهذا حيي حياة نقية نسكية بلغت ذروة متناهية في العبادة الحق ، ورغم ذلك فقد جمع بين الدين والدنيا فساس دولة باكملها سياسة حكيمة ، واضطلع بأعباء متنوعة : دعا الملوك الى رحاب الاسلام، وجادل من جادل من اهل الكتاب ، ورسم دستور الحياة للناس ، وخاض غمار الحروب لاعلاء كلمة الله، وصفوة القول : انه كان رجلا مكتمل الرجولة ، مستقيما في سيرته ، عابدا الله مخلصا له بكل جوارحه ، منقطعا اليه ، منصرفا في فترة اخرى الى العمل المتواصل لاقامة امة مثالية رائعة ، وهذه السيرة الفاضلة السامقة انجبت ساسة الدنيا وقادة الراي ، وقد صدق الشاعر ابن رواحة الصحابي حين

(1) انظر تاريخ العرب مطول ج 1 ص 166 ط 3 1958 .

قال مبينا الحقيقة الخالدة التى ارتضعها هو وامثاله من المدرسة النبوية الكريمة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
اذا انشق معروف من الفجر ساطع

ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات ان ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وزواجه الاول كان بخديجة رضي الله عنها التى اصطفته زوجا لها لما عرفت عنه من امانة ونقاوة سريرة ، وصدق نفس، تزوجت به وهي فى الاربعين، وكان هو فى سنته الخامسة والعشرين (1) وامضى مع هذه السيدة الفاضلة سنوات متعددة ، وخلال هذه الفترة التى قضاها معها — وهي فترة جد دقيقة فى حياته — لم تسول له نفسه ان يضم لفراشه امراة اخرى فى حين كان شابا تتلألأ على وجهه الشريف امارات الفتوة الناضرة ، وكان تعدد الزوجات شائعا فى الجزيرة العربية الا انه اكتفى بالسيدة خديجة رغم كبر سنها وقوة رجولته .

وبعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها عدد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواجه مراعيا فى ذلك مصالح التشريع والتاديب والشفقة على الارامل ، والملابسات السياسية بالاضافة الى ان يكون زوجاته مرجعا للنساء فى امور دينهن اذا ما اعترضتهن مشاكلهن الدينية الخاصة ، فالغرض من هذا — كما سيتبين بعد قليل — اسمى جدا مما يتصوره عقل اولئك ، ولو عيب هذا التعدد على نبينا ، لكان اولى ان يعاب على الانبياء الآخرين الذين سبقوه الى هذا كابراهيم ويعقوب وموسى عليهم السلام .

فام المؤمنين سودة بنت زمعة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مسنة ولم تكن جميلة . وقد كانت متزوجة بابن عمها السكران بن عمرو من بني عامر بن لؤي ثم توفي فى غربته بالحبشة (2) فضمها اليه ليعولها ويرفع مكانتها الى مستوى امهات المؤمنين عزاء لها على ما قاسته من عذاب الغربة والترمل .

وام المؤمنين السيدة عائشة (3) والسيدة حفصة تزوجها دعما لصداقته الحميمة لابي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهما من هما فى نصرة الاسلام ، والذود عن شريعة الله والدفاع عن رسالته المقدسة .

وام المؤمنين زينب بنت خزيمة المعروفة بام المساكين لعطفها على الفقراء استشهد زوجها (4) فى احد فاشفق عليها الرسول عليه السلام وتزوجها، بيد انها ما لبثت ان توفيت وفيها يقول بودلي معترفا بالحقيقة : « وكان اسمها زينب بنت خزيمة وما ضمها محمد — صلى الله عليه وسلم — الى نسائه الا بدافع الشفقة (5) » .

وام المؤمنين السيدة هند (6) بنت ابي امية المخزومية المعروفة ببنت زاد الركب توفي زوجها عبد الله المخزومي بعد ان اصيب فى غزوة احد فواساها رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمها اليه رغم انها اعتذرت له عن كبرها .

وام المؤمنين زينب (7) بنت جحش ابنة عمته اميمة بنت عبد المطلب بنى بها مولاه ومتبناه زيد بن

---

(1) انظر تاريخ الامم والملوك للطبري ج 2 ص 196 — دار القاموس الحديث .
(2) ابن هشام 1 — 652
(3) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج 3 ص 130وما بعدها — مكتبة المعارف بيروت
(4) انظر قصتها فى الاستيعاب 4 /1811 .
(5) اختلف فى اسم الزوج الذى استشهد ومات عنها فعن ابن حجر . الاصابة 8 — 94 ان زوجها هو عبد الله بن جحش، وعند الطبري تاريخ الامم والملوك 3 / 179 الطفيل بن الحرث بن عبد المطلب — وعند ابن هشام السيرة 4 / 297 عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها.
(6) تاريخ الامم والملوك 177/3 .
(7) البداية والنهاية لابن كثير 145/4 .

حارثة ، بيد انها لم ترض به زوجا لها . ولما استحالت الحياة بينهما طلقها ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ان تكون هناك قصة غـرام ووله كما يزعم بعض اهل الاهواء من المستشرقين ــ التـي نمقتها الاخيلة الشاعرية وقدمتها في صورة مغرية .

فالسيدة زينب رضي الله عنها ابنة عمتـه ، وليـس من شك في انها ترعرعت تحت عنايتـه ، ولا يعقل ان يفتن بها على تلك الصورة ، وهو يعرفهـا ، ولو كان صحيحا هذا الزعم لما زوجها بزيد ، ولاحتفظ بها لنفسه ، ونحن لا نبريء الرسول عليه السلام من العاطفة البشرية ، وننزهه عنها والله تعالى يقول في حقه « قل انما انا بشر مثلكم » ، ولكن الشيء الوحيد الذي نؤكده ونصر على الاعتقاد فيه لكونـه موافقـا للعقل هو : انه منزه عن ان تفتنه السيدة زينـب ، ويكون ذلك سببا مباشرا في طلاقها من زيد ، اذ في هذه اللحظة الحساسة تتدخل العصمة الالهية لانبيائه الكرام من ان يخترقوا حدود الدين او يرتكبوا ما لا يتناسب ومستواهم الاخلاقي .

وزواج الرسول عليه السلام بالسيدة زينب تكمن في طياته حكمة دقت عن افهام اولئك ، ذلك لان الله تعالى اراد ان يبطل عادة من عادات الجاهلية متاصلة في النفوس ، الا وهي عادة التبني فاوحـى اليه ان يتزوجها ، وعند ذاك اعترى الرسول صلى الله عليه وسلم قلق ، وساوره هم ، لان الامر الذي سيقـدم عليه امر كبير فاخفى ذلك في نفسه لئلا يقال انه تزوج امراة ابنه المتبنى، ومن اجل ذلك ظل في حيرة من أمره ينتظر الخلاص من الله ، غير ان الله تعالـى انـزل الوحي يعتب عليه تريثه ، ويشجعه على تنفيذ ما امره به حتى يكون مثالا لغيره في هدم الاعراف الجاهلية البائدة قال تعالى قاصا الحكاية « واذ تقول للـذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليه زوجـك ، واتق الله ، وتخفـى في نفسـك ما الله مبديـه ، وتخشى الناس والله احق ان تخشاه ، فلما قضـى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المومنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » .

وهكذا تم الزواج بأمر من حكيم عليم من اجل مصلحة تشريعية ، ملغيا تقليدا اجتماعيا عميق الاثر في النفس العربية والمجتمع العربي ، وقرر الله تعالى قاعدة جديدة مفندا كل تقول ، ومصرحا بأن ذلك امر الهي لا مناص من تطبيقه ، ويسير على سنة الله التى توافق اسرار الاشياء ، وتهدم تصورات جاهليـة موروثة ، ومصرحا ايضا بأن زيدا ليس ابنا لمحمـد عليه الصلاة والسلام ، وان محمدا ليس ابا لاحـد ، وانما هو رسول الله وخاتم النبيئين فقال تعالـى : « ما كان على النبيء من حرج فيما فـرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان امر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونـه ولا يخشون احدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد ابا احد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيئين ، وكان الله بكل شيء عليما » .

وام المؤمنين جورية (1) بنت الحارث سبيت في غزوة بني المصطلق، وهي من سادات العرب، فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج بها، وبسبب ذلك اعتنق بنو المصطلق الاسلام .

وام المؤمنين صفية (2) بنت حيي بن اخطـب سيدة بني النضير اصبحت اسيرة لدى المسلميـن ، فاعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمها اليه حتى يخفف عنها هول المصاب ، ويحفظ كرامتهـا ، وقد كانت زوجة وفية له الى أن قبضه الله اليه.

وام المؤمنين رملة ــ ام حبيبة (3) ــ بنت ابـي سفيان هجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش الاسدي اخي السيدة زينب الى الحبشة فتنصر هنالك وظلت رملة من غير مناصر لها في غربتها، فبعث الى النجاشي يطلب يدها مكافاة لها على ما منيت به من خسارة في زوجها ، وتالفا لقلـب ابي سفيـان لعله يهتدي الى طريق الخير .

وام المؤمنين مارية القبطية، اهداها له المقوقس، فاحسن اليها اذ بنى بها ، وانجبت له ولـدا سمـاه ابراهيم ، ولكنه ما لبث أن توفي فحزن عليه رسول الله حزنا شديدا وفيه قال دامع العينيـن منفطـر الفؤاد : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول الا ما يرضي الرب ، وانا يا ابراهيم عليك لمحزونون وانا لله وانا اليه راجعون ».

---

(1) انظر البداية والنهاية ج 4 ص 159
(2) طبقات ابن سعد 85/2 .
(3) البداية والنهاية 143/4

ويكفي هذه السيدة الفاضلة انها دعمت العلاقات بين الجزيرة ومصر فدفعت رسول الله الى ان يوصي خيرا بالقبط حين قال : « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما ».

وكانت ءاخر زوجة بنى بها عليه السلام ام المؤمنين السيدة ميمونة (1) بنت الحارث الهلالية التى عرضها عليه عمه العباس الذى راى فى ذلك زيادة فى التفاهم بينهم وبين قريش ، اذ ان الايام الثلاثة التى نصت عليها اتفاقية الحديبية قد انتهت فاتخذ رسول الله زواجه من ميمونة وسيلة يدغدغ بها مشاعر قريش ، ولذلك قال لرسولي قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى : « ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين اظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه (2)» وكان جوابهما وهما يعلمان الاثر البالغ الذى خلفته عمرة القضاء فى نفوس المكيين : « لا حاجة بنا الى طعامك فاخرج عنا » ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عند راي خصومه خضوعا للعهد الذى برمه معهم .

اولئك نسوة النبي عليه السلام ، وحريمه المختار اللواتي كن يعشن معه على شظف من العيش لا يتنعمن بالحياة كما يتنعم بها النساء الاخريات فى البيوتات الارستقراطية ـ وان كان فى مقدرته ان يحيا حياة الملوك ـ الامر الذى جعلهن يطالبن الرسول فى المزيد من النفقة ، فاصبح النبي الكريم عليه السلام فى دوامة من الهم ، ولذلك هجرهن شهرا حتى يراجعن انفسهن فيما ارتكبنه مع زوجهن الكريم ثم خيرهن ـ بناء على ما نزل من الوحي ـ فى البقاء معه والرضا بماله من رزق او ينصرفن حرات يبحثن عن العيش الرغيد والحياة الندية ، بيد انهن ءاثرن قربه على بعده متفيئات واحة النبوة الفينانة ، راضيات بالقليل اليسير من الرزق ، وفى ذلك قال تعالى : « يا ايها النبيء قل لازواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »

وحياة نبينا صلى الله عليه وسلم الزهدية اعرف من ان يعرف بها ، وبالتالي تقطع دابر كل الشكوك التى راودت عقول بعض المستشرقين فى الحياة التى عاشها سواء مع نسائه الفضليات ، او مع اصحابه الكرام . روى البخاري عن السيدة عائشة انها قالت لعروة : يا ابن اختي ، ان كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة اهلة فى شهرين وما اوقدت فى ابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار فقلت : يا خالة ، ما كان عيشكم ؟ قالت : الاسودان : التمر والماء ، الا انه قد كان لرسول الله جيران من الانصار لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله من البانها فيسقينا » وروى الشيخان عن انس قال : « ما شبع ءال محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة ايام تباعا حتى قبض » وروى الترمذي من حديث ابي امامة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، قلت لا يارب ، ولكن اشبع يوما واجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك ، وذكرتك ، واذا شبعت شكرتك وحمدتك » .

وهذا العزوف عن المباهج الحياتية تحدث عنها فايب حتى ـ واي متعصب هو ـ عندما قال : « ولم ينس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى ذروة المجد ايام فقره وخمول ذكره ، بل بقي زاهدا فى الطعام واللباس ، وسكن بيتا من الطين كاكثر المنازل الحقيرة فى الجزيرة وفى الشام اليوم ، بضع غرف حول بهو ينفذ الداخل اليها منه ، وكثيرا ما كان يرى يصلح ملابسه بيديه ، ويشارك اهل مكة فى حياتهم العامة . وكان عند محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اول ما اشتد المرض به سبعة دنانير تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين (3) » .

ابعد هذا يساغ ان تؤمن العقلية البسيطة ان محمدا بن عبد الله صلى الله عليه وسلم رجل شهواني ، جمع فى منزله نساء متعددات ، وذاق معهن حياة مليئة بالرفاهية والدعة كملك من ملوك الفرس زمنئذ ، لست ادري كيف نسجت هذه الاكذوبة من غير حجة بينة ، وسلطان مبين ، الا حجة التعصب المقيت ، وسلطان الهوى البغيض :

والدعاوى ان لم تقيموا عليها
بينات ابناؤها ادعياء

ـ يتبع ـ

تطوان ـ محمد المنتصر الريسوني

(1) البداية والنهاية ج 4 ص 233
(2) سيرة ابن هشام 14/4
(3) تاريخ العرب ج 1 ص 165 ـ 166 .

مخطوط ينتظر النشر

الريحان والريعان

لابي القاسم محمود بن خيرة المواعيني الاشبيلي

للاستاذ محمد مرسي الخولي
الأمين بمعهد المخطوطات - جامعة الدول العربية

عندما اخذ العلماء بالتأليف في اللغة العربية وءادابها ، بدأوا بالمباحث اللغوية منها فالفوا كتبا في الالفاظ اللغوية التي تستعمل حين الحديث عن نوع من الكائنات كالانسان او الحيوان او النبات او الظواهر الطبيعية ، وذلك ككتب خلق الانسان وتسمية اعضائه وكتب الخيل والابل والشاء ، والشجر والنبات ، والانواء والسحاب والمطر الى غير ذلك من المؤلفات التي وضعها العلماء المتقدمون من امثال الاصمعي وابي حنيفة الدينوري وابي عبيدة معمر بن المثنى وابي عمرو الشيباني وغيرهم في القرنين الثاني والثالث.

ثم رأى العلماء ان يضيفوا الى هذه المؤلفات بعض المباحث النحوية والطرائف الادبية الى جانب الفاظ اللغة ، فكان ان الف محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالي المعروف بالمبرد كتابه المعروف بالكامل ، وجمعت مجالس أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب في الكتاب المعروف بمجالس ثعلب ، كما صحب ذلك التاليف في الكتب التي تتميز بالطرائف والنوادر الادبية وبمختارات من أقوال البلغاء ككتب الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما ، كل ذلك يهدف تعليم الناشئة والمتادبين اصول الادب وتبصرهم بفنون الكتابة بما اثر عن العرب من اللغة الصحيحة وبديع القول وروائع الحكمة .

والواقع ان العلماء المسلمين قد اهتموا بتثقيف الناشئة وتربيتها وتوجيهها اهتماما كبيرا ، وكثير جدا من تراثنا العربي مؤلف لهذه الغاية وان لم يذكر فيه هذا صراحة . على أن بعض العلماء وجه كتبه الى المربين والناشئة وعنونها باسمهم وذلك كما فعل المحدث الكبير ابن حجر العسقلاني في كتابه « تحرير المقال في ءاداب واحكام وفوائد يحتاج اليها مؤدبو الاطفال (1) » وكما فعل الامام ابو حامد الغزالي في كتابه الشهير « ايها الولد » والامام ابو الحجاج يوسف ابن محمد البلوى حين الف لابنه كتابه المعروف « الف با للالبا » (2) ، ومحمد عاقل ابن محمد كاشف البخاري في كتابه « ارشاد الولد لما يلزم لكل احد » (3) وغير ذلك من المؤلفات التي تمتلىء بالعاطفة الحانية نحو النشء والتي وضع العلماء فيها خلاصة تجاربهم الطويلة وتأملاتهم العميقة في الحياة، وقراءاتهم الجادة والطريفة في اسلوب سهل بقصد تثقيفها وارشادها الى ما يجب ان تقراه من عيون الادب وروائع الفكر .

من هذه الكتب ، هذا الكتاب الذى وصفه الصلاح الصفدي بأنه ممتع ، والذى سماه مؤلفه « ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الآداب »

اما المؤلف فهو ابو القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة المواعيني الاشبيلي المتوفى سنة 564 هـ ، ولسنا نعرف الكثير عن حياته ، وخلاصة ما في المراجع عنه انه كان من اعيان اشبيلية ، وقد سما بفضله وسمو فرعه على اصله وارتقى الى ان كتب عن ملك اشبيلية السيد ابي حفص الموحدي ، وعلى ما يبدو فقد صنف هذا الكتاب للامير ابي يعقوب ابن أمير المؤمنين ابي حفص الذى كان فتى تحت رعايته يقوم على تأديبه واودع فيه ما يجب على الشباب ان يتعلمه من بديع النظم وروائع النثر وبليغ الخطب ومأثور الحكمة الى جانب طرف من علم العربية وجانب

---

(1) لم يطبع هذا الكتاب من قبل ، وثمة نسخة جيدة منه في معهد المخطوطات

(2) يعاد الآن طبع هذا الكتاب في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

(3) لم يطبع هذا الكتاب ، ومنه مخطوطة بمعهد المخطوطات .

من علم الانساب وغير ذلك مما لا غنى عنه للشاب في مقتبل عمره .

ونرى المؤلف في مقدمة كتابه والباب الاول منه يخص المفاهيم الكلية لتربية التي استقر عليها علماء المسلمين ، فهو يعرض لحديث الرسول الكريم صلوات الله عليه : « مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر ، والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء » فيشرح الحديث مبينا لم كان التعليم في الصغر له هذا الاثر فيقول : لان قلوب الصغار افرغ ونفوسهم اخوف وتدريجهم امكن والتحكم عليهم الزم ويستشهد على ذلك بقول الاحنف : الكبير اكبر عقلا ولكنه اشغل قلبا .

ثم يذكر في مكان ءاخر الذي يختاره في الوسيلة الى تربية النشء وتهذيبه ، وهو الرفق والتدريج دون الغلظة والتعنيف الا لضرورة ، ويشرح ذلك بقوله : فالتدريج في اصل الوضع وسوس الطبع ، وعلى هذا فيجب ان تسر باللمحة الدالة على فهم الطفل وتزيده عليها تشجيعا ويعجبه في هذا قول احدهم :

سدد مرامي الطفل في شانه
بلفظة تشدد بها ازره
واغتنم اللمحة من فهمه
ان المبادىء ابدا نزره

وعلى العكس من ذلك لا يميل الى الاخذ براي ابي العلاء المعري في قوله :

اضرب وليدك وادلله على رشد
ولا تقل هو طفل غير محتلم
فرب شق براس جر منفعة
وقس على نفس شق الراس للقلم

فربما كان ذلك قياس مع الفارق . وفي راي المؤلف ان المعلم يجب ان يكون القدوة امام اعين تلاميذه ،وهو ان اراد النصيحة الخالصة التي تقربه من قلوبهم ، وتأخذ بيده الى هدفه فلن يجد خيرا من هذه الكلمات التي وجهها عتبة بن ابي سفيان الى عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب ولده حين قال له :

« ليكن اول ما تبدا به في اصلاح بني اصلاحك نفسك ، فان اعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت ، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر اعفه ومن الحديث اشرفه ، ولا تخرجهم من علم الى غيره حتى يحكموه، فان ازدحام الكلام مثى اتسع مضلة للفهم ، وعلمهم سير الحكماء واخلاق الادباء .

ثم يستطرد الى نصيحة الرشيد لمؤدب ولده حين قال له :

« .. اقرئه القرآن وعرفه الآثار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره مواقع الكلام وامنعه الضحك الا في اوقاته ، ولا تمرر عليه ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيدها اياه من غير ان يحزن بها فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويالفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

اما العلوم التي يجب ان يتعلمها الطفل ، فان اول ما يجب ان يبدا به هو القرءان الكريم ، فهو « مبدأ العلم وتمامه وفرعه واصله ، وافتتاحه ومآله ، وهو اول مجهول وءاخر معلوم ، وانما علمه الولدان اولا وهجم بهم عليه سابقا لانه المراد والمقصد والمراد الذي اليه يصمد » .

وهو يقول ان تعلمه في الاغلب يجبر الولدان على التزامه ، بمعنى انه مهما نسيه فسيظل مستقرا في قرارة نفسه يهديه ويرشده ويسدد خطاه دون ارادة منه الى الطريق القويم والنهج الصالح المستقيم .

ومن القرءان الكريم تاتي سائر العلوم ، فان الناشيء وقد تلا المنزل وحفظ النص يحتاج الى ان يجود مخارج الحروف وينطق بحقيقة تقطيع الالفاظ، فاذا به قد شرع في علم القراءات ، ثم يحتاج الى ان يضبط حروفه وكلماته بالاعراب ويعرف بالقانون المطرد بالامثلة حقيقة الصواب .. فاذا به قد نظر في علم النحو ،ثم يحتاج ان يعلم معاني الفاظه التي لم يدركها بطبعه ولا بلغة بلده .. فاذا به قد اخذ في علم اللغة ، ثم يحتاج ان يعلم اسباب تلك الآيات وقصصها وناسخها ومنسوخها فاذا به قد دخل في علم التفسير ، ثم يحتاج ان يعلم ما فيها من احكام الشريعة المتعبد بها والحدود المنزلة التي لا يتعداها فاذا به قد تفلل في علم الفقهاء والمستنبطين ، ثم يحتاج ان يتعرف الاصول التي تنبعث عنها فروع الديانة ويجمع بين المتغايرات والمتعارضات من ظاهر المخاطبة فاذا به قد تبحر في علوم الاصوليين والنظارين .

اما العلوم الدنيوية الاخرى فلقد حث الله تعالى على تعلمها ، وكيف لا وقد قال عز ذكره : « ما فرطنا

في الكتاب من شيء » ثم ان افعال الله تعالى في ملكه هي التي سببت تلك العلوم وأوجدتها .

اما الحساب فان الفرائض المنزلة لا يتوصل اليها الا به ، ولقد حث الله على تعلمه وورد ذكره في اكثر من ءاية ، قال تعالى : « وجعلنا الليل والنهار ءايتين فمحونا ءاية الليل وجعلنا ءاية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » ، وقال عز وجل : « فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا،والشمس والقمر حسبانا»، وقال تعالى«والشمس والقمر بحسبان»،وقال تعالى:«والقمر قدرناه منازل » ومنه يتعلق الى علم النجوم .. الخ.

اما الطب فمنصوص عليه في قوله تعالى عن النحل: « يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس » وعليه مدار الطب .

وفي قوله تعالى : « يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك » فتعديل الاعضاء في الباطن والظاهر فيه فهم التشريح .

اما الموسيقى ، ففي قصة داود عليه السلام وما أوتي من المزامير اذ يتلو الزبر ومواقعها من امزجة النفوس بالاضحاك والابكاء هو الموصوف عن الموسيقى.

وكل هذا من علوم الاولين ، والامر اكبر والعالم اكثر ، والله تعالى يقول : « وفوق كل ذي علم عليم » .. ولو كان احد مكتفيا من العلم لاكتفى نبي الله موسى اذ قال للعبد الصالح : « هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا » .

وبعد ، فهذه نتف من مقدمة الكتاب ، اما ابوابه وفصوله فهي حافلة بالنصوص الادبية المختارة التي تتمثل في عيون من الادب الاندلسي شعرا ونثرا ورسائل وخطبا لا يوجد معظمها في مصدر ءاخر ، فضلا عن اختياراته الموفقة من عيون الادب المشرقي.

ولقد تانق المؤلف في ترتيب ابوابه ، وابتكر اسماء جديدة للابواب والفصول لم يسبق اليها ، ولم ترد بعده حسب ما نعلم في كتاب ءاخر ، وهو يشرح فكرة الكتاب وموضوعاته وابوابه بقوله :

« هذا كتاب نمقته لاجتماع الفكر تنميق القاطف لازهار البساتين ، وروقته من زلال الذكر بالعرف النمير المعين ، استقبل من اقتبال سني النشاط والجمام ، ومن علق نزهتي النطاف الصافية والجمام، والروض فارق الكمام ، وشارف التمام والكمال ، فاقتضبت اسمه مما اقتضاه رسمه ، فسميته « ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الآداب» ، بغيتي فيه الا اخليه من عيون الفنون التي يستمدها من عني بمزاولة المنثور والموزون ، وءاتي فيه من كل شيء بسبب من انواع الادب والحديث ذو شجون ، ومن يستقل بمن اقتصر على افكاره من الامعان في دواوين من الآداب عون ، اذا ظفر من شوارده وفوائده بحور عين ، ووجد منه فيما يحاوله ويتناوله انجد معين ، وقسمته على سبعة مراتب رؤوس كتب ، تنفصل الى مراقب ثم الى ثنايا تطلع من ءافاق النجوم الثواقب، فالمرتبة عرض من الكتاب والمرقبة بمثابة الباب ، والثنية بمنزلة الفصل ، وربما سنحت التفاتة زيادة في الافادة .

فالمرتبة الاولى : مرتبة تدريج النمو والارتقاء الى مراقي السمو والاعتلاء .

والثانية : مرتبة لمع من قانون العربية ونبذ من الالفاظ اللغوية .

والثالثة : مرتبة الابهام بالمعاريض والكلام المحتمل والتعريض .

والرابعة : مرتبة الفصاحة والبلاغة وجامع في لوازم انشاء الصناعة .

والخامسة : مرتبة نظام القريض والقاب ميزان العروض .

والسادسة : مرتبة اقتضاب شجرة النسب ومنتهاه من ولد آدم ونوح الى جذم العرب .

والسابعة : مرتبة اختيار الاشعار والاخبار وما يتعلق بها من مأثور الاحاديث والآثار .

هذا ويقع الكتاب في جزءين ، عدتهما مائة وسبع وسبعون ورقة ، وثمة نسخة قيمة منه بخط مغربي مضبوط الحركات ، كانت في ملك الصلاح الصفدي وعليها تقريظ منه للكتاب ، وتوجد في معهد المخطوطات مصورة عن مكتبة الفاتح باستامبول.

والجدير بالذكر ان الكتاب قد لفت انظار الكثير من الباحثين وصوره عدد منهم ، اخص منهم هنا الدكتور احسان عباس الاستاذ في الجامعة الاميركية في بيروت ، والدكتور رضوان الداية المدرس بآداب دمشق ، وغيرهما من الباحثين الا ان واحدا من تلك الجهود لم ير النور بعد ، وما زال الكتاب مخطوطا ينتظر النشر .

القاهرة ــ محمد مرسي الخولي



للأستاذ محمد المنوني

لم يشتغل المغرب الاسلامي بالتصوير الا قليلا، شأنه في ذلك شأن المسلمين العرب في هذا الصدد، تأثرا بموقف الدين بالنسبة لعدد من انواع التصوير، وقد كان هذا من اسباب اهمال اكثر المصادر التاريخية لتسجيل هذه الظاهرة ؛ حتى لا يكاد يعثر على نماذج من اخبارها الا عرضا وعفوا وفي حالات قليلة ، وهذا القدر هو الذي ستستعرضه هذه الدراسة لتقدمه حسب التسلسل التاريخي في نطاق المغرب الاسلامي القديم الى عام 1330 هـ ـ 1912م.

— * —

وقد جاء ذكر التصوير بالمغرب منذ البناء الاول لجامع القرويين بفاس على عهد الادارسة والعبيديين، حيث وضعت بعض تماثيل حيوانية مجسمة على سطح القبة التي كانت بأعلى المحراب القديم لهذا الجامع ؛ ثم في عام 388 هـ تغلب على فاس الحاجب الاموي المظفر بن المنصور ابي عامر ، ولما بنى القبة التي على راس العنزة الحالية للقرويين ، نقل الى سطحها هذه التماثيل ورفعها على اعمدة حديدية ، منها ما هو على صورة فار ، ومنها ما هو على صورة طائر منقاره يشبه ذنب العقرب (1)، وكان هدف هذا يرجع الى غايات تتصل بالاوفاق .

وفي العصر المرابطي كان في موكب امير المسلمين تاشفين بن علي رايات حمر تشتمل على صور هائلات (2) .

وقد تقدم التصوير نسبيا ايام الموحدين ، ومن هذا انهم نقشوا على احدى واجهات منارة حسان رسم سيفين عظيمين ترتفع رؤوسهما الى جهة السماء (3) ، ومن ناحية اخرى يتحدث في نفس العصر عن افراس مصورة من الخشب ، معدة لتلعب عليها خمسمائة جارية في ساحة قصر ابن جامع بمراكش الجديدة ، وكان هذا من وزراء الموحدين (4)، وقد جاء توضيح حقيقة هذه الصور الخشبية من طرف ابن خلدون (5) لدى حديثه عن اللهو واللعب ايام بني العباس ، وهو يقول في هذا الصدد :

---

1) « جنى زهرة الآس » ، المطبعة الملكية بالرباط ـ ص 54 .
2) « الحلل الموشية » ، ط تونس ـ ص 91 .
3) « مقدمة الفتح . من تاريخ رباط الفتح » ، مطبعة الجريدة الرسمية بالرباط ـ ص 107 .
4) « وصف المغرب ايام السلطان ابي الحسن المريني » ، مجلة (البحث العلمي) ، العدد الاول ، السنة الاولى ـ ص 148 .
5) « المقدمة »، (المطبعة البهية) ـ ص 373 .

« ... واتخذت آلات اخرى للرقص تسمـــى الكرج ، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية تلبسها النسوان ويحاكين بها امتطـاء الخيل فيكررن ويفررن ويتثاقفن .. »

وهكذا يتبين من فقرة المقدمة الخلدونية حقيقة هذه الخيول الخشبية الموحدية وصفة لعب الجواري بها ، كما نستفيد ان هذا التصوير مقتبس من الشرق العباســـي .

وفي هذا العصر شاع التصوير في الحلويـات وما اليها وكان يصنع منهـا – في قصـر يعقـوب المنصور بمراكش – كرات على شكل النارنج وشبه التفاح والاجاص (6) ، ومن هذه الحلويات مـا كـان يسمى في نفس المدينة باسـم « معاصم الاولاد » حيث يصنع على شكل شبيه بالمعصـم مستديـرا او يكون فيه عرض ويزين به وسط الرغيف ، ثم يقـدم الجميع للاطفال يشتغلون به (7) . وبمناسبة النيروز كانت تتخذ – برسمه – تماثيل مجسمة بالمغرب وفي سبتة والاندلس بالخصوص ، وهذه التماثيل عبـارة عن مدائن تصنع من الدقيق الابيض الخالص ، وتلت بالزيت المحكم العجن بالماء ، ليتخذ منها رغفا مفاريد او مثنيات او مثلثات كيفما اختير عملهـا ، وتنقـش وتصنع فيها اشكال من العجين ، مركبة على البيض الملون بالحمرة او الخضرة او بغير ذلـك من الالوان بحسب المتخير لها ، ثم يدهن الجميـع بالزعفـران ويطبخ في الفرن ، واخيرا تقدم الى الاصاغر في هذه المناسبة (8) ، وقد وصف شاعر اندلسي « ابو عمران موسى الطرباني » واحدة من هذه صنعت بالاندلس ، وقال وهو يزاوج بين الواقع والنكتة :

مدينـــة مســـورة تحار فيها السحرة
لم تبنهـا الا يـــدا عـــذراء او مخـــدره
بدت عروسا تجتلـــي من درمك مزعفـــره
وما لهـا مفاتـــــح الا البنان العشره(9)

والدرمك الوارد في هذه النتفة هو الدقيق الابيض الخالص .

وقد ظهر في اوائل العصر المريني القصيـــدة المصورة بالتشجير ، ويوجد في ديوان البوصيري(10) قصيدة يتحدث فيها صاحب الديوان عن شاعر مـن المغرب الاقصى لم يذكر اسمه ، وقد وضع هــذا قصيدة في مدح احد رؤساء القاهرة ، وصورها على شكل نخلة سامية تورع فيها الشعر بين اصلها وفرعها واعاليهـــا .

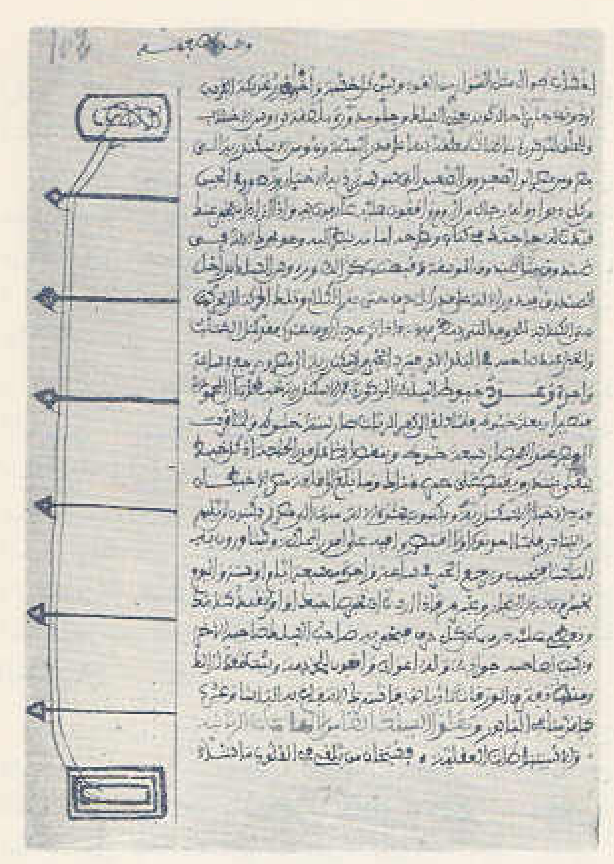
وفي اواسط هذا العصر يكثر الحديث ـنسبيا ـ عن صور مغربية متنوعة في اشارات عابرة : فقد كان ضمن هدية ابي الحسن المريني الى السلطان المملوكي محمد الناصر ، صور كرمة العنب عناقيدها الجواهر النفيسة (11) ، وجاء في وصف موكب نفس السلطان المريني عند بروزه لصلاة العيدين بفـاس ، ان فرق مختلف الصناعات تكون في استقباله ، ولكل حرفة علم يختص بها عليه شارة اهل تلـك الصناعـة بما يناسبهم (12) .

ثم ظهرت بعد هذا صور التماثيل المتحركة في الساعة الدقاقة التي اخترعت لابي عنان ، وقد كان يحف بها اثنا عشر طاقا يعلوها شكل هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية ، فاذا حلت الساعة المعنية اعلن عنها الطائر الجاثم اعلى الساعة بواسطة صنجة يلقيها الى طست ، فتبرز جارية في يمينهـا

6) « كتاب الطبيخ في المغرب والاندلس في عصر الموحدين » ، (صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد) ، المجلدان التاسع والعاشر – ص 213 .
7) المصدر الاخير – ص 225 .
8) « الذيل والتكملة » مخطوط المكتبة الملكية بالرباط رقم 269 – ج 1 ص 299 – 300 .
9) « نفح الطيب » ، (المطبعة الازهرية المصرية) ـ ج 2 ص 376 .
10) ط . مصر – ص 125 – 126 .
11) « الوافي بالوفيات » للصفدي : مجلد مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 5205 .
12) « صبح الأعشى » ج 5 ص 207 .



رسم الباخرة فى شكلها الاول
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12



رسم الاسلاك الهاتفية ممدودة على اعمدتها
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12



رسم الاسلاك الهاتفية ممدودة على اعمدتها
رحلة الفيغائي – خ. ع. فيلم 12



رسم القطار الحديدي
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12

رفعة بالساعة المعينة لتضعها بين يدي السلطان ، بينما تجعل يسراها على فيها كالمؤدية للتحية (13).

ومن الصور المجسمة التي وضعت باقتراح ابي عنان ايضا ، صورة كاملة لجبل طارق مثلث على ساحة من مشور القصر الملكي بفاس الجديد ، جاء في « تحفة النظار » (14) عن حديث اهتمام هذا السلطان بهذا الحصن :

وبلغ من اهتمامه بامور الجبل ان امر – ايده الله – ببناء شكل بهيئة شكل الجبل المذكور مثل فيه اشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ، ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده واهرية زرعه ، وصور الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ، فصنع ذلك بالمشور السعيد ، فكان شكلا عجيبا ، اتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال » .

وسوى هذا : فقد كان بالزاوية المتوكلية خارج فاس ، صهريج قام على حافتيه أسدان مصوغان من الصفر ، ليقذفا من افواههما الماء النازل للصهريج ، كما يسجل هذا مصدر معاصره (15) .

وهنا لا يسعنا ان نمر بهذه الرواية دون التعليق عليها ، ونلاحظ انه اذا كانت هنا الصورة نصبت في مركز ديني كزاوية ابي عنان هذه ، فمن القريب جدا ان تكون المباني العنانية بالقصور الملكية تزدان – هي الاخرى – بصور مماثلة او متفوقة .

ولنترك – الان– مدينة فاس الى سبتة المرينية ، حيث تتوج احدى بناياتها بصورة عقاب غريب الشكل مفقود النظير حسب تعبير المصدر المعني بالامر(16) ، وقد كانت هذه الصورة تعلو باب الخان المعروف بفندق الوهراني ، وفي نفس المدينة كان في قبة ميضاة المدرسة الجديدة صورة نور البابونج يخاله الناظر اليه خلقة من احكام الصنعة (17) .

ويقول المؤرخ محمد بن علي الدكالي (18) عن مسجد ابي الحسن بشالة :

« فان حيطان صحن هذا المسجد مثلت فيها اشجار بقضبانها واوراقها واثمارها من الوان الزليج بتركيب عجيب ، يحار الكاتب الماهر في محاكاتها بقلم الالوان ، فضلا عن اصطناعها بيد الصناعة الزليجية ، مثل ما قيل في بعض آثاره « ابي الحسن » بسلا :

رسوم من الزليج لو ان كاتبا
تكلفها ما كان فيها بمهتدي

وفي العصر الوطاسي يتحدث الوزان الفاسي : « ليون الافريقي (19) » عن صور أزهار ناتئة في الشموع التي تقدم لمعلمي الكتاتيب القرآنية بمناسبة الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف .

ويعتبر عهد المنصور السعدي فترة انطلاقة جديدة في هذا الصدد حيث تقدم الرسم وازدهر نحت الصور الرخامية المتنوعة ، وصار قصر البديع بمراكش مسرحا لهذا كله ، فقد وضع بأعالي بركة الدار الكبرى من هذا القصر ، تماثيل رخامية منحوتة ، وتجسم انواعا من المفروسات ، فيها القثاء وعراجين الاعناب والبطيخ والدباء ، وينبع من خلال جميعها ميازيب المياه الدافقة ، ثم تنساب في الجهاز الرخامي الارضي المعروف (بالمحنشة (20) ، وفي علو القبة الخمسينية نصبت تماثيل فيها عقابان

13) جاء ذكر هذه الساعة ووصفها اثناء قصيدة مولدية رفعها لابي عنان شاعره أحمد بن عبد المنان ، ومن الجدير بالملاحظة ان الاعلان عن هذه الساعة يسبق ساعة ابي حمو بتلمسان ، ثم ساعة الغني بالله بغرناطة ، انظر « المولد النبوي الشريف في المغرب المريني » ، مجلة (دعوة الحق) ، العدد الاول ، السنة الثانية عشرة – ص 121 .

14) ط . المكتبة التجارية الكبرى مصر – ج 2 ص 187 .

15) « فيض العباب » مخطوط المكتبة الملكية رقم 3267 – ص 68 .

16) « اختصار الاخبار » المطبعة الملكية – ص 42

17) نفس المصدر ص 44 .

18) في رسالته : « الدرة اليتيمة . في وصف شالة الحديثة والقديمة » حيث توجد خامسة مجموع ، خ ع . ك . 1249 .

19) « حياة الوزان الفاسي وآثاره » المطبعة الاقتصادية بالرباط – ص 87 – 88 .

20) « مناهل الصفا » ، المجلد المخطوط بالمكتبة الملكية تحت رقم 274 – ص 267 .

عظيمان ، بينهما نسر يتوسط طائرا وافعى من نوع الاراقم ، وفي وسط نفس القبة بركتان فيهما تماثيل مذهبة واخرى مفضضة ، وتمثل اولاهما اسودا تقذف المياه من افواهها المنفغرة ، بينما تمثل الثانية افاعي رائقة الصفير ، وملونة التنقيط بالسواد والبياض ، وقد زين بهو هذه القبة – في صدره – بصور تمثل رؤوسا منكوسة لطيور جميلة (21) ، واخيرا ، ففي حمام قصر البديع يتكرر – في بعض مرافقه – منظر صور الاسود التي تقذف المياه من افواهها المنفغرة (22) .

وهناك قصيدتان لعبد العزيز الفشتالي ، تصف اولاهما القبة الخمسينية على لسانها ، وتذكر تماثيل الدمى الفضية ، وقد جاء في هذه القصيدة :

تطلع منها وسط وسطاه دمية
هي الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا

حكت وحباب الماء في جنباتها
سنا البدر حل من نجوم سمى وسطا

اذا غازلتها الشمس القى شعاعها
على جسمها الفضي نهرا بها لطا

توسمت فيها من صفاء اديمها
نقوشا كان المسك ينقطها نقطا

اذا اتسقت بيض القباب قلادة
فاني بها في الحسن درتها الوسطى

تكنفني بيض الدمى فكأنها
عذارى نضت عنها القلائد والربطا

قدود ، ولكن زادها الحسن عربها
واجمل في تنعيمها النحت والخرطا (23)

اما القصيدة الثانية ، فيصف فيها نفس الشاعر بهو هذه القبة الخمسينية ويهمنا منها هذه الابيات الثلاثة :

صفت بصفحتها تماثيل فضة
ملك النفوس بحسنها تصوير

فتدير من صفو الزلال معتقا
يسري الى الارواح منه سرور

ما بين آساد يهيج زئيرها
واساود يسلي لهن صفير (24)

وهو يشير هنا الى تماثيل الاسود والاراقم ، وقد سمى هذه الاخيرة اساود جمع أسود ، لنوع خطير من هذه الافاعي .

ومن مظاهر تداول الرياش المصور في عهد المنصور الذهبي ما ورد في قصيدة للفشتالي ايضا ، حيث يعدد ذخائر صارت لنفس السلطان ، وفيها خباء كبير مبيض اللون ، ومصنوع من الديباج المزخرف بالصور المتنوعة ، وهو يقول في هذا :

... فمن بيض القباب مدبجات
تلوح بها المجرة في سماها

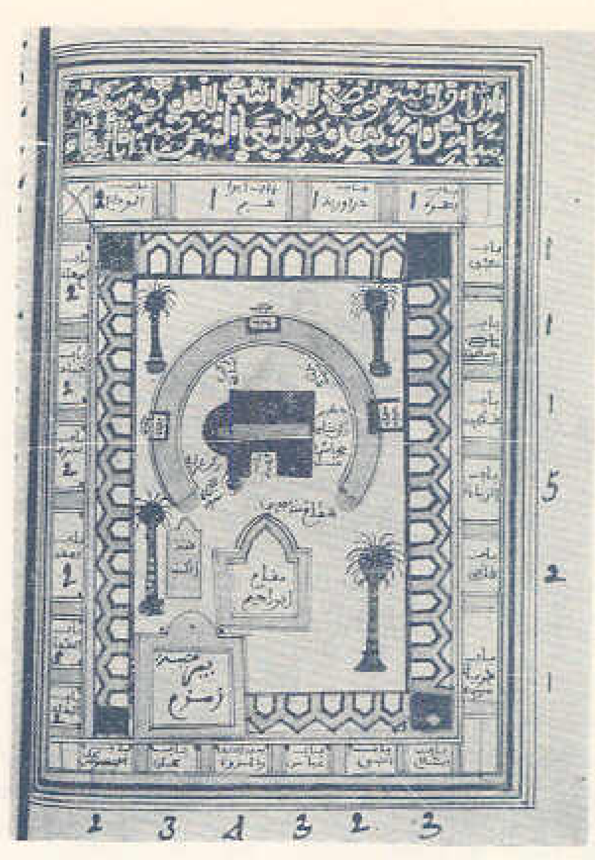
من الديباج راق بصفحتيه
خمائل لحن باكرها نداها

حشين من التماثيل كل حسن
ومن صور سواحر من يراها

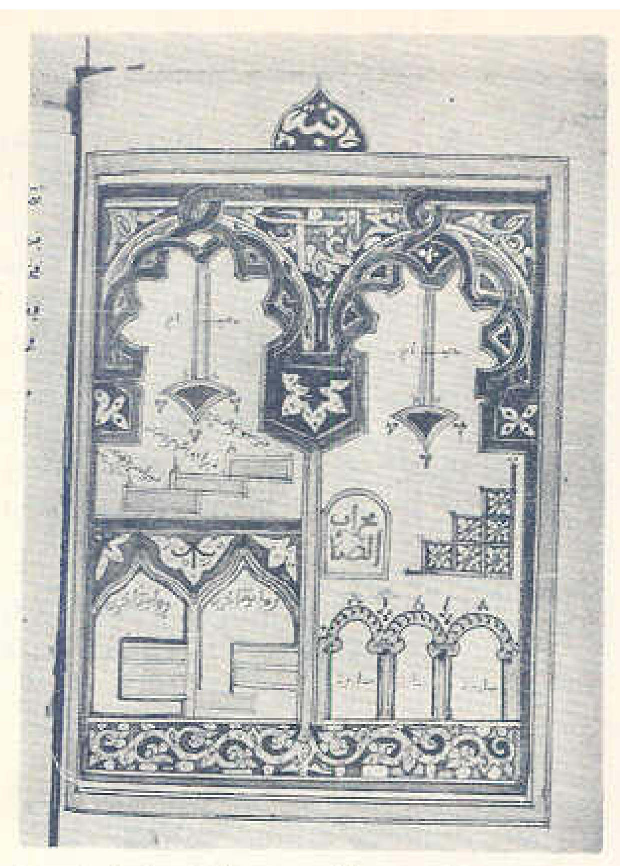
فمن طير شدون بكل غصن
ومن غزلان رامة اومهاها

توافر من فوارس تدريها
وآساد لهن فغرن فاها (25)

21) المصدر الاخير – ص 269 .
22) نفس المصدر – ص276 .
23) « روضة الآس » للمقري ، المطبعة الملكية – ص 138 .
— « نزهة الحادي » ، مطبعة مدينة انجي سنة 1888 – ص 105 .
— « الاستقصا » ط. دار الكتاب – ج 5 ص 136 – 137 .
24) المصادر الثلاثة الاخيرة حسب ترتيبها :
ص 137 .
ص 107 .
ص 139 .
25) « روضة الآس » – ص 130 .



رسم المسجد الحرام بمكة المكرمة
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12



رسم المسجد النبوي بالمدينة المنورة
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12



مثال القدم الشريف
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12



مثال ثاني للقدم الشريف
رحلة الفيفائي – خ. ع. فيلم 12

وعن العصر العلوي فان عادة اللعب على الافراس الخشبية كانت لا تزال معروفة في صدور هذا العهد، على انها تطورت عن مظهرها ايام الموحدين ، وقد شاهد الرحالة الانجليزي ويندوس دجوهن في تطوان اطفالا يمتطون هذه الافراس الخشبية ، ويتجولون عليها في شوارع المدينة ، وذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى احدى الانتصارات الاسلامية ضد المسيحية ، وكانت زيارة هذا الرحالة لتطوان اواخر عام 1133 هـ 1721 م (26) ، ثم شاهد نفس الرحالة في القصر الاسماعيلي بمكناس قبة سقفها مدهون بالازرق ومزخرف بنقط ذهبية تمثل النجوم ، وفي وسطها دائرة من الذهب تمثل الشمس (27) .

وفي المائة الثالثة عشرة للهجرة كان من تقاليد مدينة مراكش ان يقام ليلة عاشوراء مهرجان مسرحي ويكون من بين فصوله عمل تمثال صورة خيالية لقاتل السيد الحسين عليه السلام . لتلقى في النار التي تؤجج في تلك الليلة (28) ، وبديهي ان هذا تقليد شيعي تطور بالمغرب مع مر الزمن دون ان يعرف تاريخ ظهوره .

ويوجد في متحف الآثار بمكناس ابريق – لتسخين الماء – مصنوع من النحاس الاحمر ، ومرفوع فوق مجمرة عالية ، وقد زينت دائرة الابريق برسوم منقوشة لثلاثة حيوانات تمثل فرسا وارنبا وغزالا ، وتحمل تاريخ عام 1314 هـ .

وفي مدينة تارودانت استمر صناعها حتى المغرب الحديث يعملون مصورات منحوتة في الحجر، وتمثل الانسان والحيوان وادوات متنوعة .

ونذكر – بعد هذا – الرسم على الكتب ، وقد ظهر منذ اوائل عصر الموحدين ثم انبعث على عهد الشرفاء، وشمل اشكال بعض الحيوانات والخرائط والرسوم الفلكية والعسكرية وادوات مختلفة ، ومن بين هذه الكتب المصورة نذكر :

— « نزهة المشتاق » للشريف الادريسي ، حيث تتخللها خرائط متقنة الرسم .

— « روض الفرج ونزهة المهج » لنفس المؤلف الذي وضح جغرافيته هذه بخرائط على غرار سابقتها (29) .

— جامع المبادىء والغايات : لابي علي المراكشي، وقد صور في هذا الكتاب آلات فلكية متنوعة.

— دلائل الخيرات : للجزولي ، رسم فيه مؤلفه صورتين للروضة النبوية الكريمة ولمحراب ومنبر المسجد النبوي .

— الانيس المطرب : لمحمد بن الطيب العلمي ، يضم عدة رسوم فيها صورة تعليمية لعود الغناء (30) واخرى تمثل شجرة طبوع الموسيقى الاندلسية (31) ، وصورتان لرقعة الشطرنج تحيط بكل منهما قطعها على شكل دائرة (32).

— رحلة الشيخ عبد المجيد الزبادي : تشتمل على رسم المسجد الحرام بمكة المكرمة من عمل ابى العباس احمد شقيق المؤلف (33) .

— ذخيرة المحتاج : للشيخ المعطي بن صالح الشرقاوي ، يوجد باحد مجلداتها صورة خيالية ملونة ترمز الى جهنم واوديتها الستة (34) .

---

(26) « تاريخ تطوان » ج 2 ص 73 .
(27) « الدرر الفاخرة . بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة » – ص 101 .
(28) « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» – ج 5 ص 307 .
(29) منه مخطوطة مصورة على الورق في : خ. ع. د. : 3665 ، وجاء في آخره : « ... تمام كتاب « روض الفرج . ونزهة المهج » ، الذي الفه محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحسيني « كذا » العالي بامر الله ، واشتمل الفراغ عليه في العشر الاوسط من شهر صفر ، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة » ، وهو مكتوب بخط شرقي مليح في 165 لوحة .
(30) ط . ف : 1315 هـ – ص 175 .
(31) ص 178 .
(32) ص 186 – 187 .
(33) حسب مخطوطة خ. ع. ك 398 – ص 175 – 176 ، وتحمل الرحلة اسم : « بلوغ المرام ، بالرحلة الى بيت الله الحرام » .
(34) توجد هذه الصورة في مخطوطة المكتبة الملكية ، بالمجلد الذي يحمل رقم 7941 .

— الترجمان المعرب : لابي القاسم الزياني ، به خريطة للكرة الارضية اعاد المؤلف رسمها في كتابيه: الترجمانة الكبرى والروضة السليمانية.
— رسالة في الموسيقى لعبد العزيز الوركاني ، صور فيها آلات الطرب (35) .
— رحلة محمد بن عبد الله الفيفالي الى الحجاز على طريق مصر او آخر المائة الهجرية المنصرمة ، وقد ضمنها مجموعة من الاشكال التي تخللها كتابة لرحلة، حيث رسم فيها بعض المخترعات الحديثة التي شاهدها بمصر ، وتتمثل في الباخرة في شكلها الاول عقب اختراعها ، ثم الاسلاك الهاتفية ممدودة على اعمدتها ، ثم القطار الحديدي ، هذا الى رسوم اخرى تمثل بعض اهرام مصر ، والمسجد الحرام بمكة المكرمة ، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة ، والنعال النبوية الشريفة (36) ، وسنذيل هذا المقال بمجموعة من رسوم هذه الرحلة .
— تذكرة المجالس في علم المدافع والمهارس : ارجوزة نظمها المكي بن قصابة الرباطي ووضحها برسوم عديدة لاشكال المدافع وجهازاتها (37).

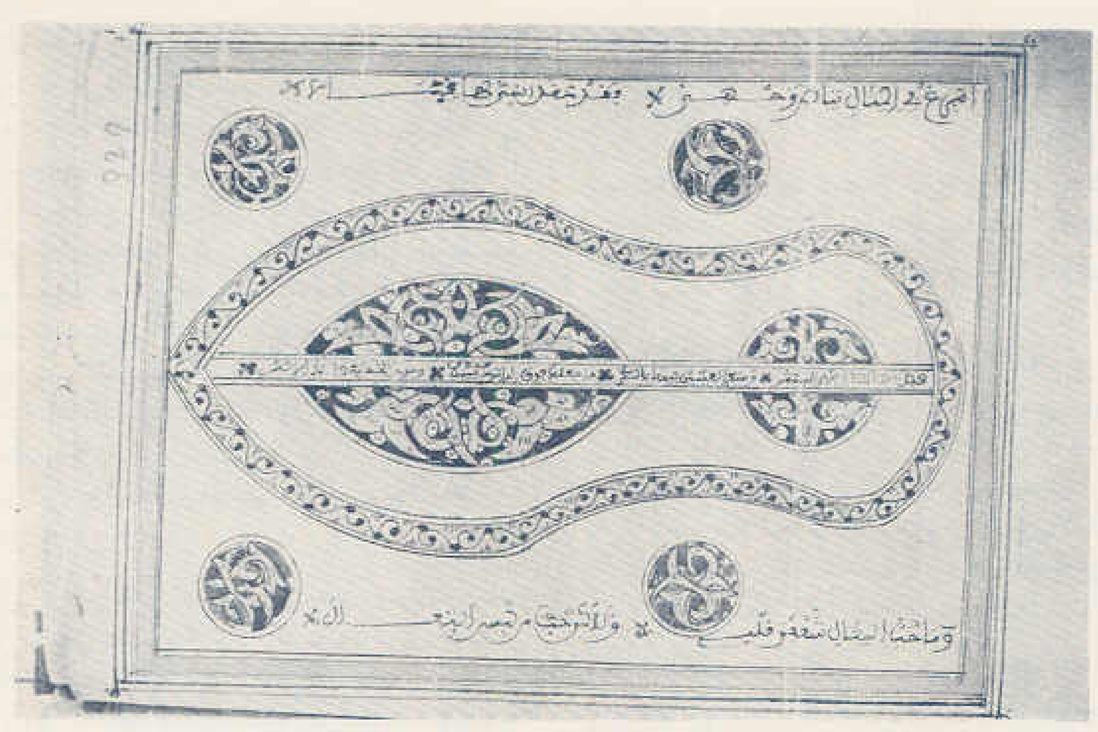
وقد رسم المغاربة — على قلة — تصميمات للمباني ، ونجد امثلة لهذا في التصميم الذي وضع للمهدية .. « مدينة الرباط الحالية » بعدما أمر المنصور الموحدي بتجديدها (38) ، ثم التصميم الذي وضعه المهندس الشهير حسان لاستخراج قبلة مدينة مراكش ، وقد كان محفوظا في الخزانة الموحدية (39) ، ثم تصميم دار ابتناها ابو الحسن المريني بتلمسان (40) ، ثم تصميم قصر البديع بمراكش ، من رسم المنصور السعدي بيده على ورقة (41)، وفي العقود الاولى من هذه المائة الجارية نبغ افراد من البعثات المغربية الى اوربة في رسم الخرائط بصفة عامة ، وبالخصوص في تصميمات الطرقات والمباني ، ولا تزال المكتبة الملكية تحتفظ بشيء غير قليل من هذه الخرط .

اما التصوير على لوحات الورق فقد ظهر كثيرا في رسم امثلة للنعل النبوية الكريمة ، حيث كان من بينها لوحات حائطية مزخرفة تكرم بها البيوت ، ويسجل المقري (42) ان المغاربة كانوا اكثر اعتناء بهذا الرسم من المشارقة ، ومن اقدم الامثلة المغربية المعروفة :

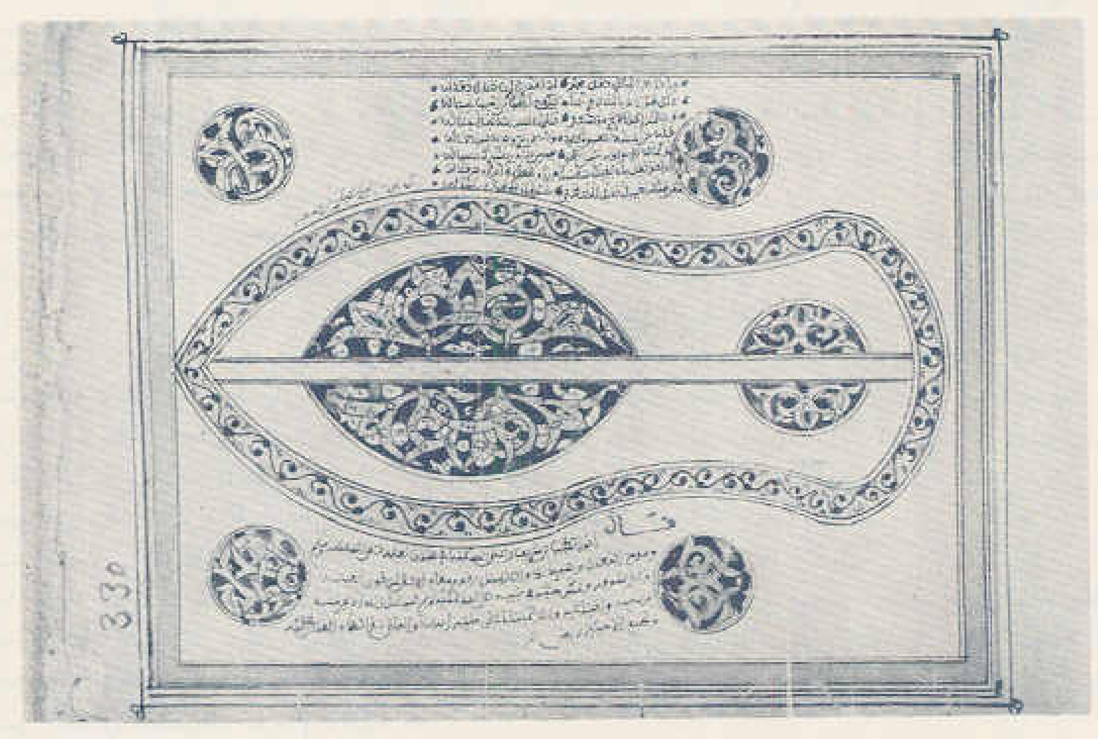
— مثال لمحمد بن عبد الله السبتي ، وهو يرجع الى امثلة مسلسلة الى القاضي اسماعيل بن ابي أويس ابن اخت الامام مالك وتلميذه (43) .
— مثال لابي يعقوب المحساني السبتي (44) .
— مثال لمحمد بن علي بن عبد الحق الانصاري المعروف بابن القصاب ، قاسه بمدينة فاس على مثال المحساني بتاريخ 21 شعبان عام 677 هـ (45) .
— مثال لمحمد بن عمر المعروف بابن رشيد الفهري السبتي حذاه على مثال ابن القصاب (46) .
— مثال آخر لابن رشيد ايضا قاسه على عين النعل النبوية الشريفة التي كانت بدار الحديث الاشرفية بدمشق وقد وقف عليها اثناء سياحته بالشرق العربي (47) .

---

35) انظر : « مظاهر يقظة المغرب الحديث في الميدان التعليمي » مجلة (البحث العلمي) ، العدد التاسع ص 132 — 133 .
36) من هذه الرحلة نسخة مصورة على الشريط في : خ. ع. رقم 12 .
37) توجد الارجوزة بالمكتبة الملكية ضمن مجموع يحمل رقم 1043 .
38) « البيان المغرب » ، القسم الموحدي ، ط. تطوان — ج 3 — ص 188 .
39) « المعيار المعرب » للونشريشي ج 1 ص 112
40) « المسند الصحيح الحسن » خ. ع. ق 111 — الباب الخمسون .
41) « مناهل الصفا » المخطوط المتكرر الذكر ص 272 .
42) « فتح المتعال » خ. ع. ك 1463 — ص 59 .
43) المصدر الاخير — ص 63 .
44) نفس المصدر — ص 190 .
45) المصدر — ص 190 .
46) المصدر — ص 190 .
47) المصدر — ص 92 .



مثال ثالث للقدم الشريف
رحلة الفيقالي — خ. ع. فيلم 12



مثال رابع للقدم الشريف
رحلة الفيقالي — خ. ع. فيلم 12

— مثال لمالك ابن المرحل السبتي ، وهو الذي يلوح له في قصيدة نظمها في هذا الغرض (48) وقد تجدد الاعتناء بهذه الامثلة الشريفة في العصر السعدي ، قال ابو حامد الفاسي (49) : « وكثيرا ما يصنع الناس من الكاغيد وغيره مثال النعل الكريمة ويجعلونه على رؤوسهم وفي بيوتهم وبضائعهم تميمة » ، وقد كانت الامثلة الاولى في هذا العهد مقيسة على النعل النبوية التي صارت — فيما يقال — للمنصور الذهبي ، وكانت محفوظة عند والدته الحرة مسعودة الوزكيتية ، قال البوسعيدي (50) : « وكانت عند ام السلطان فمكنت منها بعض من يواليها من طابتها فحذا عنيها وحذا الناس على حذوه » .

وفي اواخر هذا العصر السعدي صورت امثلة اخرى على النعل الشريفة التي كانت ولا تزال بدار الشرفاء الطاهريين الصقليين بحي مصمودة من فاس الاندلس (51) ، وقد صارت هذه هي معتمد الامثلة المصورة بعد ، في اواخر هذا العصر وفي العصر العلوي ، قال القادري : (52) واحتذى الناس عليها كم من مثال ، ومنها :

— مثال القاضي العدل ، محمد بن بن محمد بن ابي القاسم ابن سودة المري الفاسي عام 1067 هـ (53) .

— مثال ابي زيد عبد الرحمن بن ابي السعود الفاسي الفهري ، في نفس العام : 1067هـ (54)

— مثال ابي العباس احمد بن عبد القادر القادري الحسني الفاسي (55) .

— واخيرا مثال ابي محمد عبد السلام بن الطيب بن عبد الرحمن الشرقي الاندلسي ثم الفاسي المتوفى عام 1348 هـ — 1929 م ، وقد طبع بالمطبعة الحجرية الفاسية مع قصيدة موضوعية لصاحب المثال ، سماها : « نيل الامال ، في زيارة اشراف النعال » ، وهي تائية من بحر الطويل في 177 بيتا — ص 24 .

ونختم هذا العرض ببيان ان هذه المعلقة الحائطية تمثل ما صار يعرف بورق الحائط ، وهذا انما بدا استعماله في اوربة في القرنين السادس والسابع عشر للميلاد بديلا عن المعلقات الزخرفية (56) .

الرباط : محمد المنوني

---

48) المصدر — ص 154 .

49) فيما شرح من دلائل الخيرات للجزولي ، خ. ع. ك 1532 — ص 426 .

50) في تاليفه : « يمن النوال ، في وصف النعال » ، الذي يعرف بواسطة النقل عنه من جهة الامام سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي في كناشة اكثرها بخطه ، وقفت عليها بمكتبة العلامة الجليل محمد بن بوبكر التطواني ، وقد ذكر فيه — حسب هذه الكناشة — صورا لمثال النعال الكريمة ، احداها المصورة في بعض نسخ السيرة لعبد الرحيم العراقي ، والثانية المقيسة على التي كانت عند السعديين ابتداء من المنصور الذهبي ، الى ان يقول البوسعيدي :
« وقد سالت هل بقيت بايديهم الى الان — وذلك في اواسط العقد الثاني من القرن الحادي عشر — فقيل لي : ولعلهم بعثوها في بعض الهدايا ، فالله — تعالى — اعلم ، وهذه الرواية اقرب عهد وصحة بحمد الله ، لكن على تسليم صحة الاصل الذي بيد السلطان رحمه الله تعالى ، وقد كنت حذوت على الحذو الذي حذى عليها فحيل بيني وبينه بالسفر والانتقال من بلد الى اخرى ، وما هنا — « يعني في تاليفه المنقول عنه » — انما هو بالتقريب على ما تعلق بالمحفوظ منها » .

51) انظر عن هذه النعل الشريفة : « سلوة الانفاس » ج 1 ص 343 — 347 .

52) نشر المثاني المخطوط بالمكتبة الاحمدية — عام 1134 هـ .

53) جاء في الكناشة الفاسية الانفة الذكر ما يلي : « هذه ابيات للقاضي سيدي محمد ابن سودة رحمه الله ، اظنه كتبها على مثال صنع على النعل الذي عند الشرفاء الطاهريين الصقليين بالعدوة » ، وبعد هذا ساقها في احد عشر بيتا .

54) نشر المثاني المخطوط — عام 1134 هـ .

55) المصدر الاخير .

56) الموسوعة العربية الميسرة — ص 1948 .

من أعلام الأندلس

القاضي أبو بكر بن العربي

(543 - 468)

للأستاذ سعيد أعراب

قدر لي ان اعيش برهة من الزمن ، مع القاضي ابن العربي ، وان ارافقه في حله وترحاله ، وتجواله ومغامراته، في الاندلس وبغداد، وفي مصر والشام، وفي الحجاز ، وفلسطين ، وفي افريقية والمغرب ، حيث انتهى به المطاف .

واصطحبناه في دروس الطرطوشي ، وامالي الشاشي ، وحلقات الغزالي ؛ وفي محاضراته ومناظراته ، واسماره واخباره ، ونسكه وتهجده ، وفي مكتبه ومتعبده . .

وجلسنا اليه في اماليه باشبيلية وقرطبة ، وندواته بمراكش وفاس ؛ واستمتعنا بمجالسه العلمية ، التى كان يعبق شذاها في كل ناد ، ويطيب جناها اينما حل وارتحل .

وعشنا معه لحظات ، سعدنا بها ، واود ان لو وقفت لارسم لمحات عن هذا التطواف الطويل المدى البعيد المنتحى ، والذي كان فيه ابن العربي سفير المغرب الى المشرق (1) ، وداعي الوحدة بين الاخوة ، والصليبيون يتآمرون على الاسلام ، في الشرق والغرب ، وشاهد مأساة القدس(2) ، بعد ان عاش بها ذكريات وذكريات ... وما اشبه اليوم بالبارحة !

وقد سجل في هذا الرحلة الحافلة ، ارتساماته اللطاف ، ولقاءاته البعيدة المغزى باسلوب أدبي رفيع ، فكان ــ بحق ــ رائد هذا الفن ، واول من شق الطريق امام الرحالة في المغرب الاسلامي (3) .

اما عن علمه وادبه ، وما افاده من شيوخه ، فلربما كان على حق في قوله : « كل من رحل ، لم يات بمثل ما اتيت به انا والباجي (4) » .

نسبه :

وابن العربي ، هو ابو بكر محمد بن عبد الله ، ابن محمد بن عبد الله ، بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ، نسبة الى معافر بن يعفر ابن مالك بن الحارث بن مرة بن اده .. ينتهي نسبه الى قحطان (5) . قال ابن حزم ــ وهو يتحدث عن نسب بني معافر ــ : وهم باليمن والاندلس ومصر، وذكر منهم بني ابي عامر بقرطبة ، وآل جحاف

(1) انظر مقدمة ابن خلدون ص 411 ، والعبر 6 / 386 .
(2) انظر الاحكام لابن العربي 2 / 56 .
(3) كما يقول العالم الروسي كراتشكو في كتابه الجامع ، عن تاريخ الادب الجغرافي العربي . انظر مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد م 11 ــ 12 ص 120 .
(4) انظر المقري ، النفح 2 / 29 .
(5) انظر جمهرة الانساب لابن حزم ص 485 ، ولب اللباب في الانساب 1 / 247

ببلنسية ، وبني متخل بجيان .. قال : وهم بيوت متفرقة بالاندلس ، ليست لهم دار جامعة (6) » .

ولم يذكر ابن حزم آل ابن العربي ، ولعله اقتصر على البيوتات الشهيرة لذلك العهد ، وشهرة آل ابن العربي ، انما جاءت بعد .

والـــده :

ووالده ، هو ابو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي (435 ـ 493) (7) من وجوه علماء اشبيلية ، ومن اعيانها البارزين ، استوزره بنو عباد، ونال عندهم حظوة كبرى ، وكان من أهل الآداب الواسعة ، والتفنن والبراعة ، وهو الذى رفع عماد بيت آل ابن العربي باشبيلية، واناله الشهرة الفائقة، واضفى عليه من ابهة الرياسة ، وجاهه العريض .

قال فيه معاصره الفتح بن خاقان : « .. كان باشبيلية بدرا فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها، اصطفاه ابن عباد ، اصطفاء المامون لابن دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبواه المراتب المنيفة .. (8) ».

أســرة أمــه :

وقد صاهر ابو محمد بن العربي ، اسرة تشاطره الرياسة ، وتتقاسمه السيادة ، تلك اسرة ابي حفص عمر بن الحسن الهوزن (392 ـ 460) (9) عالم الاندلس ومحدثها ، زاحم المعتضد بن عباد فى الاستئثار بالسلطان ، ففتك به ، وقتله بيده ، وهيل عليه التراب فى قصره (10) .

ومما كتب به اليه ، يحرضه على الجهاد ، ويستحثه للدفاع عن حوزة البلاد :

اعباد جل الرزء والقوم هجع
على حالة ما مثلها يتوقع

فلق كتابي من فراغك ساعة
وان طال فالموصوف للطول موضع

اذا لم ابث الداء رب شكاية
اضعت واهل للملام المضيع »

ثم وصله بنثر طويل (11) ، كله نصح وارشاد .. ولكن هيهات ان ينفع النصح ، من اعمتهم الرئاسة ، ودفعتهم بهرجة الملك ، الى ان يدفعوا الاتاوة لعدوهم ، ويرضوا من الغنيمة بالاياب !

وكان المعتضد سفاكا للدماء ، شديد البطش بمنافسيه ، يفتك بهم لادنى سبب ، وقد افاضت كتب التاريخ ، فى وصف حديقة الرؤوس المحنطة ، التى اودعها هام الملوك والرؤساء ، الذين ابادهم بسيفه (12) .

وكان لذلك كله اثره على بيت الهوزن ، فابي ولده أبو القاسم (435 ـ 512) (13) وهو العالم الاديب ، والفقيه المشاور ـ الا ان يثار لوالده ، وقد بدت سحب كثيفة ، فى العلاقة بين المرابطين وامراء اشبيلية ، فاتصل بيوسف بن تاشفين ، وجعل يحرضه على ابن عباد ، حتى اطاح بدولته ، وازال ملكه (14) .

نشـاتـه وتعليـمـه :

فى مدينة اشبيلية ، وهي من كبريات عواصم الاندلس ، وفى بيت من اكبر بيوتاتها ، اطل ابن العربي على هذه الدنيا ، ليلة يوم الخميس 22 شعبان ، عام ثمانية وستين واربعمائة هجرية (468 هـ) (15) .

---

(6) انظر الجمهرة ص 418 .
(7) انظر فى التعريف به : البغية ، للضبي ص 324 والوفيات 3 /423 ـ 425 ، والديباج 1 / 281
(8) انظر المطمح ص 62 ، وازهار الرياض 1 / 92، والنفح 2 / 34 .
(9) انظر فى التعريف به : ابن بشكوال ، الصلة ص 381 ، والمغرب لابن سعيد 1 / 239 .
(10) انظر ابن بسام ، الذخيرة ـ (القسم الثاني 33) والمدارك 4 / 825 ـ 826 ـ طبع بيروت
(11) انظر المرجع السابق
(12) انظر البيان المغرب لابن عذاري ، 3 / 205 ـ 206
(13) انظر فى التعريف به : بغية الملتمس للضبي ص 249 ، والمدارك 4 / 826
(14) انظر المقري ، النفح 2 / 94 ، تحقيق احسان عباس (تعليق 3) .
(15) وهي الرواية الصحيحة ، وقيل سنة (469) انظر الصلة : 559 ، وسلوة الانفاس للكتاني 198/3

فشب على حب العلم ، طموحا الى المعالي ، وكان والده حريصا على تكوينه كل الحرص ، فعنه اخذ تعليمه الاولى ، ولكثرة اشغاله وارتباطه بمهام الدولة ، اختار له ثلاثة معلمين أكفاء ، احدهم لضبط القرآن باحرفه السبعة (16) ، والثاني للعربية ، والثالث للرياضيات (17) .

فحذق القرآن وهو ابن تسع سنين ، ولم يبلغ السادسة عشرة من عمره ، حتى اتقن القراءات العشر ، وجمع فنونا من العربية ، وتمرن على الادب والشعر ، وقد ساعده على ذلك موهبته النادرة ، وذكاؤه الخارق ، وكان يقول : لم ارحل من الاندلس، حتى احكمت كتاب سيبويه .

وقد سجل لنا ابن العربي قائمة بالكتب التى درسها فى هذه المرحلة من حياته التعليمية — فذكر من كتب العربية : الواضح للزبيدي ، والجمل للزجاجي ، والكافي للنحاس ، والاصول لابن السراج ، والشمان للمبرد . ومن الدواوين الشعرية: اشعار الستة ، وديوان ابي تمام ، والمتنبي . وفى اللغة « الفصيح » لثعلب ، واصلاح المنطق لابن السكيت ، والامالي (لعله للقالي) . وفى الحساب المقابلات والجبر ، والفرائض عملا .
وفى الهندسة، اقليدس، وما يليه من الاشكال،

وعدل بالازياج الثلاثة ، ونظر فى الاسطرلاب ، وما الى ذلك .

اما اوقات الدراسة ، فيذكر ان المعلمين الثلاثة ، كانوا يتعاقبون عليه من الصبح ، الى العصر، وباقي الوقت يقضيه فى المطالعة والمذاكرة والتقييد (18) .

ويحضر بعض مجالس الحديث لشيوخ آخرين (19) .

ومن الشيوخ الذين اعتمدهم فى دراسته ، ابو عبد الله السرقسطي (20) ، وخاله ابو القاسم الهوزني (21) ، وقد اخذ عنه مختصر القراءات ، تهذيب ابي حفص الهوزني (22) — جده من الام .

رحلته الى الشرق

ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره ، حتى قدر لدولة بني عباد ان تسقط ، واستولى المرابطون على اشبيلية (23)، وصادروا اموال امرائها ووزرائها، ومن بينها ضياع الوزير ابي محمد بن العربي (24) ، فلم يستطع الحياة فى هذا الجو الخانق ، والبلاد تعيش شبه حالة الطوارىء ، فمن الخير له ان يترك العاصفة تمر ، ويدع السياسة جانبا ، الى حيث يجد الهدوء والاطمئنان .

فراى ان يرحل الى الشرق ، ويفر بنفسه وولده ، تحت ستار اداء فريضة الحج ، وكان لابد ان يستاذن السلطة الحاكمة ، وياخذ براي صهره واستاذ ولده — ابي القاسم الهوزني ، السالف الذكر ، وهو الرجل الذى له مكانه المرموق لدى الدولة الجديدة ، وربما اقترح على يوسف بن تاشفين ، ان يقوم ابو محمد بن العربي ، وولده ابو بكر ، بمهمة سياسية لدى خليفة بغداد ، وابن

(16) ذكر ابن بشكوال فى الصلة ص 533 — من شيوخ ابن العربي فى القراءات ابا عبد الله محمد ابن عبد الرحمان بن عبد الله وقال انه كان يقري الناس بحضرة اشبيلية (ت 500) وانظر الحلل السندسية 2 / 138 — 157 .
(17) وسياتي ان ممن اخذ عنهم ابن العربي — فى اشبيلية — ابا عبد الله السرقسطي ، وابا القاسم الهوزني
(18) انظر قانون التاويل — مخطوط — ص138 — ا القطعة التى نشرها احسان عباس فى مجلة الابحاث اللبنانية ع 1 — ص 59 — س 21 .
(19) نفس المصدر .
(20) انظر المقري ، النفح 2
(21) نفس المصدر .
(22) انظر البقية ص 249 .
(23) كان سقوطها فى رجب سنة 484 — انظر قانون التاويل (مخطوط) ص 139 .
(24) انظر ابن الابار معجم الصدفى ص 6 — والفكر السامي للحجوي 4 — 56 .

تاشفين ــ في هذه الظروف بالذات ــ في حاجة الى من يقوم له بالدعاية له في الخارج ، وينشر مناقبه ومزاياه .

ويذكر ابن العربي سببا آخر لهذه الرحلة : « .. وكان الباعث على هذا السبب ــ مع هول الامر ــ همة لزمت، وعزمة نجمت ، ذلك انني كنت يوما مع بعض المعلمين، فجلس الينا ابي رحمة الله عليه ، يطالع ما انتهى اليه علمي ، في لحظة سرقها من زمانه ، مع عظم اشغاله وجلس بجلوسه ، من حضر من قاصديه ، فدخل الينا احد السماسرة ، وعلى يديه رزمة كتب ، فاذا بها من تاليف السمناني رتي (25) ، والباجي (26) ، وسمعت جميعهم يقول : هذه كتب عظيمة ، وعلوم جليلة ، جلبها الباجي من الشرق ، فصعدت هذه الكلمة كبدي ، وقرعت خلدي ، وجعلوا يوردون في ذكره ويصدرون ، ويحكون ان فقهاء بلادنا ، لا يفهمون عنه ولا يعقلون ، ونذرت في نفسي طية ، لاهاجرن الى هذه المقامات ، واستمررت عليها نية (27) .. »

ومهما يكن ، فان رحلة الشيخ والفتى ، كانت صبيحة الاحد ، مستهل ربيع الاول ، عام 485 هـ (28) ، « .. فخرجنا مكرمين ، او قل مكرهين ، آمنين ، وان شئت خائفين، وفررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من العالمين (29) .. وكان توجههما من اشبيلية الى مالقة ، ومنهما الى غرناطة ، ثم المرية ، ولم ينس الفتى ــ وجرح صدمة مفارقة الاهل والوطن لم يندمل ــ ان يتصل ببعض الشخصيات العلمية بهذه البلاد الثلاث ، فلقي بمالقة ابا مطرف عبد الرحمان بن قاسم (الشعبي) (ت 497) (30) ، وذاكره في ضروب من العلم ، اما غرناطة ــ وربما كانت احسن حالا من الاولى ــ فلم يطل توقفه بها ، ولاسباب قاهرة ، تابع سيره الى المرية ، وهناك اقام بضعة ايام ، اتصل خلالها ببعض رجالات الفكر ، ورأى حركة علمية وادبية ، لا باس بها ، لكنها ليست في المستوى الذي تحسد عليه ، وكان الفتى يقضي جل اوقاته في مجالسة قاضي البلد ، العالم المقرىء ، ابي الحسن عبد العزيز بن عبد الملك بن شفيع (ت 514 هـ) (31) .

ومن المرية ابحر الى بجاية ، وانتهت صلتهما بالاندلس، وكان نزولهما بفندق يعرف بخان السلطان. وما ان وطئت قدم الفتى ارض افريقية ، حتى شعر بالمهمة التي اثقلت كاهله ، والامل الذي كان ــ دائما ــ يراود احلامه ، فأخرج اقلامه ودفاتره ، وكأنه يريد شيئا قد ذهل عنه ، ورغم ان بجاية مرفأ صغير ، حديث العهد ، لم يمض على انشائه الا بضع سنوات ، فقد كان به نفر من العلماء ، لقي منهم ابو بكر ــ ابا عبد الله بن عمار الميورقي (32) ، راس المشيخة ، وكان على قدم الباجي واضرابه .

ومنهم الكاتب الاديب ، رجل الدولة، ونابغة العصر ، القاسم بن عبد الرحمان (33) ، وقد جاء للاقائهم ، ورحب بهم، وبالغ في اكرامهم ، ويثني ابن العربي على لطفه وبره ، ويذكر انه كان يتردد عليهم ويزورهم في نزلهم ، ويسأل عن احوالهم ، وربما كانت مهمته السياسية ، تفرض عليه ذلك ، وابن العربي الاب وزير مرموق ، في حكومة اشبيلية السابقة ، فمن ادب اللياقة الاهتمام به ، والاعتناء بشانه ، ولا يخفي ابو بكر اعجابه بهذا الرجل ، وتضلعه في العربية وشؤون الادب، ويعترف ابن العربي ــ وقد ذاكره طويلا ــ انه اصلح من اخطائه في بعض مسائل

---

(25) ابو جعفر محمد بن احمد السمناني (ت 444) شيخ الاشعرية في وقته . انظر الجواهر المضيئة ، في الحنفية ، لابن ابي الوفاء 21/2.

(26) هو ابو الوليد سليمان بن خلف (ت 474) انظر ترجمته في الصلة ص 197 ، وبغية الملتمس رقم 777 ، والمغرب ر / 404 . والديباج 120.

(27) انظر قانون التاويل (مخطوط ص 138 ب)

(28) انظر الصلة ص 558 .

(29) انظر قانون التاويل (ص 138 ب) .

(30) انظر الصلة : 329 . وقانون التاويل (ص 139 ــ ا)

(31) انظر الصلة : 355) . 21 .

(32) ويعرف بالكلاعي انظر المدارك 4 / 826 ، والتكملة 403 ، والنفح 2 / 60

(33) انظر قانون التاويل (ص 138 ب) .

النحو ، مما رغبه فى تحصيل العربية، وضبط غريب الحديث ، وقال انه قرا بها كتاب ابن داود برواية التمار (34) .

ثم تابعا سيرهما — طورا بالبر ، وطورا بالبحر ، وقد قست عليهما الطبيعة واشتدت الانواء ، ومرا فى طريقهما على بونة (عنابة) ولقيا بها بعض الشخصيات ، ودخلا تونس ، وزارا سوسة ، ثم نزلا المهدية ، فلقي بها أبو بكر جملة من فقهاء القيروان ، وسمع عليهم فى القراءة والادب وعلم الكلام ، وقد وجد دنيا غير الدنيا التى عرف ، ولمح له نور ، طالما تلمسه فلم يجده « .. فلما لمح لي هذا الكوكب ، بطريقة القيروان ، واستنار لي فيها بنوع من البرهان ، واستبراتها بواضح من الدلالات . غض النبات والافنان ، — قلت هذا مطلبي ، فاخذت فى قراءة شيء من اصول الدين ، والمناظرة فيه مع الطالبين ، ولزمت مجالس المتفقهين .. (35) » ولم يفت ابن العربي — وهو الفتى الشديد الحساسية — ان يشير الى ان الادب بها ، كان على حالة وسطى ، وممن لقيه من شيوخ المهدية ، وسمع عليه — ابو عبد الله المازري الامام (ت 453 — 536) (36) ، وابو الحسن ابن الحداد الخولاني (37) ، حضر عليه كتابه «الاشارة» وشرحها من تاليفه .

ومن المهدية ، ركبا البحر ، على ظهر سفينة متجهة الى الحجاز ، ولكن البحر هذه المرة ، كان اقسى عليهم من ذي قبل، فقد ثارت عاصفة هوجاء، حطمت السفينة وما فيها ، ونجا ابو بكر ووالده من الغرب باعجوبة ، وكان خروجهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة) ، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم ، فاكرمهم رئيس القوم ، وبالغ فى الاحتفاء بهم ، ولندع ابن العربي يصف هذا الحادث باسلوبه المسجوع « .. وقد سبق فى علم الله، ان يعظم علينا البحر بزوله ، ويغرقنا فى هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل ، الى بيوت بني كعب بن سليم (38) ، ونحن من السغب ، على عطب ، ومن العري ، فى اقبح زي ، وقد قذف البحر برقاق زيت ، مزقت الحجارة هيئتها ، ودسمت الادهان وبرها وجلدتها ، فاحتزمناها ازرا ، واشملناها لفافا ، تمجنا الابصار، وتخذلنا الانصار ، فعطف اميرهم علينا ، فآوينا اليه وآوانا ، واطعمنا الله على يديه وسقانا ، واكرم مثوانا وكسانا ، لامر حقير طفيف ، وفن من العلم طريف ، وشرحه : انا لما وقفنا على بابه ، الفيناه يدير اعواد الشاه ، فعل السامد اللاه ، فدنوت منه فى تلك الاطمار ، وسمح لي بياذقته اذ كنت من الصغر فى حد يسمح فيه للاغمار ، ووقفت بازائهم ، انظر الى تصرفهم من ورائهم ، اذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة ، فى خلس البطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة ، فقلت للبياذقة: الامير اعلم من صاحبه ، فلمحوني شزرا ، وعظمت فى اعينهم بعد ان كنت نزرا ، وتقدم الى الامير من نقل اليه الكلام فاستدناني ، فدنوت منه وسالني : هل لي بما هم فيه بصر ، فقلت : لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر ، حرك تلك القطعة ، ففعل ، وعارضه صاحبه ، فامرته أن يحرك اخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى ، حتى هزمهم الامير ، وانقطع التدبير ، فقالوا ما أنت بصغير ، وكان فى اثناء تلك الحركات ، قد ترنم ابن عم الامير منشدا :

واحلى الهوى ما شك فى الاصل ربه
وفى الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى

فقال لعن الله ابا الطيب ، اويشك الرب ؟! فقلت له فى الحال ، ليس كما ظن صاحبك ايها الامير ، انما اراد بالرب هنا الصاحب ، يقول : الذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب ، فهو فى وقته كله ، بين رجاء لما يؤمله ، وتقاة لما يقع به ، كما قال :

اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى
فاين حلاوات الرسائل والكتب

---

(34) يعني سنن ابي داود ، وله رواة سبعة منهم ابو بكر بن داسة المعروف بالتمار . انظر الذهبي.
(35) انظر قانون التأويل (ص 139 — 1)
(36) انظر الوفيات لابن خلكان 3 / 413 ، وازهار الرياض 165 — 166 .
(37) انظر النفح .
(38) انظر ابن خلدون ، العبر 6 / 144 .

واخذنا نضيف الى ذلك من الاغـراض ، في طرفي ابرام وانتقاض ، ما حرك فيهم الى مبرتـي داعي الانتهاض ، فاقبلوا يتعجبون مني ، ويسالونني كم سني ؟ ويستكشفونني عنـي ، فبقـرت لهـم حديثي ، وذكرت لهم مجيئي ، واعلمت الاميـر ان ابي معي ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة الى مثواه ، فخلع علينا خلعه ، واسبل ادمعه ، وجاء كل خوان، بافنان الالوان ، فقال لنا : لا تسرفوا ، فان الشبع بائر الجرع معطب ، وكاني بكم لم يزل بكم سغـب ، واقمنا عنده حتى ثابت الينا نفوسنا ، وذهب عنـا بؤسنا ، وسالنا الاقامة عنده ، على ان يصير الينا صدقات بني سليم كلها ، فابينا الا الاستمرار علـى العزيمة الاولى ، والتصميم الى المرتبة الكريمة التي بنا اولى ، ففارقنا علـى ضفانـة بنا ، وحرصـه علينا ، وسرنا حتى انتهينا الى ديار مصر .. (39)»
واوردت هذا النص بطوله ، لانه يرسم خطوطا عريضة عن حياة ابن العربـي الطفوليـة ، وسيكولوجيتـه الذهنية والعقلية ، ومدى استعداده لخوض معركـة هذه الحياة ، على اختـلاف مستوياتهـا ، وشتـى اطوارها ، وهي فترة غامضة في حياة كل شخصية، من الشخصيات التي نريد ان ندرسها ، ولم تعودنا المصادر، وكتب السير الحديث عنها ، وهي نقطـة البداية ، وحسب البدايات تكون النهايات .

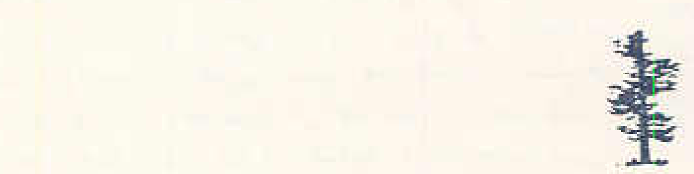
فلننظر الى تفتق ذهنية هذا الفتـى ، وكيـف استطاع ــ بلباقته ، ولطف حديثه ــ ان يستولـى على قلوب هؤلاء السادرين اللاهين ، ويلفت نظرهم اليه ، والاهتمام بشانه ، وما للامير وللاحـداث ، فضلا عن اكرامهم ، فضلا عن رغبته ، في ان يبقـى هذا الفتى الى جانبه ، وكانه تفـرس فيـه ، وراى ملامح العبقرية في عينيه ..!

« اتقوا فراسة المومن ، فانها لا تخطيء »

ـ فلنودع ابن العربي بأرض الكنانة ، وهو يخطط لذلك لمستقبل البعيد ، ويضع منهاجا دقيقا لرحلته العلمية التي ستتحدث عنها الاجيال ، والتـي ستخصص لها الحديث القادم بحول الله والى اللقاء .

تطوان ــ سعيد اعراب

(39) انظر قانون التأويل ــ مخطوط ، وازهار الرياض 3 / 89 ــ 91 ، والنفح 2 /31 ــ 33 .





الشيخ محمد الثمينى

المجاهد التونسي الجزائري

للأستاذ المجاهد محمد على الطاهر
نزيل بيروت

شكرا لشاعر المغرب العربي الكبير الاستاذ مفدي زكرياء على اشعاره اياي بواجبي تجاه صديقنا المجاهد المرحوم الاستاذ محمد الثميني ، لانني لولا الوفاء الذي يتميز به الاستاذ مفدي لبقيت جاهلا نبأ رحيل فقيد الوطنية الصحيحة الشيخ محمد الثميني عن دنيانا الزائلة الى دنيا الله الباقية ، ولولا انه يعرف صلة الفقيد صديقه بي انا ايضا لظللت اجهل نبأ ارتحال صديقي الثميني النائي عنا الى جوار الله ، ولحرمت ثواب الترحم عليه ، وتوديعه الوداع الذي لا لقاء بعده ، ولو باسطر يخطها قلم اسيف ، يمتحها من اعماق قلب حزين ، تقديرا لجهاد هذا المجاهد المجهول عند الجماهير ..

ان مثل الاستاذ الثميني الذي نزح مضطرا عن وطنه الاصلي وادي مزاب في الجزائر ، الى تونس بالذات ليس لانها خضراء واكثر خصبا من صحراء وادي مزاب ، كلا بل لانهما في الوقوع في القيد الاجنبي سواء .. ولكن تونس تمتاز بجامع الزيتونة المعمور الذي يستطيع المنكوبون ببلاء الاستعمار ان يتسلحوا منه بشيء مما فيه من ادوات العلم والمعرفة اللتين لابد للمصابين بالاستعمار من اخذ الدروس اللازمة من المعهد الزيتوني مثلا ، ليتعلم فيه الانسان اولا ما هو الدين وما هو الوطن ، وانه لا قيمة لمخلوق يجهل قيمة هذين الامرين معا ، ولا سبيل بدونهما من الخلاص من قبضة الاجنبي ، لاننا لولا جهلنا المطبق وغفلتنا الفشيمة ما كان امكن لاحد ان يسلب وطننا من ايدينا وبلدنا ويجعلنا غثاء بين الشعوب والامم ، لا نحسن سوى البكاء على امسنا ، والنواح على اوطاننا ، والاسى مما حل بنا ، وكله وهو في الغالب يكون من صنع ايدينا !

ولم يضيع المرحوم الشيخ الثميني الوقت يمر سدى ، بل اسرع الى النهل من العلم ، والاندماج مع المجاهدين التونسيين عند تاسيسهم الحزب الدستوري قبل اكثر من خمسين عاما ، لان نجاح تونس هو نجاح وفلاح للجزائر نفسها ، ولكل قطر عربي واسلامي على وجه الارض ..

وفي تلك الايام تمت هجرتي انا ايضا من فلسطين الى مصر نهائيا ، بعدما رايت بريطانيا تنتدب نفسها لحكم فلسطين بعد نزعها من سورية ، لتقيم مكاننا دولة اليهود ، التي نراها الان تخرق عيوننا نحن العرب والمسلمين ، وعلى الاخص عيون الذين خذلوا فلسطين حين كان يمكن انقاذها باقل التكاليف ، وربما بالكلام وحده لو امدوها بالتأييد المعنوي في الوقت المناسب .. فاذا بالشيخ محمد الخضر بن الحسين العالم التونسي المجاهد قاضي بنزرت سابقا ، الذي هاجر رحمه الله من تونس قبل ذلك الى الحجاز فاستنبول فسورية ، ثم اتخذ من مصر مهجرا وموطنا عندما قضت فرنسا على الدولة العربية المستقلة في الشام سنة 1920 وهو الذي اختارته مصر بعد ذلك شيخا للاسلام وللجامع

الازهر . ثم جاء العلامة الشيخ ابراهيم اطفيش مواطن الثميني رحمهما الله الذى هو ايضا من وادي مزاب، وكان مضطهدا ايضا من الاستعمار فى الجزائر ، ومبعدا بعد ذلك الى تونس ، ثم مبعدا الى مصر ايضا على يد الكولونيل الشرير كمبانا مدير الامن العام بتونس ، واغلب ظني ان ذلك الابعاد كان فى عهد المقيم العام الخبيث لوسيان سان الذى ابتلي به المغرب بعد ذلك .

— * —

ان وفود المرحوم ابراهيم اطفيش الى مصر كان سبب الاتصال والتعارف الكتابي بين مواطنه المرحوم الشيخ الثميني وبيني ، ابتداء من سنة 1924 على اثر صدور جريدتي «الشورى» بالقاهرة، لانه كان لابد لمثل هذه الجريدة من التسلل الى تونس تهريبا .. ثم حاجتها الى «محطة» فى تونس نفسها لتسريب الجريدة من هناك الى الجزائر ، ولذلك كانت (مكتبة الاستقامة لصاحبها محمد الثميني بنهج ابن عروس بتونس قبل نقلها الى مقرها التالي بسوق العطارين الذى زرت فيه الثميني مرارا بعد استقلال تونس سنة 1956 .

ان نشأة الشيخ محمد الثميني العلمية الذى تفقه فى جامع الزيتونة شقيق القرويين بفاس والازهر بمصر ، وجعلته يمارس الجهاد السياسي مع احرار تونس ، قد كونت منه سياسيا وطنيا تحفظ له اوساط تونس الثائرة وعند مواطنيه فى القطر الجزائري مكانة لائقة بعلمه وامانته الوطنية، وقد رايته فى تونس ملحوظا بعناية اوساط العلم والجهاد وموقرا عند الناس ..

وفيما كان الحال كذلك اذا بحادث مزعج يدخل (قبل اربعين عاما) على حياة الشيخ الثميني ، وذلك ان كمبانا مدير الامن العام بتونس يقبض على الشيخ الثميني ويسوقه الى محكمة « الدريبة » متلبسا بتهريب جريدة الشورى الى تونس ، ثم تهريبها ايضا الى الجزائر ..

وكان الراي العام قد جند نفسه فى تونس للوقوف بعواطفه الى جانب تونس الثميني ، وتطوع عميد المحاماة اذ ذاك السيد صالح فرحات أمد الله فى حياته فدافع عن « المتهم الشيخ الثميني » ، وقد انتهت هذه الحادثة المزعجة على كل حال بدون عقاب ، لان براعة نبغاء المحاماة المخلصة تتغلب احيانا فى مثل هذه الامور على سوء نوايا الظالمين وتطيح بما يمكرون ..

وبعد هذه الاحداث العتيقة التى تنوسيت بدون ان انساها ـ اذا بي استقبل فى مكتبي بمصر بعدها نحو عشرين عاما ، شيخا وجيها وقورا هو الاستاذ الثميني ، ففرحت به ورحبت ، وكان قد وفد على مصر بعد الحرب العظمى الثانية ليشتري ما جد بمصر من الكتب الجديدة وشحنها الى تونس ..

ولما اذن الله لتونس بالانعتاق من ربقة فرنسا بعد ذلك 1956 بفضل جهاد التونسيين وزعيمهم الموفق الحبيب بورقيبة اعز الله نصره ، دعاني الى زيارة تونس عندما فازت باستقلالها وتولى بورقيبة رئاسة الوزارة ، واقام لي حفلة حافلة فى مسكنه الرسمي ، وكان فقيدنا الشيخ الثميني من شهودها واعلامها ..

بعد هذا كله احب ان اجلو نقطة تتعلق بما كان يكتبه المرحوم الثميني وقيل انه كان ينشره فى جريدة الشورى ، فاني لا استبعد انه نشر فيها اشياء من قلمه بغير اسمه ، او بحروف مختزلة من اسمه ، واما الذين كتبوا للشورى ونشرته لهم علنا فاني اتذكر منهم المرحومين محي الدين القليبي الذى كتب الكثير الكثير بامضائه وبامضاءات شتى ، والسيد عبد العزيز الثعالبي ، ومصطفى بن شعبان، ومحمد الغربي ، وعلي باحارث ، والشيخ صادق بسيس ، وحسين الجزيري وغيرهم ، رحم الله من مات منهم واطال فى حياة من بقي حيا ، واعاننا جميعا على تمضية بقية هذه الحياة بدون ان ننكب بكارثة عظمى اخرى كالتى حلت بنا سنة 1967 وحطمتنا وكسرت راس العالم الاسلامي والعرب قاطبة ، ثم قيل لنا انها « نكسة » فقط ، نكس الله رؤوس اولئك الجبناء الذين تركوا للاعداء بقية فلسطين وعلى راسها المسجد الاقصى ، ثم هربوا من اليهود وفضحونا ، اخزاهم الله فى الدنيا والآخرة ...

محمد علي الطاهر
نزيل بيروت

من التراث الأندلسي :

أوصاف الناس

في التواريخ والصلات

للوزير لسان الدين ابن الخطيب (713 - 772)

تحقيق ودراسة الدكتور محمد كمال شبانة

- 6 -

ومن ذلك في وصف :

50 – أبي عبد الله بن جزى (1)

فرع محل بسق ، وثاقب طلع فجلى الغسق . واديب فرع من الادب كل شاهق ، وحدث عما بين عاد وبينه وصدقاه في خدي غلام مراهق . فتد اقرانه واترابه ، واجال (93 : أ) في ميدان الفنون غراته . فاصبح نادرة اوانه ، وواسطة عقد اخوانه . فهو النبيه الذي قل له الشبيه ، والوجيه الذي قصر عن لحاقه الوجيه (2) . اذا ذكرت الفرائب قال : انا لها ، ولو تعلقت الفوامض بالثريا لنالها . الى خلق اعذب من الضرب (3) ، واسمى من بلوغ الارب ، ونبل لا تطيش نباله عن غرض ، وذكاء يكشف كل مشكل مهما عرض .

وله ادب تود العقود محاسن شذوره ، وتقصر الصدور عن اعجازه وصدوره ، وتتضاءل اهلة المعاني عند طلوع بدوره .

ومن ذلك في وصف :

51 – أبي العلى بن سماك

كاتب ماشق ، واديب لريح الادب ناشق . ذو طبع سائل ، وكلف بالمسائل . فلا يفتر عن تقييد ونقل ، وجلاء الفوائد وصقل . كتب مع الحاجة فاحكم الخط واتقنه ، وتلقى السجع وتلقنه . وانشد الشعراء فاجرى بعير الخلاء ، وجعل دلوه في الدلاء . وله بيت معمور في القديم (93 : ب) بصدور قضاة ، وسيوف في الدين منتضاة . ولم يزل منتظما في السلك ، ومرتسما في كتاب الملك . الى ان عضه الدهر بناب خطوبه ، وقابله – بعد البشاشة –

1) هو الكاتب ابو عبد الله محمد بن جزى الكلبي ،ولد بغرناطة في شوال 721 هـ (يناير 1321 م) ، وتولى منصب الكتابة بديوان سلطان غرناطة ابي الحجاج يوسف الاول (733 – 755 هـ) فترة من الوقت ، فحاز اعجاب معاصريه من الادباء ، وله مدائح في هذا السلطان ومعاصره بالمغرب ابي الحسن المريني . وقد ظل في هذا المنصب حتى دس له اعداؤه عند ابي الحجاج ، الذي اقصاه بعد تعذيبه ، فشد رحاله عن الاندلس الى المغرب ،حيث التحق بديوان الكتابة في البلاط المريني لدى السلطان ابي عنان فارس ، حتى وافاه اجله في 29 شوال 757 هـ (26 اكتوبر 1356 م)حيث دفن بفاس . ويعتبر ابن جزى – فوق صناعته الادبية – من العلماء الافذاذ ، بما شهر عنه في علوم اللغة والتاريخ والحساب ، بشهادة الامير اسماعيل ابن الاحمر في كتابه « نثير الجمان » .

راجع : المقري في « نفح الطيب » ج 8 ص 40 – 42 ، ثم « يوسف الاول ابن الاحمر » للمحقق ص 57 .

2) اراد بالوجيه الاول : سيد القوم ، وبالثاني : الفرس المبادر .

3) الضرب : العسل الابيض .

بقطوبه ، فتاخرت ـ فى هـذه الايـام ـ جرايتـه ، ونكصت ـ على العقب ـ رايته .

وقد اثبت من شعره ما يشهد باجادته ، وينظمه فى فرسان الكلام وقادته .

ومن ذلـك فى وصـــف :

52 ـ محمد بن عبد الله بن الخطيب . رحمـه الله (المؤلـــف)

ان خالطت العذب بالاجاج ، ونظمت مخيلتي بين در هذا التاج ، فلم ابغ تعريفا ولا تنبيها ، ولا اعتدت ان اقرظ نفسي وازكيها . ولكني باوت نفســي (4) ، عن مفارقة ابناء جنسي . فزاحمتهم فى ابواب هـذه الآداب ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو فى الكتاب.

واما رايت حللهم الموشية الطرر ، وحلاهـــم الواضحة (94 : أ) الشيـاة والفـرر ، نافستهـــم منافسـة الاكفاء فى حلة تزين منكبي ، وراية تتقـدم موكبي . فجلبت فضلا حلاني به رئيـس الصناعـة ، وامام الجماعة (5) ، فى بعض المنشورات السلطانية، البـنـي به الشرف ضافي الاردان ، وتركني معلـــم ذلك الميدان . وهو اظهر اثر اعتقاد الجميل فيـــه ، وفتح له أبواب القبول والتنويه ـ تشـرع الى القـر الوجيه ، والقدر النبيه . ورعى له وسـائلهـا التـي كرمت معانيها ، وعذبت مجانيها ، وتاسســت ـ على قواعد البلاغة ـ مبانيها . وعرف ما له من الاصالـة التي تميز فى اعيانها ، وبراعة الادب التي احرز خصل رهانها ، وتلقى باليمين راية فرسانها .

ولما اختصه بالتقريب والايثـار ، واعتمــده بولايات ملكه الكبار ، وقربه فى بسـاط ملكه حمايـة وعناية ، واطلع من آيات السعـادة آيـة ، وابتـداه بالخطط التي هي لغير غاية ـ راى أن يستعمله فيما هو لديه اهم موقعا ، واعز موضعا . (94 : ب) وان يجمع له الكتابتين انشاء وديوانا ، ويطلـع له وجـوه الرعاية غرا حسـانا . فحسبي ما خلد لي بذلك مـن مجد ، وقلدني من فخر اشهر من نار على نجد .

واما شعري ونثري فقد اثبت منه ـ بعد سؤال الاغضا ، والنظر بعين الرضا ـ ما تعلـق بالذكـر ، واحتجب بحجاب الضمير من بنات الفكر .

ومن ذلـك فى وصـــف :

53 ـ ابى جعفـر بن خاتمـــة (6)

ناظم درر الالفاظ ، ومقلد جواهر الكلام نحـور الرواة ولبات الحفاظ ، ذو الادب الـذي اضحـت شوارده حلم النيام وسمر الايقاظ ، وكمن فى بياض

---

4) اراد الا ينسلـخ عـن قرنائـــه .

5) يقصد به « الشيخ الرئيس ابا الحسن علي ابن الجياب » رئيس ديوان الانشاء فى البلاط النصري، والذي تقدمت الترجمة له من المؤلف ، وقدمناه فى العدد السابق .

6) هو الشيخ احمد بن علي بن محمد ابو جعفر الانصاري . ولد بمدينة المرية عام 734 هـ (1333 م) . وقضى شطرا هاما من حياته استاذا بمدرسة غرناطة ، واشتغل بالتاليف ، فمـن مؤلفاتـه رسالتـه « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » ، وام تثنه مشاغله العامة عن فرض الشعـر ، فمن قوله فى الحكم :

هو الدهر لا يبقى على عائـذ بــه ... فمن شاء عيشا يصطبر لنوائبـــه

فمن لم يصب فى نفسه فمصابـه ... بفوت امانيـه وفقـد حبائبـــه

وتجدر الاشارة ـ فى هذه المناسبة ـ الى أن ابن الخطيب حينما فكر فى مغادرة الاندلس ذات مرة كتب اليه صديقه « ابن خاتمة » رسالة رقيقة ، يستعطفه فيها أن يعدل عن هذه الفكرة ، ويقول له: « انكم بهذه الجزيرة شمس افقها ، وتـاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها، وفريد دهرها . وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العلوم والمخصوص . ثم انتم مدار افلاكها، وسر سياسة املاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان احسانها ، وطبيب مارستانها ، والذي عليه عقـد ادارتها ، وبه قوام امارتهـا » ، فأجابـه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك .

توفى « ابن خاتمة » عام 770 هـ (1369 م) ودفن بمسقط راسه المرية .

راجع : ابن الخطيب « الاحاطة » ج 1 ص 247 ـ 267 ، تحقيق « عنان » . ثم المقري فى « ازهار الرياض » ص 265 ـ 270 ، وحيث يورد كلا المؤلفين هاتين الرسالتين كاملتين .

طرسه وسواد نفسه سحر اللحاظ . رفع بقطره راية هذا الشان على وفور حلبته ، وجرع قنة البيان على سمو هضبته ، وفوق سهمه الى نحر الاحسان فأثبته في لبته . فان أطال شأى الابطال (7) ، وكاثر المنسجم الهطال . وان أوجز فضح واعجز ، فمن نسيب تهيج به الاشواق ، وتضيق عن زفراته (95 : أ) الاطواق . ودعابة تقلص ذيل الوقار ، وتزري باكواس العقار . الى انتماء للمعارف ، وجنوح الى ظلها الوارف .

ولم تزل فضائله بتلك البلدة (8)تنفسخ آمادها، حتى تنافس فيه قوادها ، فاتخذوه كاتب اسرارهم ، وترجمان اخبارهم .

وقد أثبت من مقطوعات شعره ، ونفثات سحره ، مايستاثر السامع ، ويقرظ المسامع .

ومن ذلك في وصف :

54 ـ أبى عبد الله بن بقى

مدير لاكواس البيان المعتق ، ولعوب باطراف الكلام المشتق . انتحل ـ لاول أمره ـ الهزل من اصنافه ، وجنى ثمرة الابداع لحين قطافه . ثم تجاوزه الى المغرب وتخطاه ، فادار كأسه المترع وعاطاه . فأصبح لفنيه جامعا ، وفي فنكيه شهابا لامعا . وله ذكاء يطير شرره ، وادراك تتبلج غرره . وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض .

وعلى ذلاقة لسانه ، والفساح امد احسانه ، شديد الضنانة بشعره ، مقل لسحره . اجاب(95:ب) احد الادباء ممن خطب أدبه ، واستدعاه للمراجعة وندبه .

ومن ذلك في وصف :

55 ـ أبى علي حسن بن عبد السلام

فارس براعة بارعة ، ورب بديهة مسارعة . لاك الكلام وعلكه ، واستحق الاحسان وملكه ، وادار على قطب الاجادة فلكه ، وساعده الدهر فتحرى طريق الشرف وسلكه . ولم يزل القدر يساعده ، والتدبير ينوء به ساعده ، حتى تجلت بالثراء حاله ، وعظم جاهه وماله . ولما تقلبت الفتنة بدولته ، وعجمت عود صولته ـ آثر الرحيل ، وفارق ربعه المحيل . واستقر بحضرة تونس يروم الوجهة الحجازية ، وقد تبرأ من قول الشاعر :

« وما أنا الا من غزية »

فاتاه بها حمامه ، وانقضت ـ دون أهله ـ أيامه .

وله ادب غض الجنا ، أنيق اللفظ والمعنى ، على قصر باعه ، وقلة انتجاعه .

ومن ذلك في وصف :

56 ـ أبى الحسن بن الصباغ

اللسن العارف ، والناقد لجواهر المعاني كما تفعل بالسكة (96 : أ) الصيارف . والاديب المجيد ، الذي تحلى به العصر النحر والجيد . ان اجال جياد يراعته فضح فرسان المتهارق ، واخجل بين بياض طرسه وسواد نقسه الطرر تحت المهارق . وان جلى افكار افكاره ، واثار طير البيان من أوكاره ـ سلب الرحيق المقدم (9) فضل اسكاره . الى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد لها طرف ، واباية لا يفل لها غرب ولا جرف .

---

7) شأى الابطال : سبقهم .

8) المرية .

9) المقدم : بضم الميم وتشديد الدال ، المشبع حمرة .

وفى هذه الايام دعاه شيخ الغزاة (10) الى كتابة سره ، وقام بواجب بره . وله ادب غض، وزهر – على مجتنيه – مرفض .

ومن ذلك فى وصف :

57 – ابى عبد الله الطراز

روضة ادب وظرف ، لما شئت من حسن وعرف . اشرقت ذكاء لفرط ذكائه ، وتضوعت آدابه تضوع الروض غب سمائه . الى حلاوة الخلائق والضرائب ، والشيم الحسنة والمعاني الغرائب . ترتاح الى مجالسته المحاضر ، ويرف من افنان فكاهته الزهر الناضر . فما شئت من توقيع رفيع (التقدير) ، وتندر بالاصابة جدير ، ولطافة الشمائل ، والمشاركة فى كثير من الفضائل .

وله (96 : ب) نفس تطمح الى بلوغ المعالي ، وفكرة تحوط حلل البدائع فى الطراز العالي . وادب كالروض باكرته السحائب ، وحملت أرجه الصبا والجنائب .

وقد اثبت من شعره كل عطر النسيم ، سافر عن المحيا الوسيم .

ومن ذلك فى وصف :

58 – ابى جعفر بن داود الوادي آشي 11)

شيخ العمال المؤتمن على الجباية والمال ، المستوفى شروط الفضل على الكمال . تواضع – رحمه الله – مع العلو ، ولبس شعار السكون والهدو ، وبذل المجاملة للصديق والمسالمة للعدو . ولازم مجالس الملوك بحيث يضر وينفع ، ويحط ويرفع . فما شاب بالاساءة احسانا ، ولا اعمل – فى

---

10) هو القائد يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق ابو زكريا . ولد بظاهر تلمسان عام 691 هـ (1288 م) يتصل نسبه بملوك بني مرين ، تولى مشيخة الغزاة بالاندلس (قيادة الجيش) مرتين : اولاهما قبل هلاك الوزير ابن المحروق فى عهد السلطان محمد الرابع ، والاخرى بعد ان نكب السلطان يوسف الاول اسرة القائد السابق الشيخ ابن ثابت ، وقبض على هذا الاخير ، ثم نفاه الى افريقية (تونس) . ومن صفات الشيخ ابى زكريا شدة الباس والمرونة وعراقة النسب والدهاء والوعي للامور فى عمق ، والتفاني فى العمل لصالح الاسلام والعرش النصري ، راس قبيلته ، والبحاثة عن الاخبار ، والخبير بالانساب ، وذو الدراية بالسن قومه ، يعي الكثير من الحكم والتاريخ ، عفيف لا تناله الالسن الا مدحا ، ولا ينازعه المنصب منافس.
كانت ولايته للقيادة ورئاسة القبيلة اواسط شهر صفر 727 هـ (9 يناير 1327 م) باديء ذي بدء ، واستمر بها حتى 7 محرم 729 هـ (4 ديسمبر 1327 م) ، حيث بقى معزولا ، الى ان اعاد اليه رتبته كقائد السلطان يوسف الاول فى يوم 29ربيع الاول 741 هـ (22 سبتمبر 1340 م) وظل فى منصبه حتى نهاية عصر هذا السلطان ، ثم جدد له ولده الغني بالله محمد الخامس القيادة ، وضاعف خطوته ، ونوه رتبته .
وقد بقى هذا القائد فى منصبه حتى اوائل شهر رمضان 762 هـ (يونيه 1361 م) حيث فر الى « قشتالة » فى ظروف خاصة لاجئا سياسيا فترة من الوقت ، ثم عاد الى الاندلس متمتعا بسابق خطواته لدى الغني بالله بعد استرداده لملكه ،ولكن السلطان قبض عليه وعلى ابنه عثمان يوم 13 رمضان 764 هـ (26 يونيو 1363 م) وسجنهما بقصبة « المنكب » ، ومن ثم نفاه الى افريقية ، ومنها التحق بفاس التي قضى بها اخيرا .
راجع : ابن الخطيب فى « الاحاطة » نسخة جايجوس بالاسكوريال 1673 لوحة 339 – 400 من المخطوط .

11) نسبة الى مدينة وادي آشي ، تقع شمال شرق غرناطة على نهر فردس ، وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كيلومترا . اشتهرت فى العصر الاسلامي بمعادنها وخصوبتها وصناعاتها ، كما تمتاز بطقس ممتاز على مدار العام ، وهي المدينة التي نفى اليها آخر ملوك الاندلس قبل ان يرحل نهائيا للمغرب .
راجع : الحميري فى « الروض المعطار » ص 192 – 193 ، نشر ليفي بروفنسال (ليدن 1938 م)

غير المشاركة — لسانا . الى غير ذلك من الادب العطر النسيم ، السافر عن المحيا الوسيم . واشتهر بالوفاء اشتهار دارين بطيبها ، واياد بخطيبها (12) ، فكان حامل رايته ، ومحرز غايته .

ومضى لسبيله فقيدا اعم بفقد وخص ، وهاص اجنحة الحاجات وقص .

وله ادب يصيب شاكلة (97 : ا) الرمى بنباله، ونظم تضحي المعاني قنائص حباله .

ومن ذلك فى وصف :

59 — أبى عبد الله بن حسان

كاتب انشاء وديوان ، وصدر حفل وايوان . وفارس يراعة ، وروض ادب وبراعة . يملي الرسائل لا يجف مدادها ، وينظم القصائد لا يعيبه امتدادها ، ويحبر الرقاع ويوشيها ، ويصور المعاني وينشيها ، ويدبج برود البدائع ويطرز حواشيها . الى خط تهيم الالحاظ بالتماح سطوره (13) وتغار الرياض بمسطوره.

وابوة ومجادة ، وبليت امطره الفضل وجاده . وانجب منه ابوه صاحب الاشغال — رحمه الله — خلفا سد مسده ، وتجاوز فى السر وماجده .

ولم تزل الاسماع تخطب بدائعه ، واسواق الاسواق تغلي بضائعه ، حتى اصبح فردا فى اترابه ، وفذا فى اغرابه . وله نفس عذرية الشمائل ، ولسان هام بزهر الرياض وظلال الخمائل ، وطبع الى شيم الرصافة والجسر (14) مائل .

ومن ذلك فى وصف :

60 — أبى عبد الله بن مصادف الرندي (15)

(97 : ب) من شيوخ الطريقة العملية ، ومنتحلي الصناعة الادبية . كان — رحمه الله — مجموع ظرف ، ومسرح كل طرف ، من خط بارع ، وادب — الى دواعي الاجادة — مسارع .

ولما صار امر رندة — كلاها الله ، عند اشتعال الحرب ، وتوالي الضرب — الى ملك المغرب (16) قلده اعمالها ، وجعل الى نظره مالها . ثم نقل الى بعض الولايات ببر العدوة ، وبها قضى نحبه ، وفارق صحبه، بعد معاناة خطوب ، ومعاشرة صروف من الدهر وضروب .

وله ادب طاب وتأرج ، وعطف على رسوم الاجادة وعرج ، ومعان تتحلى بحلى العذارى وتتبرج.

ومن ذلك فى وصف :

61 — أبى اسحاق بن جعفر

شيخ توقيعه نادرة ، وفكاهة واردة وصادرة . ونظم انيق الديباجة ، لطيف الزجاجة ، عطر النفحة عذب المجاجة . وظرف لا يذوى روحه ، وادب تأرج روحه .

وقضى — رحمه الله — وقد خلف عقيما نجيبا، وابقى من ابنه ابى جعفر مستمعا للفضل مجيبا . جاز فى الاحسان طلقة ، وحاسن (98 : ا) فلقة .

---

12) هو قس بن ساعدة الايادي ، خطيب الجاهلية المعروف ، ومضرب المثل فى البلاغة والحكم والمواعظ ، كان يؤمن بأن هناك الاها من وراء آلهة قومه ، واستشعر التوحيد فى مناسبات عرفتها المؤرخات عن فترة الجاهلية قبيل بزوغ فجر الاسلام .

13) لمح والتمح البصر : امتد الى الشىء ، ولمح الرجل الشىء : ابصره بنظر خفيف ، او باختلاس النظر ، ولمح الشىء بالبصر : صوب بصره اليه ، وهو المراد فى النص تقريبا .

14) يشير الى قول الشاعر :
عيون المهابين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث ادرى ولا ادري
ولابن الابار ايضا فى وصف « بلنسية » غناء بالرصافة والجسر .

15) نسبة الى مدينة رندة ، وقد سبقت الاشارة اليها فى مناسبة أخرى .

16) هو السلطان ابو الحسن علي المريني .

وقد اثبت من شعره ما يقر بوفور مادته ، واستقامة جادته .

ومن ذلك في وصف ابنه :

62 ـ أبي جعفر

كاتب حساب ، ومنتسب للآداب اي انتساب . ان فكر ورى فاعمل ، وان ابتدر وارتجل أولد البدائع وانتحل . وله منطق ان حاول الصعاب فيلينها ، ويتناول الغوامض فيبينها ، ويجلو كل ساحرة الالباب يروق جبينها . ويوسع المحاضرة امتاعا ، ويمد فيها خطوا وساعا .

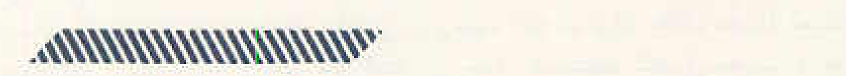
وقد خطب من بيانه لهذا المجموع ، ولم اقف منه عند نبرة المسموع . لكني اجتزأت منه بما تيسر ، وقنعت بما تحضر ، واكتفيت برائقة الاثير ، وأقمت قليله مقام الكثير .

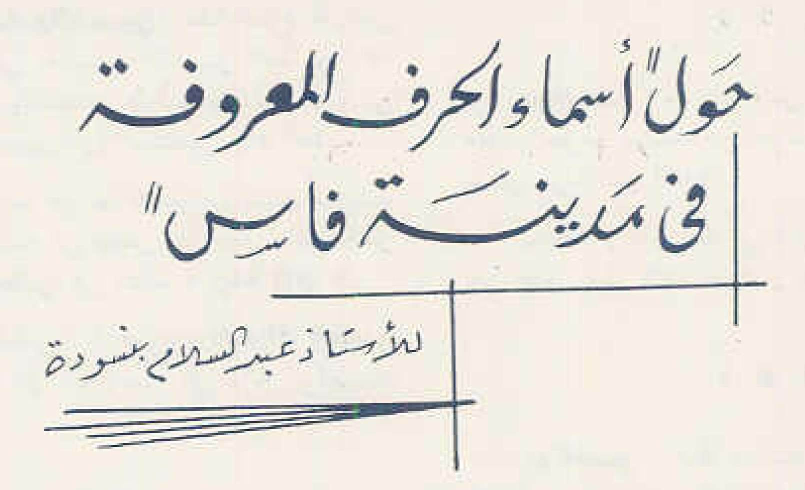
(يتبع)

حققه

دكتور محمد كمال شبانة

مكناس





اصدرت وزارة الشؤون الثقافية والتعليم الاصلي مجلدا صغيرا يشتمل على عدة مقالات فى مواضيع مختلفة ، كتب على الغلاف ـ المملكة المغربية ـ جامعة محمد الخامس ـ متنوعات محمد الفاسي .. صدر بمناسبة مرور عشر سنوات على تاسيس جامعة محمد الخامس 1957 ـ 1967 ، وكان من بين هذه المقالات مقال للاستاذ عبد القادر زمامة تحت عنوان : (**أسماء الحرف المعروفة فى مدينة فاس**) ، وقد صدر على قسمين فى المجلد الرابع والسابع ، الجزء الاول من اللسان العربي ...

تكلم فيه على بعض الحرف التي توجد بمدينة فاس ، وعددها 218 حرفة .

وقد رتبها على حروف المعجم ، متبعا ترتيب المشارقة لا ترتيب المغاربة وأهل الاندلس المعروف منذ دخلهما الاسلام ، وان كان لم يعتبر ذلك داخل الكلمة .

وبعد المراجعة لهذه القائمة ، كما عبر عنها فى المقدمة ـ مرارا وتكرارا ، بتثبت وامعان نظر ، وتامل حرفة حرفة ظهر لي ان الكاتب لتلك القائمة كان يكتب عن عجل وبغير تامل ولا مراجعة فى جل الحرف التي ذكر ، فقيد ما شاء تقييده بدون موجب ، واطلق ما شاء اطلاقه بنظره وهو مقيد ، وذكر من الحرف بنظره ما ليس بحرفة ـ وادخل الحرف بعضها فى بعض ، وعدد أسماء بعض الحرف الى غير ذلك من الاغلاط ، ولم يفرق بين الحرفة والمهنة والصناعة والوظيف الخ . بل جعل الكل من قبل المترادف .

وقد احببت ان اعقب على ذلك تصحيحا للخطأ ، احقاقا للحق ووضعا للامور فى نصابها ـ فان هذا الموضوع مهم وقل من اعتنى به من المؤرخين والكتاب والباحثين ـ وكان سبق لي ان اشرت الى البعض منه فى مؤلفي (ازالة الالتباس ـ عن سكان مدينة فاس) ، وعلى ضوئه اعلق اليوم على هذا المقال .

قال السيد زمامة فى عنوان المقال : **أسماء الحرف المعروفة فى مدينة فاس** ـ ولما اراد الشروع فى ذكر الحرف قال : الصناعة والمهن المعروفة فى مدينة فاس ـ فلا ندرك اي عنوان نتخذ لهذا القائمة اهل الاول أم الثاني ؟

الملاحظات

(1)

آلـي اطال فى لفظ آلي ـ ويلاحظ عليه:

1) (الموسيقى المغربية) انما تسمى الموسيقى الاندلسية او الطرب الاندلسي .

2) (وصاحب الدربوكة) ـ وصاحب الكير وصاحب الزمارة وو ... وقد اوصلوها الى اكثر من ثلاثين آلة ، انظر كتاب « دليل مؤرخ المغرب » ص 486 .

3) (**البيتين**) ينشد البيتين عند أصحاب السماع والامداح وأما أصحاب الآلة والطرب الملحون فيسمى ذلك عندهم بالموال .

4) **(الخمسة والخمسين)** هذا النوع خاص بالامراء واصحابه من خاصة القصر العامر بالله ودراسته خاصة ، واصحابها لا يستعملونها الا بين يدي الامير وعند حضوره ولا تستعمل عند احد .

وكان قديما ربما امر بها الامير أن تنشد عند احد وزرائه او خاصته فى بعض افراحهم وانظر آخر من استمعت عنده بفاس فى كتاب « **زبدة الاثر** » .

وفى المثل العامي : « **ضربت عليه آلة الخمس والخمسين** » كناية على انه وصل الى غاية الرفعة والعز .

(2)

امـــام (وهناك امام آخر)

امام الصلاة هو امام المجزرة فلا فرق ، وله حرمة حتى عند غير الجزارين .

وهذه وظيفة دينية ، لا حرفة ، ويقوم بها رجل واحد بفاس ، كيف تصورها حرفة .

(3)

اهل البصر الذي ينطق به اهل فاس ارباب البصر — وقد ذكر هذا الاسم اخيرا — واما اهل البصر — وشيوخ النظر فقد سماهم عدد 116 .

(عيوب الدور) فلا ينظرون فى عيوب الدور فقط بل ينظرون حتى فى عيوب المصاري والاروية والارحى والفنادق وغير ذلك ، فلا معنى لذكر الدور وحدها ، ويقع تعينهم من قبل قاضي البلاد بعد رفع ذلك الى السدة العالية بالله ثم ياتي الامر بتعينهم .

(4)

ايقايمـــي (واشتقوا منه الفعل)

قام الشيء فعله ، وهنا فعل الاتاى — فلا معنى لذكر الاقامة فى فعل اتاى وقد اطال فى مدح الاقامة ولكن اهل فاس يقولون فى امثالهم العامية (الاتاى الرفيع لا يقـد بالربيع او لا يحتاج الى الربيع (القمو وزد طوبية) — قوله — (مثل البروج) نحن فى فاس لا فى مدينة الدار البيضاء .

(5)

بوغابـــة مدينة فاس بعيدة عن الغابات — فهذه الحرفة ليست من حرف اهل فاس وصاحبها يسكن قريبا من الغابة .

ولفظ بوغابة انما اتى ذكره ايام الحماية ولم يكن اهل فاس قبل ذلك يعرفون هذا اللفظ .

(6)

بوكاضـــو كلمة دخلت الى فاس بعد الحماية — وقد نسي انه يكتب حول حرف فاس — فصار يكتب انما حول التفرقة بين الكلمات ومدلولها العربي والعجمي ، واخيرا رجع الى الحق وقال وكيل ، انظر عدد 117 .

(قبل الاحتلال الفرنسي) لا نعلم احتلالا وانما نعلم حماية .

(7)

بـــراح (فى الاسواق)

لا معنى لتخصيص الاسواق — وحتى فى الازقة والدروب والفنادق وغير ذلك ، ويقال فى المثل العامي (براح ومشالو حمارو) انظر كتاب «**امثال فاس وما اليها**» .

(8)

برادعـــي (سوق خاص .. بها)

بل اسواق متعددة قرب باب السلسلة وبشق عيون قرب جامع الاندلس وقرب باب ابي الجلود وقرب باب عجيسة .

(11)

بقـــار (يعلف الدواب)

صوابه باتخاذ البقر لاجل بيع الحليب .

(اطراف المدينة) بل صار ذلك خارج المدينة

(12)

بقـــال (اهل سوس)

اتسع الخرق على الراقع بل صار حتى اهـــل فاس لان التجارة تحولت عن عادتها القديمة وسائـر التطورات الاجتماعية .

(13)

بـــلاج (وفنادق الدواب)

ولباب الجنات وباب العراصي الى الآن .

(14)

بنـــاي (منها بناى اللى راح) انظر معناه فى كتاب « امثال اهل فاس وما اليها » .

(19)

بيطـــار (كان لها شان) لا زالت الى الان الدواب هي الدواب

(فى معنى المراقب الباحث الـخ .) ـ هـذا ليس بواقع وانما يقال له المراقب لا البيطار .

(كن صافي والعن البيطار) يقال على الدابة اذا كانت صافية من العيوب فهي من باب المبالغة .

(وقد انتقلت بعض اعمـال الـخ .) البيطـار والبسمار من باب واحد يعالج الحيوان ويجعل الصفايح على ارجلها .

(20)

تاجـــر هذه الحرفة يتصف بها كل من كان يبيع ويشتري سواء كان غنيا او متوسط الغنى .

وبالمعنى الاخص هو من يعينه الشرع المطـاع لينظر فى حسابات المحاجر والايتام والعجزة وامـر الاحباس والوصايا الى غير ذلك .

واهلها كانوا فى قديم الازمـان لا ياخـذون على ذلك اجرة وانما مرادهم ثواب الدار الاخرة ولا يتولى الا من كان غنيا ، وآخـر من آدركنا من تجـار هـذه الحضرة التاجر الافضل الحاج عبد السلام المراكشي رحمه الله ، فقد كان يحضـر غالبـا فى الحسابـات والمناقشات ولا ياخذ اجرة على ذلك، وما قاله لا يعدل عليه ولا يعقبه الشرع ، وهذه الحرفة الخاصة تـرك ذكرها ، وانما ذكر الحرفة العامة .

(21)

تيـــال (نوع من الغرابيل)

سوق التيالين يباع به جميع انواع الغربـــال والغرابيـــل .

(22)

ثـــرادة (فى الحفلات الكبرى)

وحتى فى الحفلات الصغرى فلا مانع ـ والان انما صار يباع فى الاسواق .

(23)

جبـــاص (جدران البيت)

وحتى جدران الصـالات والنبوحـة وابـواب السطوح والمصاري والاروى والحوانت والفنادق الى غير ذلك ، فلا معنى لتقييد ذلك بالبيت .

(24)

جرايـــة كل ما ذكر فى هذه الحرفة ينطبق على النكافة بكاف معقودة لا على (جراية) وقد ذكرها عدد 213 ـ وصواحبهن يسمين الجرايات .

(27)

جـــلاب (واقـــوات)

لاجل بيعها فى الاسواق القريبة بفائض الربح .

(28)

جمـــال هذه الحرفة لها عدة انواع

1 ـ كانت تحمل الاثقـال من بـلاد الى بـلاد وصاحبها يسمى جمالا .

2 ـ شراء الجمل من اسواق بعيدة وبيعها فى اسواق قريبة .

3 ـ ذبحه وبيع لحمه يتخذ كفتة او خليعا او غير ذلك .

4 ـ يتخذ لحمه قديدا بعد طبخه ويباع ويسمى خليع الجمل .

(31)

جيـــار (سحب من دخان) لا شعور لاهل فاس بهذا السحاب .
(ولكل جيار عدد من الحمير الخ) غالبا لا يكون للجيار حمير ، ولا قطاب ، والجيار يجلس فى كوشته حتى ياتيه القطاب .

ووصف القطاب ياتي عدد 169 .

(32)

حبـــاس غالبا يكون فى البلاد حباس واحد فهو من قبيل الوظيف لا من قبيل الحرفة .

(33)

حجـــار (وكذلك يطلق الحجار الخ)
لا يوجد هذا الاطلاق اصلا وانما يقال له شواي ـ والحرفة او المهنة ليست قارة وانما هي داخلة فى مهنة الطباخة ـ والحجار ناقش الحجر .

(34)

حجـــام (يعتقدون ان شيخ حرفتهم الخ)

هذه العبارة توهم غير المقصود ـ ومن كان شيخهم قبل وجود الولي علي بوغالب .

(35)

حـــداد (وهناك باب الحديد)

تامل ذكر ذلك مع ما ذكر قبله ـ وهو يخالف ذكر الحرفة .

انظر كتاب ازالة الالتباس فى حرف الحاء .

(36)

حـــراث (يهبط الى المدينة الخ)

ما ذكر فى هذه الحرفة كله مقلوب ـ وصواب العبارة هكذا ـ حراث كل من يقوم بحرث الارض بانواع الحراثة من زرع وشعير وخضر وغير ذلك .

(حديدته السفلى) يتوهم ان للمحراث حديدة عليا وحديدة سفلى ، وليس الامر كذلك .

(37)

حـــرار (ايام العرس)

تلبس فى ايام الحفلات على اختلاف انواعها وفى البيت امام الزوج وغير ذلك لا فى ايام العرس فقط ، وهذه الصناعة حرار كانت مزدهرة والان اخذت فى النقص وكان فيها عدة انواع .

(38)

حـــزاب هذه ليست بحرفة وانما يقال فى حقه وظيف ديني وما يتقاضاه شهريا لا يكفيه حتى لمؤونة يوم واحد .

(39)

حـــزان

ذكر فى عنوان المقال الحرفة المعروفة فى مدينة فاس ولم يذكر لنا فاس الجديد واتى بحرفة هي من حرف اهل الذمة الساكنين بالملاح ـ وليست من حرف اهل فاس الذي ذكر ولا من حرف اهل فاس الجديد ؛ وهي من الوظيف لا من الحرف وحيث ذكر هذه من الحرف بمدينة فاس ، فحقه ان يذكر الحرف التي عند اهل الذمة كلها او جلها بملاحهم لا حرفة حزان فقط .

واني استحييت ان اذكر بعضا منها وهي خاصة بهم وانسبها لاهل فاس وهم براء منها .
فاذا راى من هو خارج المغرب ان من حرف اهل فاس البلاد الاسلامية من تأسيسها حرفة حزان فربما يظن ان اهل فاس جلهم من اهل الذمة حيث يوجد من الحرف الشائعة بينهم (حزان) .

ومن حسن الصدف دخلت قريبا الى قاعة الخزانة العامة بعاصمة الرباط فوجدت بها رجلا اشيب عليه أثر الوقار ووجدت معه العلامة المشارك المطلع الشيخ عبد الله كنون .

وبعد السؤال عن الرجل ذكر لي انه مستشرق الماني يسكن الان بسويسرة وله عدة كتب حول الاسلام ، وهي باللغة الالمانية فتذاكرت معه لانه يحسن اللغة العربية ، ثم ذكر لي انه من بين مؤلفاته كتابا سماه (فاس قبة الاسلام) (او منار الاسلام) وقد طبع منذ زمان ، وعند ذلك استفهمه الشيخ كنون هل ترجمه للغة اخرى دون الالمانية ، فأجاب بانه ينوي تقديمه لمن يترجمه الى اللغة الفرنسية .

هكذا ينظر الاجانب الى فاس وينظر اليها احد مواطنيها من جانب آخر فينسب لها ما لا يناسب مركزها الاجتماعي والاسلامي.

(40)

حصـــاد (يهبط الى المدينة)

مقتضى كلامه ان هذه الحرفة ليست معروفة في مدينة فاس حيث عبر يهبط الى مدينة فاس – من الدوات الحصاد والدراس وايامها فى السنة ايام معدودة ، فلا معنى لذكرها حرفة .

(41)

حصـــار وبعض البيوت

لا نعرف محلا لم يدخله الحصير فى فاس ، فلا معنى لذكر بعض البيوت .

(43)

حطـــاب محترف جمع الاعواد

محترف قطع الاعواد وجمعها .

(44)

حفـــار لا معنى لذكر الصحافة هنا وتاتي له بعد عدد 120 .

(ثم ترد الى مكانها الخاص) – طبعا اين تذهب فانها ترد الى مكانها بعد الفراغ منها . وهذا المكان الذي ابهمه هو بسوق الحناء داخل العطارين قرب الولي فرج فلا معنى لابهامه .

(45)

حكيـــم الحكيم – الطبيب

فلا معنى لذكر كل اسم منفرد وحده كما ياتي عـدد 130 .

واهل فاس غالبا لا يسمونه الا الطبيب ، واما الحكيم عندهم هو الذي ياتي بخرق العادات وربما لا يتعاطى الطب .

(47)

حمامجـي لا يوجد هذا اللفظ شائعا فى فاس وانما الشائع حمايمي أو صاحب حمام ، وانما أتى به ليذكر لنا الجيم الدالة على النسبة التركية . واين نحن والطريقة التركية .

(48)

حمـــال

هذه الحرفة ذكرها فى عدة مواضع هنا و 87 – زرزاي – 127 طالب معاشو – 212 نقال، والحرفة واحدة وهي حمال ، وهذا الحمال اما على ظهره واما على دابته – وفى كل ، اما زرزاي من الفاصلة التي تكلم عليها عدد 87 – واما من مطلق الناس فلا معنى لذكرها عدة مرات ، فلو ذكرها فى لفظ حمال وفصلها لكان احسن وترك التعدد فى الحرف .

واما نقال فكان يطلق على من يحمل الادم الزيت والسمن والعسل والخليع ، وذلك من القاعة ، فلا يحمله غيره ، وكان غالبا من اهل قبيلة توات ، وكان قبل الحماية يحملون ذلك فى الجلود القرب ، وبعد الحماية صار الزيت يحمل فى صحيفة القصدير .

(51)

حنـــاط ولهم سوق خاص بهم .

بل لهم أسواق خاصة بهم لا سوق واحد ، وتسمى هذه الاسواق بالرحبة او رحبة الزرع ،

الاولى توجد قرب العشابين وتسمى برحبة الزرع الكبرى ، والثانية توجد بالطالعة الكبرى ، وهذان بعدوة القرويين ، والمحل الثالث بعدوة الاندلس ـ كانت بحومة الصفاح قرب جامع سيبوس ، والان نقلت الى فندق العطارين اعلا درب السدراتي قرب دار الراعي حومة جامع الاندلس ، وكذلك توجد واحدة بفاس الجديد .

(سجلماسة)

لا معنى لهذا التخصيص (سجلماسة) فكل من اتى من الصحراء ربما يحترف هذه الحرفة .

(53)

حوات (والبحري)

كل محترف بهذا الحرفة بفاس لا يصيد سوى الحوت النهري ، وأما الحوت البحري فانه يبعد عنه بأكثر من مائتي كيلومتر ، كما لا يخفى على كل فاس

وأيام الحمار والجمال ـ كانوا ياخذون الحوت الشابل الشهير فى اول ظهوره اما من مشرع المهدية واما من وادي ام الربيع بمدينة ازمور يجعلونه فى الملح وياتون به الى فاس ويسمى الحوت المالح ـ ويباع بكثرة لامرين ـ يكون لذيذ الاكل لملوحته وثانيا لرخص الثمن بالنسبة الى الحوت الطري الذي ياتي به من وادي يناون ووادي سبو ـ والان انقطع ذلك بوجود الآلة السريعة .

(54)

خباز (محترف خبز العجين)

لعله عندنا خبز دون خبز العجين ، فلو ذكره لنا ليفيدنا .

(56)

خراز

بقى عليه ذكر الريحية وهو حذاء النساء كن يلبسنه عند خروجهن من المنزل ، وقد ترك ذكره هنا وذكره مستقلا عدد 83 ، وحقه ان يذكره هنا لانه من مشمول قوله خراز ، انظر عدد 83 المذكور .

(59)

خشاب (الغابات المغربية)

لا معنى لذكر هذا القيد (المغربية) لا نعرف انه كان يجلب من غيرها .

(60)

خطيب وظيفته دينية فلا معنى لذكرها ـ ليست بحرفة ولا صنعة ولا مهنة .

(61)

خلاع (الياكل ايام البرد القارس)

لا مانع من اكله حتى فى أيام الربيع وأيام الخريف ، وربما يتجنب أكله أيام الصيف .

(حجرت واسعا يا اعرابي)

(62)

خماس (وقد ياخذ أكثر)

لا ياخذ الخماس اكثر من الخمس ، وفى المثال العامي (الخماس سلطان) بحيث لا ينقص من خمسة ولا يزاد له .

والاعراف التي اشار اليها منصوصة عند الفقهاء فانهم ربما منعوا شركة الخماس ولا أعرفه انه يكون بعقد مكتوب وانما يكون باتفاق بالقول .

(63)

خياط (الجلابية المغربية)

هذه الحرفة تطلق على من يخيط الاثواب على اختلاف انواعها سواء بيده او بمكينته لا الجلابية فقط وفيها عدة أنواع .

(65)

دجايجي (محترف تربية الدجاج)

الذين يقومون بتربية الدجاج هم اهل البادية وأما الدجايجي الذي بفاس فانه يشتريها من الخارج والداخل ويبيعها بأرباح .

(66)

درار (معلـــم)
لا يقال لمؤدب الاطفال معلم اصلا وانما يقال له الفقيه من قديم الازمان ـ تادبا مع كـلام الله القرآن الكريم ـ والمسيد هو المكتب .
يذكرون ان الذي سن هذه العطلة هو سيدنـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد منحهم الخميس والجمعة ، ولكن جعل نصف الاربعاء عوضا عن نصـف الجمعة لاجل حفظ ما يملا صباح السبت .

(67)

دراز (وهو الطـــراز)
هذا سبق قلم والطراز ياتي له عدد 135 .
وحرفة الدرازة انـواع ، منهـا دراز بونـداف والجلابية والحايك والثوب الرقيق والبطانية الى غير ذلك من انواع المنسوج .

(68)

دقـــاق (دقاق رمضان)
لا معنى لذكرها حرفة ـ ولا فائدة فى النظر الى الساوة فى هذا الموضوع ولا تمر غالبا بزقاق بفاس وفيه حوانيت الا وتجد بائعا للدقيق وهو المعبر عنه بالطحين .

(69)

دكـــــاك
ذكر هذه الحرفة فى ثلاثة مواضـع هنا 69 ـ 101 ـ 117 ، وهي حرفة واحدة داخل بعـض فى بعض فتراه دكاك وسكاك وصائغ ، انظر عدد 117 .
وكانت هذه الحرفة فى القديم يمارسها المسلمون والان اختص بها اليهود لان بعض العلماء افتوا بمنعها لادعائهم ان بها بعض الريبة من حيث الصرف .

(74)

ربـــاع (ربع غلتها)
اذا تولى خدمة ذلك بيده واذا بيعت للغير انما له الثمن وقوله البساتين ويكون حتى فى البحاير .

(75)

رحـــوي (اخذة فى الانقراض)
بسبب المطاحن العصرية الكبرى .

(76)

الرشامـــة ولها طوابع خشبية
هذا انما وجد بعد الحماية ، واما قبلها فانمـا كان الرسم باليد .

(77)

رقـــاص وجد ذلك ايام السلطان الحسن الاول رحمه الله .
وقبل ذلك كانت الرسائل ترسل على يد الحمار وهي الرسائل السريعة وعلى يد الجمال وهي الرسائل البطيئة ، وهي دون الاولى سرعـة فى الوصـــول ، وكذلك كانت ترسل على يد المسافريـن من بلـد الى بلـــد .

(78)

رقايقـــي نجـــار ماهـــر
كل ذي حرفة يوجد بها من هو رقايقي فى تلك الصنعة ، وليس فى النجارة فقط ، كما ذكر .

(79)

ركـــاز (سقوف البيت وتسويتها)
ليس سقوف البيت وحدها بل حتـى سقـوف المنتزهات والصالات والفندق والاروى والمصـــاري والحوانيت وارض المنازل ان كانت غير مزلجة .

(80)

رمـــاح صانـــع الرمـــاح
الرمح عود طويل اكثـر من متريـن يكـون على رؤوس السيوف يجعل ذلك الغازي وهو علامة على انه مستعد للحرب .
وقد قيل فى باب الشريعة المسماة الان ببـاب المحروق ان سقفها به علو كافي ليدخل اليها المحارب برمحه على طوله ولا يثني منه شيئا .

(82)

الــــرواس (ويبيعها صباحا)
ووسط النهار ومساء وعند آذان الفجر .

(83)

روايحــــي (حذاء من جلد اسود)

ادركت جل نساء اهل فاس يلبسن حذاء من جلد سبغ اسود ، ويذكرون انهن اتخذن ذلك زمن الدولة السعدية عند تسلم العرائش للاسبان ، وقد ادركت صنع ذلك بحوانيت خاصة الاولى بحومة القطانين من جهة درب البركة ، وقد انقطع ذلك حوالى خمسة واربعين وثلاثمائة والف ، وهذه الصنعة من عمل تخرازت ، انظر عدد 56 .

(85)

الزبــــال (والجمع زبالة)

كل حومة لها وادي تاقي به الازبال ، ويسمى البكـــار .

(86)

الزردخانــي (فى تطريز الثياب)

لا ينطق أهل فاس بهذه الكلمة والزردخاني كان يصنع وليس به طرز ، وكان اولا يصنع من حرير وقد انقطع صنعه .

(87)

زرزاي حمل الاثقال فى الاسواق
وحملها فى الدروب وفى الازقة وخارج البلاد وداخلها الى غير ذلك ، انظر عدد 48 .

(88)

زلايجــــي

صانع الزليج هي حرفة داخلة فى حرفة الفخار وقد اشار اليها عدد 155 وسماه الزليجي ، وهنا من له مقدرة على نقش الزليج لاختيار الالوان فقط ، وله انواع تلفت الانظار ، فهو من الفنون الخالدة من قديم الازمان لا من حيث الصنعة ولا من حيث النقش على اختلاف الانواع .

وقد اختص بصنع ذلك ونقشه اهل فاس دون غيرهم من أهل المدن، وحق لاهلها ان يفتخروا بذلك.

(90)

ز و ا ق

وصناعته تدخل فى الخشب كما تدخل فى الجبص .

أما الخشب فيقع عليه النقش ، واما التزويق فيقع على الجبص ــ فلم افهم معنى قوله تدخل فى الخشب وفى الجبص ، انظر عدد 211 .

(91)

سبيطــري (هذه الكلمة ماخوذة من كلمة اسبانية)

لا صحة لكل ما ذكر فى هذا اللفظ ولا اقول الحرفة التي لا ذكر لها بين الحرف ولا تعرف بفاس لا قديما ولا حديثا وانما يعرف عقبة السبطريين فى مجاورة جامع القرويين .

والحقيقة فى هذا اللفظ الشهير بفاس انه اسم عائلي لا اسم حرفة ، وقد غره ما وقف عليه من الكلمة الاسبانية وما ذكره صاحب المقصد .

ولتستمع الى ما جاء فى كتاب ازالة الالتباس عن عائلات سكان مدينة فاس فى حرف السين نصه .

أولا السبيطري بضم السين وفتح الباء وكسر الراء ــ عائلة من أقدم البيوتات بفاس واصلها من الاندلس ، ورد ذكرها فى عدة حوالات حبسية ، الاولى مؤرخة بعام خمسة وعشرين وثمانمائة ، والثانية مؤرخة بعام اثنين وتسعين وثمانمائة ،

والثالثة بعام خمسة وتسعمائة ، والرابعة بعام تسعة وعشرين وتسعمائة ، وفى كلها ذكر أسماء افراد منهم احمد السبيطري محمد السبيطري عبد القادر السبيطري ، الى غير ذلك من الافراد ، وفى بعضها

السبيطريين، ولا نشك انها عائلة من العائلات القديمة نزحت من الاندلس الى فاس ايام التأسيس • وكان لها عز ومال ، وعقبة السبيطريين تنسب اليهم .

وقد انقرضوا فى أوائل القرن الحادي عشر ، كما وقفت على ذلك وتحقق عندي فلا ذكر لهم الان ، فانت ترى انها عائلة وليست حرفة .

(92)

سبايبي (فى البضائع المستعملة)

يتسبب فى كل شيء سواء العقار والاراضي والحبوب والمواشي وغير ذلك .

(94)

سراج (صانع السروج)

هذه الحرفة داخلة فى حرفة سقاط الآتية فى عدد 100 .

فحرفة سقاط عامة ، وحرفة سراج خاصة ـ وتوجد بفاس أسرة تعرف بأولاد السراج من الاندلس لها شهرة وعلم وجاه ، ودرب السراج شهير بالطالعة الصغرى ، انظر ازالة الالتباس فى حرف السين المهملة .

(95)

سرايري تسمى الان البندقية

لا زالت تسمى بالمكحلة اكثر من البندقية ، ومن العجب انه قال هنا والمكحلة هي التي تسمى الان البندقية ، وتقدم له فى عدد 89 ، ان البندقية فى المغرب تسمى المكحلة .

(96)

سطارمي

هذه الحرفة دخلت فى حرفة براطمي المار ذكر عدد 10 فلا معنى لاعادتها منفردة .

(97)

سفاج

اراد أن يعرف لنا من أين يصنع **السفنج الاكلة** الشهيرة فى العالم الشرقي والغربي ـ **ولكنه ترك لنا** شيئا مهما ثالثا يتركب منه وهو **مهم بالنسبة الى** تركيبه وهي الخميرة ولولاها لما تم **نضجه على تلك** الحالة .

والمراد الحرفة هنا لا ما **تصنع منه الحرفة .**

(98)

سفار (مجلد الكتب)

ومجلد غير الكتب وقد تقدم له **ذلك عدد 73 فلا** معنى لاعادة ذلك ، وفي المثل **العام (على وجه** الكتاب تاتباس الجلدة) .

(99)

سفطاوني

كان يصنع ذلك من نبت البردي **وقد انقرضت** هذه الحرفة لوجود الخيش والكتان **وغير ذلك .**

(100)

سقاط معدات الفرسان

ومعدات البغال من سريجة **وخرطوم وغبارة** وادبار ودفر الى غير ذلك .

وهناك السقايطي
هذه حرفة لا تدخل فى الاولى ، **فيجب أن تذكر** وحدها ، ولها اسم دون هذا لم **استحضره الان .**

وسقاط الزيتون لا تعد حرفة **بالنسبة الى** صاحبها .

(101)

سكاك دخلت فى **مشمول الصياغة**

لا معنى لقوله دخلت فى **مشمولة الخ . بل هي**

من مشمول حرفة الصياغة ، انظر ذكاك عـــدد 69 المتقدم وانظر صائغ عدد 117 .

(102)

ســــلال (صانع سلات القصب)

بل يصنع عدة انواع زيادة على سلات القصب، فلا معنى لهذا التقييد .

ومما يدخل تحت هذه الحرفة وربما سميت بها عند بعض المثقفين القفاصيــن صانــع القفص للدواجين والطيور .

وسوق السلالين توجد بباب السلسلة وخارج باب المحروق وقرب جامع الاندلس وداخل بـاب الفتح قرب ضريح الولي ابي غالب .

(105)

سمســـار الواسطة فى بيع العقار والبز وغير ذلك مما يباح بيعه وشراؤه .

(106)

سنـــاح

المعروف فى كلام العرب وحتى عند اهل فاس سلاح باللام بدل النون ، واما النون ربما نطق به بعض أهل فاس بعد بناء مولانا الحسن الاول دار الســلاح بفاس سنة 1308 ، فقالوا دار السناح .

وكان محل صنع هذه الحرفة فى الحوانيــت الاخيرة من راس الشراطيــن ، على بـاب السلسلـة ادركت صنع بعض ذلك بها اخيرا (وهـم أولاد ابـن السناح) هم بالتاء أولاد ابن التناج لا أولاد ابن السناح الاصل نسبة الى محل بقبيلة الريف انتقلوا منـــه الى قبيلة شراكه وسكن البعض منهم بعد ذلك مدينة فاس ولا اتصال بحرفة سناح التي ذكر مع اسرة أولاد ابن السناح ، انظر كتاب ازالة الالتباس فى حرف السين .

(108)

شـــراط (لربط البضائع)

وكذلك لربط الشطاطيب ولصنع الحصير وغير ذلك ، فلا معنى لربط البضائع فقط .

وهذه الحرفة شراط قد ابدلها بصانع شريط الدوم – وقبل شريط الدوم ليست بحرفة قارة فان جل أهل البادية تجدهم فى أوقات فراغهــم يفتلـون الدوم ، وذلك من مكملات معاشهم .

واما حرفة شراط وتسمى قنانبي فهو الـذي يصنع الحبال ، وتسمى عند اهل فاس بالطوالات على اختلاف أنواعها من نبت القنب ، ويصنــع الخيـوط الغليظة والرقيقة لاجل غرز البلغـة والشربيـل على اختلاف الانواع عند المعلم الخراز ، وكذلك لاجـــل خياطة الفرش سواء كان الفرش من الصوف أو غيره وكان بفاس عدة اطرزة لصنع ذلك وهي حرفة قديمة لا تزال على قلة .

وكان يحرث بجنان باب الحديد بالحاء نبـت القنب على كثرة ، والان لعله يحرث ببـلاد زواغـة ، وبيت أولاد الشراط بيت شهير بفاس . انظر ازالـة الالتباس – والنظر عدد 171 .

(110)

شطـــاب (ويستعمل لذلك الشطابة وهي المكنســـة)

ما كنا نعلم ان الشطاب يستعمل الشطابة وما كنا نعلم أن الشطابة هي المكنسة ، فقد افادنا بذلـك حفظه الله وافاد اهل فاس الذين جمع لهم حرفهم .

(111)

شطاطبـــي (من الدوم والشريط)

الشطاطبي هو الشراط – لا تظن ان الدوم غير الشريط .

(113)

شمــــاع (والمساجــد)

العادة فى انارة المساجد من قديـم الازمـان بمصابيح الزيت ، أما انارتها بالشموع فانما هـو اذا كانت حفلة داخل المسجد .

وأولاد الشماع شرفاء كانوا بفاس . انقرضوا عام 1236 . انظر كتاب ازالة الالتباس ، أما اليوم فقد استبدل كل ذلك بالانارة الكهربائية الزاهرة المختلفة الالـــوان .

(114)

شـــواط (صاحب الفرن)

الذي يسخن ماء الحمامات يقال للمخل فرنق لا فرن ، كذا رايت الموثقين يكتبونه ، والفرن هو مكان انضاج الخبز .

شوطي ايضا

لا اعرف النطق به بفاس ــ والذي يطبخ الاكاريع وما اليها يسمى عندنا الحماس ، ويقال له ابا شوطي لا شوطي ، بقي عليه ذكر الحماس ، واما حســاء فان صاحبها يسمى حرايري وبقي ذكرها عليه ايضا .

(115)

شــواف

لا معنى لذكر هذا مع ما تقدم فى لفظ سحـار عدد 93 ، فالسحار هو من قبيل الشواف .

(116)

شيـــخ (فى شيخ الفلاحة)

هو رابع ــ شيخ النظر او البصر ، ولا معنى لذكر نقيب ــ وقوله فى برج خاص به لا نعرف ان هذه الابراج كانت بفاس على هذه الصفة ، فهو مسئـول لابداء الحجة على ذلك .

بقي عليه شيخ العلوم ــ وشيخ الطريقة وشيخ القبيلـــة .

(118)

صبـــاغ (مجرى الماء المضاف)

يفهم منه انه حيث كان على مجرى الماء المضاف فان ماءه يستعمل فى ذلك والامر على العكس فان الماء المضاف لا يصلح لذلك ، وداخل سوق هذه الحرفة عين جارية ماؤها من اعذب المياه بفاس .

(120)

صحـــاف (على راسه)

لا يتصور حملها على غير راسه .

فلا معنى لذكر (على راسه)

(121)

صرافـــي (وكان اليهود يتولون الخ)

لم تكن هذه الحرفة بيـد المسلميـن فى زمـن الازمان بل هي خاصة بهم لان المعاملة بذلك يمنعهـا القانون الاسلامي .

واعرف عدة يهود واقفيـن بالعطاريـن اوائـل الحماية يبدلون العملة الاجنبية بالريال المغربـي أو العكس بمقابل حسب الصرف .

(122)

صواينـــي

هذه الحرفة داخلة فى حرفة الصفارين ، فكان من حقه ذكر حرفة الصفارين العامة ثم يذكر الحرفة الخاصـــة .

(من ادوات النحاس)

والمعدن الابيض والاحمر وغيره .

(123)

صواينـــي

كان غير متجمد يميل لونه للسواد .

(124)

صـــواف

رواء الصوافين شهير بفاس

(126)

طالـــــب

لا معنى لذكر ذلك في الحرف ولا معنى لذكر تلك الشروط فيه لمن يطلق عليه طالب فكل من ابتدا في طلب العلم يقال له طالب ولا تعد في حقه حرفـــة .

(127)

طالب معاشو (الحمال وهو المعروف بزرزاي)

كل من يعد نفسه من سكان اهل فاس يعرف ان طالب معاشو وحده وزرزاي وحده .

لان زرزاي من فصيلة خاصة ، تاتي الى فاس من قبيلة خاصة ذكرت عدد 87 .

واما طالب معاشو او الحمال كما سماه فهو غير زرزاي ، وفي المثال العامي (طالب معاشو اما بحمارو واما براسو) وكثيرا في امثال اهل فاس السجع لا يكون تاما ، انظر كتاب امثال فاس وما اليها وقد أعاد ذكره تحت قوله تقال عدد 212 ، فلا معنى لذكره ثانيا ، انظر 48 .

(128)

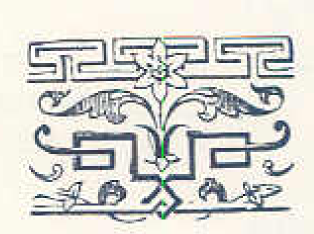
طبـــاخ

هو صانع الاطعمة على اختلاف الانواع والالوان والاشكال ويقال طباخة لمن تقوم بذلك من النساء وغالب هذه الحرفة يقوم بها أصحابها في الولائم والافراح والاحزان والاتراح .

(129)

طبـــال

الطبال والطبالة يحضران ايام المواسم والامزان وهم من أهل الخير والدين — واما الشيخة التي عبر عنها بأيضا فهي التي تحضر في ايام الافراح والاعراس ، وبون كبير بين الشيخة والطبالة .





ظهرت الفلسفة الخلدونية واضحة المعالم فى كتابه القيم (المقدمة) ولم تكن النظرية الخلدونية فى تفسير التاريخ فى حاجة الى مجلدات لتصبح مفهومة واضحة لان ابن خلدون له من القدرة على التعبير ما جعل افكاره واضحة فسرته فى كتابه .. غير ان المؤرخين اسرفوا فى اتهام عصر ابن خلدون بالجمود الفكري ناسين ان هذا العصر عرف اكبر نكبة فى العالم العربي والاسلامي وهي سقوط غرناطة التى بدامعها سقوط العالم الاسلامي كله وبذلك صرف الناس زمامهم عن الدراسات العلمية الى التبتلات الصوفية كما يفعل المريض ساعة الاحتضار ، ورغم ذلك فقد عرف عصر ابن خلدون كتابا اهتموا بالمقدمة وعلى رأسهم القاضي ابن الازرق مؤلف كتاب بدائع السلك فى نظام الملك .. (او بدائع السلوك فى نظام الملوك) وهو تحليل ونقد لفلسفة ابن خلدون وتصحيح لبعض نظرياته .. وقد استعمل ابن الازرق نفس الاصطلاحات الخلدونية واعطى للكلمات تفسيرات واضحة لا تدع مجالا للشك ان ابن الازرق عرف الخلدونية حق المعرفة وتجاوزها الى مصادرها وبذلك فسوف نتفادى احتمالات التفسير اللغوي للمعجم الخلدوني .

وسانقل فصلا مصححا من كتاب ابن الازرق حول موضوع (الاجتماع البشري) الذى تحدث عنه ابن خلدون فى مقدمته لنبين اسلوب ابن الازرق ، واطاره الفريد فى العرض والنقد والتحليل ونقيصه للموضوع على اساس علمي مركز .

ح. س ...

المقدمة الاولى للنظر فى الملك عقلا وفيه عشرون سابقة ، السابقة الاولى فى الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ضروري ، ومن ثم قال الحكماء الانسان مدني بالطبع ، اي لا بد له من الاجتماع الذى هو المدينة عندهم ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه اذ لا يمكنه انفراده بتحصيل اسباب معاشه واعداد ما يدفع به عن نفسه دون معين من ابناء جنسه فيضطر الى اجتماع يتكفل له بذلك على ايسر مرام لتتم حكمة ايجاده وغاية ما خلق له .

السابقة الثانية ان من العوارض الطبيعية لهذا الاجتماع امورا خمسة (البدو) وهو الذى يكون ق الضواحي والجبال ، وفى الحال المنتجعة القفار واطراف الرمال والتقلب الذى غايته الملك بالعصبية القاهرة ، والحضر الذى يستقر بالامصار والمدن

والقرى والمداشر اعتصاما بها وتحصنـا والمعـاش المبتغى به التماس الرزق كسبا وصناعة واكتسـاب العلوم تعليما وتحصيلا ولما كان الملك مسبوقا بالبدو ومبـدا التغلـب ومتاخـرا عنه فالمقـدم ما سبـق طبعا من ذلك .

السـابقة الثالثة ان الموجب لانقسـام العمـران الى بدو وحضر ان للتعاون مقصدين احدهمـا ان يتقرر بحسب الضروري فقط وهذا هو البدو وضروري ان انتحال الفلح فيه يضطر الى البدو المتسع المسارح للحيوان والمزارع للغرس والزرع واذ ذاك فالفلح فيه والدفء انما هو بقدر ما يحفظ الحياة خاصة الثاني أن يتجاوز الى الحاجي والتكميلي وهذا هو الحضري لاجل ان التوسع بحصول ما فوق الحاجة يدعو الى السكون والدعة واختطاط المدن والامصار وعند ذلك يتزايد الترف فتجيء عوائد الترف ويتكسب بالصنائع والتجارة .

السـابقة الرابعة ان تقدم البدو علـى الحضـر كما انه مادة له ظاهر من وجهيـن (احدهمـا) ان البدو لما اقتصر فيه على الضروري الذى هو اقدم مـن الحاجـي الـذي يجـوز اليـه فـى الحضـر ، وكـان الضـروري اصـلا والحاجـي فرعا دل ذلك على ان البدو متقـدم على الحضـر واصل له ومادة . (الثاني) ان العيان شاهـد بان أولية اهل الامصار فى الاكثـر انمـا هـي من أهـل البدو عدولا الى الدعة والترف لما ايسروا وارتاشوا وهو يدل على ان ناشئة عن احوال الحضارة ثانية عن احوال البداوة .

السـابقة الخامسة ان اهل البـدو اقـرب الى الخير من الحضر بوجهين احدهما النفس متى بقيت على الفطرة الاولى تهيات لقبول ما يرد عليها من خير او شر ، والبدو اقرب اليها من الحضر لما انطبع فى نفوسهم من سوء الملكات بعوائد الحضارة وحينئـذ فعلاج اهل البدو اسهل وهو معنى انهم اقـرب الـى الخير ، الثاني ان الحضارة كما يرد بعد ان شاء الله هي النهاية فى اكمال العمران الخارج به الى الفساد والغاية فى الشر البعيد عن الخير ومن سلم عن ذلك فلا خفاء فى قربه من الخير قلت ومع ذلك فللحضري من الفضل على البدوي ما لا يخفى وانما هذا باعتبار ما يعرض من الشر بالقصد الثاني .

السابقة السادسة ان اهل البدو اقـرب الى الشجاعة من أهل الحضر لان تعود اهل الحضـر لما نشئوا عليه من الانغماس فى النعـم والاعتمـاد فـى المدافعة على النفس والمال على الولاة والحماة صـار لهم كالخلق الطبيعي حتى تنزلوا به منزلة النسوان والولدان واصـبحوا لاجله عالة على من وكلوا اليـه امرهم ، واهل البدو لتوحشهـم وانفرادهـم عـن الحامية قائمون بالدفاع عن انفسهـم لا يكلونه الى غيرهم ادلالا بالبأس ووثوقا بالشجاعة اذ قد صار لهم ذلك خلقا وسجية قال ابن خلدون (واصله ان الانسـان ابن عوائده ومالوفه لا ابن طبيعته ومزاجـه فالذى الفه حتى صار له خلقا وعادة تنـزل منـزلة الطبيعة والجبلة والله يخلق ما يشاء) .

السابقة السابعة ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسـد للباس وذاهب بالمنعة لان الغالب ان الانسان انما هو فى ملكة غيره والامراء المالكون لامر الناس قليل ما هم وحينئـذ فاحكـام هـذه الملكـة انـواع (احدها) العادلة التى يعاني منها جور وهذه لا تغير ما فى النفس من شجاعة وجبن او وثوقا بالعـدل الوازع وادلالا ، (الثاني) القاهرة التى يعاني بهـا شدة سطوة وهذه كاسرة من سورة الباس وذاهبة بقوة المنعة لما ينشا عن ذلك من التكاسل فى النفس المقهورة (الثالثة) الجائزة بالعقاب المؤلم وهذه بلا شك مذهبة للباس جملة لان وقوعه به ولم يدافع عن نفسـه يكسبه الذل الذى لا يرفع به راسا ، الرابع التعليمية التى اخذ بها من عهد الصبا تأديبا وتقويما وهي تؤثر فى ذلك بعض الشيء لمرباه على المخالفـة والانقياد (برهان وجود) قال ابن خلـدون (**ولهـذا تجد المتوحشين من بدو العرب اشد باسا ممن تأخذه الاحكام والذين يعانونها وملكتها من لدن مرباهم فى التاديب والتعليم فى صناعة او علم او ديانة ينقص ذلك من بأسهم كثيرا** (قال) وهذا شان طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشائخ والايمة الممارسين للتعليم **والتاديب فى** مجالس الوقار والهيبة (اعتذار) قال يستنكر ذهاب ذلك بالباس والمنعة بما وقع فى الصحابة رضي الله عنهم من اخذهم باحكام الدين ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا اشد الناس بأسا لان وازعهم انما كان من انفسهم لا بتعليـم صناعـة ولا تاديب تعليمي انما هي احكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا اخذوا بها انفسهم لما رسخ فيها من عقائد الايمان فبقيت سورة بأسهم على اولهـا ولم تخـدش فيها اظفار التاديب والحكم .

السابقة الثامنة ان سكنى البداوة لا يتم الا للقبائل ذوي العصبية وذلك لان الظلم واقع من النفوس البشرية بالطبع الآن ان يصد عنه وازع عند ذلك فالوازع عن الظلم في الحضر انما هو السلطان القاهر بالدولة الغالبة وفي البدو اما في احيائه بالمشائخ والكبراء لما وقر لهم في النفوس من الوقار والتجلة ، واما في جمله قائما بذود عنها من خارج حامية الحي وشجعانه ولا يصدق ذلك الا اذا كانوا ذوي عصبية مشتكة ، واهل تشيع واحد ، وحينئذ تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم لما جبل في القلوب من الشفقة والنعرة على ذوي الرحم والقرابة ، ومن تم قال اخوة يوسف عليه السلام لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون ، والمفترفون في النسب قل ان يجد احد منهم نعرة على صاحبه يوم الكفاح على حد ما هي من ذوي الارحام فلا يقدرون لذلك على سكنى القفر ، والا كانوا فريسة من سواهم (تمهيد) قال ابن خلدون : (واذا تبين ذلك في السكنى المفتقرة الى المدافعة فبمثله يتبين في كل امر يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة اذ لا يتم بلوغ الغرض من ذلك الا بالقتال لما في طباع البشر من الاستعصاء ولابد في القتال من العصبية كما تقرر) ؛ قال (فاتخذه اماما تقتد به) .

السابقة التاسعة استدل على هذا الاعتبار بظهوره في مواضع احدها المدح والثناء بقوله صلى الله عليه وسلم : انما الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اشارة لبلوغ الغاية من المجد الثاني العقوبة والمؤاخذة ففي التوراة ان معناه ان الله ربك طابق غيور مطالب بذنوب الاباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع قال وهذا يدل على ان الاربعة غاية في الحسن ، الثالث تسليم الشرف به قديماً وحديثا في كتاب الاغاني في اخبار عويف القوافي ان كسرى قال للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال باي شيء قال من كانت له ثلاثة اباء متوالية رؤوسا اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلة وتمام الخير مذكور حيث اشير اليه .

السابقة التاسعة ان العصبية لا تحصل الا بالتحام نسب او ما في معناه اما بالنسب فلان من صلة الرحم الطبيعية في البشر غالبا نعرة ذوي القربى بعضهم على بعض حتى لا ينالهم ضيم او هلكة فاذا قرب النسب وصلت به وصلة الالتحام استدعي لمجرد اقصى مقدور عليه في التناصر ومتى بعد بعض الشيء كفى في الحمل عليه ما هو مشهور منه فرارا من الفضاضة المتوهمة من هضم من يشارك في النسب بوجه ، واما بالذى في معناه فكالولاء والحلف لان الانفة اللاحقة للنفس من اهتضام جار او قريب او نسب بوجه ما تحمل على النعرة على اهل الولاء والحلف حتما (فائدة حكمية) قال ابن خلدون (ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم فان النسب فائدته الالتحام والوصلة التى بها المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب امر وذهبت لاحقيقة له ونفعه ان ظهرت فائدة حمل النعرة الطبيعية وان استفيد من الخبر فحسب ضعف ذلك الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ، ومن اعمال اللهو المنهي عنه ومن تم قيل النسب علم لا ينفع وجها آلة لا تضر اي ان النسب اذا خرج عن الموضوع وصار من قبل العلوم ذهبت فائدتها لوهم فيه وانتفت النعرة التى تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله اعلم انتهى باختصار .

السابقة العاشرة ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم بوجهين (احدهما) ان الرياسة لا بد فيها من التغلب الموقوف على العصبية وذلك يوجب ان تغلب عصبيتها سائر العصائب وحينئذ تسلم لصاحبها (الثاني) انها لا تكون الا في منبت واحد تعين له التغلب بالعصبية القاهرة وعند ذلك فالساقط في غير نسبه لا تحصل له رياسة على اهل العصبية لفقد العصبية اولا وعدم ارثها ثانيا (غفلة) قال ابن خلدون (وقد يتشرف كثير من الرؤساء على القبائل الى انساب ينزعون اليها لفضلها ويتورطون بالدعوة في شعوبها ولا يعملون ما يوقفون فيه انفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهو كثير من الناس لهذا العهد كادعاء زناتة جملة انهم من العرب وادعاء بني زيان ملوك بني عبد الوادي انهم من ولد القاسم بن ادريس قال : الملك انما كان بعصبيتهم لا بادعاء علوية ولا عباسية وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد (قلت) والى الآن ما زال ذلك يدعى لهم (انصاف) قال ولقد بلغني عن يغمر اسرى بني زيان موثل سلطانهم انه لما قيل له ذلك انكره وقال

بلغته الزناتية اما الملك فنلناه بسيوفنا لا بهذا النسب واما نفعه فى الآخرة فمردود الى الله واعرض عن المتقرب اليه بذلك .

السابقة الحادية عشرة ان شرف البيت بالاحالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية واما لغيرهم فبالمجازاة (بيان) الاول ان الشرف انما هو بالخلال ومعنى البيت عدد اشراف الاباء المعظم بهم من له عليه ولادة لشرفهم بالخلال وحينئذ فهو راجع الى النسب ، وقد تقدم ان فائدته انما هي العصبية ومتى كانت مرهوبة مع زكاء المنبت وتلك الفائدة اوضح وتعديد اشراف الاباء يزيدها رسوخا فيكون الحسب به أصيلا (بيان) الثاني ان فاقد هذه الثمرة من اهل الامصار ظاهر فيه انه لا بيت له الا بالمجاز وان توهمه بزخرف من الدعاوي ، لان حسبه انما يعد ما له من سلف فى خلال الخير مع الركون الى العافية وهو مغاير لسر العصبية التى هي ثمرة النسب وتعديد الاباء وحينئذ فهو حسب بالمجاز لعلاقة تعديد الاباء المتعاقبين عن طريقة واحدة من الخير وليس حسبا بالحقيقة وعلى الاطلاق (تنبيه) قال وقد يكون للبيت شرف اول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب وليسوا من ذلك فى شيء لذهاب العصبية مجملة وكثير من اهل الامصار والناشئين فى بيوت العرب والعجم لاول عهدهم موسومون بذلك قال واكثر ما رسخ الوسواس فى ذلك لبني اسرائيل لما سبق لهم من شرف البيت بتعديد الانبياء والرسل ثم بالعصبية والملك الذي وعدوا به وبعد انسلاخهم عن جميع ذلك وضرب الذلة وانفرادهم بالاستعباد آلافا من السنين مازال هذا الوسواس مصاحبا فيقولون هذا هاروني امي من قبيل يوشع او من سبط كذا مع ذهاب ما أوجب ذلك اولا ورسوخ ما عفا بعد على اثره قال وكثير من اهل الامصار وغيرهم المنقطعين فى انسابهم عن العصبية يذهب الى هذا الهذيان (غلطة) قال وقد غلط ابن رشد فى هذا لما ذكر الحسب فى كتابه الخطابة من تلخيص كتب ارسطو فقال والحسب ان يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة وليت شعري ما الذى ينفعه قدم نزولهم ان لم يكن له عصابة يرهب بها جانبه ويحمل غيرهم على القبول منه لانه اطلق الحسب على تعديد الاباء فقط ، مع ان الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم اهل الحل والعقد واما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة احد ، قال الا ان ابن رشد ربي فى جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا انسوا احوالها فبقي فى امر البيت والحسب على الامر المشهور عن تعديد الاباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها فى الخليقة والله بكل شيء عليم ، انتهى .

السابقة الثانية عشر ان البيت والشرف للموالي والمصطنعين انما هو بمواليهم لا بأنسابهم لما سبق أن الشرف بالحقيقة انما هو لاهل العصبية فمتى اصطنعوا او استرقوا او حالفوا من ليس منهم والتحم بهم ضرب فيهم نسبهم فى تلك العصبية وليس جلدتها كأنها عصبية وحصل من الانتظام فى سلكها مساهمة فى نسبها وحينئذ فنسب ولادته غير نافع له فيها لمباينتها لنسبه وفقدان عصبيتها لذهاب سرها عند التحاقه بهذا النسب الآخر ، فاذا تعدد له الاباء فى هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبة ولائه واصطناعه لا يتجاوزه الى شرفهم بل ان يكون ادون منهم على كل حال (اعتبار) قال ابن خلدون وهذا شأن الموالي والخدمة انما يشرفون بالرسوخ فى ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الاباء فى ولايتها كموالي الاتراك فى دولة بني العباس وبني برمك وبني نوبخت ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ فى ولاء الدولة لاينسب ولادتهم لاضمحلاله ولغو اعتباره ، وحينئذ فالاعتداد به وهم توسوس به النفوس الطامحة ولا حقيقة له قال والوجود شاهد لذلك واكرمكم عند الله اتقاكم .

السابقة الثالثة عشرة ، ان نهاية الحسب فى العقب الواحد اربعة اباء وبيانه ان العيان شاهد بأن العالم العنصري بما فيه من ذوات واحوال كائن فاسد والحسب من العوارض الانسانية فهو كائن فاسد بلا شك ولا يوجد لاحد من الخليقة شرف متصل فى آبائه من لدن آدم اليه الا ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة وحياطة على شرفه واول كل شرف خارجي أي عدمه سابق عليه وكذا يلحقه بعد الوجود شأن كل محدث وعند ذلك فتلك النهاية فيه لان باني المجد عالم بما عاناه فى شانه محافظ على الخلال التى هي سبب ادراكه وانه من بعده مباشر له واخذ عنه الا انه مقصر فى ذلك تقصير من لم يعان فاذا جاء الثالث كان حظه التقليد فقط فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد فاذا الرابع قصر عن طريقهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء

مجدهم وتوهم ان ذلك لم يكن بمعاناة ولا تكالف وانما وجب لهم منذ اول النشأة بمجرد النسب خاصة فيربي بنفسه عن اهل عصبيته ويرى الفضل عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما وجب ذلك من الخلال التى منها التواضع الآخذ بمجامع القلوب واذ ذاك يتنقضوه عنه ويديلون منه سواء من فروع منتبه فى غير ذلك العقب فينهدم بناء بيت لا محالة هذا فى الملوك واما فى بيوت القبائل وذوي العصبية ثم فى بيوت اهل الامصار فكذلك اذا انحطت بيوت نشأت بيوت اخرى من ذلك النسب ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز . (تنبيه) قال واشتراط اربعة فى الانساب انما هو فى الغالب فقد يندثر البيت من دون ذلك ويتلاشى وقد يتصل الى الخامس والسادس الا انه فى انحطاط وذهاب ، قال واعتبار الاربعة من قبيل بان ومباشر ومقلد وهادم وهو اقل ما يمكن (استظهار) استدل على هذا الاعتبار بظهوره فى مواضع (احدها) المدح والثناء بقوله عليه السلام انما الكريم بن الكريم الخ .. الحديث اشارة لبلوغ الغاية من المجد (الثاني) العقوبة والمواخذة ففى التوراة ما معناه انا الله ربكم سابق غيور مطالب بذنوب الاباء على الثوالث وعلى الروابع قال وهذا يدل على ان الاربعة غاية فى الحسب (الثالث) تسليم الشرف قديما وحديثا فمن كتاب الاغاني ان كسرى قال للنعمان هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلتين قال نعم قال فباي شيء قال من كان له ثلاثة آباء متواليات رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وتمام الخير مذكور حيث اشير اليه .

السابقة الرابعة عشرة ، ان الامم الوحشية اقدر على التغلب لان الشجاعة لما تمكنت فيهم ، بسبب البداوة كما تقدم فهم لذلك اقدر على التغلب واقوى على انتزاع ما بيد سواهم وحينئذ فمن كان منهم اعرق فى البداوة وارسخ فى خلق التوحش فهو الى ذلك اقرب ومراميه عليه ايسر ، ومن نزل منهم الارياف والف عوائد خصبها نقص من شجاعته بقدر ما بعد عن توحشه (اعتبار بالخليقة) قال ابن خلدون واعتبر ذلك فى الحيوانات العجم بدواجن الظباء وحمر الوحش وبقره ، اذ زال توحشها بمخالطة الآدمي واخصب عيشها اختلف حالها فى الانتهاض والشدة فى مشيها وحسن اديمها ، وكذا الادمي فى المتوحش اذا انس والف (برهان وجودي) قال وانظر فى ذلك شأن مضر من قبلهم من حمير وكهلان السابقين للملك والنعيم مع ربيع المستوطنين ارياف العراق ونعيمه لما بقيت مضر بداوتهم ، وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش ونضارة النعيم كيف ارهفت البداوة وحدهم فى التغلب فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوه منهم قال وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصبا دون الحي الآخر فالمصاحب لبداوته اغلب له واقدر عليه اذا تكافأ بالقدرة والعدد سنة الله فى خلقه .

السابقة الخامسة عشرة ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط لان من طبيعة توحشهم نهب ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ثم فرارهم به الى منتجعهم بالقفر ولا قصد لهم فى المحاربة الا عند الدفاع بها عن انفسهم وعند ذلك فكل صعب عليهم من المعاقل والهضاب فهم تاركوه ما سهل من البسائط والبطاح فلا يزالون يرددون عليها الغارة خصوصا عند فقدان حاميتها حتى يصير اهلها كالمستعبدين لهم الى ان ينقرض عمرانها بسوء الملكة وفساد النظام .

السابقة السادسة عشرة ، انهم اذا تغلبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب وذلك لان طبيعة توحشهم منافرة للعمران من وجوه (احدها) ان استحكام عوائده صار لهم خلقا موافقا لاهدافهم لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم المراعاة للسياسة ومنافاة ذلك للعمران واضحة (الثاني) ان غاية الاحوال العادية عندهم انما هو الرحلة والتغلب ، فالحجر والخشب حاجتهم اليه نصب واتخاذ الاعمدة والاوتاد للخيام والبيوت ، فلا جرم يخربون عليهم المباني والسقف لذلك ، وكل ذلك مناف للعمران الذى لا يكون الا بالسكان والمبانيء (الثالث) من طبيعتهم انتهاب ما بين الناس كما تقدم ولا حد لهم فى ذلك يقفون عنده بل كل ما تمتد اليه اعينهم فهم منتهبوه وذلك مبطل لحفظ المال ومؤدي لخراب العمران (الرابع) انهم يكلفون على اهل الصنائع والحرف اعمالا لا يرون لها قيمة ولا استحقاق عوض وفسادها بذلك يقبض اليد عنها ويضعف الامل فى المكاسب فيفسد العمران لا محالة، (الخامس) انهم لا عناية لهم بالاحكام الواجبة شرعا وسياسة بل اذا توصلوا الى اخذ المال نهبا او مغرما او عرضا عن عقوبة جريمة كفاهم ذلك عن النظر فيما يصلح الخلق جلبا ودفعا ومصيرا لعمران بذلك الى

الخراب لا يخفى . (السادس) ان تنافسهم في الرياسة حتى بين الاب والابن يؤدي الى تعدد الاحكام واختلاف ايدي الامراء على الرعية جباية وحكما ، وذلك موجب لفساد العمران (يحكى) ان اعرابيا وفد على عبد الملك فسأله عن الحجاج فقال مخبرا عنه تركته يظلم وحده (قلت) وقد اعتذر بذلك من تلك الجهة عن الدولة فيروي ان رسول ملك فرنة لما انصرف عنه قال له ماذا اقول لاخيك قال قل آه جئت من عند سلطان يظلم وحده (عاطفة اعتبار) قال ابن خلدون انظر الى ما تقلبوا عليه من اول الخليقة كيف خرب عمرانه وبدلت فيه الارض بغير الارض ، فاليمن قرارهم خراب الا قليلا ، وعراق العرب كذلك ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقيا والمغرب لما اجاز اليهما بنو هلال وبنو سليم عند المائة الخامسة قد لحقا بذلك وعادت بسائطها خرابا بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي عمرانا والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

السابقة السابعة عشرة : ان البو دي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار ما لم يحصل لهم عليها غلب ولا ملك وذلك لاحتياجهم بالطبع للحضر في امرين ، احدهما ضروري ما لا بد منه في المعاش مما هو معدوم عندهم او غير واف بالمقصود واهمه الصنائع التي هي مادة الفلح الموجود لديهم كالتجارة والحدادة وشبه ذلك ، الثاني ثمن ما لديهم مثمونه من غلة زرع او عين حيوان او فضلته مما يحتاج اليه اهل الامصار وهو الدينار والدرهم المفقودان في البدو ولكن حاجتهم الى الامصار في بهم ضروري، وحاجة اهلها اليهم فن حاجي او تكميلي (مزيد ثمرة) لا خفاء ان هذا الاجتماع ناشيء عن بعض العمران البدوي عن الحضري والكامل رئيس الناقص فمن تمجد لبادية منصرفين في صالح الحضر وطاعتهم متى دعوا الى ذلك وطلبوا به (قال ابن خلدون) فان كان في المصر ملك كانت طاعتهم لغلبة الملك والا فلابد فيه من رياسة والا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته دوما ببذل المال لهم على ان يبيح لهم ما يحتاجون اليه في عصره فيستقيم عمرانهم ، او كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتضريب بينهم حتى يصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الآخرون الى طاعتهم بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم التحول عن تلك النواحي لعمران كل الجهات بمن غلب عليها ومنعها عن غيره وحينئذ فلا ملجأ لهم الا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله القاهر فوق عباده .

السابقة الثامنة عشرة : ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم لان مقامهم بالقفر الذي دعاهم الى التوحش فيه قيامهم على الابل مانع لمن سواهم من النزوع اليهم منضما لما فيه من نكد العيش وشظف الحال فيومن عليهم بذلك من اختلاط النسب وفساده فلا يزال فيهم صريحا محفوظا (اعتبار) قال واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا اهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع كانت انسابهم صريحة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب والعرب الذين كانوا بالتلول في معادن الخصب من حمير وكهلان كلخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد اختلطت انسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف ما قد علمت وانما جاءهم ذلك من قبل مخالطة العجم لاهمالهم بالمحافظة على النسب قال عمر رضي الله عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احد عن اصله قال من قرية كذا (تعريف) قال وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق، وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح امر النسب بل في اختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حين عرفوا بها وصارت علاقة زائدة على النسب يتميزون بها عند الامراء ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم ، وفقدت الانساب بالجملة ، وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها .

السابقة التاسعة عشرة : ان اختلاف الانساب يقع بسقوط بعض من اهلها الى نسب آخر لنزوع اليهم او حلف او ولاء او بفرار من قومه لجناية اصحابها فيدعى نسبهم ويعد منهم في ثمرته من النعرة والقود وحمل الديات وغير ذلك ومتى وجدت ثمرة النسب فكأنه وجد لاسيما والنسب الاول قد يتناسى بطول الزمان وذهاب اهل العلم به فيخفى على الاكثرين .

(شهادة واقع)

قال وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بآخرين فى الجاهلية والاسلام والعرب والعجم قال ومنه شاب بجيلة فى عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر رضي الله عنه فسالوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا نزيف اي دخيل ولصيق ، وطلبوا ان يولي عليهم جريرا فساله عمر رضي الله عنه عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا أمير المومنين انا رجل من الازد اصبت دما فى قومي ولحقت بهم (قال) وانظر منه كيف اختلط عرفجة بجيلة ولبس جلدهم حتى ترشح الرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمان لتنوسي بالجملة ، وعد منهم بكل وجه فافهمه واعتبر سر الله فى خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله .

السابقة العشرون : ان جيل العرب فى الخليقة طبيعي وبيانه أن المعاش الطبيعي الذى اقتصر أهل البدو على الضروري منه اصناف ثلاثة .

احدها الزراعة والمقام لاجلها ولو فى الغيران والكهوف اولى من الظعن فضلا عن سكنى المداشر والقرى كما عليه عامة البربر والاعاجم .

الثاني : سائمة الغنم والبقر والظعن لارتياد مسارحها ومواردها اولى من المقام واربابها يسمون شاوية .

اي قائمون على الشاة والبقر ولا يبعدون فى القفر اذ لا مسارح فيه طيبة وهم كالتركي والصقالبة .

الثالث : الابل والظعن لاجلها ابعد فى القفر مجالا لعدم استغنائها فى قوام حياتها عن مراعي شجرة وموارد مياهه وطلب مضامن انتاجها فى رماله فاهنها لذلك ولما قد يدعوهم اليه منع الحامية من التلول يضطرون الى التوغل فى القفار ابعادا فى النجعة ونفرة عن النصفة فيشتد توحشهم وينزلون من الحواضر منزلة الحيوان المفترس والوحش غير المقدور عليه .

(تعيين) قال وهؤلاء العرب وفى معناهم ظواعن البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان بالمشرق . قال الا ان العرب ابعد نجعة واشد بداوة لاختصاصها بالقيام على الابل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاة والبقر وبه يتبين ان جيل العرب طبيعي لابد منه ...

* * *

وبعد فهذه صفحات من كتاب بدائع السلك فى نظام الملك لابن الازرق قدمتها للقارىء الكريم لاول مرة عسى ان يجد فيها متعة الظفر بالدراسة الخلدونية فى اواخر القرن الثامن ، اي فى القرن الذي عاش فيه ابن خلدون فليس بين الكاتبين قدر فواقي ناقة بالنسبة لتاريخ العصور ... ولست اشك ان القارىء سيجد فى هذه الصفحات من عمق الفكر وجمال الاسلوب وقوة الاطلاع ولباقة النقد ما يجعل ابن الازرق خليقا بمكانته العظيمة فى تاريخ الفكر الاندلسي .

الرباط — ح. س.

المغرب الافريقي

الاختيار المغربي في ديبلوماسية الافريقية

للأستاذ زين العابدين الكتاني

- 2 -

حاولت في الجزء الاول من هذه الدراسة التي تتناول المغرب وافريقية في السنوات العشر الاخيرة ان احدد عددا من الوقائع والاحداث التي تؤكد ان الاختيار المغربي لعب دورا قياديا في بعث الوجود الافريقي والوحدة الافريقية ودفعه بعيدا عن التهريج والمعاكسة التي تقف في وجه الانطلاق والتمركز دون هدف مرتجل ، أو مطمح معاكس لاحد .

فنجد ان انطلاقة المغرب في هذا المجال قد اعطت اكثر من ضوء للاشارة في عدد من الاهداف البعيدة سواء داخل الدول الشقيقة ، او على مجموع القارة المستيقظة حيث كان للمؤتمرات التي اقامتها افريقية على اختلاف المستويات التي انعقدت من اجل اهداف الدعوة اليها فانعقدت :

أولا : المؤتمرات الوطنية

– مؤتمر طنجة لدول المغرب العربي سنة 1957 .

– ومؤتمر (افميكا) سنة 1958 في موانزا للحركة الوطنية لشرق ووسط افريقية .

ثانيا : مؤتمرات على مستوى الدول والحكومات

– مؤتمر منروفية انعقد في 1959 بدعوة من حكومة ليبرية .

– مؤتمر أكرا الذي انعقد بغانا سنة 1960 .

– مؤتمر اديس ابابا الذي انعقد سنة 1960 .

– مؤتمر الدار البيضاء الذي انعقد في يناير 1961 .

– مؤتمر منروفية للدول الافريقية المستقلة الذي انعقد في مايو 1961 (1) .

– مؤتمر لاجوس الذي انعقد في يناير 1962 (2)

– مؤتمر القمة الذي انعقد بأديس ابابا في مايو سنة 1963 (3) .

– مؤتمر القمة المنعقد بالقاهرة سنة 1964 (4)

– مؤتمر القمة الافريقي المنعقد باكرا بغانا في اكتوبر سنة 1965 .

– مؤتمر القمة المنعقد بكينشاسا بالكونغو .

– مؤتمر القمة المنعقد بالجزائر في سبتمبر 1968 .

---

1) ظهر فيه اتجاه معاكس ادى الى رفض تمثيل حكومة الجزائر المؤقتة .

2) لم تحضره دول الدار البيضاء بسبب اهمال دعوة حكومة الجزائر المؤقتة .

3) في هذا المؤتمر تقرر تشكيل لجنة مكونة من تسع دول لتنسيق المساعدات التي ستقدم الى الحركات الوطنية في افريقية .

4) في هذا المؤتمر الغى الاتحاد الافريقي الملغاشي .

ونتيجة لاعمال كل هذه المؤتمرات وانطلاقا من اهداف مؤتمر الدار البيضاء الافريقي في الحياة الافريقية بالخصوص وفي مدى التاثير الذي تركته مقرارته واهدافه على مختلف المستويات سواء في المجال الافريقي ، او في تحديد سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز (5) وبالرغم عما طرا على الدول الافريقية من تطورات ، واتجاهات فاننا نجد الدكتور فيليب رفلة يقول في كتابه الهام : « الجغرافية السياسية لافريقية » المطبوع سنة 1966 حول هذا المؤتمر ما يلي : « .. وقد نجح مؤتمر الدار البيضاء في تجميع جهود الافريقيين لمواصلة الكفاح ضد الاستعمار ، وانشاء قوة عسكرية افريقية ، وكانت قراراته بالاجتماع » (6) خصوصا وان افريقية كلها قد آمنت وتاكدت — كما قال جلالة الحسن الثاني في خطابه الموجه الى مؤتمر لاغوس — « ان الخطة التي رسمناها لانفسنا ، وميثاق الدار البيضاء الذي سنظل اوفياء مخلصين له ، يفرضان علينا ان لا ندخر وسعا ، ولا نتاخر عن بذل اية تضحية لتحقيق المبادىء التي قام عليها الميثاق ، ونصرة الحرية والرقي والعدالة الاجتماعية سواء داخل حدودنا أو في مجموع القارة الافريقية (7) » .

وهكذا ولما كان مؤتمر القاهرة (8) للقمة الافريقي نقطة تركيز للتخطيط الافريقي فان مواقف المغرب في هذا المؤتمر كان لها اثرها في الاتجاه الافريقي على العموم، ومن هذه المواقف الموقف الذي اتخذه المغرب داخل قاعة الاجتماع .

نعم ، ان هذا الاتجاه الذي سيطر على المغرب ومجموعة اخرى ليس هو الاتجاه الذي سيطر على باقي الدول وان البعض كان يهدف الى خوض معركة القيادة فان دوافع حسن النية ، وبغية التعرف الى باقي الوفود كانت اسمى مظهر ايضا لهذا الاتصال عند هذا الجانب ، اما هذا الاتجاه والتخطيط الذي اصبح اختيارا فقد واضح :

1 — اصالة هذا الاتجاه في المشكل الافريقي المغربي وقدرته على القيادة ..

2 — اكدت ان المؤتمر لم ينعقد لالقاء الخطب الرنانة الطويلة وانما انعقد لدراسة المشاكل والاوضاع القائمة حتى لا يعود المجتمعون بهذه المنظمة الى الوراء ولان الهدف من تاسيسها كان يهدف الى هدفين اساسيين :

أولا : مساعدة افريقية على بعثها الجديد في الاتجاه الذي يضمن لها المحافظة على شخصيتها ووجودها وتخليصها .

ثانيا : تخليصها مما (يتشعبط) بها من انفصاليين وعملاء واشباههما من المستعمرين .

ومن اجل هذا فان مواقف المغرب كنا — وكان غيرنا — يتاكد مسبقا من اصالته اولا لاننا وكما عودتنا الحياة والتجربة ان لا نقف موقفا لا يتفق والواقع الانساني والوضوح والمناسبة لاسباب مفروضة في في سلوكنا الديبلوماسي ، هذا بالاضافة الى ان شعور المغرب وموقفه هو موقف كل مواطن افريقي، وهو طريق افريقية التي تنتظر البعث الافريقي الحر (9) الذي سيطبع حياتها القادمة باختيارها .

ظروف القمة الخامسة وانطلاقتها :

منذ مؤتمر القاهرة (10) والاحوال المحيطة بمنظمة الوحدة الافريقية تطرح هذه الاسئلة :

— هل ستستطيع منظمة الوحدة الافريقية ان تتغلب على النزعتين الموجودتين داخل هذه المنظمة : نزعة الاعتدال ونزعة الثورية ؟ .

— ثم هل ستبقى منظمة الوحدة مرءاة للتناقضات والخلافات التي تشير اليها هذه النزعات داخل افريقية ؟

---

5) اسياسة الحياد الايجابي) سلسلة كتب قومية صفحة : 314 .
6) الطبعة الثانية من نفس الكتاب صفحة : 78.
7) في يبراير 1962 .
8) يوليوز سنة 1964 .
9) كتاب : (الديبلوماسية المغرب في عشر سنوات) صفحة : 73 .
10) سنة 1964 .

ان السبب الحقيقي لهذا الوضع راجع الى عاملين اساسيين :

ـ المشاكل التي تعانيها القارة الافريقية .

ـ وطريقة الوسائل التي تطرح لحل هذه المشاكل .

ولكن الى حين تحديد هذا الوضع فقد استطاعت دول المنظمة الافريقية ، واستطاعت كل من النزعتين المشار اليهما أن توحد وجهات النظر المتعددة حول :

1) ايجاد كثير من الحلول الناجعة فيما يتعلق بالخلافات القائمة بين عدد من دول القارة .

2) اقامة مجموعة اقتصادية جهوية (مجموعة غرب افريقية التي تضم 14 دولة افريقية) .

3) توحيد وجهات النظر حول عديد من المشاكل الافريقية الهامة لتصفية الاستعمار بافريقية كمشكلة ، وما يدخل تحت هذه المشكلة من قضايا متعددة ..

وقد كان لهذا الشعور الخاص الذي سيطر على دول القارة اثره .. لانه كان يرتكز على مقاومة التفكك والتمزق ، وتفادي المخاطر التي سماها الامين العام للامم المتحدة اثناء مؤتمر القمة المنعقد بكينشاسا بالروح الاقليمية (11) مما جعل الظرف يتهيأ نسبياء وجعل حدا للتصادم الذي كان عرقلة فى وجه انعقاد مؤتمر القمة على نفس مستوى المؤتمر الخامس ..

وكنتيجة للتطور الحاصل فى هذه المدة اتفق جميع الملاحظين الدوليين الاجانب واكدوا :

أولا : ان الاهداف التي اصبحت تربط بين دول افريقية وشعوبها اصبحت تحول دون تفككهم ودون انهيار قضية التعاون فيما بينهم من اجل وضع حد لكثير من المشاكل نتيجة لشعور شامل .

ثانيا : الح الامين العام للامم المتحدة السيد طانت فى خطابه : «**على مدى توقف السلم العالمي على مجرى الاحداث بافريقية التي سيكون لتطورها المنتظر وزن معتبر ان لم يكن حاسما فى النطاق الدولي (12)**»

وهو منطق يتفق مع ما ذهب اليه الملاحظون وهو ايضا ما اكد اصالة الاتجاه المغربي فى هذا المجال والذي عبر عنه جلالة الحسن الثاني بقوله :

« **ان الخطة التي رسمناها لانفسنا ، وميثاق الدار البيضاء الذي سنظل أوفياء مخلصين له ، يفرضان علينا ان لا ندخر وسعا ، وان لا نتاخر عن بذل أية تضحية لتحقيق المبادىء التي قام عليها الميثاق، ونصر الحرية والرقي، والعدالة الاجتماعية، سواء داخل حدودنا أو فى مجموع القارة الافريقية(13)** »

وهو كما نرى الاتجاه والطريق الذي تسير فيه افريقية للوصول الى النتائج الدولية التي سجلتها اعمال مؤتمر القمة الخامس والمغرب الافريقي « الواعي لرسالته ، المتفهم جدا لحقيقة مشاكله ومشاكل القارة التي ينتمي اليها ، قد عمل وما يزال يعمل من اجل تركيز هذه المبادىء حتى لا تظل ابواق الاستعمار تجعل من كل حبة قبة فى الخلافات القائمة فيما بين البلدان الافريقية على المستويين المحلي والاقليمي(14)»

وهذا هو الشعار الذي سارت عليه اعمال المؤتمر وهي الروح التي طبعت نتائجه سواء فى شكلها او فى عمقها .

آفاق الاتجاه المغربي الدقيقة :

اذا كانت الاحداث المحيطة بالظروف التي انعقد فيها مؤتمر القمة الافريقي الخامس فى الجزائر قد بلغت من القسوة حدا لا مزيد عليه فان اخطر مشكل جديد اضيف الى مشاكل افريقية هو :

ـ مشكلة الاراضي المصرية الافريقية التي استولت عليها اسرائيل فى حرب يونيو سنة 1967.

---

11) بالكونغو سنة 1967 .
12) الخطاب فى المؤتمر الافريقي الخامس (سبتمبر 1968) بالجزائر .
13) خطاب جلالة الملك فى مؤتمر لاغوس سنة 1962 .
14) جريدة « الانباء » (18 ـ 9 ـ 68) .

ـ ثم الحرب الصليبيـة التـي اشتعـلت فى نيجيرية وخاصة بعد محاولة فصل اقليم بيافرا (15) عن الوطن ، وظهور التدخلات الاجنبية التي لم تخف على احد في هذه الحرب والتي باءت بالفشل . .

ـ مشكلة اعضاء منظمة الوحدة الافريقية الذين اخلوا بدستورها في الاعتراف باقليم بيافرا النيجرى وهم : زامبيا ، والقابون ، وساحل العاج ، وطنزانيا. وهو وضع كما نرى دقيق جدا وتنهار أمامـه كـل الاستعدادات ، وجميع النيات الحسنة لانـه يحيـط بظروف غير اعتيادية ، ورغم ذلك فقد شارك المغرب وهو مؤمن اشد الايمان بان الوضع داخل المنظمة قد قطع خطوات مهمة ، وحقق اهدافا ووصل الى غايات واصبح المستقبل الذي ينشده للقارة الافريقية بين يديه في كثير من نقطه .. ويتجلى ذلـك في النقـط التي تعرض لها خطاب الجلالة الملك المعظـم وهـو يتحدث للمؤتمر باسم المؤتمرين ويضيف للاتجـاه الافريقي توجيها جديدا حين اعلن :

« اننا أمة واحدة ، وأسرة واحدة ، ليـس فى امكان أي أحد منا أن يفر من هذه القارة » .

« علينا أن نعيش ونتعايش .. « فلنفكر اذن في الوسائل التي تمكننا من العيش أولا ، ثم من التعايش ثانيـا : »

ان « جهادنا الاكبر هو في معرفـة حقائقنـا ومشاكلنا ، فاذا نحن الممنا بها كلها اصبحنا قادرين على ان نرى الاسبقية اللازمة التي من شأنها ان تحفز هممنا ، وتوقظ فينا المشاعر ، وتذكي فينـا الارادة حتى نتغلب على الصعـاب وعلى العقبـات واحـدة واحـدة » .

« علينا ان نطبق سياسة وسائلنا حتى تصل الى وسائل سياستنا .. »

ان « الذاكرة تعود بي الى سنة 1965 وانـني لاذكر فيكم اخواني الكثير ممن شاركوا في مؤتمـر القمة ، وممن اشادوا بنهر النيل ، وبالاهرام ، وبأبي الهول وبتاريخ ذلك البلد الافريقي .. ولي اليقيـن انكم الذين شكرتكم ذلك الشعب على ضيافته ، انتـم الذين افضتم عليه من الشكر ومن التكريم فتذكـرون الان شعبا افريقيا مهاجم .. وانه هوجم وان أراضيه محتلة .. ولا اريد ان اقول اكثـر من هـذا في هـذا الباب .. اذ انني مومن انني سوف أجد في مرؤتكم ، وفي عواطفكم الافريقية النبيلة ما من شانه ان يخفف من وطاة الالم والحزن التي تخيم على ذلـك الشعـب الذي اضافنا منذ ثلاث سنوات خلت .. (16) .

وكنتائج جديدة حصلت عليها افريقية فقد صادق المؤتمر على القرار الذي اعلن عن مساندة جميـع اعضاء منظمة الوحدة الافريقية للجمهورية العربيـة المتحدة وطالب بانسحاب قوات العدوان من الاراضي المحتلـة .

وتعتبر مصادقة مؤتمر القمة على القرار المتعلق باستنكار الاحتلال الصهيوني انتصارا للقضية العربية اذ لاول مرة منذ الاعتداء الاسرائيلـي تعلـن الـدول الافريقية كلها (17) عن :

1) مساندتها للجمهورية العربية المتحدة .

ـ وتطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية بدون قيد او شرط .

ـ وتطالب من الـدول الاعضـاء في منظمـة الوحدة الافريقية استخدام نفوذهـا لتطبيـق قـرار مجلس الامن الصادر في 22 نونبر 1967 .

والمصادقة على هذا القرار كما هو واضح يتفق مع الخطوة الجريئة التي عبر عنها جلالة الملك في خطاب

---

15) اعلن الكولونيل اوجو انفصال الاقليم في 30 مايو 1967 ، واعلنت حكومة لاجوس نهايـة محاولـة الانفصال في 15 يناير 1970 بعد حرب استمرت ثلاثين شهرا .

16) هذه النقط الخمسة وردت في الخطاب الذي ارتجله جلالة الملك المعظم في المؤتمـر الخامـس بالجزائـر .

17) باستثناء الملاوى المتغيبة باعتبار الروابط التي تربطها الصهاينة وبحكومة جنوب افريقية العنصرية

الافتتاح بكل هدوء ، ثم للمجهودات التي بذلها جلالته خلال المؤتمر وعلى هامشه (18) .

2) كذلك صادق المؤتمر على ملتمس يتعلق بما كان يسمى المشكل النيجيري ، وقد اظهر ايضا القادة الافارقة نضجهم ووعيهم للاخطار التي كانت تكمن وراء محاولة انفصال اقليم بيافرا النيجيري ، ولذلك لم يترددوا فى اعلان معارضتهم لاى مساس بسيادة الدول الاعضاء وبوحدتهم الترابية ، ودعوا سلطات الاقاليم المنشق الى العمل مع السلطات الاتحادية لانهاء النزاع المسلح (19) يومئذ والذي انتصرت فيه الوحدة بل وانتصر الاسلام .

3) كما صادق المؤتمر على قرار يتعلق بالثروات الطبيعية لافريقية يعتبر هذا القرار معاهدة تحل محل معاهدة سنة 1933 الاستعمارية مما سينقذ ويحمي ثروات افريقية الطبيعية من الاستغلال الذي تعرضت له خلال مدة طويلة وهو قرار يعبر فى ظاهره وباطنه عن ارادات الافارقة فى استغلال ثرواتهم لفائدة تقدمهم الاقتصادي وتنميتهم الاجتماعية طبقا لتطبيق مبدا سياسة وسائلنا حتى نصل الى وسائل سياستنا .

4) كذلك صادق المؤتمر على قرار يتعلق بمساعدة الحركات التحريرية فى افريقية (20) والحقيقة « انه على الرغم من المناورات التي كانت تحاك من كل جانب فان منظمة الوحدة الافريقية خرجت من مؤتمر الجزائر ــ وهو آخر مؤتمر قمة افريقي ينعقد لحد الان ــ معززة الجانب وحققت مكاسب جديدة قد تساعدها فى التغلب على الصعاب والعراقيل » (21) .

وذلك ايضا ما يشير اليه الرئيس موديبوكيتا حين اكد :

« ان المؤتمر اتاح الفرصة لتحديد استراتيجية جديدة اكثر فعالية لعمل منظمة الوحدة الافريقية » وذلك هو طريق المستقبل فى افريقيا ، وطريق الوضوح ، والعمل الجدري ، وهذا ما نريد ان نؤكده ونقف عند حده لنصل الى ما نهدف من ورائه حتى تكون لهذه المنظمة الفعالية والقدرة الممكنة للوصول الى الاهداف المخططة وتلك سبيلنا وطريقنا نحو قيام وحدتنا الحقيقية فى عالم اصبح الوضوح فيه هو السبيل الموصل .

---

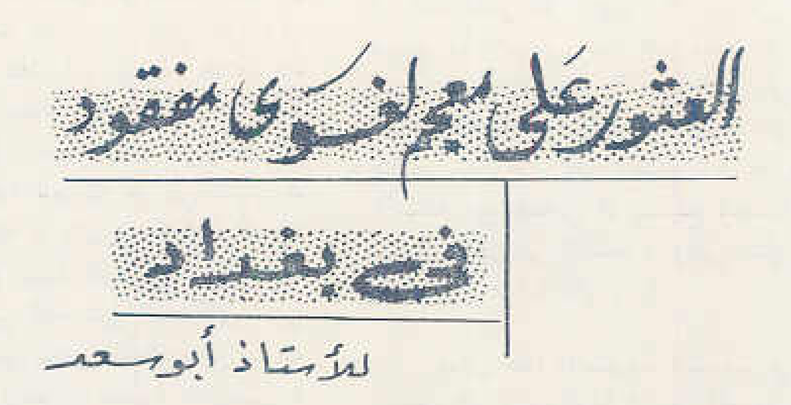
18) صوتت المصادقة على هذه التوصية ب : 36 دولة ولم يصوت ضدها اى عضو فى حين امتنعت دولتان افريقيتان عن التصويت هما : بوتسوان واوسوطو .

19) تمت الموافقة على هذا القرار بأغلبية 37 صوتا مقابل رابعة اصوات هي : زامبيا وطنزانيا والكابون وساحل العاج وهذه الدول سبق لهـا ان اعترفت بالنظام الانفصالي بيافرا .

20) البلدان التي لا زالت تحت الحكم الاستعماري : الصحراء المغربية المسماة (بالاسبانية) وبعض المدن الاخرى والجيوب ــ غينية (البرتغالية) غينية (الاسبانية) الصومال (الفرنسي) ــ جنوب غرب افريقية ــ روديسيا الجنوبية ــ الموزمبيق ــ انغولا .

21) جريدة (المجاهد) الجزائرية (16 ــ 9 ــ 68 .

سلا : زين العابدين الكتاني



العثور على معجم لغوي مفقود في بغداد

للأستاذ أبو سعد

حركة التاليف المعجمي عند العرب مرت عبر القرون بمراحل متعددة ، اولها : مرحلة كتب الصفات او الغريب المصنف ، ومنها جمعت مفردات الباب الواحد وضمت الى بعضها ، ومن نماذجها كتاب المطر والسحاب لابن دريد البصري والغريب المصنف لابي عبيد والمخصص لابن سيده الاندلسي .

وثانيها : مرحلة معاجم الالفاظ ، ومنها رتبت المفردات بالنسبة لحروفها لا الى معانيها واولها معجم العين للخليل بن احمد البصري ، وتلاه التهذيب والمحيط والمحكم والقليين والمجمل والجمهرة والصحاح والعباب واللبان والقاموس المحيط وتاج العروس .

وثالثها : مرحلة معاجم المعاني ، وقد رتبت فيها الالفاظ الخاصة بمعنى من المعاني فى باب واحد ، وابراز نماذجها كتاب الالفاظ لابن السكيت ، وجواهر الالفاظ لقدامة بن جعفر ، والالفاظ الكتابية للهمذاني ، وفقه اللغة للثعالبي .

وكانت بعض المراجع القديمة تذكر كتابا مهما من هذه الكتب ، وهو معجم (متخير الالفاظ) تصنيف العالم اللغوي الجليل احمد بن فارس الرازي المتوفى سنة 395 هجرية ، ولكنه كان يعد فى المعاجم التى عدا عليها الزمن وفقدت مع ما فقد من ءاثار السلف .

ومؤخرا عثر الباحث العراقي الثبت الاستاذ صدر ناجي على المعجم المذكور ضمن مخطوطات اسرته ، فحققه على مخطوطتين : **الاولى تعود للقرن** السادس الهجري ، والثانية كتبها **جده العلامة السيد** عبد الوهاب بن عبد الرزاق الحسني **البغدادي امير** الخطاطين فى عصره فى بواكير **القرن الرابع عشر** الهجري ، والكتاب المذكور ، ذكره **ياقوت فى معجم** الادباء 4 / 84 والانباري فى نزهة **الالباء ص 321** كما ذكره ابن فارس فى عداد مؤلفاته **في ءاخر الجزء** الثاني المخطوط من معجم **(الجمل)** .

رتب ابن فارس معجم **(متخير الالفاظ)** على ابواب المعاني فى مائة واربعة عشر بابا ، وميزته الاساسية انه قد حفل بالالفاظ **المفردة المنتقاة** والالفاظ المركبة التى ابتكرها **الشعراء فى تشبيهاتهم** ومجازاتهم واستعاراتهم ، كما حفل **بالامثال المنتقاة** ، والاقوال الجارية مجراها ، مؤكدا ان ما يجب على الكاتب والشاعر اجتباء **السهل من الخطاب** ، واجتناب الوعر منه ، والانس **بأنيسه والتوحش من** وحشيه ، وهو كثير الاستشهاد **بالشعر** ، وشواهده من عيون الشعر العربي لفظا ومعنى .

وقد بذل الاستاذ صدر ناجي **فى تحقيق هذا** المعجم جهدا ضخما حتى ناهزت **مصادره ومراجعه** الاربعمائة كتاب ، ومن بينها **غير قليل من المخطوطات.**

ويعتبر عمله هذا اول محاولة **يقوم بها باحث** عراقي فى نشر معجم عربي قديم .

والكتاب معد للطبع حاليا ، وقد قدم له الصديق المحقق بمقدمة موسعة ، تحدث فى ختامها بلغة

شعرية مؤثرة عن دوافعه في تحقيق هذا المعجم فقال ما نصه :

« حققت قبل هذا عددا من الكتب ونشرتها وشرعت في تحقيق اخرى ، لكنني لم اشعر ابدا ان كتابا — غير المتخير — اصبح جزءا من كياني ولو دا في جناني وبعضا من بياني ، ذلك ان روابط ممتدة الجذور موغلة عبر الزمن كانت تشدني اليه شدا بوشائج روحية غير منظورة ، من هذه الرابط ان مخطوطته الام الفريدة حفظها للعربية عم ابي السيد أحمد عبد الوهاب رحمه الله ، وان مخطوطته الثانية كانت بخط جد أبي المرحوم عبد الوهاب بن عبد الرزاق بن محمد بن ابراهيم الحسني البغدادي امير الخطاطين في عصره ، فبيني وبين المخطوطتين نسب ووشيجة ، وبيني وبينهما رحم وآصرة وقربى ، ثم ان من هذه الروابط ما عرف من عناية اسرتنا بمعاجم اللغة جيلا بعد جيل » ثم عرض لنفائس مخطوطات اسرتهم اللغوية حتى قال : « ان هذا العناية كانت تدفعني دفعا وتحفزني حفزا ، لانى اصل حبل النسخ والحفظ في اسرتنا بحبل التحقيق والنشر ، فاقوم باخراج متخير الالفاظ الى عالم المطبوعات بعد ضياع استمر الف عام ، وفاء للعربية واحياء لبعض تراث الاسرة ، وهكذا صاحبت — المتخير — قرابة عام ، كان فيه سميري كل ليلة ونجي كل دجنة ، وكان منه صاحبا ومحدثا واليفا ، اصوب منه ما حرف محرف وصحف مصحف فلا يسام ولا يضجر ، واقطع الليل اخرج بيتا لشاعر او قالة لناثر فلا يحول ولا يتغير ، وكم غبت عن دنياي وانا اعرض نصا على مصدر ، حتى اذا ضجعت للفور تالية النجم ، واخذ الليل في طي الربط ، وتبين الخيط من الخيط ، ردني الى دنياي مؤذن ينادي : ان حي على الفلاح .. قد قامت الصلاة ، فانسلخ من مقعدي اذ ينسلخ النهار من الليل واذ ينشق النور عن الظالمة ، وعلى مثل هذا كان لقاؤنا وافتراقنا قرابة عام . »

بمثل هذا الاسلوب الشاعري المتدفق قدم المحقق الصديق لهذا المعجم الفريد . ومجمل القول ان نشر هذا المعجم سيكون اضافة قيمة للمكتبة اللغوية .

وفي تقديري ان هذا المعجم بالذات لا غنى عنه لكل كاتب وشاعر ، وعسى ان نراه في عالم المطبوعات قريبا .

بغداد : ابو سعد

فكلك عورات ...

اذا شئت ان تحيا سليما من الاذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء	فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان ابدت اليك معايبا	فصنها وقل : يا عين ! للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتي هي احسن

الامام الشافعي



هذا عنوان شامل لسلسلة من المقالات سنحاول ان نعرف فيها ببعض الآثار الفكرية والادبية التي ظهرت اخيرا فى البلاد الاجنبية والتي كان لها صدى وتأثيرا . ولربما اعتقد بعض القراء الافاضل انني اتناقض مع نفسي حينما اقوم بهذا العمل اذ سبق لي فى مقالات واحاديث سابقة ان انتقدت التهافت العشوائي على الآداب الاجنبية ودعوت للرجوع الى مجتمعنا بما له وما عليه لاتخاذه كمصدر للاستيحاء وكمخاطب رئيسي يجري معه الحوار باستمرار . ولهذا فاني لا اترك الفرصة تمر دون أن أصحح مثل هذا التاويل الخاطىء للنظرية التي أتبناها وأدافع عنها .

فمن البديهي الذي لا يقبل اي مناقشة اننا فى المرحلة التاريخية التي نمر منها – وهنا اتحدث عن العالم العربي ، بصفة عامة ، لا عن المغرب وحده – نحن فى امس الحاجة الى الثقافة الاجنبية ، بسائر فروعها والوانها حتى نستفيد منها فى حياتنا العملية وحتى نرتفع بمستوانا العلمي والفكري وبذوقنا الفني . الا ان هذا المبدا العام يتطلب منا ان نحسن تطبيقه على الوجه المناسب ، تفاديا لكل شطط وانحراف . فلا ينبغي ، مثلا ، ان نشطب على ثقافتنا القديمة والحديثة بجرة قلم ونندفع الى الكرع من مناهل الغير كصغار اليتامى الذين يبحث لهم عن مرضعات اجنبيات . كما انه ، فى المقابل ، لا ينبغي ان نسلك سلوك الانطواء ، فنسد حولنا كل النوافذ ونتخوف من كل اتصال ونرفض الحوار الفكري والادبي مع ابناء اللغات والثقافات الاخرى .

هنالك ، فى الحياة الثقافية لكل مجتمع ، مستويان : مستوى الاطلاع ومستوى الانتاج . ففيما يتعلق بالمستوى الاول ، لا نحتاج الى التاكيد اننا فى حاجة دائمة وملحة الى المزيد من المعرفة والاطلاع دون اى حدود او سدود . نحن فى حاجة الى مسايرة ما يجري عند الامم الاخرى من انتاج وتطور فى ميادين العلم والفلسفة والادب ، حتى لا ننسلخ عن عصرنا ونمثل نوعا من الانسانية الاثرية التي يبحث عنها بين الحفريات والاطلال .

فاذا عدنا الان ، الى مستوى الانتاج والخلق ، نجد هنا مقتضيات أخرى تملي علينا شروطا محددة واضحة . واول هذه الشروط هي أن نتحرر من النماذج الاجنبية بعد ان تكون فهمناها وهضمناها هضما صحيحا لنبتكر لانفسنا نماذج أصيلة تعبر عن مجتمعنا وتتكيف مع بيئتنا وتنسجم مع تجربتنا الثقافية . ولا يعني هذا اننا نرفض التاثير الاجنبي او التقليدي الذكي ، ولكن اننا نرفض تلك المحاولات الفجة النيئة ، التي هي اشبه ما تكون ببعض عمليات الانسال الطبية التي لا يقدر لها النجاح لان الجسم العليل يتقزز من العضو الدخيل . وثاني هذه الشروط أننا ينبغي أن نراعي فى انتاجنا الفني ، من شعر ورواية وقصة وتمثيلية الخ ... مخاطبنا

الطبيعي الذي هو مجتمعنا الذي نعيش فيه والـذي ينبغي أن يكون هو المقياس الاساسي بالنسبة الينا . واليوم الذي نعرف فيـه كيف نكتـب لمجتمعنـا ، محققين معه احسن تجاوب ، آنذاك سنكون فى نفس الوقت ننتج أدبا عالميا . فالادب العالمـي ليس هـو الادب المنسلخ عن الزمان والمكان الـذي لا لون ولا طعم له . بل هو ادب له ارضيته وله مشخصاته وله نكهته الخاصة به ، كما نرى فى مثـال سيرفنتنـس وشكسبير وبنزاك ودوستويفسكي وهمينجواى .

أعود الان الى مستوى الاطـلاع الذي تحدثت عنه فى الاول لأقول ان المقالات التي اقدمها فى هذه السلسلة تدخل فى نطاقـه اي فى نطـاق التوعيـة الثقافية الهادفة الى رفع المستوى الفكري . وهـذا هو الداعي الى اختيار عنوان « نوافذ » لهذا البرنامج فهو بالفعل نوافذ متعددة ومختلفة تنفتح على مناظـر متعددة ومختلفة ، نوافذ قمينة بتوسيع افقنا الفكري وتهوية أذهاننا بنسمات جديدة ، نوافذ تخرجنا مـن رتابة التكرار الممل وتعرفنا بما عند الغير عـن طريف ومفيـــد .

وقد ارتأيت أن اخصص المقالات الاولى لبعض الكتب او الدراسات التـي قام بها مؤخـرا مؤلفـون اجانب عن العرب وحضارتهم حتـى نرى كيف ينظـر الينا الغير . فهنالك مؤلفون لم ينصفونا فانساقوا مع دوافع تقليدية من التعصب ، فوجهوا الينـا انتقادات تنطوي على كثير من التحامل والتجاهل . وهنالـك مؤلفون اغرموا بحضارتنا ولون معيشتنـا ، فراحـوا يثنون فى كتبهم ثناء لا حصر له ، وكلت ابصارهم عن رؤية المعايب . مما ينشأ عنه نوع من الغرور والعجب الزائف الذي لا يرتاح له الضمير الحي . وهنالـك فريق ثالث من هؤلاء المؤلفين الاجانب الذين تمشوا فى كتاباتهم وابحاثهم على مقاييس علمية ، فاجتهدوا باخلاص بين ، واجتنبوا العاطفة والهوى .

كل هذا يجب أن نعرفه ونطلع عليه لان الانسان لا يمكن فى الحياة ان يكتفي بنظرته لنفسه ، بل هـو محتاج كذلك الى معرفة راى الغير عنه ، مهما كـان ذلك الراى منحرفا عن جادة الصواب .

ويجب أن اشير هنا الى كون العالم العربي بدا يثير اهتمام الباحثين أكثر من اي وقـت مضـى . يشهد على ذلك التآليف الكثيرة والمتنوعة فى هـذا الموضوع التي بدات تحتل مكانا مرموقا فى المكتبة العالمية . كما يشهد عليه كثرة الباحثيـن مـن كـل الاجناس الذين يتوافدون على الاقطار العربية للقيام بدراسات مختلفة المواضيع . واذا اقتصرت على مثال المغرب الذي أعرفه اكثر من غيره ، فاني استطيع ان أؤكد أن بلادنا استقبلت فى السنوات الاخيرة عشرات الباحثين منهم الفرنسيون والاميريكيـون والانجليـز والمجر والالمان والسويديون والطليان وغيرهم الذين جاءوا ليبحثوا فى مواضيع منها مايتصل بالتاريـخ ومنها ما يتصل بشؤون الحاضـر ومنهـا ما يتعلـق بالادب أو بالاقتصاد أو بالسياسة او الجغرافية الخ . .

وقد شعر المستشرقون بهذه الاهمية التي مـا فتىء العالم العربي يدركها بتزايد مطرد فى دنيا القرن العشرين ، فقرروا أن يصدروا طبعة جديدة لدائـرة المعارف الاسلامية . وقد بدات تظهر منذ سنـوات فصول من هذه الطبعة الثانية وتبين لكل من تصفحها أن هنالك تقدما ملحوظا فى معرفة العرب والاسلام ، واهتماما متزايدا بشؤون الوقت الحاضـر بصـورة خاصة . ولا انسى ان اذكر هنا بالمناسبة المجهودات التي بذلتها منظمة اليونيسكو الدولية لنفس الغاية . ومجهودها فى هذا السبيل ، مهما كانت اهميته ، لا يمكن ان يعد الا بداية لعمل ضخم .

هذا الالتفات القوي الذي يحظـى به العالـم العربي فى عصرنا الحاضر ليس من قبيل الصـدف او العبث . بل له اسبابه وعلله الواضحة التي ليـس هذا محل ذكرها . ومهما يكن ، فينبغي أن نكون نحن واعين بهذا الاهتمام المتزايد عند الاجنبي بشؤوننا ، متتبعين لما يصدر عنه من تآليف ودراسات فى هذا الصدد ، حريصين على ان نناقشه فى نظرياته وآرائه موضوعية وتجرد ، ما دام هدفنا هو الحقيقة ، قبل كل شيء ، سواء كانت لنا أم علينا .

وقد اخترت لمقال اليوم كتابا من هذا النـوع اتخذته كفاتحة لهذه السلسلـة ، نظـرا لشـرف موضوعه وهو كتاب « لغـة وأدب عربيـان » للاستاذ « شارل بيلا » .

فالموضوع ، كما نرى ، يمس بانفس ما تعتـز به ثقافتنا القومية وهما اللغة والادب ، وأما المؤلف

فهو من المستشرقين المعروفين فى العالم العربي، بصورة عامة . وهو استاذ بالسوربون تعلم عليه كثير من اساتذة العربية بالمغرب الكبير . وقد اشرف على عدد من ابحاثهم ورسالاتهم لنيل الدكتوراه وغيرها . اما شهرته العلمية ، فقد تركزت بالخصوص على الرسالة القيمة التي نال بها الدكتوراه والتي كان موضوعها « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ » .

وهذا الكتاب الجديد الذي اصدره فى هذه الايام ينال قيمة خاصة ، من عدة وجوه :

1) انه صدر فى سلسلة مشهورة فى العالم وهي سلسلة الناشر المعروف « ارمان كفولان » التي لا تخلو خزانة منها والتي يقع عليها اقبال من جمهور القراء ، نظرا لجديتها ولقيمة المؤلفين الذين يساهمون فيها . ومن البديهي ان مثل هذه السلسلة ذات الشهرة الشعبية ستعمل كثيرا ، بفضل هذا الكتاب، على التعريف بأدبنا .

2) ان المؤلف له نظريته الخاصة فى معالجة تاريخ الادب واللغة العربيين التي تجعل من كتابه لا تكرارا لما هو متداول ومعروف ، بل مساهمة علمية فيها جدة وطرافة .

3) المؤلف يظهر اهتماما خاصا بالتطورات التي طرات على اللغة العربية منذ عصر الجاهلية الى الان ، مبرزا بذلك عنصرا اساسيا طالما تغافلت عنه كتب التاريخ الادبي واهملته بالكلية . ويعد الاستاذ من الذين لهم اختصاص فى الموضوع . فمنذ عدة سنوات ، اصدر مجموعة من النصوص المنقولة عن الجرائد والمجلات للتعريف بلغة الصحافة ، وبالتالي ، بالتقدم الذي حققته اللغة العربية كلغة من لغات القرن العشرين .

4) ان هذا الكتاب مفيد كذلك بالنسبة لطائفة من المثقفين العرب الذين يحلو لهم ان يدفنوا تراثنا الادبي ويهيلوا عليه التراب ، نتيجة للجهل أو انسياقا مع الهوى والعاطفة ، او حبا فى الاغراب والتمسك بالنظريات الشاذة . فهذا الكتاب الذي هو بقلم مؤلف أجنبي لا تربطه بالموضوع الذي يعالجه الا عاطفة العلم ، من شأنه أن يصحح كثيرا من الآراء المنحرفة وان يدفع المتسرعين فى احكامهم الى شيء من التثبت ومراجعة الضمير .

اذا نظرنا الان الى محتوى الكتاب ، فاننا نجده عبارة عن نظرة مجملة عن الادب العربي فى مختلف عصوره ، الا ان المؤلف اتبع طريقة خاصة فى عمله راعى فيها ، كما يقول فى المقدمة « ان يعرف بصفات اللغة العربية وتطورها وان يقدم لوحة مجملة عن الادب باعطاء الاهمية الاولى للآثار قبل المؤلفين » ثم يقول بعد ذلك : « هذا ما قصدنا اليه فى هذا الكتاب الصغير الذي حرصنا فيه على التعريف بتطور اساليب التعبير والانواع الادبية ، مختصرين الى اقصى حد الفقرات المتعلقة بتراجم الرجال ، ومتجنبين ان يصبح عملنا مجرد قائمة من القوائم » .

لننظر الان الى بعض الاستنتاجات التي توصل اليها المؤلف . فهو حينما يتحدث عن اللغة العربية وتطورها يفسر هكذا الانتشار الذي عرفته والمكانة الكبيرة التي احتلتها بين اللغة الثقافية . اذ يقول :

« بفضل الانتشار العظيم الذي عرفه الاسلام ، ادركت اللغة العربية مقاما دوليا واصبحت تتمتع باشعاع كبير كلغة دينية ، أولا ، وكلغة حضارة ، ثانيا . وهذه السيطرة التي ادركتها فى العالم الاسلامي جعلت الآداب المحلية المكتوبة بلغة قومية تتوقف لعدة قرون وبوأها سلطة كاملة فيما يخص الميدان العلمي .

ومن البديهي أن لهجات الاعراب التي سجلها اللغويون بأمانة لم تدرك هاته المكانة العالمية التي نعرف لها الا لكونها خضعت ، خلال القرون ، لتطورات اقتضتها الظروف التاريخية والحاجات الجديدة للامة الاسلامية » .

ويذكر المؤلف الاطوار الرئيسية الاربعة التي مرت منها اللغة منذ الجاهلية الى الان : طور اول اقتصر فيه اللغويون على جمع مفردات القرآن والشعر الجاهلي ، طور ثان ، انضافت فيه مصطلحات علمية منحوتة من العربية نفسها او الفاظ مستعارة من لغات اخرى ، وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية للدلالة على بعض المفاهيم الحضارية والعلمية . طور ثالث ، يقترن مع عهد الانحطاط ، حيث ادى سقوط الدولة العباسية فى القرن الثالث عشر الى اختفاء العرب من المسرح السياسي وحلول الاتراك والمغول والفارسيين محلهم . ونتج عن ذلك ان تسرب عدد

من الالفاظ التركية والفارسية الى العربية الفصحى نفسها ، التي ظلت ، رغم كل شيء ، هي لغة العلم . طور رابع ينطلق مع عهد الانبعاث في القرن التاسع عشر ، وفيه انكب العرب ، من جديد ، على انعاش لغتهم واصلاحها حتى تصبح مستجيبة لمتطلبات العصر . ويختم المؤلف هذه النظرة باستنتاج متفائل ، اذ يقول :

« ان اللغة العربية اذا ما تبسطت عن طريق الانتقاء الطبيعي الذي لا ينبغي عرقلته ، واذا ما استقرت مدلولاتها بواسطة الاستعمال وانتشرت عن طريق الادب والمسرح والسينما وبالخصوص عن طريق الصحافة والراديو يمكن ان تصبح لغة التخاطب العادي في البلاد العربية ، شريطة ان يقع توسيع التعليم وان يتم رقي المراة » .

هذا راي صادر عن اجنبي في موضوع اللغة العربية لا يترك مجالا للشك في قيمة هذه اللغة والامل الذي يمكن ان يعقد عليها في المستقبل كلغة علم وحضارة وكلغة مجتمع متقدم . وفي هذا الجواب المسكت لمن يتصرفون عن اللغة العربية بدعوى انها متخلفة عن الركب وانها قاصرة عن الوفاء بحاجة العصر . وجدير بالموعظة والاعتبار ان تتلقى هذا الراى لا عن عربي يندفع مع غليان العاطفة ، ولكن عن اجنبي يكتب ، قبل كل شيء ، للاجانب ، مستندا على براهين وحجج ، لان هدفه يبقى هو ان يقول الحقيقة المجردة كما تتراءى له ، من خلال سنين عديدة من الممارسة والتجربة في حياة الجامعة .

ومع ذلك ، فهو لا يهمل الحديث عن اللغة الدارجة ويخصص لها فصلا في كتابه ، متحدثا عن نشأتها وتفرعها الى لهجات مختلفة حسب الاقطار والى ما تولد فيها من آداب شعبية .

ويثير بالمناسبة بعض المشاكل الجديرة بالاعتبار بسبب السيطرة الكاملة التي تحتفظ بها الفصحى ازاء الدارجة في ميدان التاليف والادب الرصين . ومن جملة هذه المشاكل ما يعترض كتاب المسرحية والرواية عند اختيار اللغة الصالحة لمحاوراتهم .

ويخصص فصولا اخرى في كتابه للادب والاطوار التي مر منها ، مشيرا على الاخص الى الاثار والمؤلفين الذين يستحقون كل اعتبار . فهو عندما يتحدث عن ابن حزم ، مثلا ، يقول :

« ان ابن حزم الذي هو ، في نفس الوقت ، شاعر واديب ، ومترجم ومؤرخ وفقيه ومتكلم ومفسر ومنطقي وفيلسوف وعالم نفساني ، وكاتب سياسي وصاحب جدل ، هو ، من دون شك احد رجال الادب الاسباني الذين يمتازون بسمو الفكر وغزارة الانتاج» .
ثم يتحدث عن آثاره ويقف وقفة عند كتاب « طوق الحمامة » الذي بسط فيه المؤلف نظرية مجددة عن الحب العذري او الافلاطوني . ويبين كيف ان هذه النظرية كانت لها انعكاسات مختلفة بالشعر الاندلسي» ثم انتقلت الى شعراء اوربا في العصر الوسيط حيث ظهر مفعولها في عدد من آثارهم .

وعندما يتحدث عن الجاحظ الذي اولع به المؤلف ولعا خاصا اذ يجعله محور الرسالة التي نال بها الدكتوراه ، نراه يشير الى بعض الجوانب الخاصة في شخصيته . فالاسلوب المرح الممتع الذي يستعمله الجاحظ في كتابته هو ، في رايه ، طريقة لاجتذاب القارىء حتى يبث فيه بعض الافكار التي يؤمن بها . فهي ، اذن ، نوع من وسائل الدعاية ويوضح المؤلف فكرته قائلا :

« يظهر ان اهدافه هي في اساسها دينية وسياسية . فهو معتزلي مقتنع بمذهبه ، ولكنه غير متعصب . ويريد ، في النهاية ، ان يهدم العقائد الفاسدة ليضع محلها المبادىء الرئيسية للعقيدة التي يدعو اليها ، اي مبادىء خلق القرآن والعدول الالاهي ونفي التشبيه ... وفي الميدان السياسي، يظهر عداء صريحا للشعوبية، القائلين بتفوق العجم على العرب ، ويظهر مهارة فائقة في تاليف عدد من الكتب يبسط فيها نظريته . فالبيان والتبيين الذي هو في الظاهر ديوان لكلام العرب ، هو ، في حقيقة الامر محاولة من الجاحظ يهدف منها الى ابراز مزايا العرب في الادب ، في كتاب مخصص للنقد البناء » .

من هذين المثالين ، يتبين ان الكتاب يحتوي على آراء دقيقة ومفيدة ، رغم صغر حجمه وميله الى الاختصار . نعم ، هنالك ملاحظة لا بد لنا من ابدائها وهي ان المؤلف يظهر في بعض الفقرات انه لا زال متشبثا نوعا ما بنظرية « رونان » عن الجنس السامي

والعرب . فهو يعتقد ان العــرب غيــر قادريــن على الابتكار وان كثيرا من كبار شعرائهم وكتابهم هــم من اصل اعجمي . وهو راي يمثل احدى رواسب المذاهب العنصرية التي نشات في القرن التاسع عشــر ، ولا ندري كيف ظلت عالقة بفكر استاذ جامعي في هــذا النصف الاخير من القرن العشرين .

ومع ذلك ، فانه يظهــر ، في النهايــة ، الى الرجوع للحقيقة ومناقضة نفســه بنفســه اذ نجــده يقول في الفقرة الاخيرة من الكتاب :

« لقد تكون الان ضمير قومي لــدى العــرب ، مبني على الاعتزاز بالنفس . ومن الممكن أن يوحــد تحت شعار العروبة شعوبا مختلفة ، واذا ما حلــت المشــاكل المستعصيــة ، ان يســاعــد على نمــو ادب يحتفظ بأصالته ويستغني عن الاستيحاء من الخارج ويحتل مكانه الى جانب الآداب الكبرى للانسانية » .

فسؤالنا للمؤلف اذن ، هو : هل يمكن ان يتحقق هذا التنبؤ الذي يعبر عنه ، اذا لم توجد عند العرب مقدرة على الابتكار والابداع ؟ والاصالة في حد ذاتها اليست هي انعكاس لوجود عبقرية خلاقة ؟

لكن هذه الملاحظة ، على خطورتها ، لا تجــرد الكتاب من المتعة والفائدة ولا تعوقــه عن ان يكــون شهادة ايجابية لصالح اللغة العربية وآدابها .

ســلا : محمد ازنيبر





مادة الحرف – الحاء – والراء – والفاء – ترمي في دلالتها الى اصول ثلاثة :

1) حد الشيء . 2) العدل والميل . 3) تقدير الشـــيء .

فالاول الحد – ذلك ان حرف كل شيء حـده كالسيف وغيره – ومنه الحرف بمعنى الوجه تقول :

هو من امره على حرف واحد . اي طريقة واحـدة ، يقول الله تعالى : «ومن الناس من يعبد الله على حرف» الاية 11 من سورة الحـج اي على وجـه واحــد . فالشخص يجب عليه طاعة ربه فى السراء والضراء فاذا اطاعه عند السـراء . وعصاه عند الضراء فقــد عبده على حرف واحد . قال سبحانه : « فان اصابه خير اطمان به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه » . ومن هذا حرف القراءة التي تقرا على اوجه بيــد ان هذ المعنى قليل فى كلام القرآن – يقال : قرا فلان على حرف حمزة او نافع اي على وجهــه ، جـاء عن الرسول صلوات الله عليه انه قال : انزل القرءان على سبعة احرف وقد ذهبت الآراء فى توضيح الاحـرف السبعة الى نحو 40 قولا منها كما لابى عبيد وثعلب والزهري وآخرين انها سبع لغـات من لغات العـرب كقريش ، وهذيل ، واهل اليمن ، وهوازن وما اشبهها وتعقب هذا بأن لغات العرب أكثر من سبعة – لكـن اجيب بأن المراد افصحها .

ومن هذا القبيل – يقال للناقة حرف قيل هي الضامر شبهت فى هزالها بحرف السيف وقيــل الضخمة تشبيها لها بحرف الجبل يقول كعب بن زهير :

حرف اخوها ابوها من مهجنــة
وعمها خالها جــرداء شمليـــل

الثاني : الانحراف عن الشيء – يقال انحرف عنه ينحرف انحرافا وحرفته انا عنه – اي عدلت به عنه – لذلك يقال : محــارف ، وذلــك اذا حــورف كسبه فميل به عنه – كتحريف الكلام – وهو عدلــه عن جهته قال الله تعالى : « يحرفـون الكلـــم عــن مواضعـه » الآية 46 من سـورة النسـاء و 13 فى المائدة ، و 41 فيها ايضا . والتحريـف فى القرآن والكلمة – تغيير الحرف ، وقلـم محرف عـدل بأحد حرفيه عن الآخر ، قال الشاعر :

تخال اذنيه اذا تحرفــا
خافيــة او قلمــا محرفـــا

الثالث : التقدير – ومنه المحراف والمسبـار وهو – عبارة عن حديدة تقدر بها الجراحات عنــد العلاج ، يقول الشاعر القطامي :

اذا الطبيب بمحرافيه عالجهـــا
زادت على النقر(1)او تحريكها ضجما

ومقياس الجراحات وتقديرها شيء معلوم فى الطب الاسلامي حيث أن مقاديرها وأغوارها تختلف .

---

1) وجاء بالفاء – النفر اي الورم او خروج الدم – والضجم محركة – عوج فى الفم والشدق والعنق .

فهناك : الموضحة التي اوضحت عظم الراس والجبهة والخدين وان كابرة والحارصة وهي التي شقت الجلد، والسمحاق ـ الجراحة التي كشطت الجلد ، والباضعة التي شقت اللحم ، والمتلاحمة ـ غاصت فيه وسواها من الجراحات التي تعرض لها فقهاؤنا في ابواب الدماء وعلى راسهم خليل ـ ذلك لمعرفة الديات الواجب اداؤها على الجاني حسب تقدير الطبيب بمحرافه وعلى ضوء تلك الجراحات مخوفة او سهلة يقدر ارش الجراحة وديتها .

ومن بين هذه الاسطر الموجزة نرى الى اي حد بلغت دقة الاسلام في المقاييس الطبية وتحديد دياتها تشريعا يحفز الجناة الى الاحجام عن اقتراف ما يمس بكرامة الانسان وحرمته (ولكم في القصاص حياة) .

ومن هذا الباب حرف فلان لعياله يحرف كسب ـ والحرفة الصنعة التي يتعاطاها الشخص رغبة في كسب قوته وقوت اهاله ـ وهي بطبعها تستدعي من المحترف جهدا وقوة ـ جاء في التوراة « يا ابن آدم وخبزا تاكل من عرق جبينك » ويقولون: المنساق بالتعب خير من المنساق بلا تعب اذ يجد الانسان له لذة ـ كالرياضي الذي يتعب في مشكلة من المشاكل فاذا ما ظفر بحلها ارتاح ونشط لنجاح مجهوده . ومن فقهاء اللغة من يجعل الفاء في ـ حرف ـ مبدلة من ثاء مثلثة فيكون من حرث أي كسب وجمع . ومنه اي من الباب :
حرف عينه ـ كحلها انشد ابن الاعرابي :

بزرقاوين لم تحرف ولما
يصبها عائر بشفير ماق

اراد لم يحرفا فأقام الواحد مقام الاثنين . وهو أسلوب مطروق عند العرب له نكتته البلاغية .

والاكتحال من سنن الاسلام قال ابن العربي : الكحل يشتمل على منفعتين احداهما ـ الزينة فاذا استعمل بنيتها يكون مستثنى من التصنع المنهى عنه ـ والثانية التطيب فاذا استعمل بنيته قوى البصر وانبت الشعر ـ وكحل الزينة لا حد له شرعا وانما هو بقدر الحاجة ، واما كحل المنفعة فقد وقته الشرع ـ فجعله كل ليلة ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : اكتحلوا بالاثمد فانه يجلو البصر وينبت الشعر ـ وكم رأينا من شيوخ وأساتيذ كانوا يكتحلون خاصة إيام الجمع،

وغالب اكتحالهم للزينة اقتداء بالرسول الاكرم عليه السلام ـ والمخاطب بقوله اكتحلوا ـ هم الاصحاء ـ اما العين المريضة فقد يضرها الاثمد وهو عبارة عن حجر معدني معروف يكتحل به ، ومعدنه بالمشرق يوجد كثيرا بمعادن اصفهان وهو اسود يضرب الى حمرة ، وكثير من الناس يجلبونه من الشرق خاصة حجاج بيت الله الحرام ويقدمونه فيما يقدمون من هدايا الى الاقرباء والاصدقاء .

ومن العجيب الغريب حجر تدمى به ارجل ، وآخر يحتضن ويوضع في الاعين ـ فما كان اشبهه بالانسان في خلقه وسلوكه ـ خشونة في الطبع وليونة فيه ـ يقول الاديب الاخلاقي :

الناس كالارض ومنها هم
فمن خشن الطبع ومن لين

فجندل تدمى به ارجل
واثمد يجعل في الاعين

وقد تستغني العيون عن الكحل ـ بكحلها الطبيعي ـ وهو ان يعلو بنابت الاشفار سواد خلقة ـ قالو : ليس التكحل كالكحل . يقول محمد بن سعيد البوصيري المديح في الدالية :

قل للذين تكلفوا زي التقى
وتخيروا للدرس الف مجلد

لا تحسبو كحل العيون بحيلة
ان المها ، لم تكتحل بالاثمد

الحـــــرف :

عبارة عن صوت له مقطع من الفم ـ حيث يتكون اللفظ منه ومن اجناسه الهجائية ـ ففي اللفظ تقطيع الصوت ببعض الحروف كتقطيع اللحم ـ ذلك ان الهواء الخارج من داخل الانسان ـ ان خرج منه بدفع الطبع يسمى نفسا ، وان خرج بالارادة وعرض له تموج بتصادم جسمين سمى صوتا ، وان عرض للصوت كيفيات مخصوصة لاسباب معلومة سمى حرفا .

وهو من خصائص الانسان أصالة ـ فغير الانسان قد يتوفر صوته على بعض الحروف ـ كالببغاء وبعض الغربان ولكن على سبيل العروض لا الاصالة .

وعددها في المشهور ـ تسعة وعشرون حرفا باتفاق علماء البصرة الا ابا العباس المبرد وبعض

اللغويين فجعلوها ــ ثمانية وعشرين حرفا باسقاط الهمزة ــ لانها عنده وعند من ذهب مذهبه ليست حرفا بل شكلا كالضمة .

واذكر هنا قصة الحكيم ابى العلاء شاعر المعرة مع الفلام ــ والشيء بالشيء يذكر كما يقول الادباء ــ (ذكرت ريق حبيب بذكر شوب تمطر) .

لقيه الفلام فى الطريق فسلم عليه وقبض على يده طارحا السؤال التالي . ايها الشيخ الحكيم ــ انت القائل فى لاميتك :

واني وان كنت الاخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الاوائل

اجابه نعم . قال الفلام : ان الاوائل ــ وضعوا تسعة وعشرين حرفا ــ فهل لك أن تزيد عليها حرفا يتوقف عليه اللفظ العربي ــ أو تنقص منها حرفا تستغنى عنه اللغة العربية ــ اجابه فى توتر قائلا له : اذهب فانك لا تعيش . وفعلا قضى الفلام بعد ايام ــ وتلك آفة من آفات الذكاء اذا ما جاوز الحد الوسط ان يصاب صاحبه عياذا بالله تعالى . (والشيء اذا زاد على حده رجع الى ضده) والحرف ــ مخرج معين كعبارة عن حيز مولد له او موضع ظهوره وتمييزه عن غيره ــ فهو بهذا المفهوم مقطع محقق يعتمد على جزء معين من أجزاء الحلق واللسان والشفة او مقطع مقدر ــ كهواء الفم ــ فهذا الالف نجده لا معتمد له فى شيء من اجزاء الفم بحيث ينقطع فى ذلك الجزء وهذا ما نحسه عند النطق به كما . لهذا يقول علماء العربية واللغة فيه ــ انه لا أصل له ولا ذاتية يقف مستقلا بها كبقية الحروف ــ

فالف ما ان تراه اصلا
بل زائدا ، او مبدلا كيطلى

كما انه لا يوصف لا بترقيق ولا بتفخيم بل يجري مجرى ما يتقدمه ترقيقا وتفخيما ، والمخرج المتحدث عنه ــ يرجع الى نوعين ــ حقيقي وتقديري ــ

فالحقيقي تسعة وعشرون مخرجا بعدد حروف المعجم أو الحروف الهجائية ان شئت ــ فيكون لكل حرف مخرج خاص به . والتقديري ستة عشر مخرجا كما لابن الحاجب فى شافيته موزعة على الحلق ، واللسان ، والشفة . توزيعا قارا يؤيده العمل والاحساس .

وهناك قاعدة جامعة تذلل كل صعوبة قد تعترض الناطق بالحرف فتصرفه عن معرفة مكانه بالضبط ــ تلك : ان ياتي بالحرف فيسكنه ثم يدخل عليه همزة الوصل مكسورة وينطق به مثلا الباء سكنها وصل بها همزة الوصل : اب . وهكذا مع بقية حروف المعجم .

والمخارج فى مرماها ــ كثقب الفيطة والمزمار كل ثقبة منها تعطي نغمة غير ما تعطيه ثقبة اخرى من النغم ــ وكنقرات أوتار العود الموسيقي كل جسة ونقرة فى وتر من اوتاره تبرز من النغم غير ما يخرج من نقرة الوتر الآخر ، فمخارج الحروف بقطع النظر عما لها من قيمة فى تجويد الكتاب المبين لها فى العلوم العربية مكانتها ــ كعلم البيان فى الفصاحة وعلم الصرف خاصة ابواب الادغام .

لذا كان علم التجويد جزءا من علم الاصوات وفرعا من فروع فقه اللغة ــ تجب العناية به حتى فى مطلق الحديث حيث تبدو صولة اللغة العربية ، وتتجلى للاسماع فى صور قواها الحرفية وضخامة مخارجها . وبالطبع يعظم المتكلم والخطيب فى عين سامعيه ، ونتيجة لذلك يتأثر السامعون بقوله لا محالة ، وتأييدا لهذا الراي ــ ما دار بين ابى العباس احمد المارغني التونسي رحمه الله وبين طائفة من علماء القطر ــ من مسائل فى القراءات والنحو واللغة ــ واثناء المذاكرة قال احدهم للمارغني مازحا او متهكما : ايها الشيخ اكانت العرب تقول : ان زيدا قائم ــ بغنة نون ان ، وتنوين زيدا ، ومد قائم آ اجاب ابو العباس قائلا ما اجهلك بلغة قومك . فقال له كيف ذلك آ وهل يخاطب مثلي بمثل هذا الكلام ؟ فقال له : هل قرات شرح الاشموني او اقراته ؟ قال : اتستهزىء بنا ؟ قال معاذ الله ، وانما اريد ايصالكم للجواب على سبيل التذكير او ارشادكم للصواب . قال : راجع الاشموني على الخلاصة تلف ما يشفي الغليل فيما سالتني عنه ــ فانه ذكر الغنة واحكام النون الساكنة والتنوين وضروبهما ولغاتها بما يقرب مما ذكره علماء القراآت . وايضا لولا ان الغنة مأثورة عن العرب ما ذكرها فقهاء اللغة والنحو والصرف ، وما وردت القراءة بها ، اذ كل ما قرىء موجود فى اللغة ولا عكس ، ولا سيما والقراء كلهم اخذوا بها اداء ، فهي من المتواتر قطعا ــ فكيف يستريب احد من المثقفين فى وجودها لغة وقياسا ، وهي لغة القرآن والحديث ولغة اهل الحجاز وفصحاء العرب ودهاقينهم ــ فقد اثر عنهم انهم كانوا يترنمون فى كلامهم بالغنة حينما يجتمعون فى أسواقهم كعكاظ وغيره .

وقد لا ينحصر صوت الناطق فى غنة النون ورنته بل يعم سائر (حروف المعجم) التسعة والعشرين ــ .

حروف المعجه : سميت بهذا الاسم لانها منقطة اعجمية اي انها لا تفهم حتى يضاف بعضها الى بعض وتعجم أي تنقط ، والنقط عندهم الشكل ـ وقد يقال لهذا النقط المعروف عندنا ، والشكل الضبط والحركات ـ واصله التقييد، تقول شكلت الكتاب شكلا أي قيدته وقبضته منه شكل الدابة والطائر الى آخر ما جاء ق الجزء الاول من كتاب ـ ألف با لابي الحجاج البلوي ـ ص 71 .

ثم « حروف المعجم » بصيغة المتضايفين وقع فيهما نقاش كبير لابن جني وغيره من علماء اللغة ـ وصوبوا ما درج عليه أبو العباس المبرد من ان المعجم مصدر بمنزلة الاعجام كما يقال: ادخله مدخلا واخرجه مخرجا أي ادخالا واخراجا ـ فكانهم قالوا : هذه حروف الاعجام .

فان قيل ان جميع هذه الحروف ليس معجما فكيف استجازوا تسمية جميع هذه الحروف ـ حروف المعجم ؟ الجواب عن ذلك ـ ان الشكل الواحد اذا اختلفت اصواته ، فأعجم بعضها وترك البعض الآخر ـ علم ان المتروك بغير اعجام هو غير الذي من شأنه ان يعجم (1) .

الاعجام والنقط :

كانت الحروف أول الامر دون نقط ولا شكل ـ فكان القارىء يعتمد فى قراءته على ذهنه ومعرفة السوابق واللواحق من فقر النصوص مهتديا بطريقة البساط الكلامي الى المفهوم المراد من المكتوب، واذا لم يتيسر هذا لكل تال وقارىء ـ فكر العرب فى ابداع طريقة تسهل على القراء ما يقراون ـ فابتكروا النقط والشكل وكان السابق للنقط رجل عرفناه واضع النحو ومخطط تقسيماته الاولى ـ هو ابو الاسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو من التابعين . وجاء فى صبح الاعشى ـ ان ابا الاسود ـ وضع الحركات والتنوين لا غير . ت : 69 هـ 688 م خاصة نقط حروف القرآن ـ فكان مصحف عثمان خاليا من النقط والشكل مما جعل القراء يختلفون اختلافا كبيرا فى بعض الحروف ـ ويجنحون بعد الحيرة والاضطراب ليستقل كل واحد بالنقط والشكل للنص على مقتضى معاني الآيات ، وعلى سبيل المثال ـ فيعلمه ـ يمكن ان يقراها الواحد ـ يعلمه ـ وآخر: نعلمه او تعلمه او يعلمه الى قريب من هذه القراءات المتعاورة على الكلمة الواحدة حسب تاويل القارىء وما يستطيع الوصول اليه من فهم ـ مما فسح المجال لكل قارىء فى اختيار النقط والشكل الذي يرتضيهما للحرف وكانوا يميزون بين النقط والشكل ـ فيضعون النقط باللون الاسود ، والشكل باللون الاحمر رفعا للالتباس الذي قد يحصل فيهما .

على ان نقط الحرف القرآني اولا قد وقع فيه اضطراب بين الصحابة والتابعين منهم من كره ذلك كراى منه فى ادخال شيء جديد على الكتاب المقدس ، ومنهم من اجازه وعليه الجمهور من المسلمين والمتهم تسهيلا على القارىء ورفعا للبس .

فالنقط كالاعجام مترادفان ـ ومجموع المنقوط من الحروف 15 غير ان حرفي الفاء والقاف وقع فى نقطهما نوع مخالفة فى خطى الشرق والغرب ـ ففي الشرق يضعون للفاء نقطة من فوق ـ وللقاف نقطتان من فوق كذلك ـ اما فى الخط المغربي فيضعون للفاء نقطة من أسفل ، وللقاف نقطة واحدة من أعلى وهذا ابين وأسهل ـ ابين فى الفرق نقطة من اسفل واخرى من فوق ـ واسهل اذ نقطة واحدة فوق القاف لا ثاني لها تشغل القلم باعثة الكاتب على الوضع اهون، والغريب من الكاتب المغربي كيف يتنكب السهولة فينقط القاف نقطتين كتقليد منه فى ذلك ـ مع ان التقليد منطقيا يتجلى فى اقتباس الاحسن والاسهل لا العكس الذي نراه اليوم يغزو الشباب فيميل على جمال خطه المغربي .

اما الحركات الموضوعة على الحرف من فتح وضم وكسر ـ فالفتح منها عبارة عن الف مبطوحة ـ ممتدة فوق الحرف ـ والضم عبارة عن واو صغير عليه ، والكسر عبارة عن ياء صغيرة من اسفل .

متى تثقل الحروف فى النطق :

يقول ابن دريد فى كتاب الجمهرة : اعلم ان الحروف اذا تقاربت مخارجها كانت اثقل على اللسان منها اذا تباعدت ، لانك اذا استعملت اللسان فى

1) وقد اطال الدكتور حسين نصار فى الجزء الاول من كتابه ـ المعجم العربي نشاته وتطوره ـ الحديث عن هذه الاضافة وما لائمة اللغة والعربية فيها .

حروف الحلق دون حروف الفم ، ودون حروف الذلاقة (1) كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة الا ترى انك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها ــ نحو قولهم (ام والله) هم والله وكما قالوا في اراق : هراق الماء ، ولوجدت الحاء في بعض الالسنة تتحول هاء كمدحه ومدهه .

واذا تباعدت الحروف حسن وجه التأليف .

هذا ولا يكاد يجيء في التركيب ثلاثة احرف من جنس واحد في كلمة واحدة لصعوبة ذلك على الالسنة ، واصعبها حروف الحلق .

فاما حرفان من جنس واحد فقد اجتمعا نحو اخ بلا فاصلة ، واجتمعا في مثل ــ احد واهل وعهد ، ونخع (2) غير ان من شأن العرب اذا ارادوا هذا ــ ان يبداوا بالاقوى من الحرفين ويؤخروا الالين كما قالوا: ورل (3) ووتد ، فبداوا بالتاء مع الدال ، وبالراء مع اللام ــ فذق التاء والدال ورددهما ، تجد التاء تنقطع بجرس قوى ، وتجد الدال تنقطع بجرس لين، وكذلك الراء تجدها هي الاخرى تنقطع بجرس قوى، وكذلك اللام تنقطع بغنة اي رنة لا الغنة المعهودة ــ ويدل لهذا ان اعتياص اللام على الالسنة اقل من اعتياص الراء ــ وذلك للين اللام .

ثم نجد كثيرا من كلم اللغة العربية يضاهي باجراس حروفه أصوات الافعال التي عبر بها عنها (4) الا تراهم قالوا : قضم في اليابس ، وخضم في الرطب ــ وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الاقوى للفعل الاقوى ، والصوت الاضعف للفعل الاضعف ، وكذلك قالوا : صر الجندب ــ فكرروا الراء لما هنالك من استطالة صوته ، وقالوا صرصر البازي فقطعوا لما هنالك من تقطيع صوته ، وسمو الغراب ــ عاق حكاية لصوته ، والبط بطا حكاية لاصواتها ، ومن هذا أيضا قولهم : « قط الشيء » اذا قطعه عرضا ــ « وقده » اذا قطعه طولا ــ ذلك ان منقطع الطاء اقصر مدة من منقطع الدال . كما قالوا : « مد الحبل » « ومت اليه بقرابة » فجعلوا الدال لانها مجهورة ــ لما فيه عمل وعلاج ، وجعلوا التاء لانها مهموسة لاما لا مزيد عمل فيه ولا علاج ، ويرمي الى هذا المعنى ما قالوا : « الخذاء » بالهمزة في ضعف النفس . والخذا غير مهموزة في استرخاء الاذن من اصلها على الخدين ــ يقول العرب في عينه : قذى ، وفي اذنه خذى ، وحل به كذا ، فلم تقذ له عينه ، ولم تخذ له اذنه .

ومعلوم ان الواو لا تبلغ قوة الهمزة فجعلوا الواو لضعفها ــ للعيب في الاذن ــ والهمزة لقوتها ــ للعيب في النفس ــ فعيب النفس افحش من عيب الاذن فانها الكل في الكل « اعمد الى النفس ــ فاستكمل فضائلها ، فانت بالنفس لا بالجسم انسان»

الفرق بين الهمس والجهر والحروف وصفاتها:

فالحروف المهموسة تجري مع النفس لضعفها ولضعف الاعتماد عليها عند الخروج ، فالهمس الصوت الخفي ومجموعها عشرة رمزوا لها قصد التقريب بقولهم : « سكت فحثه شخص » واستبان من هذا ان باقي الحروف مجهور ــ واتضح كذلك ان صفتي الهمس والجهر متضادتان .

الوقوف على الحرف وما ينشأ عنه :

الرباط : عبد الله الجراري

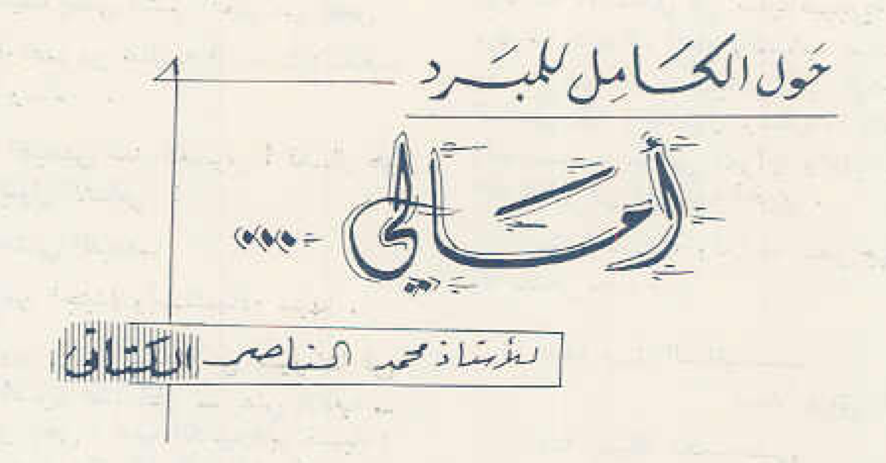
---

1) الحروف المذلقة ــ حروف طرف اللسان والشفة وهو اللام والراء والنون والباء والفاء والميم .

2) نخع بحقه اقر .

3) ورل ــ دابة كالضب أو العظيم من انواع الوزغ.

4) الضمير يعود لاجراس الحروف . وفي عنها للافعال .



... يقول ابن خلدون فى مقدمته : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم ، ان اصول هذا الفن ، يعني الادب ، واركانه اربعة دواوين ، وهي :

ادب الكاتب لابن قتيبة .

وكتاب البيان والتبيين للجاحظ .

وكتاب الامالي لابي علي القالي البغدادي .

وكتاب الكامل للمبرد ... هـ »

وقد انتهى الى المبرد علم العربية بعد طبقه الجرمي والمازني ، فقد كان المبرد حسن المحاضرة ، فصيحا ، بليغا ، مليح الاخبار ، كثير النوادر ، فيه طرافة ولباقة ...

وكتاب الكامل لا زال الى اليوم مصدرا أدبيا ، وموردا عذبا سائغا للادباء وعلماء اللغة والبيان ، ويدرس فى كليات الآداب بمختلف الجامعات العلمية ...

ويقوم بتدريس الكامل فى كلية الآداب بجامعة محمد الخامس الاستاذ محمد الناصر الكتاني ، وتمتاز أماليه بتعليقات والتفاتات وحواش تنم على اطلاع واسع ، ومقدرة كبيرة ...

وقد رجونا من اخونه ان يمدنا ببعض منها لادراجه فى اعداد مجلتنا . فتفضل سيادته مشكورا ..

ترجمة المبرد :

ابو العباس محمد بن يزيد الازدي البصري المبرد ، ولد بالبصرة سنة عشر ومائتين 210 ، كان اماما فى النحو واللغة والادب ، وكان كثير الامالي حسن النوادر حسن المحاضرة فصيحا بليغا ، وكان من العلم ، وغزارة الادب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الاشارة وفصاحة اللسان ، وبراعة البيان ، وملوكية المجالسة ، وكرم العشرة ، وبلاغة المكاتبة ، وحلاوة المخاطبة ، وجودة الخط ، وصحة القريحة ، وقرب الافهام وو ضوح الشرح ، وعذوبة المنطق على ما ليس عليه احد ممن تقدمه او تأخر عنه (1) ، وكان الى ذلك جميلا ولا سيما فى صباه ، ثقة فيما يرويه، فيه ظرافة ولباقة ، وكان لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها ، فاتفق بعض اخوانه على ان يسألوه عن مسألة لا اصل لها لينظر ما ذا يجيب ، وذكروا بيت الشاعر :

(1) القفطي فى انباه الرواة ج 3 ص 242 .

ابا منذر افنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر اهون من بعض

وتردد على افواههم من تقطيعه ق بعضنا، فذهب احدهم الى المبرد وساله :

ابدك الله ما القبعض عند العرب ؟ فقال هو القطن ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كأن سنامها حشي القبعضا

فعجب القوم من اجابته واستشهاده عليها .

قال ابن خلدون (1) : سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن — يعني الادب — واركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الامالي لابي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها .

وهو المبرد بكسر الراء غيره الكوفيون ففتحوا الـــراء .

ولا نعلم لكتاب الكامل شرحا مطبوعا سوى كتاب رغبة الآمل من كتاب الكامل لسيد بن علي المرصفي ، وهو شرح وجيز يعني في اغلب احيانه بشرح بعض كلماته اللغوية او العلمية او التاريخية ، فاذا ورد في الكامل بيت استشهد به المبرد ساق المرصفي ذلك الشعر مع القصيدة التي ورد فيها برمتها ثم تعقب كلماتها اللغوية فشرحها بيتا بيتا وهذا اهم ما في الشرح . وقد شرح الكامل من الاقدمين ابو اسحق البطليوسي ، وتوجد منه نسخة في المكتبة العامة بالرباط .

وكان المبرد ممسكا بخيلا يقول : ما وزنت شيئا بالدرهم الاورجح الدرهم في نفسي : هذا مع السعة التي كان فيها ، وكان ابوه ممن يكسح الارض بالبصرة وكان يقال له : حيال السورجي .

للمبرد من التصانيف الكامل وهو اشهر كتبه، والمقتضب في النحو وهو اكبر مصنفاته وانفسها ، قال ابو علي الفارسي : نظرتق المقتضب فما انتفعت منه بشيء الا بمسالة واحدة وهي وقوع : « اذا » جوابا للشرط في قوله تعالى : « وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون » . ومن تصانيفه : الروضة والمدخل في كتاب سيبويه ، ومعاني القرآن ويعرف بالكتاب التام وكتاب صفات الله تعالى وشرح شواهد سيبويه وكتاب قواعد الشعر وكتاب الفاضل (2) والمفضول وكتاب ما اتفقت (3) الفاظه واختلفت معانيه في القرآن وكتاب العبارة عن اسماء الله تعالى في تصانيف اخرى .

ومن شعره ، وكان له شعر جيد كثير لا يدعيه ولا يفتخر به .

حبذا ماء العناقيـــ
ــد بريق الغانيــات

بهما ينبت لحمـــي
ودمــي أي نبــات

ايها الطالب اشهـــى
من لذيذ الشهــوات

كل بماء المزن تفــا
ح خدود الفتيـــات

نزل بغداد وتوفي فيها سنة ست وثمانين ومائتين 286 ودفن في مقابر باب الكوفة في دار اشتريت له وصلى عليه ابو محمد يوسف بن يعقوب القاضـــي .

وكان ابن الجواليقي كثيرا ما ينشد :

وارى لكم ان تكتبوا انفاسه
ان كانت الانفاس مما يكتب

قيل انه لثعلب وقيل لابي بكر العلاف .

ترجم له ابن خلكان ، وياقوت في معجم الادباء، والقفطي في انباه الرواة ، وابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، والسيوطي في بغية الوعاة، وابو بكر الخطيب في تاريخ بغداد . وتنظر جريدة مراجعة في انباه الرواة ج 3 ص 241 .

— * —

قال المبرد :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للانصار : « انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع »

1) مقدمة ابن خلدون تحت عنوان علم الادب ص 553 ط مصطفى محمد .
2) طبعة دار الكتب المصرية .
3) طبع بالمطبعة السلفية بمصر .

وهو حديث اخرجه العسكري في الامثال عن انس رضي الله عنه قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين فتسامعت به المهاجرون والانصار ، فغدوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر حديثا طويلا فيه ، وقال للانصار انكم ما علمت ، تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع .

« كنز العمال » ج 7 ص 136 من كتاب « حياة الصحابة » للداعية الاسلامي الكبير محمد يوسف ج الاول ص 376 .

قال ابن العربي المعافري : اصح ما في الانصار حديث البراء بن عازب : لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق ، وحديث انس : لو سلك الناس واديا او شعبا لسلكت وادي الانصاري وشعبها ، اخبر انه لا يفارق صحبتهم ، ولا يزال دارتهم ، وانهم جماعته وموضع سره في قوله: الانصار كرشي وعيبتي، وان الناس سيكثرون ويقلون فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم زاد النسائي : قضوا ما عليهم ، وبقي الذي لهم ، وقوله : في كل دور الانصار خير . « عارضة الاحوذي ج 13 ص 266 » .

قال المبرد : « والفزع في كلام العرب على وجهين : الذعر والاستنجاد » .

وفسره الراغب بانه انقباض ونفار يعتري الانسان من الشيء المخيف ، وهو من جنس الجزع ولا يقال فزعت من الله كما يقال خفت منه وهذا لان الفزع فيه انتفاض وتطلع الى الانقاذ ، وشعور بالاعتداء من ذلك الشيء المخيف وهذا يستحيل ان يكون احساس العبد من الله ، والخوف فيه خشوع ورهبة وخضوع وذلة واستكانة ، وهذه صفات العبد بين يدي خالقه والقائم المهيمن عليه .

وفي لسان العرب مادة فزع :

الفزع الفرق والذعر من الشيء وهو في الاصل مصدر فزع منه وفزع فزعا ، وأفزعه وفزعه اخافه وروعة فهو فزع ، ومنه قول سلامة بن جندل :

كنا اذا ما أتانا صارخ فزع
كان الصراخ له قرع الظنابيب

قال المبرد : معناه : **اذا ما أتانا مستغيث كانت اغاثته الجد في نصرته** ا هـ

وقال الراغب : الصارخ الذي اصابه الفزع ، ومن فسره بأن معناه المستغيث فان ذلك تفسير للمقصود من الكلام لا لفظ الفزع .

قال الازهري : والعرب تجعل الفزع فرقا ، وتجعله اغاثة للمفزوع المروع ، وتجعله استغاثة .

وقرع الظنابيب كناية عن الاستعداد للقيام بنصر هذا الخائف قيام جد لا هوادة فيه ، والقرع الضرب، وقد سار هذا مثلا يضرب في هذا المعنى .

قال ابو الفضل احمد بن محمد المعروف بالميداني المتوفى سنة 518 في كتاب « مجمع الامثال » ج 2 ص 27 يقال قرع له ظنبوبه اذا جد فيه ولم يفتر اهـ

ويقال : قرع ظنابيب الامر اي سهله، والظنبوب حرف عظم الساق مقدمه .

قال المبرد : ويشتق من هذا المعنى اي الاستنجاد وطلب النجدة ، أن يقع فزع في معنى اغاث كما قال الكلحبة اليربوعي واسمه هبيرة بن عبد مناف والكلحبة امه :

فقلت لكاس الجميها فانما
حللت الكثيب من زرود لافزعا

اي لنغيث وننجد من استغاث بنا . وفسر الزبيدي في تاج العروس كلام المبرد هذا فقال : اصل الفزع الخوف ثم كني به عن خروج الناس بسرعة لدفع عدو ونحوه اذا جاءهم بغتة وصار حقيقة فيه ا هـ .

قال المبرد : وكاس اسم ابنة الكلحبة ، والكثيب هو من الرمل ما اجتمع واحدودب . وزرود اسم لرمال بطريق الحاج من الكوفة .

قال المبرد وهو يأمرها بالجام فرسه اي استعدادا للنجدة والغياث . ويقال فزعت اليه فافزعني اي لجأت اليه من الفزع فاغاثني وهو من الاضداد : افزعته اذا اغثته ، وافزعته اذا خوفته وكذلك الفزع : المغيث والمستغيث فهو من الاضداد كذلك ، والمفزع الشجاع والجبان فهو من الاضداد وكذلك قولهم للرجل انه لمغلب وهو غالب ومغلب وهو مغلوب ، وقد قرىء قول الله تعالى : « واصبح فؤاد ام موسى فارغا فازعا » اي قلقا يكاد يخرج من غلافه فينكشف وهي قراءة فضالة بن عبد الله والحسن وابي الهذيل كما في الشواذ لابن جني ا هـ من تاج العروس .

معنى الحديث الكريـم

والنبي صلى الله عليه وسلم يثني على الانصار بمكارم الاخلاق ، فهو ينوه بشجاعتهم ونصرتهم للضعيف ، وتكاثرهم عند النجدة باشرف تعبير يمكن ان يؤدي هذه المعاني السامية باقوى اسلوب واكرم اداء ، ويثني عليهم بالعفة وكرم النفس والعزوف عن دنيا الناس والترفع عن الحرص والطمع . والتعبير وتفنون عند الطمع اداء لمعنى عدم وجود الطامع الحريص فيهم فالقلة بمعنى عدم الوجود هنا ، وهذا اشرف واغلى اساوب تؤدى فيه هذه المعاني التي ترفع من شان الجماعة وتعلي مقدارها وتجعلها في الصف الاول قبلة للجماعات الانسانية التي تطلب الرشد ، وتسعى الى الكمال ، وترنو الى الملائكية في صفوف البشر .

والطمع نزوع النفس الى الشيء شهوة له ، من طمع فيه وبه طمعا حرص عليه ورجاه وتعلقت به نفسه ، ولما كان اكثره من جهة الهوى قيل الطمع طبع والطمع يدنس الاهاب ، ومن هنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلمن ان الطمع فقر ، وان الياس غنى .

ويقال على التعجب : طمع الرجل فلان اى صار كثير الطمع ، وخرجت المراة فلانة اذا كانت كثيرة الخروج ، وقضو القاضي فلان ...

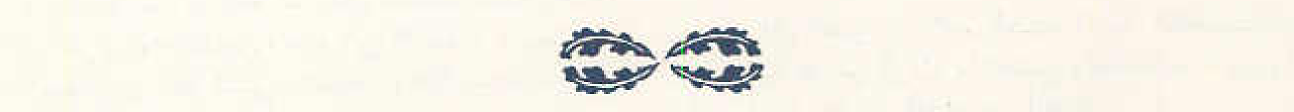
كذلك التعجب فى كل شيء ، لان صور التعجب ثلاث :

ما احسن فلانا ! اسمع به ، كبرت كلمة ، وقد شذ عنها نعم ، وبئس ..

وينبغي أن يكون الفعل الذي يتعجب منه مباشرة ثلاثيا تاما ، مثبتا مبنيا للمعلوم ، متصرفا ، ليس الوصف منه على افعل ، قابلا للتفاوت ..

— يتبع —

الرباط : ناصر الكتاني





من الناس من يعمل فى هذه الحياة امدا طويلا ثم لا يصل الى جزء مما يريد ، ومنهم من يقعد منتظرا يتأمل الزمن ويترقب الاحوال ويشاهد الايام دون ان يجهد او يسعى ثم تجده وقد نظر اليه الدهر بعين الرضا والتفتت اليه الدنيا كلها فاذا هو محظوظ مجدود ، واذا الدهر اطوع من بنانه واخدم من اهله وعبدانه ، ولو تصفحت هذه الحياة لرايت ان اهل الفنون هم احوج الناس الى انصاف الايام واقمنهم بملاحظة الزمن لهم والتفاته اليهم .

ولكن اكثرهم كما ترى قد حرم هذه النعمة فتنكب عنه الحظ وادار له الزمان ظهره عاتبا غاضبا ، وكثيرا ما تسمع بشاعر او رسام او موسيقي يقضي الحياة وهو يطعم الناس من فنه ويسقيهم من الهامه ثم تراه وهو محتاج الى كسرة خبز او شيء من الادام ، على حين تجد من لا يستحقون الطعام يحيون حياة الملوك ، ومن بين رجال الفنون انفسهم تجد بعضا قد اصابه الخير العميم وهو لا يستحق ذلك كله او نظرت الى عبقريته ، كما تجد عبقريا كبيرا الى جوار ذاك لا يشبع الخبز ولا يعيش الا تبلغا غير مكتف ولا راو ، ولو قلبت كتاب يتيمة الدهر للثعالبي لعجبت لهذا العدد الكبير من الشعراء وبينهم الفحل الذى لا يناله العيب والفنان الذى لا يأتيه النقد ، ثم تقرأ شعره لتراه غرقا بالشكوى مغمورا بالحزن والكدر لان الدهر لم ينصفه ولان الزمان قد جافاه فهو على حد قول حافظ :

اذا تصفحت ديواني لتقرأني
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

وهذا ابو العتاهية صاحبنا هذه المرة قد رزق من الشهرة ثوبا فضفاضا ونظر اليه الزمان نظرة الرضا والحب ، فاذا قرات شعره تعجبت كيف نالته الحظوظ وكيف اختارته نعمة العيش ولو كان الامر على قدر الشاعرية لكان ابو العتاهية من الذين يأتون فى المرحلة الثالثة او الرابعة ان كان هنالك تصنيف يعمل به ، فهو – فى رايي على الاقل – شاعر بسيط درويش – ان صح هذا التعبير – يقول شعره كما يقول غيره كلامه العادي ، بل لا يفترق عن الكلام العادي الا بانه موزون مقفى ، وهذا كل ما كان يملك على أبي العتاهية لبه ويجعله يفتخر على الناس ويدل ، فهو يقول ويكرر ويتبجح ذاكرا انه لو اراد جعل كلامه كله شعرا لفعل ، وانه سريع النظم طويل النفس ، وهذا كل ما كان يستطيع الادلال به ، والالتجاء اليه فى معرض الفخر .

ذكرت كتب الادب ان حديثا دار بين أبي العتاهية وابن مناذر فقال الاول للثاني : اني لو اردت ان اجعل كلامي شعرا لفعلت ، وانت انما تنظم فى العام قصيدة او قصيدتين ؟ ورد الثاني يقول بلى ولكنك تقول كقولك :

الا يا عتبة الساعة   اموت الساعة الساعه

واقول :

ان عبد المجيد يوم تولى
هد ركنا ما كان بالمهدود

ما درى نعشه ولا الحاملوه
ما على النعش من عفاف وجود

وان السهولة فى النظم – او الارتجال – اذا اردت التخصيص واليسر فى القول والاكثار منه هو كل ما كان يشغل البال عند صاحبنا ، اما الاجادة واما التانق اللفظي والاتيان بالصور والتعمق بالاحساس والبلوغ الى مطاوي الفكر واثناء النفس والاشارة الخاطفة واللمحة العابرة فكل هذه لم تكن شيئا مذكورا ولم يحسب الشاعر لها حسابا ، لذلك خرج شعره كله من هذا النوع الرخيص المبتذل الذى لا قيمة له الا فى انه اثر قديم وانه من النوع الهين اللين الرخو الذي لا يهيج بك عاطفة ولا يحرك شجنا.

ولست ادري السر الذى جعل لهذا الشاعر شهرته المستفيضة وسمعته المدوية واعتقد ان ذلك انما يرجع الى كونه شاعر الخليفة المهدي ثم شاعر الهادي والرشيد فكان بذلك شاعرا رسميا كما يقال اليوم ومن هنا اخذ الناس يتملقونه ويتلطفون اليه ويدارونه جهد الامكان ليتقوا غضب الخلافة ويتوسطوا به الى المقامات العليا لقضاء الحوائج وكسب المنافع.

وهذا ديوانه الطويل العريض لو قلبته من اوله الى ءاخره لما عثرت فيه على جليل الا ابياتا متنافرة متباعدة تلوح فى هذا المهمه القفر باضوائها الخافتة وانوارها الباهتة ولقد قصر قوله فاختص بالحديث عن الزهد ولم ينتقل الى باب غيره الا فى المناسبات البعيدة فتحدث فى المديح قليلا وتغزل غزلا غثا باردا والتفت الى الامثال يعرضها عليك عرضا لا فن فيها ولا ذوق ، ولعلك تحسبني مبالغا او انني اسعى الى الحط من هذا الشاعر الشهير فى حين انني قضيت الليلة الليلاء انقب فى ديوانه وابحث بين دفتيه لعلي اقع على ما يسر الخاطر ويفرح القلب به ولقد عثرت فيما عثرت عليه بهذه الابيات التى اعجب بها بشار حين راى ابا العتاهية يهنيء الخليفة المهدي بالخلافة فيقول فيه :

الا ما لسيدتي مالها
ادلت فاحمل ادلالها

الى ان يقول :

اتته الخلافة منقادة
اليه تجرر اذيالها

ولو رامها أحد غيره
لزلزلت الارض زلزالها

وقد ظن بشار ان الارض تميد به من الاعجاب بهذه الابيات ، وانا لنتساءل عن هذه المبالغة عند الشاعر الاعمى ونظن به الظنون بل انا لنشك في اخلاصه المديح ، ولكن الابيات على كل حال من خير ما نظم الشاعر وبشار بلا شك مرهف الاحساس يتحسس جيدا مواطن الحسن فى الشعر ويعرف مكامن الابداع والتوفيق فرايه له القيمة التى يستحقها . وابو العتاهية شاعر زهد قبل اي شيء ءاخر ولكن زهده هذا ليس مبنيا على فلسفة معروفة او مستندا الى مبدا مدروس مشروح كالزهد عند ابي العلاء مثلا ، فابو العلاء قد زهد العيش وانقطع للوحدة والانفراد واكتفى بما ياتيه من دخل قليل لا غنى فيه ولا رفاه ، ولقد بنى فلسفته هذه على القراءة الطويلة وادمان التفكير وانعام النظر فهو يقرا ويطبق على نفسه ما يقرا ، اما ابو العتاهية فرجل غير قاريء كما يبدو من تاريخه ، وقد جاء زهده عن طريق الحرص فهو لا يحب الانفاق والتبذير ويحرص على كنز المال جهده ولكي يبرر عدم الانفاق لابد له من التستر بالزهد ليخفي بخله وحرصه وجشعه ومن هنا فان زهده غير اصيل ، ونسكه غير قويم ، لان الزهد يلازم ارخاص المال وكرهه كما هو معقول ومعروف ، والزاهد كريم بطبعه لان المال من اوضار الحياة التى يانفها الزاهد ويحاول الابتعاد عنها وعن الخوض فيها فكيف استطاع ابو العتاهية الجمع بين الزهد والبخل الشديد ؟

روي عنه انه كان يملك عبدا فقيرا اسود وكان يجري عليه رغيفين فى كل يوم بلا آدام فكانا لا يكفيانه، وقد شكا امره الى احد اصدقاء الشاعر ورجاه ان يزيد له الجراية فجعل الرغيفين ثلاثة ولكن ابا العتاهية اجاب متحمسا بقوله : من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير وكل من اعطى نفسه شهوتها هلك . ثم مات الخادم بعد ذلك فكفنه فى ازار وفراش له خلق، فقال له صديقه بعد ان راى ذلك : سبحان الله ، خادم قديم الحرفة طويل الخدمة واجب الحق تكفنه فى خلق وانما يكفيك له كفن بدينار ؟ فقال ابو

العتاهية : انه يصير الى البلى والحي اولى بالجديد من الميت . فاجاب السائل الصديق بقوله : يرحمك الله يا أبا اسحق فلقد عودته الاقتصاد حيا وميتا .

وان فى هذه القصة لدليلا على حرص ابي العتاهية السيىء وصغر نفسه وعقله كما فيها ما ينبيء عن حنق الصديق المشفق الرحيم وثورته الساخرة على هذا الشاعر الغني الذى يعبد المال ويصطنع الزهد .

وفى هذا القول ايضا دليل على ان الزهد ليس اصيلا فى نفس الرجل لانه يقوم به من اجل الاعلان عن نفسه فهو باب فى الشعر غير مطروق ، وهو بهذا النوع من الشعر لا ينافس احدا ولا يعاكس انسانا، وعدم الاصالة فى الزهد قد اخرج عنه شعرا غير اصيل بالطبع ، فالرجل يسرع فى النظم لسهولة القول الموزون بالنسبة اليه ، والرجل لا يقرأ ولا يطيل التفكير فشعره خلو من هذه النواحي كلها ، وهو صانع جرار وخزف فشعره يبدو كانه قد يتأثر بهذه الصنعة التى عودته على السرعة فكان نظمه اشبه بهذا الخزف السخيف ، ولقد قال الاصمعي : ان شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يلقى فيها الخزف والجوهر ، ولكن الاصمعي قد قصد بلا شك الى الخزف ولم يذكر الجوهر فى شعر ابي العتاهية الا من باب الشفقة والمداراة .

وبعد هذا ارجو ان تستمع الى هذه الابيات فى الزهد لتقدر قيمة هذا الشاعر ولتلتقي واياه فى صعيد واحد :

الا انما الدنيا متاع غرور
ودار صعود مرة وحدور

كاني بيوم ما اخذت تاهبا
له فى رواحي عاجلا وبكوري

كفى غير ان الحوادث لم تزل
تصير اهل الملك اهل قبور

خليلي كم من ميت قد حضرته
ولكنني لم انتفع بحضوري

وليت شعري ما عسى ان يستفيد او ينتفع من يحضر الموت ، وما يقصد الشاعر من هذا السؤال الغريب سوى ان يشغل بال القاريء بما لا اهمية له.

واسمع له ايضا :

كل حياة فلها مدة
وكل شيء فله ءاخر

سبحان من الهمني حمده
ومن هو الاول والآخر

ومن هو القائم فى ملكه
ومن هو الباطن والظاهر

يا قاطع الدهر بلذاته
ليس له ناه ولا آمر

اتاك يا مغرور سهم الردى
والموت فى سطوته قاهر

افانت مسرور بهذا الشعر ام انت متعظ به ؟ وما اظنك كذلك،وما اخالك الا ساخرا من هذا الشاعر الذي يتحدث اليك عن الزهد بلغة الاخبار المحلية التي تقراها فى هذه الايام فى الصحف السيارة .

ان الزهد باب من الشعر متصل بالفلسفة العميقة والخوف الاصيل من مفارقة الحياة وعندي انه ينشأ عن عدم الاقتدار على استغلال الحياة الى ابعد حدود الاستغلال واسمع هذه الابيات مثلا لابي نواس وانظر اي اثر تتركه فى نفسك :

وعظتك اجداث صمت
ونعتك ازمنة خفت

وتكلمت عن اوجه تبلى
وعن صور ثبت

وارتك قبرك فى القبور
وانت حي لم تمت

ياذا المنى ، ياذا المنى
عش ما بدا لك ثم مت

فانظر الى الاجداث الصمت والازمنة الخفت والصور الثبت وكيف ترى قبرك بين القبور وانت ما تزال حيا . انها لافكار وفطن شعرية تقربك من الموت وتضع يدك عليه حتى لتستشعر الحزن والخوف فى وقت معا . واسمع قول المتنبي :

ابني ابينا نحن اهل منازل
ابدا غراب البين فيها ينعق

نبكي على الدنيا وما من معشـر
جمعتهم الدنيـا فـلم يتفرقـوا

اين الاكاسرة الجبابـرة الاولـى
كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقـوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لحـد ضيـق

انه الفكر يتكلم والعقل يتحدث اليـك حديـث المعتقد الذى يجعلك تعتقد معه بتفاهة هذه الحـياة وهوان هذه الدنيا لا كابي العتاهية الـذي يريـد ان يتحدث عن الحكمة فيأتيك بهذه القائمة التى تشبـه قائمة الطعام فى مطعم تأكل لديه بالدين فيقول :

من سالـم النـاس سلـم
من شاتـم النـاس شتـم

من ظالـم النـاس اسـا
من رحـم النـاس رحـم

من طلـب الفضـل الـى
غير ذوي الفضـل حـرم

من حفـظ العهـد وفـى
من احسن السمـع فهـم

مـن صـدق اللـه عـلا
مـن طلـب العلـم علـم

والفت نظرك الى هذه الحكمة التافهة فى قوله :

من احسن السـمع فهم او قوله من طالب العلم علم

اما ابياته المفردة الجميلة التى اشرت اليها ءانفا فهي كقوله :

بين عينـي كـل حـي
علـم المـوت يلـوح

او قوله فى ارجوزته الشهيرة :

ان الشباب والفـراغ والجـده
مفسدة للمـرء اي مفسـده

يغنيك عن كـل قبيـح تركـه
يرتهن الراي الاصيـل شكـه

الى ان يقول بيته الشهير :

ان الشبـاب زمـن التصابـي
روائـح الجنـة فى الشبـاب

والفتك الى هذا الشطر الرائع فى قوله «روائح الجنة فى الشباب » فهو يغني عن كثير من الشعـر ولعله يحسن موقع هذا الشاعر لديك .

وبعد فان هنالك عددا من الشعراء الذين اصطلح الناس على انهم من الشعراء الكبار لان القدامى قـد اتفقوا على ذلك لامور تتعلق بعصر الشاعر وملابساته واوضاعه ، وقد بقيت هذه الاتفاقات مرعية الاجراء كما يقال رسميا ، وهذا ما ينبغي لنا ان نبدي راينـا فيه فنصحح اوضاع هؤلاء الشعراء او نضع لهـم تصنيفا جديدا يتناسب مع اقدارهم الشعريـة والا فكيف يمكن ان يكون ابو العتاهية شاعرا كبيرا فـى حين ان مسلم ابن الوليد وابن حجاج وكشاجم وابن لنكك والابيوردي يكاد ينساهم الناس ؟ .

اما مولد الشاعر ففى سنة 130 مائة وثلاثيـن للهجرة وكانت وفاته سنة عشر ومائتين فهو قد عاش ثمانين عاما ونيفا واسمه الحقيقي ابو اسحق اسماعيل ابن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي ، فهو عربي الاصل وسمي بأبي العتاهية لحبه الشهرة والمجـون والتعته، وقد يقال للرجل المتحذلق متعته، وكان نظيفا ابيض اللون اسود الشعر وفيه لباقة وحصافة وكان يصنع الجرار ويعيش من هذه الصناعة ، وكان يدعو نفسه بجرار القوافي بالنسبة لصنعة الجرار وصنعة الشعـر ..

هذا هو ابو العتاهيـة الشاعـر ، المستفيض الشهرة ، وهذا خبره فاقرا عنه فى غير هذا المكان، اذا اردت ، فلعلك تحدث لك فيه رايا جديدا ، وما اظنك تخرج منه الا براي شبيه بما قدمتـه لك او هو قريب منه .

احمد الجندي



ليس بخفي الاثر البالغ الذى كان للشعر فى المجتمع العربى قبل الاسلام . فعد لذلك ديوان العرب الذى يحفل بمفاهيمها ، ويزخر بأحداثها .

والشعر لاهميته تلك ، كان يسترعي موقفا محددا من الدعوة الاسلامية فى باكر فجرها

ولقد وقف الاسلام من سائر المثل العليا عند العرب موقفه الواضح ، الصارم . وكان الشعر العربي من تلك المثل ، بمثابة الصرح المتماسك ينضح مضمونه بقيم القوم الاخلاقية ، يشدها اليه شكل من فن القول متراص ، يوشك ان يمثل بدوره واحدة من تلك القيم . فقد اذخر فيه ذووه كل ما يمكن ان يقولوه . وثقفوا من شكله وصقلوه ، بما شحذوا منه مضاء اسمع من السيف ، فى مجتمع تهزه الكلم فتشعله حربا ، او تجنح به الى السلم .

ولم يكن على الاسلام ضير لو قبل بالشعر فنا جميلا للقول ، ولكن موقف الاسلام من مضمون الشعر يفصح عن التحديد الجديد لمفهوم مهمة الفنون الجميلة فى الاسلام . وهو تحديد على ضوئه يضمن القرآن والرسول كفالة الشعر .

فالاسلام يرفض منهج الفن للفن من جميع الوجوه . ويقيد الجمال فى القول ــ كما فى الفعل ــ بالاخلاق . وهو يحتضن الشعر فنا جميلا للقول ، ولكنه يشترط عليه الصدق فى المضمون ، وفق المثل الجديدة فى الاسلام . وقد خصه الله بآيات ، منها فى سورة الشعراء بالقرآن الكريم قوله : **« والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا »** فالاسلام قد حكم على الشاعر الذى تعود ان يهيم فى كل واد ، بحيث يقول ما لا يعتقد به ، ويدخل فى مهاجاة طائشة فينتصر له قوم ، وقوم آخرون ينتصرون للخصم ، وهو حكم ايضا على الشاعر الذى يمدح قوما بباطل ويذم قوما بباطل . وقد فسر الرسول عليه السلام الآية للشعراء من المومنين ، حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه ، حينما جاء بعضهم الى الرسول يبكون ، ويسالونه : قد علم الله حين انزل الآية انا شعراء !.. فتلا الرسول قول الله : **« الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا »** ثم قال الرسول : انتم. مؤكدا لهم بانهم ــ هم ــ ليسوا من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وليسوا من الذين يهيمون فى كل واد ، ولا هم ممن يقولون ما لا يفعلون . وبذلك اوضح ــ عليه السلام ــ بأن الحكم فى الآية منصب على الصفات ومن يتصف بها شاعرا كان ام غير شاعر ، وليس منصبا على الشعراء اطلاقا . بل ان الشعراء من الجاهليين انفسهم مثل عبد الله بن الزبعرى ، وابي سفيان بن الحارث اللذين كانا يتصديان فى شعرهما للرسول وللاسلام ، فانهما باسلامهما ومدحهما للرسالة وصاحبها قد دخلا فى نطاق من استثنى من الذم . فالاسلام لم يكن ليربط فى احكامه من يستوجب التطهير بمن لا يستوجبه .

لقد كان الاسلام حريصا اذن على ان يحفظ لهذا الفن الجميل نصاعته ، وقوة تاثيره ولذلك

اضفى عليه الاسلام هيبة اخرى تصون حرمته التقليدية وتتلاءم والمثل العليا فى الاسلام .

وان نظرية الفصل هذه بين المضمون والشكل، فى حكم الاسلام على الشعراء وفى حكمه له لم تتأثر بعامل ذاتي على الرغم من أن بعض الكفار قد ضلوا عن فهم طبيعة اسلوب القرآن وتقديره ((**بل قالوا اضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر**)) — كما فى سورة الانبياء — حكاية لما تخرصوه فجاء فى القرآن ما يبطل وهمهم ، فقال تعالى فى سورة يس : ((**وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، ان هو الا ذكر وقرآن مبين**)) . وقال تعالى فى سورة الحاقة : ((**انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين**)) . وهكذا قال فى سورة الشعراء : « **وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** » . الى ان قال : ((**هل انبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل افاك أثيم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، الم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون**)) . ولكن الاسلام مع ذلك كله لا يذم الشعراء الذين يتعاونون الشعر فنا جميلا ، لمضمون ملتزم بالتعاليم الاسلامية . وقد استمرت الآيات فى نفس السورة بقول الله : ((**الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا**)) وكانت الغاية من هذه الآيات الكريمة التى تخص الشعر والشعراء ، واضحة من تعاليم الاسلام فى بندين اثنين :

اولهما : ان الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بكاهن ولا بشاعر ، لان حاله مناف لحالهم . وبطبيعته هذه فان القرآن الذى انزل عليه ليس شعرا ولكنه كلام الله . وبمثل هذا يؤول المفسرون الحديث المنسوب الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) لان يمتلي جوف احدكم قيحا خير له من ان يمتلي شعرا .

ثاني البندين : الهجوم الهادف على مفاهيم الشعر الجاهلية ، ثم التشجيع على التزام الايمان والصلاح والدعوة الى خلق الاسلام فيما يجد من الشعر ، والافخر من الشعر للمرء اختلال دمه وهلاكه .

ولقد كان الرسول — عليه السلام — فى تمام الوضوح حينما فصل بين موقف الاسلام من الشعر فى قيمه الجاهلية ، وبين موقف الاسلام من الشعر فيما يجب ان يلتزمه من قيم اسلامية وكان — من جملة وضوحه — نقده لشعر الثلاثة المومنين عبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت . بانه — كما قال عليه السلام — حكمة وليس شعرا ، وهو بذلك يهدف الى تحويل المفهوم الجاهلي المحدد للشعر من اسمه ، الى مفهوم جديد يلفت الى اسمه الطريف انتباها ، مثلما يلفت الى موضوعه الجديد الانتباه . وهو — عليه السلام — حينما يصنف فن هؤلاء الثلاثة بانه حكمة لم يغب عنه بأن فنهم ماض فى شكله على النسق الذى يمضي عليه الشكل الفني للشعر عند السلف والخلف سواسية . وذلك بدليل قوله صلى الله عليه وسلم معلقا على شعر قاله عويف يهجو به قوما : قال — او كما قال — الرسول : ((**من قال فى الاسلام شعرا مقذعا فلسانه** هدر » فالحكم فى الاسلام للشعر او عليه انما يهدف للمضمون ، وليس ينكر الشكل ابدا . وحجة هذا ، قبول الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشعر ممن يقوله اسلاميا ، حتى وان كان قبل ذلك فاحش اللسان . فانه عليه السلام قد عفا عن انس ابن ابي اسيد الشاعر ، يوم وفد عليه عند فتح مكة مسلما ومنشدا :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

ابر واوفى ذمة من محمد

بعد ان كان هجاء للحضرة نفسها . ولكن الرسول عليه السلام قبل شعره الجديد كما كان يتقبله — معجبا به — من بعض الشعراء الجاهليين ، ويتمثل ببعض مافيه. فقد روي انه — عليه السلام — كان يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول :

نفلق هاما ... نفلق هاما ...
فيتم ابو بكر الصديق البيت :
عن رجال اعزة
علينا ، وهم كانوا أعق واظلما
وهو شعر جاهل من الحماسة .

ورووي بأن النبي — عليه السلام — قال على المنبر : « اشعر كلمة قالتها العرب ، قول لبيد : « الا كل شيء ما خلا الله باطل » .

هذا وان الرسول عليه السلام مع تذوقه للشعر فانه لم تكن لديه جبلة على حفظه بايقاعه الموسيقي . ولذلك روى كتاب السيرة انه كان – عليه السلام – لا يحفظ بيتا على وزن منتظم . وبهذا يشرح المفسرون قول الله تعالى عنه :

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له » من سورة يس – فاذا تمثل بالشعر فببعض البيت ، او بمعناه. ومن ذلك تمثله – عليه السلام – بقول الشاعر :

كفى بالاسلام والشيب للمرء ناهيا

فيقول له ابو بكر : يا رسول الله :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا . والشعر من قول عبد بني الحسحاس :

عميرة ودع ان تجهزت غاديا
كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

ويروى ان الشاعر انشد هذا البيت بين يدي عمر فقال له عمر لو قدمت الاسلام على الشيب لاجزتك .

وقد روي عن ام المؤمنين عائشة قالت : ما جمع رسول الله بيت شعر قط الا بيتا واحدا :

تفاءل بما تهوى ، يكن فلقلما
يقال لشيء كان الا تحققا

وقد وفد على النبي شعراء كثيرون ، اسلموا وانشدوا الشعر في مجلسه ، من بينهم النمر بن تولب وحميد بن ثور الهلالي كماكان – عليه السلام – لا يمانع في ان يبدى الراي بمجلسه في تمييز الجيد من الشعر . وكان لامريء القيس نصيب مما ابدي الراي فيه من الشعر بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول امريء القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولم يكن – عليه السلام – يخفي اعجابه بالشعر الملتزم ينشد بين يديه يثيب عليه كعب بن زهير بالبردة التى يرتديها عليه السلام . كما كان يجيز عليه بالانصات الطويل الى بعض صحابته وهو ينشد مائة بيت من الشعر ، يقول عليه السلام عقب كل بيت : هيه ! تذوقا واستزادة ، فيزيده الشاعر من ذلك . وقد يثيب على قول الشعر الملتزم بما هو اعظم من البردة والانصات معا ، يثيب عليه بما وعد به المتقون يوم القيامة . فانه عليه السلام حينما انشده حسان بن ثابت همزيته التى ينافح فيها عن الرسول ، وانتهى الشاعر الى قوله مخاطبا عدو الاسلام : عدو الرسول :

هجوت محمدا فاجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء

قال له الرسول : جزاؤك على الله عز وجل الجنة يا حسان ..

فلما انتهى حسان الى قوله :

فان ابي ووالدتي وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء

قال له الرسول : وقاك الله حر النار !

وكان للرسول عليه السلام نظر في تقييم ما قد يسمعه من الشعر، فقد انشد بين يديه بيت عدي بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

فقال عنه : كلمة نبي القيت على لسان شاعر: ان القرين بالمقارن مقتدي
ومن ذلك ما قاله عليه السلام عن بيت طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود

في ان معناه من كلام النبوة :
وانشد الرسول النابغة الجعدي قوله :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له
بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له
حليم اذا ما اورد الامر اصدرا

فقال له الرسول : لا يفضض الله فاك . فعاش مائة وثلاثين سنة لم يتنفض له ثنية .

وقد دافع الرسول — عليه السلام — عن الشعراء الملتزمين الذين كانوا يحمون الاسلام ومحمدا عليه الصلاة والسلام وكان يشجع حسان بن ثابت على هجو قريش ، ويقول له :

اهجهم — او قال هاجهم — وجبريل معك .
ذلك بان المومن هو الذي يجاهد بسيفه ولسانه — كما قال عليه السلام — وقال عن هؤلاء الشعراء **« الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا »** قال — صلى الله عليه وسلم — عنهم **« والذى نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به من نضح النبل »** وذلك لان الشعر فى الاسلام منه ما هو مشروع وهو الشعر الذى يهجو المشركين، والشعر الذي يتوافر على حكم ومواعظ وآداب .

والاسلام والرسول لم يمزج قط فى التشريع بين المضمون والشكل فيما يصدره من احكام على الشعر فانه عليه السلام حينما قال عن امية بن ابي الصلت : آمن شعره وكفر قلبه ، كان دقيقا ايضا فى تمييز المنبوذ من المقبول . وقد كان شعر امية فى هذا الحكم النبوي مقبولا شكلا ومضمونا .

ولكن الشكل المرفوض فى هذا الحكم هو شخص الشاعر نفسه، هو القلب من امية الشاعر، ذلك الذي لم يؤمن ، وكفر ، اما الشعر المومن فمقبول حتى وان كان من كافر .

وفى هذا الحكم ما لا يخفى من التدقيق فى مسطرة سير القضاء كما انه واضح فى كونه لا يلحق غبنا بالشعر فنا جميلا للقول الملتزم . بل ان الاسلام قد حدد منذ فجره الباكر اهمية فن القول موازيا له بوسائل حمي الحمى التى تقصد الدفاع عن المعتقدات والمثل العليا فى الاسلام .

وهكذا يمكننا القول ، بأن الاسلام قد زكى ذلك الاثر البالغ الذى كان للشعر فى المجتمع العربي قبل الاسلام . وان القرآن الكريم والرسول محمدا عليه السلام قد وجها الشعر الى ما فيه مصلحة الجماعة الاسلامية فبذلك يكمل طابعه الجمالي فى الاسلام .

وبذلك يكون الاسلام اول من دعا الى نبذ منهج الفن من اجل الفن ، وحتم سلوك منهج الالتزام فى صياغة الفنون الجميلة .

« الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

الرباط — جعفر الكتاني

المصـــــادر :
فسر لنا الآيات وامدنا بمعلومات عنها وعن الاحاديث كتب ابن كثير وسيد قطب وابن هشام وحققنا الشواهد والاحداث لمدى الاغاني وحلية المحاضرة للحاتمي والعقد الفريد لابن عبد ربه .



في مقدمة ديوان « الطائر الجريح » آخر الانفاس الرقيقة التي نظمها الشاعر الدكتور «ابراهيم ناجي » ، كتب الاستاذ الشاعر » محمد عبد الغني حسن » يقول :

(هذا هو آخر ما نظمه ناجي قبل ان يسكت الموت انفاسه ليرقد الرقدة الطويلة التي يستريح الجسم فيها بعد تعب الحياة .)

ولقد مات الطبيب الشاعر « ابراهيم ناجي » في طبه ميتة «جالينوس» او ميتة راعي الضأن في سربه ، كما قال شاعرنا القديم الحكيم ، ولكن الشعراء لا يموتون كما يموت الناس ، لان اصواتهم تاتي من وراء العالم البعيد ، من خلال الصمت الموحش ، فكأنها الاصداء التي يقول عنها « ناجي » :

صمت السهل ولكن أقبلت
من ثنايا السهل اصداء بعيدة

ولقد عاش «ناجي» حياته حائرا معذبا ، وعاش ظامئا على كثرة الموارد حوله ، وجائعا على وفرة الزاد عنده ، ومقيما كالمسافر ، وثاويا كالمهاجر .. بل عاش اكثر من ذلك :

فراشة حائمة
على الجمال والصبا
تعرضت فاحترقت
اغنية على الربى
تناثرت وبعثرت
رمادها ريح الصبا

نعم ، لقد بعثرت الريح رماد تلك الفراشة الحائرة ، ولكن بقي من الوانها هذه الحزمة الفاتنة من الضوء والعطر والندى والرقة والصفا .

فناجي الشاعر المحب ، ترجم في رقة وعذوبة آلام المحبين وآمالهم ، وقد علمه الحب ــ على ما فيه من صور الشقاء ــ ان يحب الناس والدنيا جميعا .

فاتسع قلبه لكل طارق ، وابتسم ثغره لكل بارق ، وظل ذاكرا وهو يخاطب حبيبته في عزة المحب الكريم :

لست انساك وقد علمتني
كيف يحيا رجل فوق الحياة

فالحب عند «ناجي» هو اندفاع في الحياة وقوة وكرامة وعزة نفس ، وليس ابدا ضعف او تخاذل او سقوط ...

وان هذا الشاعر الذى لم ينس حبه ، لجدير بان يذكره الحب وان تذكره الحياة .

ولابد لنا ، ان نحن اردنا ان نلقي الضوء على حياة «ناجي» الادبية ، ونشرح كل ما يتصل بهذه الحياة ، من ان نبتديء بالشعر العربي قبل «ناجي»، متناولين في بداية الموضوع ذلك الشاعر العملاق الذي اثرى الحركة الشعرية على طول المدى ، وهو « محمود سامي البارودي » .

فان كل قاريء ودارس للادب العربي يدرك ما للبارودي من اياد بيضاء على القصيدة العربية ، فبعد ان ظل الشعر العربي يرزح طوال العصرين المملوكي

والتركي تحت قيود البديع والمحسنات اللفظية ، وبعد ان كان هم الشعراء أن يتصيدوا تلك المحسنات وأن ينظموا فى تلك الاغراض التقليدية التى بليت من كثرة ما نظم فيها من اشعار ، نجد شاعر الثورة العربية « البارودي » ينهض بالشعر العربي نهضة كبرى فيعيد اليه ديباجته القديمة ايام المتنبي والبحتري وأبي فراس ، ويخلص القصيدة العربية من الاغراض المبتذلة التى كانت تضع الشاعر فى موضع المستجدي لعطاء الحكام ، ينافق ويداجي ويرائي فى سبيل العطاء .

لقد كان شعر «البارودي» مدرسة جديدة فى الفتح الجديد أمام الشعر الحديث، تلي ذلك مدرسة « شوقي » التى تعد امتدادا لمدرسة «البارودي» التى شيد دعائمها ، ومع ان رواد هذه المدرسة وعلى رأسهم « شوقي » قد التقوا بالتجديد من غير عمد أو تعمدوه ، نجد ان الطابع الغالب على هذه المدرسة وشعرائها من الذين نهجوا نهج «شوقي» من امثال حافظ ابراهيم ــ واحمد نسيم ــ واحمد محرم ــ واحمد الكاشف ــ ومحمد عبد المطلب) ، كانوا ما يزالون يقولون الشعر فى اغراضه التقليدية من مديح وهجاء ورثاء ووصف ، حتى انه يمكننا ان نسمي هذه المدرسة ، مدرسة **(الصياغة الموسيقية)** ، ثم تأتي بعد ذلك **مدرسة (خليل مطران) .**

ولعل اجدر ما يقال فى «مطران» ، قول الدكتور «طه حسين» :

(.. فمطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض بالمجدد ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فاعرض عن الشعر ، ثم اضطر فعاد اليه .. وحاول ان يعود اليه مجددا لا مقلدا .. وهو يعرض عليه فى شعره شيئا من القديم لتتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد .)

واما المدرسة الثالثة ، فهي مدرسة (جماعة الديوان) .. هذه المدرسة التى حملت راية التجديد فى مطلع القرن العشرين ، ووقفت فى وجه حركة التقاليد البالية ، وراحت تحطم امارة «شوقي» الشعرية محاولة ازاحة شعراء التقليد من مكان الصدارة ، وكان اقطاب هذه الحركة (شكري ــ والعقاد ــ والمازني ..) وكانت حركتهم النقدية فى الديوان الذى اصدره (العقاد والمازني) ، هي اقوى حركة نقدية شهدها الشعر العربى .

وفى كتاب (الديوان) يصيح « العقاد » صيحته العاتية ، موجها الخطاب الى امير الشعراء «شوقي» ، فيقول :

(اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصي اشكالها والوانها ، وليست ميزة الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وانما ميزته ان يقول لك ما هو .. ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به .)

ولعل هذه الصيحة تشابه تلك التى جاءت فى مقدمة الجزء الخامس لديوان «شكري» ، واخرى مثلها اطلقها « المازني » ثائرا على المفهوم القديم للشعر .

ثم تأتي بعد ذلك مدرسة الهجريين ، حيث كانت تتردد اصداء معركة ادبية قوامها الشعراء المهاجرون من ارض الشام الى الامريكيتين بحثا عن الحرية التى افتقدوها فى وطنهم تحت نير الحكم العثماني ، وكم يكون غريبا ان ترتبط رغبتهم فى تحرير وطنهم برغبتهم فى تحرير الشعر العربي من القيود التي ظلت تغله عدو قرون وقرون ..

ويعلل الاستاذ « عمر «الدسوقي» فى كتابه (الادب الحديث) هذه النزعة الثورية لدا المهاجرين بانهم :

(ما ان هاجروا حتى شعروا بالحرية الواسعة، ولاسيما حرية القول والعقيدة ، فانطلقوا على سجيتهم) .

لقد كان ذلك اشبه برد فعل للكبت الشديد الذى عانوه فى بلادهم ، وللحرمان المزري الذى دفعهم لترك الوطن الحبيب .

◆

تلك كانت بعض الجوانب الاساسية فى حركة الشعر العربي قبل ان يبزغ فجر الشاعر « ابراهيم ناجي» لكننا استكمالا للبحث لا بد ان نلم بحياة الشاعر نفسه، مولده، ثقافته، واخيرا عطاؤه الشعري. كان والد ابراهيم«ناجي»مثقفا واسع الاطلاع، محبا للقراءة والشعر، فنشأ«ناجي»فى بيت يحترم الادب ويجل الثقافة، وحين كان فى المدرسة الابتدائية ، كان يسمع من والده قصص (ديكنز ــ وكونان دويل ــ وهاجارد) يقصها الاب على زوجته واولاده ، وما كاد «ناجي» يحصل على الشهادة الابتدائية حتى اهداه والده قصة

(دافيد كوبرفيلد) لتشارلز ديكنز ، وبهذا استطاع الاب ان يزرع فى نفس ابنه منذ حداثته روح الانسانية ، وعلمه التامل والملاحظة والتفكير ...

وما كاد «ناجي» يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى بدا ينظم الشعر ، وحين لمح الاب فى ابنه هذا الميل اخذ ينميه ويقدم له دواوين الشعراء من امثال (شوقي – والمتنبي – ومطران – وحافظ ابراهيم – والشريف الرضي) .

وبدأت موهبة «ناجي» الشعرية تتفتح ، وبدا تأثره واضحا بمطران وشوقي والشريف الرضي ، وتشاء الظروف ان يلتقي « ناجي » باستاذ له ، يتوسم فيه شيئا لا يعلمه ، جعله يؤمن بأن «ناجي» يستطيع ان يكون نابغة فى الرياضيات .. فوجه الاستاذ كل اهتماماته الى « ناجي » حتى غير فى مستقبله ، فحوله من القسم الادبي الى القسم العلمي فى دراسته ، ونظرا للتفوق الذى ابداه «ناجي» فى الثانوية ، فقد دخل كلية الطب .

واذا ((ناجي)) الطبيب يغدو شاعرا .. بل تتمثل فيه مدرسة شعرية جديدة ، هي مدرسة التجربة الذاتية .

يقول الاستاذ (احمد الصاوي محمد) فى مقدمة ديوان (وراء الغمام) لناجي :

(يكاد يكون ديوان ناجي قصيدة واحدة : وقصيدة حب) .

ويصفه الدكتور (احمد زكي ابو شادي) بانه (شاعر اللهفة) .

ويقول عنه الناقد الكبير الدكتور (محمد مندور) :

(ابراهيم ناجي قصيدة حب ... وقصيدة حياة ...)

ولقد كانت التجربة العاطفية الاولى عند « ناجي » سببا اساسيا ومباشرا للاخفاق العاطفي الذى ظل يرافقه طوال حياته ، واعطاه هذا الاخفاق بالتالي ، عمق ما فى تجارب الآخرين .. وذلك بحكم ثقافته الواسعة وانسانيته البعيدة ورقة مشاعره واحاسيسه .

وتلقي الدكتورة (نعمات احمد فؤاد) حزمة ضوئية جديدة على خصال « ناجي » الفنية ، فتقول:

(يمتاز ناجي – اول ما يمتاز به – بانه شاعر لا يكتب الا ما يتحرك له حسه ويفيض به خاطره ، والشعر عنده عاطفة نارية تتشكل فى الاسلوب الذى يلائمها والقالب الذى يتساوى معها) .

ويعبر « ناجي » – نفسه – عن شعره ، فيقول :

(الشعر عندي هو النافذة التى اطل منها على الحياة ، واشرف منها على الابد ، وما وراء الابد .. وهو الهواء الذى اتنفسه ، وهو البلسم الذي داويت به جراح نفسي عندما عز الاساة) .

وشعر « ناجي » شعر رقيق ، ادق ما يوصف به أنه (الشعر المهموس) ، وهو الشعر الذى ينساب الى النفس فى هدوء ورقة فى غير ما صخب ولا ضجيج ، والشاعر المهموس لا يقف على منصته ليخطب فى سامعيه ، ولكنه يسر اليهم ، ويشاكيهم ، ويتسلل الى قلوبهم رقيقا كالنسيم .

◆

ولقد تناول النقاد – على اختلاف مدارسهم – شعر « ناجي » بالنقد والدراسة ، **واجمعوا جميعا بانه قد جدد الى حد كبير فى مضمون قصائده ، وجدد الى حد ما فى شكلها ايضا .**

ولقد اثرى «ناجي» لغتنا العربية بتجارب فنية رائعة ، صاغها لنا فى قوالب ساحرة ورقر وعذوبر ، ولعل بعض هذه الميزات جعلت «ناجي» علما من اعلام جيله ، جيل التجربة الذاتية والتعبير عن العاطفة والوجدان .

واذ تقترب ايام «ناجي» الاخيرة ، نجده يصدم مرة ثانية – بعد فشله فى حبه الاول الذى اغنى شعره واثراه – ولا تقل هذه الصدمة فى مرارتها عن الصدمة الاولى ، فقد قرا وهو فى لندن ، مقالا نقديا للدكتور (طه حسين) اثر صدور ديوانه (وراء الغمام) ، وكان مقالا جارحا وقاسيا لم يستطع « ناجي » احتماله ، فاسودت الدنيا فى عينيه ، ولم يعد يبصر شيئا .. فخرج وهام على وجهه فى شوارع لندن كالمشردين ، وبينما هو كذلك صدمته سيارة مسرعة لم يبصرها .. فكسرت ساقه ودخل المستشفى واجريت له عملية عاجلة .. وبعد ان شفي عاد الى الوطن وقد قرر ان يترك الشعر ، غير انه لم

يستطع ان يترك الادب الذى تغلغل فى اعماقه منذ الطفولة ، وراح يكتب ويترجم ما يفيض به قلبه بالمشاعر الانسانية الرقيقة .

ثم واتته الصدمة الثالثة حين احيل الى التقاعد من عمله كطبيب فى وزارة الاوقاف المصرية عام 1952 وهو ما يزال فى الخامسة والخمسين من عمره ، يفيض شبابا ونشاطا وحيوية .

وتدهور صحة الشاعر الانسان .. ولا يدري اين يبدد الليالي والاصباح وهو الذي تعود العمل والنشاط ..

فهو فى الليل يسهر مع اصحابه ولا يعود الى منزله الا مع الفجر .. ثم يخرج الى المقهى ظهرا ، ويذهب الى عيادته فى المساء .

وفى تلك الدوامة الهائلة من اليأس وضيق ذات اليد تبدأ صحته بالتدهور .. فهو لا يهتم بمأكل او مشرب ، وتضيق عليه سبل الحياة ، فمعاشه محدود، وراتبه التقاعدي لا يكاد يكفيه ، وعملاؤه من المرضى لم يكن اغلبهم قد تعود — خلال سنين — ان يدفع اجرا للطبيب الانسان .

وفجاه ، تجيئة المنية يوم 24 مارس — آذار سنة 1953 ، حين كان يعالج الطبيب احد مرضاه..

وبينما هو يستمع الى دقات قلب مريضه ، تتوقف دقات قلبه هو .

ومات الشاعر والطبيب والانسان .. مات جسدا ، ولكنه سيظل ابدا روحا هائمة فى سماء الكون الذى طالما تغنى به وانشده اعذب واشجن الالحان ...

سوريا — عدنان الداعوق





- 2 -

(5)

بين سنتي 453 و 667 هـ (1061 و 1269 م) قامت في المغرب الاقصى دولتان كبيرتان هما المرابطون والموحدون . وقد كانت كل منهما بربرية الاصل ، كما ان كلا منهما قامت في جنوب البلاد ثم احتلت ما تبقى منها واضافت الى املاكها اجزاء من شمال افريقية كما انها ضمت اسبانية الاسلامية الى منطقة نفوذها .

والدولتان اتخذتا مدينة مراكش عاصمة لهما . انشا المرابطون مراكش ثم وسعوها، ولما جاء الموحدون اهتموا بعمرانها على نطاق واسع . فقد بنى هؤلاء جامع الكتبية ومنارته العالية ومحرابه المتقن الصنع ومقصورته الانيقة . كما غرسوا حولها الحدائق الغناء والبساتين الواسعة وجعلوا فيها بركة كبيرة . وكانت قيسارية مراكش ، اي السوق الرئيسية ، من اضخم ما بني في الاسلام . هذا من حيث مباهج المدينة . لكن يجب ان نضيف الى ذلك كله مدارس مراكش ومستشفاها وحماماتها واسوارها وتحصيناتها . فالمدينة كانت عاصمة لدولة قوية ، وكانت معرضة للغزو في احيان كثيرة . لذلك كان من الضروري ان تكون قوية محصنة .

والمرابطون والموحدون كان للدين في نفوسهم حرمة، فكان من الطبيعي ان يكون لعلمائه في بلاطهم مكانة . والموحدون كانوا على ذلك أحرص . فابن تومرت ، مؤسس دولتهم ، كان يرى في الدولة التي انشأها احياء للسنة وتمجيدا للاسلام . بذلك آمن وعلى ذلك جرى خلفاؤه فأحيوا السنة في الاجزاء الاسلامية ، ونشروا الاسلام جنوبي المغرب الاقصى.

وقد دعا المرابطون والموحدون اهل العلم والمعرفة من اسبانية وشجعوهم على الاقامة في بلاطهم . وكان الظرف مناسبا لذلك. فالاسبان كانوا يحتلون اسبانية الاسلامية جزءا بعد الآخر ، فكان يطيب لعلماء المسلمين هناك ان ينتقلوا الى بلاط يؤمن لهم الحياة المطمئنة والمجال للاشتغال بالعلم . وممن رحل الى مراكش زهر وابنه الطبيبان وابن باجة وابن طفيل وابن رشد من الفلاسفة . وقد زارها الشريف الادريسي الجغرافي المشهور .

وقد اقتضت الاعمال العمرانية التي قامت في مراكش مدة قرنين ان يتدفق الى العاصمة العمال والصناع والفنانون والبناؤون والتجار والطلاب والكتاب ، هذا الى ما ذكر من اهل الحكمة والشريعة. وتوافد الناس الى المدينة من جميع الجهات وجميع الاصناف . كما كثر الزوار الذين كانوا يقدمونها لقضاء مصالح معينة .

كانت مراكش مدينة دفاع عن الاسلام اذ كانت تقع في حدوده القصوى . وكان دفاعها حربيا كما كان علميا . فمنها كان يخرج الدعاة المنظمون لتوضيح الاسلام لاهل المناطق المختلفة . وكان هؤلاء الدعاة

يدربون على ايدي قوم من اهل العلم والكفاءة والمقدرة . كما ان مراكش استقطبت الاطباء والفلاسفة واهل المعرفة كما راينا . لذلك فقد اصبحت مستودعا لانواع المعرفة في تلك المنطقة النائية عن مناطق الاسلام والحضارة العربية المركزة . والعلم الذي وصل اليه كان قد صفي في الخارج . كما ان انعدام الثقافات الاخرى في تلك المنطقة وفر على اهل مراكش ومفكريها مشقة الجدل والمناقشة مع الخصوم . ومعنى هذا ان مراكش لم تعرف التوتر الفكري والروحي الذي عرفته بغداد .

وعمل الموحدون على تنمية الشخصية العالمية للمغرب ، فانشاوا مؤسسات تعليمية كثيرة ، منها بيت الطلبة بمراكش. وقد اخرج الاستاذ عثمان الكعاك انه كان في المدرسة الادارية ثلاثة ءالاف طالب يقراون كتب المهدي بن تومرت ويتعلمون الفنون الحربية وما الى ذلك . ويقول : ينقسم الطلبة المغاربة في المعهد الموحدي الى ثلاث طبقات :

1 ـ الطلبة ابناء الامراء يتعلمون في مدرسة الامراء الملوكية ليترسم بعضهم الى الوظائف الملوكية العليا من الامارة الى الوزارة .

2 ـ الطلبة المصامدة الذين هم من قبيلة مصمودة البربرية قبيلة الموحدين . وهؤلاء وعددهم يزيد عن ثلاثة ءالاف يتعلمون في المدرسة الادارية تعلما خاصا ليتخرجوا في الوظائف الدولية .

3 ـ طلبة الحضر او البلدية اي طلبة برجوازية المدن وهم يتعلمون في بعض الوظائف الشرعية دون الوظائف الادارية المخزنية .

ولكل صنف من الثلاثة رئيس او مقدم او مزوار يسمى سلطان الطلبة ينتخب على عام عادة .

وكما عني الموحدون بالعلم عنوا بصحة القوم . فقد بنى المنصور مستشفى عظيما في مراكش ، قال صاحب المعجب في وصفه :

« وبنى بمدينة مراكش مارستانا ما اظن ان في الدنيا مثله ، وذلك انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد ، وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمشمومات والماكولات ، واجرى فيها مياها كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادة على اربع برك في وسطه، احداها رخام ابيض. ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف وياتي فوق النعت ، واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجا عما جلب اليه من الادوية واقام فيه من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال، واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض فان كان فقيرا امر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وان كان غنيا دفع اليه ماله وتركه وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسال عن اهل بيت بيت ، يقول : كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال ، لم يزل مستمرا على هذا الى ان مات رحمه الله » .

(6)

فتحت افريقية ايام الامويين ، وصارت المنطقة التي تدور في فلك مدينة تونس اليوم نقطة اطلاق للفتح والعلم والادب . وتركز ذلك ايام الولاة والاغالبة في القيروان . لكن تونس ، وهي مشرعة على البحر ، كانت رئة افريقية العربية ان كانت القيروان قلبها . ففي تونس كانت دار صناعة انشاها حسان بن النعمان ووسعها ابن الحجاب فيما بعد . ودار الصناعة هذه هي التي مكنت للاغالبة من الحصول على اسطول يفتح لهم صقلية وما اليها . على ان ابن الحجاب قام بعمل ءاخر لم يدر يومها انه سيكون له اثر كبير في حياة تونس والمغرب الافريقي . ذلك بانه بنى جامع الزيتونة سنة 114 (732) .

وقال البكري عن تونس في اوائل القرن الخامس (الحادي عشر) « وجامع تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواريه . ويرقى الى الجامع من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة . وبها اسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمامات ، ودور المدينة كلها رخام بديع .. ويصنع بتونس للماء من الخزف كيزان تعرف بالريحية ، شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ، ليس يعمل لها نظير في جميع الاقطار . وتونس من اشرف بلاد افريقية واطيبها ثمرة وانفسها فاكهة ، فمن ذلك اللوز الفريك

يفرك بعضه بعضا من رقة قشره ونحت باليد واكثره حبتان في كل اوزة مع طيب المضغة وعظم الحبة ، والرمان الضعيف الذى لا عجم له البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية ، والاترج الجليل الطيب الذكي الرائحة البديع المنظر ، والتين الخارمي اسود كبير رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بزر ، والسفرجل المتناهي كبرا وطيبا وعطرا ، والعناب الرفيع فى قدر الجوزة ، والبصل القاوري فى قدر الاترج مستطيل سابري القشر صادق الحلاوة كثير الماء . وبها من اجناس السمك ما لا يوجد فى غيرها ، يرى فى كل شهر جنس من السمك لا يرى فى الذى قبله، يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم».

ويسرع التاريخ فى تونس ، كما يسرع فى بقية ارجاء المغرب ، فترى الاغالبة يعنون برقادة ، والعبيديين يهتمون بالمهدية ، والصنهاجيين يخلفون هؤلاء فيحاولون توطيد ملكهم هناك . ويعنون بالبناء والعمران والسفن والجيوش على ما تم على يدي كبيرهم المعز بن باديس . وفى اواسط القرن الخامس (الحادي عشر) هاجم الهلاليون افريقية ، فاصيبت مدنها ، وصمت شعراؤها، وخيم الصمت فى ارجائها، لكنها كتب لها ان تنهض بعد العثار ، فنفضت عن نفسها الغبار ، وعادت الى العمل ليل نهار . فعاد المجد اليها ايام الحفصيين وتركز فى مدينتهم تونس التي كانت قد اصبحت حتى قبل ذلك بقليل عاصمة الديار الافريقية .

وبعد ابو زكرياء يحيى من اهل القرن السابع (الثالث عشر) ابرز شخصية فى دولة الحفصيين. وهو الذى ابتنى جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه واذن فيها بنفسه ليلة تمامها غرة رمضان سنة 630 (1233) وشاد غير ذلك من المساجد والمدارس وابتنى ايضا سوق العطارين بتونس وانشا فى قصره بالقصبة دار الكتب جمع فيها ستة وثلاثين الف مجلد من انفس المؤلفات، وقد تلاشت فى ءاخر ايام الدولة الحفصية .

وفى العهد الحفصي انتشر التعليم بالبلاد بواسطة الكتاتيب والزوايا وبتونس انتظم التعليم بجامع الزيتونة الذى تطور حتى صار اكبر جامعة اسلامية عرفتها بلاد المغرب باسرها وانبت علماء افذاذا . واسس الحفصيون نساء ورجالا مدارس كثيرة منها المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية والمدرسة التوفيقية الملحقة بجامع الهواء . وقد جلبوا لها الاساتذة من الاندلس ومن طرابلس ومن المهدية ، واسكنوا بها الطلبة وقاموا باطعامهم وكونوا لهم بها المكتبات فقامت باكبر قسط فى تكوينهم تكوينا جامعيا وتأهيلهم الى تقلد المناصب الرفيعة .

« وانتشرت الثقافة ايضا بواسطة المكتبات الكثيرة التى انشئت ومن اشهرها مكتبة جامع الزيتونة التى عرفت بـ (العبدلية) ووضع بها انفس الكتب .

« وقد ساهم بقسط وافر فى النهضة العلمية مهاجروا الاندلس اذ كان من بينهم العلماء والادباء والشعراء والكتاب . وبفضلهم ارتقى الفن .

« وبفضل ذلك كله ، وبفضل تنشيط بعض الامراء للعلم وذويه وللادب والشعراء ، انتشر التعليم واقبل الناس على طلبه . وازدهرت الثقافة ، وانتعش الادب ونشطت حركته ، وارتقى الطب وحمل لواءه خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الاندلسية . واصبحت تونس فى هذه الميادين ام البلاد المغربية وقطبها الاكبر بلا منازع » .

اما العلم الذى تلقاه الناس فلم يقتصر على الشرع والدين واللغة والادب ، بل شمل غير ذلك . فقد روى ان ابا العباس احمد بن شعيب الفاسي الجزنائي الذى بعد ان قرا على كثير من شيوخ فاس، انتقل الى تونس فاخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته فى تلك الفنون يعقوب بن احمد راس .

ويكفي تونس فخرا تزهو به على البلدان ان تكون مسقط راس ابن خلدون . وقد روى المؤرخ الكبير اخبار نشأته ودراسته فى التعريف بنفسه قال :

« اما نشأتي فاني ولدت بتونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (1332) ، وربيت فى حجر والدي رحمه الله الى ان ايفعت . وقرات القرءان العظيم على الاستاذ « بن برال الانصاري » وبعد ان استظهرت القرءان الكريم من حفظي ، قراته بالقراءات السبع المشهورة افرادا وجمعا فى احدى وعشرين ختمة .. ودارست عليه كتبا جمة .. وفى خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى استاذ تونس .. منهم الشيخ الحصايري ، والزرزالي ، وابن القصار ، وابن بحر .. واشار علي هذا بحفظ الشعر فحفظت الكثير منه .. واخذت الفقه بتونس عن جماعة منهم الجياني ، والقصير .. وكان قدم علينا فى جملة السلطان ابي الحسن .. سنة ثمان واربعين

وسبعمائة جماعة من أهل العلم كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه .. ولما قدم (علي بن محمد بن تروميت) على تونس .. لزمته واخذت عنه الاصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية » .

(7)

اسست فاس فى ايام ادريس الاكبر سنة 172 (789)، وذلك بعد أن ضاقت وليلي به وبجماعته وبمن وفد عليه من اهل المنطقة . ويبدو ان النقود ضربت فى فاس هذه منذ سنة 189 . وبعد ذلك بمدة ذهب ادريس الازهر بن ادريس لاكبر الى فاس ليستوطنها. ولما كان مولعا بالبناء والتجديد ، على غرار ما عرف عن كبار أهل الحكم فى العالم الاسلامي، فقد بنى هو الآخر مدينة جديدة على الطراز الشرقي الافريقي وذلك فى سنة 193 (809) . وقد سميت اولا العالية . ولكن بسبب كثرة من رحل اليها من القيروان وما اليها فقد عرفت فيما بعد باسم مدينة القرويين .

وفى سنة 202 (817) قدم الى ادريس الازهر القرطبيون المعروفون باسم « ثوار الربض » . ذلك ان ثورة قامت فى قرطبة ضد الحكم اميرها ، فقام الحكم باخمادها وفرق الثوار ثم امر من بقي منهم، وهم كثرة ، بالخروج من الاندلس . فانصرف بعضهم الى فاس . فتلقاهم ادريس هناك، واستقروا على الضفة الشرقية من النهر ، وانشاوا تدريجيا مدينة اندلسية الشكل والنمط ، وهي التى سميت فيما بعد مدينة الاندلسيين او عدوة الاندلس .

ولما تم للامام الاكبر ادريس بناء المدينة، وحضرت الجمعة الاولى ، صعد المنبر وخطب الناس ، ثم رفع يديه فى ءاخر الخطبة وقال « اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة . وانما اردت أن تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكانها وقطانها للخير واعنهم عليه واكفهم مؤونة اعدائهم وادر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انها على كل شيء قدير » .

ومع ان عصر فاس الذهبي هو عصر بني مرين ، فان المدينة كانت ، حتى قبل ذلك ، مهبط اهل العلم ، لانها جمعت علم المشرق والمغرب ، اي علم القيروان وقرطبة ، واضافت الى ذلك الكثير من تفكير ابنائها بالذات .

وقد خلف لنا غير مؤلف وشاعر وصفا لفاس. فمن ذلك وصف جغرافيي العرب فى القرن الرابع . ونجتزيء من ذلك على اثنين هما ابن حوقل والمقدسي. قال ابن حوقل : « وفاس مدينة جليلة يشقها نهر . وهي جانبان يليهما اميران مختلفان ، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل . ونهرها كبير وغزير الماء عليه ارحية كثيرة. وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة، احدثها ادريس ابن ادريس . فى كل يوم من ايام الصيف يرسل فى أسواقها من نهرها الماء ، فيغسلها فتبرد الحجارة . وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد فى ارض الهبط موقعه ، وظاهر بكثرته حده وموضعه ، ومستفاض بوفوره مكانه ومرفقه » .

وقال المقدسي :

« فاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصن ، بينهما واد جرار عليه بساتين وارحية ، قد استولى على احدهما الفاطمي وعلى الآخر الاموي. وكم ثم من حروب وقتل وغلبة . بناؤها مدر وحصنهما طوب . واخرى على الوادي بناها ابن أحمد » .

الا ان مدينة فاس تقدمت واتسعت فى ايام بني مرين اذ اتخذوها عاصمة لملكهم لما استقر امرهم فى البلاد . والذى يعود اليه الفضل فى انشاء الدولة والعاصمة الجديدة لها هو ابو يوسف . فانه « لما عزم امير المسلمين ابو يوسف على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وحاضرته وحشمه ، ركب يوم الاحد الثالث لشوال من سنة اربعين وسبعين وستمائة وخرج معه العرفاءوالبناؤون واهل المعرفة بالصنائع. فتخيروا موضعها على وادي فاس ، وشرع فى حفر أساسها . واخذ طالع ذلك الفقيه المعدل ابو الربيع سليمان القياش وابو عبد الله محمد بن الحباك . وكان تاسيسها فى طالع سعيد ووقت يمن وبركة رمزية دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجيء اليها من الاموال. فكانت والحمد لله مدينة مباركة . فاتخذها دار ملكه

ومنك بنيه وعقبه من بعده ، يجيء اليها جميع خراج المغرب .

ولبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز المدينة علميا . فقد وسع ابو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة البوعنانية . وقد جاء في جني زهرة الاس : « واما خزانة الكتب التى يدخل اليها من اعلى المستودع الذى بها فانه لما كان من رأى ابي عنان ، رحمه الله تعالى ، حب العلم وايثاره والاهتمام به والرغبة في انتشاره والاعتناء باهله ومتحمليه والتودد لقرائه ومتحليه ، انتدب لصنع هذه الخزانة . واوسع على طلبة العلم بان اخرج لها من الكتب المحتوية على انواع من علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها واجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الاوفى . وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة . واجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الاولى سنة خمسين وسبعمائة . واما خزانة المصاحف التى امر بها مولانا امير المؤمنين ابو عنان ، رحمه الله تعالى ، في قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع المنشيء على حسنها ما لم يسبقه اليها احد من ائمة هذه الاصقاع .

ولابي سعيد المريني فضل على المدارس كبير ، انشا المدرسة العظمى . « وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها امر السلطان ابو سعيد ايضا ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس، وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين . فبنيت على يد الشيخ ابي محمد عبد الله بن قاسم المزوار . وحضر السلطان ابو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء واهل الخير حتى اسست وشرع في بنائها بمحضره . فجاءت هذه المدسة من اعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها . واجرى بها ماء معينا من بعض العيون هنالك . وشحنها بالطلبة ورتب فيها اماما ومؤذنين وقومة يقومون بامرها ، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم . واجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية . واشترى عدة املاك ووقفها عليها احتسابا بالله تعالى. وسياتي التنبيه على ما بناه ابنه ابو الحسن من ذلك ايام ولايته وحافده ابو عنان وغيرهما ان شاء الله . وبالجملة فقد كان لبني مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم واهله ، تشهد بذلك ءاثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها ».

ولعل خير ما وصفت به فاس في ايام بني مرين هو ما جاء في روض القرطاس ، لابن ابي زرع ، من مؤرخي عهدهم واعلامه : « ومدينة فاس لم تزل ام بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين اطال الله ايامهم واعلى امرهم وخلد سلطانهم فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع. وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعت المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجره . وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة واسواق مرتبة منتسقة وعيون منهمرة وانهار متدفقة منحدرة واشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة . وقالت الحكماء احسن مواضع المدن ان تجمع خمسة اشياء وهي النهر الجاري والمحرث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان، اذ به صلاح حالها وامن سبلها وكف جبابرتها . وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التى هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة . فلها المحرث المعظم سقيا وبعلا على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذى في قبلتها ، يصبح كل يوم على ابوابها احمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة . ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها انهارا وجداول وخلجانا فتتخلل الانهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها واسواقها وحماماتها ، وتطحن بها ارحاؤها ، ويخرج منها وقد حمل اثقالها واقذارها ورماداتها .

(8)

للعرب في اسبانية تاريخ طويل، فقد ظلوا فيها، او في أجزاء منها ، منذ اوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) الى اواخر القرن السابع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وفي هذه الفترة اصلحوا كثيرا من المدن القديمة المهجورة وانشأوا مدنا جديدة. والمدينة التى كانت عاصمة الامويين ايام الولاية والامارة والخلافة هي قرطبة ، وهي التى تريد ان نتحدث عنها الآن . وقد كان عصر قرطبة الذهبي في اواسط القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) وخاصة ايام عبد الرحمن الناصر . .

تقوم قرطبة على ضفاف نهر الوادي الكبير والجزء الداخلي منها عرف باسم المدينة ، وبسبب ازدهار الحياة الاقتصادية وثراء المدينة والبلاد وعناية

الامراء والخلفاء، اتسعت المدينة تدريجيا فخرج الناس الى الضواحي حيث قامت احياء جديدة فيها اسواقها ومساجدها ومدارسها وقصورها . واجمل الضواحي كانت الزاهرة التى بناها عبد الرحمن الناصر نفسه .

كان مسجد قرطبة الجامع الكبير وقصر الامارة (والخلافة) يتوسطان المدينة وتدور بهما اسواقها المليئة بالمتاجر على اختلاف انواعها . اما الصناعات فكانت موزعة على جهات مختلفة . ولا يمكن تصور شيء لم يصنع فى قرطبة فى تلك الايام . لكن لعل اهم ما اعطته المدينة لاوروبة فى المصنوعات الورق والمصنوعات الجلدية والحلى . وبسبب ثراء المدينة وازدهارها وتشجيع اولي الامر تدفق الناس الى قرطبة . فجمعت من كل صنف ونوع وعمل .

كان الجامع المدرسة الاولى فى قرطبة ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن العربية والاسلامية . الا ان الناصر انشأ معهدا للدراسات المختلفة وكان على مقربة من المسجد الجامع . وقد كان رجال التعليم فيه يكرمون وتؤمن لهم حاجاتهم ، فاقبلوا على الجامع من كل حدب وصوب . وكان فى مكتبة القصر ما يزيد على نصف مليون مجلد . وكان الطلاب يتلقون العون المادي ويجدون الاماكن الصالحة للسكن .

والمواد التى كان الطلاب يتعلمونها شملت جميع انواع المعارف : الادب والتاريخ والفقه وعلم الكلام والفلسفة والرياضيات والفلك والطب . ويكفي أن قرطبة حفلت باسماء جماعة من كبار اهل الفكر فى الاسلام مثل ابن باجة وابن رشد .

كانت قرطبة ، مثل كثير غيرها من مدن الاندلس ، مكانا للاحتكاك الفكري والتجاوب بين ما جاء به العرب من المشرق وما كان فى اسبانية من قبل . لكن اهم من هذا كله أن مدن الاندلس العربية كانت مراكز انتقلت منها الحضارة والعلم والفلسفة الى اوروبة . فقد نقل ما لا يقل عن مئتين من الكتب القيمة الى اللغة اللاتينية ، لغة العلم فى اوروبة فى العصور الوسطى . وهذه كانت الشرارة التى ايقظت العقل الاوروبي وفتحت الطريق امام النهضة الاوروبية .

فاذا كان لقرطبة ومثيلاتها من مدن الاندلس دور خاص فهو انها كانت جسرا انتقلت عليه المعرفة من العرب الى الغرب .

(9)

وءاخر المدن التى نريد ان نعرض لها فى هذا المقال هي بلرمو . كانت صقلية جزءا من الامبراطورية البزنطية الى ان احتلها العرب فى مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وظلت تحت السيادة العربية الى سنة 458 هـ (1091 م) اذ انتزعها النورمان منهم . لكن ذلك لم يعن نهاية الحضارة العربية فى بلرمو او صقلية. ذلك بأن ملوك النورمان وخلفاءهم من الاباطرة ادركوا الفائدة التى يمكن ان تجنى من الاستمرار الحضاري العربي فشجعوه وافادوا منه .

فى ايام العرب اصبحت بلرمو ملتقى الشعوب والاجناس والاديان المختلفة واستمر هذا بعد ذلك والتفاعل الحضاري بين هذه الجماعات المختلفة الذى بدا ايام العرب استمر فيما بعد . فالحياة الاقتصادية ظلت نامية والاهتمام بالعلم لم يتوقف . ومدينة بلرمو ظهرت حولها ارباض وضواح هامة . وازداد عدد السكان فى المدينة .

ولعل الملك النورماني الذى يستحق الذكر هو روجار (الثاني) الذى حكم فى النصف الاول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . فقد بني البيع فى الجزيرة وزخرفتها بالنقوش الكوفية والقوس العربي والفسيفساء . والابواب البرونزية والحديدية التى استعملت فى اماكن العبادة والقصور هي عربية روحا وشكلا . وكانت علاقة روجار بالعرب المسلمين ودية للغاية . وكان يدعو علماءهم للاجتماع به . فيثيرون فيما بينهم القضايا المختلفة ويتباحثون فيها بروح الصداقة والمودة والعلم .

فى هذا الجو عاش العالم الكبير الشريف الادريسي ، وهو كبير الجغرافيين العرب . ولد الادريسي فى سبتة من اعمال المغرب وتلقى العلم فى قرطبة وتنقل فى انحاء البحر المتوسط . ويبدو انه انتقل الى بلاط روجار سنة 535 هـ (1140 م) وظل هناك الى حين وفاته (576 هـ — 1180 م) وقد كان روجار شديد العناية بالفلك والجغرافية فوجد فى الادريسي ما يشفي غليله . ذلك بأن الملك كان يعرف ما كتب عن العالم قبلا . لكنه كان يرى ذلك نتفا تحتاج الى جمع وتنظيم بحيث تصبح الفكرة واضحة المعالم بينة الخطوط . فجاء الادريسي واتم ذلك . اذ وضع كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ورسم

كرة من الفضة للارض . واهم ما في الكتاب ، بالاضافة الى المعلومات ، ما رسمه الادريسي من خرط للعالم . ومن حسن الحظ ان هذه كلها وصلت الينا سالمة ، كما وصل الكتاب . لكن الكرة الفضية تلفت في ثورة قامت في بلرمو بعد الفراغ منها بمدة قصيرة .

والآن ماهي اهمية بلرمو كمدينة عربية، لسلطان عربي وبدونه ؟ اهميتها هي انها كانت جسرا انتقلت عليه الحضارة العربية فنا ومعمارا وجغرافية وطبا من شمال افريقية الى ايطالية . وكانت صقلية مكانا للتصفية والاختبار والتجربة. ولعل صقلية عملت فيما بعد لنقل بعض ثمار النهضة الاوربية الى تونس .

في هذا الدور تشبه بلرمو تونس وقرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها . لقد كانت هذه كلها منطلقات نقل عنها الغرب علم العرب وفنهم وصناعاتهم وما الى ذلك .

(10)

اذا نحن القينا نظرة عامة على هذه المدن التي عرضنا لها وغيرها مما اشرنا اليها وجدنا ان المدينة العربية كانت لها خطط متشابهة . فكل منها كان لها مسجد جامع تقام فيه صلاة الجمعة كما كان مركز الحياة العامة . وكان لكل منها قصر لصاحب الامر وكانت تدور بكل مدينة اسوار تحميها . والاسواق والقيساريات كانت مراكز الحياة الاقتصادية . وكانت هذه المدن لها مدارسها . وفي غالب الاحيان كانت المدينة ضواحيها وارباضها وهي اما امتدادات للمدينة خارج الاسوار على نحو ما عرفت بغداد وفاس وذلك بسبب نمو المدينة السريع وازدياد عدد سكانها . واما ان تكون متنزهات عامة على غرار غوطة دمشق ، أو متنزهات خاصة بالسلطان مثل الزهراء في قرطبة . وهذه العناصر التي كانت تتكون منها المدينة كانت تختلف سعة وابهة وقوة وضخامة بنسبة ما كانت عليه الدولة من ثروة وقوة ومنعة واتساع رقعة .

واذا تخطينا الخطط الى الروح التي كانت تتميز بها المدينة العربية الاسلامية وجدنا ان ذلك يتوقف على الدولة التي تبنيها والجماعة التي تعمرها باديء ذي بدء . فبغداد والقاهرة ومراكش كانت منشئات جديدة لدول جديدة – العباسيين والفاطميين والموحدين . وكل دولة كانت لها روح خاصة بها: من احياء للخلافة او احقاق لحق او تمجيد للدين في اطراف العالم الاسلامي . والدور الذي قامت به كل من هذه المدن كان يتمشى مع روحها : فدمشق نظمت امبراطورية . وبغداد نقلت العلم عن القدامى وعربته ، وعمل العلماء فيها على خلق الفكر العربي الاسلامي . والقاهرة نظمت المذاهب الشيعية والاسماعيلية وجربت نشرها ومراكش احيت السنة ووحدت المغرب العربي اشعريا . وفاس صفت العلم الاسلامي ونشرته في الربوع الاسلامية الثانية.

اما قرطبة وتونس فلم تكونا مركزين كبيرين للعلم فحسب، بل كانتا منطلقا للمعرفة العربية والعلم العربي ينتقلان طبا وفلكا ورياضيات وفلسفة وكلاما وشعرا موشحا الى اوروبة عبر البرانس الى فرنسة وعبر البحر الى ايطالية . وبلرمو حفظت حضارة العرب وثقافتهم مدة طويلة حتى بعد سقوط دولتهم، وبذلك مكنت للطب والفن والمعمار والادب والمعرفة الجغرافية ان تحمل الى اوروبة لا على ايدي زوار وتراجمة فحسب ، ولكن بواسطة جماعات كبيرة تعايشت مع العرب وافادت منهم .

المدينة العربية في العصور الوسطى كانت متعددة الابعاد . ولا غرابة في ذلك فابعادها – افقيا وعموديا – مرتبطة بابعاد هذه الحضارة والسياسة والثقافة التي عاشت فيها : في رقعة من الارض عريضة ولفترة من الزمان طويلة .

بيروت – د. نقولا زيادة

شعر الدعوة الإسلامية بين الضعف والقوة

للأستاذ محمد الأمين أبو أحمد

يكاد يكون من الصعب تحديد الصفات العامة لشعر الدعوة الاسلامية فى جملة عابرة او حكم سريع، لان الامر يتطلب دراسة مستفيضة والماما شافيا بمختلف جوانب الموضوع . وبالتالي استطرادا منهجيا يعتمد بالدرجة الاولى على ما بايدينا من نصوص شعرية لحسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم من شعراء الدعوة الاسلامية ، ولعل الامر يتطلب الى جانب ذلك عرضا مختصرا لبعض ءاراء النقاد والدارسين والمؤرخين عموما ، اولئك الذين بذلوا محاولات طيبة فى سبيل التعريف بشعر الدعوة الاسلامية من جهة، وفى سبيل دراسته ووضعه على بساط النقد والتحليل من جهة ثانية .

يبدو بديهيا فى ضوء ذلك كله ان دراستنا لشعر الدعوة الاسلامية ستنحصر فى مناقشة بعض اقوال الدارسين ووجهات نظرهم حول هذا الشعر ، وفى مناقشة راي الاصمعي بصفة خاصة حول ضعف الشعر الاسلامي ، وستنحصر ايضا فى تحليل نماذج سريعة لبعض شعراء الدعوة الاسلامية . ونصل بعد ذلك — بالضرورة — الى زبدة ختامية نوضح خلالها حكما عاما نستخلصه من الدراسة ككل .

تشعبت الدراسات حول الشعر الاسلامي ، واختلفت ءاراء الباحثين فى امره ، وتعددت الاحكام من دارس الى ءاخر ، واصبح الامر يتعلق بقضية هامة — ان لم نقل مشكلة — مطروحة على مختلف المستويات ، فمن راي الاصمعي حول ضعف هذا الشعر الى وجهة نظر ابن خلدون حول اسباب ضعفه وخفوته ، الى يحيى الجبوري الذى اخرج كتابا فى الموضوع (الاسلام والشعر) ، والى غيره من المحدثين كشوقي ضيف ومحمد عبد العزيز الكفراوي واحمد الشايب وغيرهم . وكل هؤلاء اجتهدوا اجتهادا محمودا فى الموضوع ، وايد كل واحد منهم وجهة نظره ببراهين وادلة متباينة مختلفة .

ويهمنا جدا فى هذا المجال ما ذهب اليه الاصمعي حول ضعف شعر الدعوة الاسلامية ، اذ اكد ان (الشعر نكد بابه الحشو ، فاذا دخل فى الخير ضعف، وهذا حسان من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره) ، وكأنه يريد ان يرمي من وراء ذلك الى ان الشعر تنحصر مهمته فى تناول قضايا عابثة لاهيةومضامين خيالية متباينة،وموضوعات مستقاةمن خيال الشاعر لا من واقعه ، تعتمد اول ما تعتمد على قدرة ابداعية وملكة شعرية خارقة . والامثلة على ذلك كثيرة لا تعوزنا باية حال من الاحوال ، ان حياة الشاعر الجاهلي وما كانت تزخر به من ليالي حمراء ساخنة وحياة عابثة ماجنة لخير دليل وافضل شاهد على ذلك ، وقد كان من الطبيعي ان تنعكس هذه الحياة الماجنة اللاهية المضطربة فى نتاج الشاعر الجاهلي فانشد فى تصويرها ومحاكاتها قصائد عصماء طويلة ..

الى هنا يظل الشعر — فى راي الاصمعي — ساميا مرتفعا يسمو الى المرتبة الجليلة ويرتفع الى المكانة العلياء ... ولكنه يسقط ويهوى — لا محالة — اذا خرج من نطاق الشر الى الخير واصبح تعبيرا عن عواطف حادة صادقة ، ومضامين حية واقعة ، وقضايا انسانية خصبة تتناول الناس والحياة والمجتمع ...

وهو يورد اسم حسان بن ثابت كنموذج لذلك، وكصورة صادقة ينطبق عليها قوله تمام الانطباق .. ان حسان فحل من فحول الجاهلية وعلم من اعلامها

المعروفين ، ولكن انبثاق نور الاسلام كان سببا مباشرا في سقوط شعره وافول نجمه ... ؟

لقد كان حسان شاعرا جاهليا يعايش الملوك والامراء وينادمهم ويشاركهم حياتهم العامرة بشتى اصناف اللهو والمجون ومختلف اشكال الترف والرخاء، وينشد القصائد الطويلة في مدح المناذرة والغساسنة ، وكان شعره لذلك يتوفر على خصائص هامة ولمسات فنية فريدة ، ونفثات روحية خالدة ، ولكن مجيء الاسلام وانتظامه في صفوف المسلمين شاعرا من شعراء الرسول يرد عنه هجمات الكافرين ويمدحه بقصائد صادقة حية ، ويشحذ عزائم المسلمين ، كل ذلك جعل شعره يبدو ضعيفا خافتا، ليس في مستوى شعره الجاهلي بأي شكل من الاشكال ...

هذه باختصار نظرة تحليلية سريعة الى قول الاصمعي ، وقد يكون من الضروري التعليق عليه وابداء وجهات النظر حوله . ويستحسن قبل ذلك ان نشير اشارة خاطفة الى بعض الاراء الهامة في الموضوع والمتعلقة اساسا بالشعر الاسلامي بين الضعف والقوة بصفة عامة .

وقد يكون من الصعب الالمام بمختلف وجهات النظر والآراء التي قيلت في الموضوع جمنة وتفصيلا نظرا لتشعبها وتعدد اتجاهاتها . الا اننا سنكتفي ببعض هذه الاراء ، لنعود بعد ذلك الى دراسة قول الاصمعي والتعليق عليه .

ذهب بعض الباحثين الى ان الضعف الذي اعترى الشعر الاسلامي كان ناتجا عن تشاغل العرب بأمر الدين والنبوة ودهشتهم امام اساوب القرءان وبلاغته وخصائصه الفنية الفريدة ، ولعل هذا بالضبط هو ما اشار اليه الدكتور محمد نجيب البهبيتي في (تاريخ الشعر العربي) حيث قال : (والعرب قوم ذوو لسن ، وذوق قولي ممتاز . فلم يلبثوا ان اخذهم القرءان بجماله ، كما اخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة ، المبراة من النقائص التي كانت تصيب الشرائع الاخرى. فشغلوا بالقرءان ، وسكت الشعراء ليستمعوا الى كلمة الله) (1) .

وقد اكد محمد عبد العزيز الكفراوي ان سلطان الكتاب الجديد على العرب كان اقوى من ان يدع لهم فرصة للتفكير في سواه : فقد سئل لبيد بن ربيعة ان ينشد شعرا فقرا سورة (البقرة) . وقال : ما كنت لاقول شعرا بعد ان علمني الله سورة (البقرة) و (ءال عمران) .

ويرجع محمد بن سلام الجمحي ضعف الشعر الاسلامي الى اتجاه المسلمين وجهة علمية وتشاغل العرب بالجهاد وغزو فارس والروم .

ولعل هؤلاء — وغيرهم — يلتقون في قضية هامة تشكل جانبا اساسيا من جوانب الموضوع ، وبالتالي سببا رئيسيا من اسباب ضعف الشعر الاسلامي .

ولكن راي الاستاذ احمد الشايب المعتدل يكاد يكون اقرب الى الحقيقة وادنى الى الصواب نظرا لاعتبارات واضحة معروفة ، فهو يؤكد ان الشعر الاسلامي توفرت له عدة عناصر وعوامل ليكون قويا ، وان كنا لا نعدم بعض جوانب الضعف في هذا الشعر . ولعل اسباب الضعف ناتجة عن الارتجال وانتحال الكثير من الشعر الذي (قيل) في هذه الفترة ، وعدم وصول الكثير مما قيل خلالها . وهو يؤكد بعد ذلك ان هذا الشعر (شعر الدعوة الاسلامية) كان قويا حماسيا لانه : شعر المواطف المتعارضة التي تتصادم حول اعز ما في هذه الحياة: الدين والحرية والسيادة، ولانه شعر النهضة الفائرة) .

ويتخذ باقي الدارسين امثال شوقي ضيف واحمد الحوفي ويحيى الجبوري مواقف خاصة تجاه الشعر الاسلامي ، وقد لا نشير الى هذه المواقف والآراء ، لاننا يجب ان نعود الى مناقشة راي الاصمعي من جهة ، ولاننا اشرنا اشارات خاطفة الى ءاراء بعض الباحثين الاخرين من جهة ثانية .

ويبدو أن الاصمعي كان ينظر الى الشعر ككل من وجهة نظر خاصة ، من خلال مقاييس محدودة ايضا، اذ ان ما ذهب اليه حول ضعف الشعر الاسلامي (لانه خرج من الشر الى الخير) يحتاج الى اعادة نظر ، ووقفة طويلة ومناقشة شافية كافية .

وليس معنى ذلك قط ، انه رأي شاذ غريب ، لان الكثيرين ممن جاءوا بعده تبنوا وجهة نظره لسبب او لآخر ، واتفقوا معه — من قريب او بعيد — فيما يذهب اليه ، وان كان بعضهم قد اورد ذلك في صورة انضج واوسع واكثر وضوحا ، ولعل ما اثاره الاصمعي

(1) الدكتور نجيب البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي، صفحة 113 .

حول الخير والشر في الشعر بصفة عامة ، هو مـا يثار اليوم تحت شعار (الصـدق الموضوعي والفني عند الشاعر) او التزامه لقضية معينة وتناولها بطريقة خاصة يلتزم خلالها (الصدق) بكافة اشكاله والوانه . .

وقديما قيل في هذا المجـال (اعـذب الشعـر اكذبه) ، ولعل الضعف الذى اعتـرى شعر الدعـوة الاسلامية كان ناتجا عن الصدق الكامل عند الشاعـر — في راي الكثيرين — وعدم اطلاقه لسـراح عنـان الخيال ، يسبح في سماواته ويحلق في فضائه .

ان اشتغال العرب بالحـروب والجهـاد ، وتغلغل الروح الاسلامية في نفوس الشعراء ، وظروف الحياة التي كان يمليها الوضـع الجديد في الجزيـرة العربية ، كل ذلك ادى الى نوع من السـرعة والارتجال في عديد من الآثار الادبية الشعرية التي قيلت في هذه المرحلة، وليس معنـى ذلك قط ان التـزام الشاعر للصدق في كل ما يكتب وينتج — او خروجه من نطاق الشر الى الخير — كما يرى الاصمعـي ، كان السبب الرئيسي والاولي في ضعف هذا الشعر (وسقوطه)، بل ان هذا الضعف نفسه لا يبدو واضحـا جليا في كل ما قيل خلال هذه الفتـرة من اشعـار ، بل انه يبدو — لا غير — في عدد منه — كما يـرى الاستـاذ الشايب — (1) ، وهو في جانـب آخـر يمثـل قوة وارتفاعا ، ولهذا الضعف اسباب عدة المعنا الى بعضها فيما سبق .

ونصل الى قضية هامة نثيرها — بصفة خاصة — على هامش دراستنا لشعر الدعوة الاسلامية ، هذه القضية هي مدى تأثر الشعراء بالقيـم الاسلاميـة وتخلصهم من قيـم الجاهليـة وعاداتهـا ، ونتساءل بالتالي عن الحكم الصائب في هذا المجال .

في سبيل الاجابة عن ذلك نؤكد ان بعض ملامح الحياة الجاهلية ظلت مصاحبة لبعض شعراء الاسلام حتى في حياتهم الاسلامية ، ولا ادل على ذلك من ان الفخر ظل ملازما لحسان حتى بعد اسلامه وانتظامه في صفوف شعراء الرسول . (2)

وواضح جدا في (بانت سعاد) لكعب بن زهير التي انشدها في مدح الرسول (ص) ان ملامح الشعر الجاهلي وقيم الحياة الجاهلية تفـرض نفسهـا على الشاعر بصورة تلقائية ، فهو يبـدا بالغـزل ووصف الناقة ، ويمدح النبي (ص) بقيم جاهلية ، ويـستقصي خطوات الشعراء الجاهليين في تصوير محنته وتقديم اعتذاره للرسول ، وان كنا لا نعدم ملامح خفيفة من تأثره بالروح الاسلامية . . وقد لا نحتاج الى تحليـل القصيدة وتسجيل بعض ابياتها لاننا قد نجد انفسنا بعد ذلك نحال موضوعا جانبيا باسهاب وتفصيل لا يتطلبهما المقام . .

والشاعر يتأثر بما حوله من واقع الحياة ماديا ومعنويا ، ولذلك كان طبيعيا ان تظل بعـض القيـم الجاهلية — وان كانت طفيفـة الى حـد ما — ملازمـة لبعض شعراء الدعوة الاسلامية .

ونعود بعد هذه القضية مباشرة الى الاصمعي مرة اخرى لنؤكد ما قلناه سابقا من ان هذا الضعـف لم يكن شاملا ، وان اسبابه كثيرة متعددة لا تنحصر قط في خروج الشاعر من باب الشر الى الخير كما يذهب الى ذلك الاصمعي نفسه . وهو يذهب الى ان شعر حسان الاسلامـي — جملـة — كان ساقطـا ، ضعيفا ، خافتا ، وهو حكم يحتاج ايضا الى دراسة طويلة . اذ ان حسان انشد في هذه الفتـرة شعرا لا يقل من حيث مستواه وقيمته عن شعره الجاهلي . وان كان شعره قد ضعف في قسم منه نظرا لعمليـة الارتجال والسرعة التي كانت تطبع حيـاة الشاعـر الاسلامي ، وهو ما اكدناه غير ما مرة في السابق .

ويبدو ان هناك من انصفه — نوعا ما — واشاد بشعره في هذه المرحلة بالذات . ونتذكر هنا الحطيئة الذي قال (ابلغوا الانصار ان شاعرهم اشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهـر كلابهـم
لا يسألون عن السواد المقبـل

وبعد ، هذه دراسة تحليلية خاطفة لوجهة نظر الاصمعي حول ضعف الشعر الاسلامـــي ، اتمنى ان اكون خلالها قد وفقت الى توضيـح بعض القضايـا ، المرتبطة اساسا بأدب الدعوة الاسلامية بين الضعـف والقوة بصفة عامة .

القصر الكبير — محمد الامين أبو احمد

---

(1) راجع تاريخ الشعر السياسي لاحمد الشايب .

(2) انظر حديثنا عن (صـراع القيـم الجاهليـة والاسلامية في شعر حسان) العـدد 6 من « دعـوة الحـق » .



- 4 -

((غزواته العديدة ، وفتوحاته السعيدة، وما جرى فى زمانه من الامور الغريبة، والحوادث العجيبة ، من ولادتـه الى وفاته (على سبيل الاختصار)))

ـ سنة احـدى عشـرة وخمسمائـة ـ

ولد فيها نور الدين محمود .

وفيها زلزلت اربل وبغداد وغيرهما من البـلاد المجاورة لهما زلزلة عظيمة ، ووقع بالجانب الغربي من بغداد دور وحوانيت على اهلها .

وفيها هجم الفرنج على ربض حماة ، وقتلـوا خلقا كثيرا ، ورجعوا الى بلادهم .

وفيها تـوفى السلطـان محمـد بن ملكشـاه السلجوقي ، سلطان بلاد العراق وخراسان وغيـر ذلك من البلاد الشاسعة، والاقاليم الواسعة . وكان من خيار الملوك ، واحسنهم سيرة ، وقـام بالامـر بعده ابنه محمود، وله اربع‌عشرة سنة، وفرق خزائنه في العسكر ، وقيل : كانت احد عشر الـف الـف دينار عينا ، وما يناسب ذلك من العروض .

ـ سنة اثنتي عشرة ـ

فيها مات ملك الفرنجة المسمى بغدوين الذى افتتح القدس ، وكان جبارا خبيثا شجاعـا ، هـم بالاستيلاء على مصر، وسار فى جموعه حتى وصل الى بلبيس (احدى المدن المصرية شرق الدلتا) ثم رجع عليلا فمات ، فشقوه وصبروه ، ورموا حشوه هناك. قال الذهبي : فهو يرجم الى اليوم ، ودفن بالقمامة. وتملك القدس بعده القمص صاحب الرها ، وكان قد قدم الى هذه المدينة زائرا ، فوصى بغدويـن لـه بالملك من بعده .

وفيها توفى الخليفة المستظهـر بالله ، وولى بعده ولـده أبو الفضل منصـور ولقب بالمسترشد بالله . ومن الاتفاق الغريب انه لما مات السلطان الب ارسلان مات بعده الخليفة القائم ، ثم لمـا مـات السلطان ملكشاه مات بعـده المقتـدى ، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده المستظهر بالله هذا .

وفيها كان حريق كبير ببغداد ، احترقت الريحانتان ، ومسجد ابن عبدون .

ـ سنة ثلاث عشرة ـ

وفيها انفصل عن الحلة الامير ابو الحسن بن المستظهر بالله ، فمضى الى واسط ، ودعا الى نفسه ، واجتمع معه جيش ، وتملك واسط واعمالها ، وجبى ا لخراج ، وقد شق ذلك على الخليفة ، الذي كلف احد قواده بالسير اليه ، في جيش عظيم ، فلما سمع ابو الحسن بذلك ترحل من واسط في عسكره ليلا ، وضلوا الطريق وساروا ليلهم اجمع حتى وصلوا الى عسكر دبيس ، وهو قائد في قاعدة حربية هامة للدولة ، فلما لاح لهم العسكر انحرف ابو الحسن عن الطريق ، فتاه مع عدد من خواصه ، وذلك في شهر تموز ، ولم يكن معهم ماء ، فاشرفوا على التلف ، فادركه نصر بن سعد الكردي فسقاه حتى عادت نفسه اليه ، ونهب ما كان معه من مال ، وحمله الى دبيس بالنعمانية ، وبعث به الى المسترشد بالله بعد تسليم عشرين الف دينار قررت له ، وكانت فترة عصيانه احد عشر شهرا ، وشهر وزيره ابن رمهويه على جمل ، ثم قتل في الحبس . ودخل الامير ابو الحسن على اخيه المسترشد بالله ، فقبل قدمه ، فبكيا جميعا ، ثم قال له : فضحت نفسك ، وباعوك مع العبيد . واسكنه في داره التي كان فيها وهو ولي عهده ، ورد جواريه واولاده ، واحسن السيرة اليه ، ثم شدد عليه بعد ذلك .

وفيها خطب بولاية العهد للامير ابي جعفر منصور بن المسترشد بالله ، وله اثنتا عشرة سنة.

وفيها سارت الفرنجة الى مدينة حلب ، ففتحوها وملكوها، وقتلوا من خاقها الكثير ، فسار اليهم صاحب ماردين ايلغازي بن ارتق في جيش كثيف ، فهزمهم عنها ، ولحقهم الى جبل قد تحصنوا فيه ، فقتل منهم هنا مقتلة عظيمة ، ولم يفلت منهم الا اليسير ، واسر من مقدمتهم نيفا وسبعين اسيرا، وقتل فيمن قتل سرحان صاحب انطاكية ، وحمل راسه الى بغداد .

وفيها ظهر قبر سيدنا ابراهيم الخليل ، وقبر اسحاق ويعقوب ، صلى الله وسلم عليهم ورءاهم كثير من الناس لم تبل اجسادهم ، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة ، قاله حمزة بن اسد التميمي في تاريخه (على ما حكاه ابن الاثير) .

ـ سنة اربع عشرة ـ

فيها كانت وقعة عظيمة بين الكرج والمسلمين بالقرب من تفليس ، فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، وغنموا اموالا جزيلة ، واسروا نحوا من اربعة آلاف اسير ، ونهب الكرج تلك النواحي ، وفعلوا اشياء منكرة ، وحاصروا تفليس مدة ، ثم ملكوها عنوة بعدما احرقوا القاضي والخطيب حين خرجا اليهم يطلبان الامان ، وقتلوا عامة اهلها ، وسبوا الذرية ، واستحوذوا على الاموال .

وفيها خطب لسلطان سنجر ، ولابن اخيه السلطان محمود معا في موضع واحد ، وسمي كل واحد « شاهنشاه » (ملك الملوك) ، ولقب سنجر « عضد الدولة » ،ولقب محمود «جلال الدولة» .

ـ سنة خمس عشرة ـ

فيها انقض كوكب عظيم صارت من ضوئه اعمدة عند انقضاضه ، وسمع له عند ذلك صوت هدة كالزلزلة .

وفيها هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة ايام ، فاهلكت خلقا كثيرا من الناس والدواب والانعام .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالحجاز ، تضعضع بسببها الركن اليماني ـ زاده الله شرفا ـ وتهدم شيء من حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الشريفة .

وفيها احترق باصبهان جامع كبير انفقت عليه اموال كثيرة ، يقال : انه غرم على اخشابه الف الف دينار ، وفي جملة ما احترق فيه خمسمائة مصحف ثمينة ، منها مصحف ابي بن كعب رضي الله عنه .

وفيها كانت ببغداد امطار عظيمة متوالية ، ثم وقع ثلج عظيم ، وكثر حتى كان علو ذراع . قال ابن الجوزي : وقد ذكر في كتابنا هذا ، يعني « المنتظم » ان الثلج وقع في سنين كثيرة في ايام الرشيد وفي ايام المقتدر وفي ايام المطيع والطائع والقادر والقائم ، وما سمع بمثل هذا الواقع في هذه السنة،

فانه بقي خمسة عشر يوما ما ذاب ، وهلك شجر الاترج والليمون ، ولم يعهد سقوط ثلج بالبصرة الا في هذه السنة .

وفيها جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة في ابهة عظيمة ، والبردة على كتفه، والقضيب بين يديه ، وجاء الاخوان الملكان محمود ومسعود ابنا محمد بن ملكشاه ، فوقفا بين يديه ، وقبلا الارض ، فخلع على محمود سبع خلع بطوق وسوارين، وتاجا، واجلس على كرسي ، ووعظه الخليفة ، وتلا قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وامره بالاحسان الى الرعية ، وعقد له الخليفة اللواء بيده ، وقلده الملك ، وخرجا من بين يديه ، ونزلا الى دارهما والجيش بين ايديهما في ابهة عظيمة .

وفيها قتل الملك الافضل احمد بن امير الجيوش بدر الجمالي مدبر دولة الفاطميين ، وخلف من الاموال ما لم يسمع بمثله . قال ابن خلكان : خلف الف الف دنار عينا ، ومائتين وخمسين اردبا دراهم ، وسبعمائة الف ثوب اطلس ديباج ، وثلاث حقاق ذهب مراق ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنى عشر الف دينار ومائة مسمار ذهب ووزن كل مسمار مائة مثقال في عشر مجالس في كل مجلس عشرة ، على كل مسمار منديل على لون من الالوان ، ايما احب منها لبسه. وخمسمائة صندوق لبس بدنه. وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والحلى ، وغير ذلك ما لا يعلم قدره الا الله . وخلف من البقر والجواميس والغنم ما يستحيي الانسان من ذكر عدده ، وبلغ ضمان البانها في السنة ثلاثين الف دينار ، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما ابر ذهب برسم النساء والجواري .

ـ سنة ست عشرة ـ

فيها قتل وزير السلطان محمود ابو طالب السمرقندي ، قتله باطني ، وكان قد برز للمسير الى همدان .

وفيها ظهر معدن النحاس بديار بكر ، قريبا من قلعة ذي القرنين .

ـ سنة سبع عشرة ـ

فيها ظهر الباطنية بآمد ، فقاتلهم اهلها ، فقتلوا منهم سبعمائة نفس ، ولله الحمد ..

وفيها اخذت الفرنج مدينة صور من طغتكين ، بعد حصار شديد ، واستنجد هذا القائد بالمصريين فما نجدوه . ولما اشرف اهلها على الهلاك راسل طغتكين ملك الفرنج على أن يسلمها اليه ، ويمكن اهلها من حمل ما يقدرون عليه من الامتعة ، فاجابه الى ذلك ، ووفى بالعهد ، وتفرق اهلها في البلاد ، ودخلها الفرنج في الثالث والعشرين من جمادى الاولى ، وكانت من امنع حصون المسلمين ، ودامت في يد الفرنج الى سنة تسعين وستمائة .

ـ سنة تسع عشرة ـ

فيها قتلت الباطنية القاضي ابا سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان وكان قد ارسله الخليفة الى السلطان سنجر ليخطب له ابنته .

ـ سنة عشرين وخمسمائة ـ

فيها استفحل امر بهرام داعي الباطنية بحلب والشام ، وعظم الخطب ، ثم التمس من طغتكين حصنا احتمي به ، فاعطاه بانياس فصار اليها ، وتجمع اليه اوباش ، فعظمت البلية به وبهم ، وتألم العلماء واهل الدين ، واحجموا عن الكلام فيهم ، والتعرض لهم خوفا من شرهم ، لانهم قتلوا جماعة من الاعيان ، وصاروا بحيث لا ينكر عليهم ملك ولا وزير .

ـ سنة احدى وعشرين ـ

فيها جاء الخبر بأن السلطان سنجر قتل من الباطنية اثني عشر الفا ، وقتلوا وزيره المعين ، لانه كان يحرض عليهم وعلى استئصالهم ، فتحيل رجل منهم وخدم سائسا لبغال المعين ، فلما وجد الفرصة وثب عليه وهو مطمئن ، وقتل بعده . وكان هذا الوزير ذا دين ومروءة وحسن سيرة .

وفيها فوض السلطان محمود شحنكية بغداد الى عماد الدين زنكي والد نور الدين ، ثم ولي بعد موت عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي في هذه السنة الموصل ، فرتب الامور على احسن نظام ، واحكم قاعدة ، وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت اجنادهم ، وامتدت الى بلاد المسلمين ايديهم ، وضعف اهلها عن كف عاديتهم ، وتتابعت

غزواتهم ، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان الى عريش ، ولم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، ومن الجزيرة الى نصيبين وراس عين . واما اهل الرقة فقد كانوا معهم فى ذل وهوان . وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبرية، ثم زاد الامر ، وعظم الشر حتى جعلوا على اهل كل بلد جاورهم خراجا، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى ارسلوا الى دمشق ، واستعرضوا الرقيق ممن اخذوا من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند اربابهم وبين العود الى اوطانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العودة الى اهله اخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين. واما اهل حلب فان الفرنج اخذوا منها مناصفة اعمالها ، حتى فى الرحي التي كانت على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة واما باقي الشام فكان حالها اشد من حال هذين البلدين . فلما نظر الله سبحانه وتعالى الى بلاد المسلمين ، وولاها عماد الدين زنكي غزا الفرنج فى عقر ديارهم واخذ للموحدين منهم بثارهم واستنقذ منهم حصونا ومعاقل .

وفيها ملك عماد الدين زنكي والد نور الدين مدينة حلب وما حولها من البلاد .

وفيها تحارب الخليفة والسلطان محمود ببغداد ، فثارت العوام مع جيش الخليفة ، فكسروا جيش السلطان ، وقتلوا خلقا من الامراء ، واسروا آخرين ، ونهبوا دار السلطان محمود ودار وزيره ، وجرت خطة عظيمة جدا، ونالت العامة من السلطان، وجعلوا يقولون له : يا باطني ، تترك الفرنج والروم ، وتقاتل الخليفة !! ثم حصل الصلح بينهم، وتحالفوا، ودخل جيش السلطان بغداد فى غاية الجهد من قلة الطعام عندهم فى العسكر ، وقالوا : لو لم نصالح لمتنا جوعا ، وظهر من السلطان حلم كبير على العامة .

ـ سنة اثنتين وعشرين ـ

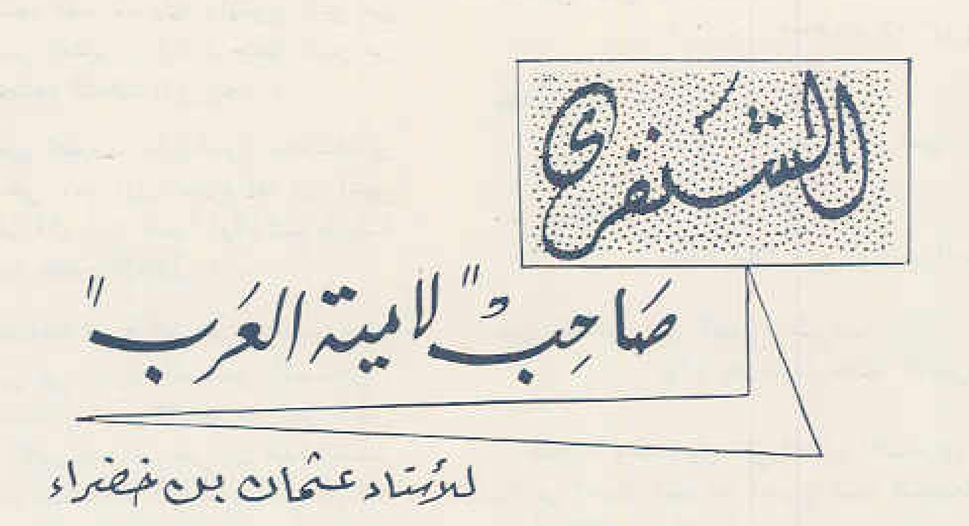
فيها فتح عماد الدين زنكي جزيرة ابن عمر ، ثم مدينة اربل ، وعظم شانه ، واتسعت دولته .

ـ سنة ثلاث وعشرين ـ

فيها ملك عماد الدين زنكي سنجار والخابور والرحبة ، وافتتح نصيبين .

وفيها اظهر زنكي انه يريد جهاد الفرنج ، وارسل الى تاج الملوك بورى يستنجده ، فبعث له عسكرا ، بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ، وامر ولده سونج ان يسير اليه من حماة ، ففعل، فاكرمهم زنكي ، وطمأنهم اياما ، ثم غدر بهم ، وقبض على سونج وعلى امراء ابيه ، ونهب خيامهم ، وحبسهم بحلب ، وهرب جندهم ، ثم سار ليومه الى حماه ، واستولى عليها ، ونازل حمص ، وحاصرها مدة فلم يقدر عليها ، فرجع الى الموصل ، ولم يطلق سونج ومن معه حتى اشتراهم تاج الملوك بوري منه بخمسين الف دينار ، قال الذهبي : ثم لم يتم ذلك ، ومقت الناس زنكي على قبيح فعله . وحكى صاحب الروضتين عن الرئيس ابي يعلى ان زنكي طلب فى اطلاق سراح سونج واصحابه خمسين الف دينار ، فاتفق حضور دبيس بن صدقة من العراق منهزما، فطلبه زنكي ، واطلق من كان عنده من سونج واصحابه .

دكتور عبده اسماعيل الطهطاوي



في الادب العربي القديم كنوز مطمورة انطوت على شتى الاغراض من نوازع العاطفة والتفكير وسلاسة التعبير ، ودقة الوصف ، ومتانة التركيب ، وحسن الاداء ، لكونه جاء طبيعيا جادت به قرائح شعراء عاشوا في محيط فطري بعيد عن بريق التكلف والتنميق المبتدع .. ولولا هذه الميزة التى اكتسى بها، لما كان متداولا على مرور الحقب والاجيال منذ ساحق العصور ولما كنا نتمثل ونردد قصائد فاضت بها شاعرية اعراب تفصلنا عنهم خمسة عشر قرنا او يزيد .. ونجد في مبناها ومعناها ما لا يقدر على ابتداعه الكثير من ادباء العصر الحاضر .!

ولعل هذا ما دعا الدكتور « طه حسين » ان يجعل الادب العربي فى الصف الثاني بعد الادب اليوناني في بحثه الممتع تحت عنوان « الادب العربي بين الآداب العالمية الكبرى » ، ذلك البحث القيم الذى نشره فى كتابه « من احاديث الشعر والنثر »

ولو لم يكن هنالك فخر للادب العربي القديم غير تهافت عدد كبير من المستشرقين من مختلف الملل والنحل على الانكباب في درسه واستقصائه ، لكان ذلك كافيا عن مزيد من الاطناب فى هذا الموضوع .

ولقد دعاني الى هذا الاستطراد ما اشاهده من اعراض الكثير ، وخصوصا شبابنا المتنور عن دراسة الادب العربي القديم ، بدعوى انه يشتمل على تعابير بالية ، والفاظ وحشية ، ويحتوي على اوصاف بديهية واغراض لم تعد صالحة لتحشد بها اذهان ابناء الجيل الحاضر .

فهذا زعم من اطلاق القول على عواهنه مع الاكتفاء بالعرض عن الجوهر ... وان فطاحل ادباء العصر الحاضر من امثال العقاد ، وطه حسين ، واحمد امين ، واحمد حسن الزيات ، وزكي مبارك ، والبستاني ، وتوفيق الحكيم ... واضرابهم من ادباء الشرق ما كان فى وسعهم ان يبلغوا ما بلغوه من بعد الصيت ، وقوة الاطلاع والادراك ، والتربع على عرش الثقافة العربية المتينة البنيان .. لولا انكبابهم على التعمق فى اسرار الادب القديم والتعمق في استكناه اسرار امهات الكتب فى هذا المضمار ، والاجتهاد في تنسيق الروايات المختلفة عن ايام العرب ومقاصد شعرائها الامجاد .

وعلاوة على ذلك ، فلا يخفى ما لتراث الماضي من اهمية عظمى عند سائر الامم والشعوب .. وهكذا نرى حتى بعض الامم التى شقت لنفسها طريقا نحو التقدم والازدهار ، ما فتئت تسعى لتخلق لها ماض مجيدا ، اذا صح التعبير ، ليلا تكتفي بالفروع دون الاصل .

وقد وقع الاختيار في هذه الدراسة ، قارئي العزيز ، على قصيدة «لامية العرب» التي تعتبر من اقدم ما قيل في الشعر العربي القديم ...

وبالنظر لاهميتها فقد تداولها بالشرح كثير من ائمة الادب في العصر القديم ، كما ترجمها كثير من المستشرقين الى مختلف اللغات الاوربية ..

ومن الدلالة على اهميتها ما ذكره محمد بن يحيى بن كرم الواسطي وهو اول شارح لها بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « علموا اولادكم لامية العرب ، فانها تعلمهم مكارم الاخلاق » .

ان صاحب قصيدة لامية العرب وقائلها هو الشنفرى الذي عاش في القرن السادس المسيحي ، واسمه الحقيقي ، ثابت بن اوس الازدي من اهل اليمن ويكاد يجمع الرواة وكاتبو التراجم على ان هذا الشاعر لقب بالشنفرى لعظم شفتيه او لحدته — على ان عبد القادر البغدادي صاحب « خزانة الادب » قد ذكر في الجزء الثاني من هذا الكتاب بأن هذا الزعم لا يستند على اساس ، وسلم بأن الشنفرى شاعر جاهلي قحطاني من الازد ، ولكنه لم يسلم بكون « الشنفرى » لقبا له ، ومعناه عظيم الشفة ، وان اسمه ثابت بن جابر ، وهذا غلط » .

وقد كان معاصرا لجماعة من الشعراء يعرفون في تاريخ الادب العربي بجمهرة الشعراء الصعاليك ومنهم : تأبط شرا .. والسليك بن السلكة .. وعمرو ابن البراق واسيد بن جابر .. وقد اشتهروا بخفة العدو ، حتى ليقال بأن الخيل لم تكن تدركهم — على أن الرواة يذكرون بأن شاعرنا كان يفوقهم حتى ضرب به المثل فقيل : « اعدى من الشنفرى »

وكانت هذه الجماعة تعيش من السلب والنهب والغارات ليلا والتلصص بخفة ورشاقة .. فيروعون النساء والاطفال ، ويبلبلون عقول الرجال ،ثم يختفون اذا خافوا ان تدركهم الخيل في الاودية الوعرة والجبال ، والادغال الموحشة والى هذه الغارات يشير الشنفرى في لاميته حيث يقول :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها
واقطعه اللاتي بها يتنبل

دعست على غطش وبغش وصحبتي
سعار وارزيز ووجر وافكل

فايمت نسوانا وايتمت ولدة
وعدت كما ابدات والليل اليل

فاصبح عني بالغميصاء جالسا
فريقان : مسؤول وءاخر يسال

فقالوا لقد هرت بليل كلابنا
فقلنا اذئب عس ام عس فرعل

فلم تك الا نباة ثم هومت
فقلنا قطاة ريع ام ريع اجدل ؟

فان يك من جن لابرح طارقا
وان يك انسا ماكها الانس تفعل

هذا ، وقد روى الرواة عن الشنفرى ورفاقه كثيرا من أخبار الغارات تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ويختلط التاريخ بالاسطورة .

يقول البعض عن الشنفرى انه نشا في قومه الازد ، ثم اغاظوه فهجرهم .

وقال ءاخرون : ان بني سلامان اسروه صغيرا فنشأ فيهم يطلب النجاة ، حتى هرب فانتقم منهم..

وقال غيرهم : بل ولد في بني سلامان فنشا بينهم وهو لا يعلم انه من غيرهم ، حتى قال يوما لابنة مولاه : «اغسلي راسي اخته » فغاظها ان يدعوها باخته فلطمته... فسأل الشنفرى عن سبب ذلك ، فاخبر بالحقيقة .. فاضمر الشر لهؤلاء القوم ، وحلف ان يقتل منهم مائه رجل لقاء استعبادهم له !

فكان يترصد الواحد منهم حتى يمر امامه فيصوب سهمه ويقول : « لطرفك! » ثم يرميه ، فيصيب عينه ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين .

وهنا تصبح الرواية وافية التاثير ، فيحتال بنو سلامان على الشنفرى فيقبضون عليه بمساعدة اسيد بن جابر .. احد العدائين . وكان الشنفرى نزل في مضيق ليشرب فوقف له اسيد بن جابر على بابه وامسكه . ثم يقتله بنو سلامان ويطرحون رأسه اهانة له .. فيمر رجل منهم بجمجمته فيضربها برجله فتدخل بها شظية من الجمجمة فيموت ... فيرتاح المطالع الى أن الشنفرى بر في قوله وتمت القتلى مائة !

وللشنفرى اشعار متفرقة غير «لامية العرب» فى مجلدات الاغاني .. وخزانة الادب .. والمفضليات .. والحماسة ، وكلها فى وصف غاراته ، وبطشه بمناوئيه .. على ان اشهرها اللامية الآنفة الذكر .

ويعتبر هذا الشاعر مثالا صادقا للشاعر الفطري القديم، لكونه كان وليد القفار، اليف الغابات، عشير الضواري ... فأتى شعره صورة لحياته : خشن الفكر ، خشن الصورة ، خشن التعبير .. على انه صادق فيما يقول .. محق فى ما يصور .. فنان عن غير علم فى ما ينقل من حوادث حياته بغير الليلة الحالكة الظلام ، على قوم مطمئنين ، فينهب ، ويعود مسرعا رابحا .. فيهيج بخاطره الشعر فيصور فتكه بسرعة تعادل سرعة بطشه !

وهو ككل شاعر فطري ، لا يتراجع امام الكلام الوضعي ، والصورة الحقيقية ولو اشمأززنا منها اليوم .. فاذا وصف شعره واوساخه قال :

وضاف اذا هبت له الريح طيرت
لبائد عن اعطاف ما ترجل

بعيد بمس الدهن والفلي عهده
له عبس عاف من الغسل محول

ولهذا يعتبره البعض من كبار المغالين فى تمثيل الحقيقة ومطابقة الوصف للطبيعة .. وممن يعرفون فى اصطلاح الادب المعاصر بالواقعيين .

وبالجملة ، فان النتيجة التى استخلصناها من هذه الدراسة الثقافية القيمة هي ان الشنفرى، صاحب « لامية العرب » المشهورة، يمثل لنا الشاعر البدوي فى اول عهده ، لم تمسه من العمران فائدة ولم تصقله من المدنية ءاداب .

سلا : عثمان بن خضراء

قال المبرد :

اذا وضع الرجل كتابا ، او قال شعرا استهدف ، فان احسن استشرف ، وان اساء استقذف ...

تصحيح مفاهيم

حول تحرير المرأة

للأستاذ أبو بكر الجزائري

نصيحة مهداة للاستاذ قاسم الزهيري المحترم

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد اخي الاستاذ قاسم الزهيري لقد طالعت كلمتك من مجلة « دعوة الحق » تحت عنوان (سبعين سنة) وفهمت منها ما يلي :

1 ـ تقدم المجتمع العربي مرهون بتطور المراة فيهوانعتاقها وقد تطورت بالفعل وتحررت ، وكان من نتيجة ذلك هذا التقدم الهائل الذي عليه المجتمع العربي .

2 ـ انك يا استاذ ـ احد المعجبين بدعوة قاسم امين المصري الى تحرير المراة وانعتاقها من اسر الحجاب والتقاليد البالية على حد تعبيرك .

3 ـ تحمسك الشديد لموجة تحرير المراة التى تقول عنها : انها ءاخذة فى الاكتساح لكل ما تبقى من العراقيل الحائلة دون تحرر المراة وانعتاقها .

4 ـ انك تصف حماة الشريعة الاسلاميـة ، والذائدين عن حياضها والمحافظيـن على امجاد امـة العرب امة الاسلام تصفهم بأنهـم اصحـاب عقـول متحجرة ، وعادات وتقاليد بالية .

5 ـ انك لا تخفي كونك من دعاة السفور وتحرير المراة فى العالم العربي الى حد انك تبارك الخطوات التى تزعم ان المراة العربية قد خطتها فى هـذا المضمـار !!

6 ـ انك فرح جدا بمزاحمة المراةالرجلفيميادين العمل والوظائف حتى ولو ترك النساء البيوت جملة واحدة واصبح عملهن قاصرا على الوظيفة فى المعمل او الدائرة والمعرض .

7 ـ اعترافك الصريح بأن تحولا اجتماعيا هائلا يجري فى البلاد المغربية نتيجة انعتاق المراة المغربيـة وتحررها وتنبئك بان عائدة هذا التحـول ستكـون حميدة ، ثم طعنك برفق فى خاصرة الجماعة المؤمنة بخطورة هذا التحول . استغفر الله ـ هذا الانحدار، وما سيؤدي اليه حتما من ذهاب كل ما بقـى مـن ايمان وخير وحياء .

اخي الاستاذ قاسم هذه سبعة مفاهيـم قـد فهمتها من كلمتك القيمة فى بابها !

فهل توافقني على ان ما فهمته كان صحيحـا، وان هذه المفاهيم السبعة هي روح كلمتك ومضمونها، وانك تؤمن بها وتعتقدها ، وحتى يتسنى لي حينئـذ نصحك وارشادك الى الحق والصواب فى الموضوع ؟

ومهما يكن فاني مقدم نصيحتي عساها ان تنفع، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

اقــول

1 ـ ان دعوى تقدم الشرق العربي دعوى باطلة غير صحيحة بالرغم من الكفر بالحجاب وءاياتـه ، والتمرد على الشريعة وءادابها ، وان سلمنا ان هناك بعض التقدم فليس عائدا الى سفـور المراة وتـرك حجابها ابدا كما فهمت انت وتبادر لك . وانما هـو عامل الزمن فقط وليس غير . ثم ارايتك لو نوقشت وقيل لك اين مظاهر التقدم الذى تزعـم اهي فى

الاضطراب الفكري والفوضى السياسية ، ام في التحلل الخلقي والتهالك المادي ؟

اهي في ذهاب المروءة وموت الشرف أم في النفاق السائد ؟

أهي في موجة الالحاد العارمة التي تجتاح صفوف المثقفين والمثقفات ، ام في التنكر الواضح الصريح للاسلام وما فيه من كلمات ؟

اهي في الاعراض عن ذكر الله وكتاب الله ، أم في القوانين المستوردة التي حلت محل شريعة الله ، وقدست تقديس كتاب الله ، واكثر !!

اخبرني يا اخي قاسم لو ناقشتك هكذا فماذا يكون جوابك ؟

ام تقول انها في الاغاني الخليعة ، ومناظر التلفزة الرخيصة . وفي انعدام الحياء والوفاء باسم الصراحة في القول وحرية الفكر والعمل ام ماذا تقول ؟

2 ـ ان اغتباطا كالذي اعلنته بموجة التحرر التي تكتسح البقية الباقية من الايمان والحياء في النساء اغتباط شائن ، ومزر على كل حال . اذ لم يعد خافيا على الملاحظين ولو من بعيد ـ ان المجتمع العربي الاسلامي يتدهور بسرعة ، وينحدر بقوة الى الحضيض الاسفل نتيجة ما تسمونه (زورا) حرية المراة وتقدمها . وانتظر يوم الغرق فانه قريب، ان لم ينقذكم الله بمن تسمونهم اصحاب العقول المتحجرة والتقاليد والعادات البالية !!

3 ـ اعجابك بقاسم امين قد تعذر فيه لو لم يكشف الزمن عن خطأ الرجل وسوء صنيعه في قومه، وما جر عليهم من ويلات وما ساق اليهم من خراب ودمار، اصبح بعض ديار الشرق عبارة عن دور دعارة.

وكيف يا اخي الاستاذ وقد عرفت اخطاء الرجل وظهرت جنايته على الاسلام، حتى لعنه صالحو قومه وكفروا به فكيف تعجب انت الآن به

4 ـ وصفك رجال الاسلام الحامين لحماه والذائدين عن شرائعه ومبادئه بالتحجر العقلي ، والتورط في اسر التقاليد البالية والعادات يتنافى مع عقيدة الاسلام .. ان الذوق الادبي يأبى لصاحبه ان يطعن في اهل المبادىء ، واصحاب العقائد

البشرية التي من شأن الناس حمايتها والدفاع عنها .

5 ـ رضاك عن نفسك بانك من دعاة تحرير المراة المسلمة ـ طبعا لا من الرق والعبودية ، لان المراة المسلمة لم تكن منذ فجر الاسلام في رق ولا عبودية لغير الله تعالى ، وانما من الحياء والايمان والحجاب ، يعد ظلما لنفسك اولا بتدسيتها بذنب الدعوة الى الباطل ومناصرته ، وظلما للمراة المسلمة ثانيا بخداعها والتغرير بها لتخرج عن طبيعتها وشريعة ربها فتهلك في الحياتين وتخسر في الدارين . .

6 ـ اعلانك عن سرورك بمزاحمة النساء للرجال في الوظائف والاعمال الخاصة بالطبع والشرع بالرجال يعتبر جهلا بالشرع الاسلامي من جهة وبواقع المجتمع العربي الاسلامي من جهة اخرى ، وذلك ان كل عمل يضطر المراة المسلمة الى الاختلاط بالاجانب، ولا تدعو الضرورة القصوى اليه لا يحل بحال من الاحوال ، كما ان المجتمع العربي في الشرق او الغرب نسبة البطالة فيه تفوق كل نسبة اليوم في العالم فملايين الرجال الذين يساوون ملايين النساء والاطفال لا يحصلون على وظيفة حكومية او غير حكومية ، ولا على عمل حر او غير حر يجنون منه قوت انفسهم واسرهم .

فكيف يسوغ عقلا او شرعا او وطنية أن يحرم الرجال العائلون ، ويوظف النساء الغنيات بالازواج والاولاد او الاباء والاخوان . الا اذا انعدم الذوق ومات العرف وانطمست معالم الحقيقة من الوجود ، ان يوما واحدا يحق للمراة ان توظف فيه وتعمل عمل الرجال هو ذلك اليوم الذي تتوقف فيه دور الحكومة ومصالحها ومعامل الامة ومصانعها من العمل نتيجة ان الشبان والرجال تلتهمهم نار الحرب بالآلاف وهم في خطوط النار يغزون ويفتحون او يحمون البلاد ويذودون . هناك فقط يضطر الى تشغيل النساء سدا للفراغ ، وتسديدا للعجز .

اما في غير هذا اليوم وهذه الحال فاقتحام النساء بين الرجال لاكتساب الفلس لا لبناء العش انما هو كفر بالاسلام وقيمه والمراة ومكانتها ،

وتخريب الاسر وهدم للبيوت ومسخ للامة العربية المسلمة لتصبح امة ذليلة كافرة .

7 ـ اعترافك مع فرحك بتحول كبير فى المجتمع المغربي او تنبؤك له بحميد العاقبة ان دل على شيء فانما يدل على ان مثلك لا يهمه او لا يعنيه من امة المغرب المسلمة الا ان تتحول فقط ...

ولو كان الى اسوا الاحوال ، واحط الاوضاع ، ان التحول الذى فرحت به يا قاسم هو تحول من حسن الى سيىء ، ومن خير الى غير وكل صالحي المغرب يعترفون بهذا ويشهدون به ، الا من انحرفت فطرتهم وفسدت قلوبهم وعقولهم فأصبحوا يرون القبح حسنا ، والحسن قبحا ، والخلاعة والعربدة والسفور والفجور تقدما وتطورا ، ورقيا وتمدنا وحضارة !!

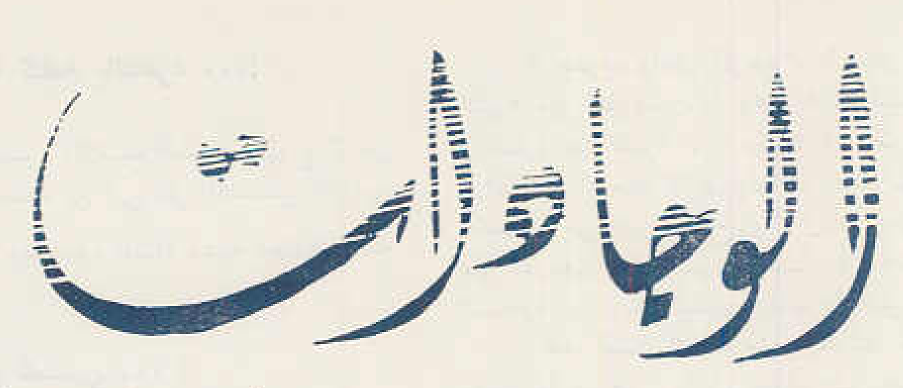
واخيرا قد يحمل اخي الاستاذ قاسم مرارة النصيحة ان يقول فى شيئا ينال فيه منى واني لاعلم ما سيقول اخي مسبقا فاريحه من عناء القول فاقول ما سيقول : اني رجعي متزمت متعصب . رجعي فى عقيدتي وسلوكي فلا اعتقد الا عقيدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتى مضى عليها الف واربعمائة سنة تقريبا . واني متعصب متفان فى التعصب للاسلام ومبادئه وشرائعه وآدابه وحتى الحجاب وعدم اختلاط المسلمة بالمسلم الاجنبي وفى اي مجال او مكـان .

المدينة المنورة : أبو بكر الجزائري

يلقى قومه متبسما ... !

وكم قد رأينا من فتى متجمل ... يظل ويمسى ، ليس يملك درهما
يبيت يراعي النجم من طول جوعه ... ويصبح يلقى قومه متبسما
ولا يسال المترين ما فى رحالهم ... ولو مات جوعا عفة وتكرما ...

اعرابي



للأستاذ: عبد القادر زمامه

289 ـ ابن الونان والعميري ..!

وجدت فى بعض الكناشات ما يأتي :

« للقاضي ابي القاسم بن سعيد العميري المكناسي تأليف سماه « التنبيه والاعلام فى فضل العلم والاعلام » قرظه محمد ونان قائلا :

وبعد فقد اطلعني الفقيه العلامة آخر قضاة العدل ..!! ومالك ازمة الفصل والفضل ..! على هذا المصنف العجيب الحائز من الخير أوفى نصيب. فقد اجاد فيه القريحة .. ! وابذل ـ انا ـ فيه للمسلمين النصيحة :

يا طالبا فى الدهر منفعة
يرقى بها حقا على العالم
عليك علم الدين فاسع له
فانه كنز الفتى الحازم
وانه افضل ما يقتنى
ما جاهل الاشياء كالعالم
وان تشا تكرع فى نهره
ورود ظمآن به هائم
اياك ان تعدو عينك عن
مصنف الشيخ أبي القاسم

قالها بفمه ورقمها بقلمه عبد الله سبحانه محمد ونان بن عبد الله الملوكي التواتي غفر الله له الماضي ولطف به فى الآتي ... »

290 ـ الا وقد قلته قبلك ..!

وجدت ابا البقاء صالح بن شريف الرندي فى الفصل الذى عقده فى كتابه « الوافي » لما يشبه السرقة فى الشعر .. قد مثل للتوارد بهذه الحكاية :

« وحكى ابو البحر ..! صفوان بن ادريس عن بعض اهل شلب قال : كانت بين ابن المنخل وبين ابن الملح ملاحاة ..! فخرج ابن المنخل الى ضيعة له ومعه ابنه حتى اذا كانا بشاطىء واد جعلت ضفادعه تنق ..! وجرى بينهما عند ذلك ذكر ابن الملح ..! فقال له ابنه : يا أبت ان ابنه هجانا ونال منا ..! فاحفظه ذلك ..! .

فقال :

تنق ضفادع الوادي ...!

فقال ابنه :

بصوت غير معتاد ...!

ثم قال :

كان ضجيج مقولها ...!

فقال ابنه :

بنو الملاح فى الوادي ...!

ثم قال :

وتصمت مثل صمتهم ...!

فقال ابنه :

اذا اجتمعوا على زاد ...!

ثم قال :

بلا غوث لملهوف ...!

فقال ابنه :

ولا غيث لمرتاد ...!

فقال ابوه : والله يا بني ما منها قسم الا وقد قلته قبلك ..!! »

(والقصة مذكورة عند ابن سعيد فى رايات المبرزين)

291 ــ حارة كتامة بالقاهرة ...!

وجدت فى الضوء اللامع للسخاوي ج 7 ص 204 فى ترجمة محمد بن ابي بكر الشمس الكتامي

(بضم الكاف وتخفيف المثناة نسبة لحارة كتامة بالقاهرة !)

292 ــ معنى تلمسين ... !

وجدت فى (الضوء اللامع) للسخاوي ج 7 ص 278

فى ترجمة محمد بن العباس مفتي تلمسين ..!

« ومعناها باللغة البربرية ، اجتماع شيئين..! فغالب اقواتها كالقمح .. وفواكهها .. تكون جنسين .!! افاده لي بعض المغاربة من اصحابنا .!»

293 ــ واعتذر ..!!

وجدت فى بعض المجاميع هذين البيتين :

يا من علا وعلوه
أعجوبة بين البشر ..!
غلط الزمان برفع قد
رك ثم حطك واعتذر ..!

294 ــ كقاضي سدوم

وجدت فى كناشة العباس ابن عبد الرحمان السجلماسي هذين البيتين منسوبين لمحمد بن احمد ابن عيسى مؤلف كتاب الممدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور :

اذا الدهر أعطاك منه المنى
فدعه فذاك العطا لا يدوم
ولا تامنن عدله فى الورى
فما الدهر الا كقاضي سدوم.!

295 ــ الاسد بأم الربيع ..!

ذكر الجغرافي الادريسي فى كتابه نزهة المشتاق الذى فرغ من تأليفه سنة 549 هـ ص 46 من القسم المطبوع بالجزائر سنة 1957 م

« جنوب وادي الربيع ..! يجاز منه الى غيضة كبيرة من الطرفاء ..! وهي غابة كبيرة ملتفة . والاسود بها كثيرة ..! وربما اضرت بالمار ..! غير ان اهل تلك الناحية لا يهابونها..!وقد تمهروا فى مقاتلتها بانفسهم من غير سلاح ..! وانما يلقون اكسيتهم على اذرعهم ويمسكون معهم فتات من شوك السدرة .. وسكاكينهم بايديهم لا غير .. !!

ولقد لقيت الاسد منهم هنالك نكايات ..! فلا مهابة لها عندهم ..! بل تخاف ضررهم ..! وتجتنب طريقهم ..! وربما هجمت على الضعفاء من الناس..!»

296 ــ الا تراني الكلاب ..!

وجدت فى الضوء اللامع ج 9 ص 29 فى ترجمة محمد السلوي المغربي المالكي ..!

« انشدني فى العزلة

قالت الارنب السبوق كلاما
فيه ذكرى لتفهم الالباب
انا اجري من الكلاب ولكن
خير يومي الا تراني الكلاب

297 ــ منسوب الى مدرسة الحلفاويين ..!

ترجم السخاوي فى الضوء اللامع ج 10 ص 286 ليعقوب بن محمد بن يوسف الصنهاجي الحلفاوي :

« الحلفاوي : لسكناه مدرسة السلطان ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني بالحلفاويين بفاس ».

298 ــ ميم وحاء ..! وميم ودال ..!

وجدت فى مجموع خطي منظومة فى التوسل تحتوي على تسعة وعشرين بيتا ..! وهي من نظم الشيخ رضوان الجنوي المتوفى سنة 991 رحمه الله

يقول فى مطلعها :

قد هام قلبي يا رجال
بميم وحا وميم ودال (محمد)
وسيلتي لذي الجلال
بميم وحا وميم ودال (محمد)

والشطر الثاني من جميع الابيات هكذا :

(بميم وحا وميم ودال)

299 ـ ونحن على بابه قائمون

وجدت في ديوان الشاعر الصوفي ابي اسحاق الالبيري الذي نشره كرسيا كومس باسبانيا سنة 1944 م . قصيدة يخاطب بها امراء غرناطة الذين استعانوا بالوزير اليهودي ابن النغريلة الشهير..! ومنها هذان البيتان :

ورخـم قـردهـم داره
واجرى لها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده
ونحن على بابه قائمون

300 ـ قوس خراط

وجدت في الديوان ايضا :

ايا قوس خراط يشير ولا يرمي
ويا سيف رعديد يرض ولا يدمي
تعلمت خلف الوعد من برق خلب
فبرقك لا يشري ولكنه يعمي

301 ـ تتحرك بدون محرك ..!

وجدت في جذوة المقتبس للحميدي ص 373

« ابو سعيد بن قالوس . شاعر اديب ذكره ابو محمد علي بن احمد (ابن حزم) وانشدنا له في رجل يعرف بابن مدرك . ادعى عمل آلة تتحرك في السانية دون محرك ...!

قل لابن مدرك الذي لم يدرك
اخراج ماء البئر دون محرك
طرق الحماقة جمة مسلوكة
وطريق حمقك قبل لم يسلك »

302 ـ من الاشجار سراق ..!

وجدت من شعر صاعد الاندلسي صاحب الفصوص :

لم ادر قبل ترنجان مررت به
ان الزمرد اغصان واوراق
من طيبه سرق الاترج نكهته
يا قوم حتى من الاشجار سراق..!

(والترنجان اسم نوع من انواع الريحان)

303 ـ آسلو ...!

في النص المنشور بالجزائر سنة 1957 من نزهة المشتاق للادريسي ص 36 .. عند الكلام على صنهاجة الصحراء ...

« وجل طعامهم واحفله الطعام المسمى بالبربرية آسلو وهو انهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليا معتدلا . ثم يدقونها حتى تصير جريشا ثم يمزجون العسل بمثله سمنا ويعجنون به تلك الحنطة على النار ويضعونها في مزاودهم فيأتي طعاما شهيا..!! وذلك ان الانسان منهم اذا اخذ من هذا الطعام ملء كفه واكله وشرب عليه اللبن ثم مشى بقية يومه لم يشته طعاما الى الليل »

304 ـ فيشرق عسال ..! ويشبع عسال ..!

وجدت في كتاب اخبار المهدي بن تومرت للمؤرخ البيذق من شعر عامل فاس عبد الله بن خيار الجياني .. الذي سلم المدينة الى الموحدين ..! بعد ان كان عاملا عليها للمرابطين ..! ص 47

لنا في جناب الدين والخير آمال
تكنفها سعد عتيد واقبال
نحوز بها فوزا . ونحرز غبطة
فعند الامام العدل صفح وافضال
واني لارجو ان افوز بليلة
فيشرق عسال .. ويشبع عسال..!

305 ـ بداي قد بقيت بداي ..!

وجدت فى الترجمة التى كتبها ابو عبد الله محمد بن القاضي عياض لوالده قطعة شعرية جاء فيها :

اقمرية الادواح بالله طارحي
اخا شجن بالنوح او بغناء
فقد ارقتني من هديلك رنة
تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فانني
غريب بداي قد بقيت بداي
فكم من فلاة بين داي وسبتة
وقفر بعيد الخافقين قواء

306 ـ لا يسكنون مراكش

وجدت عند الادريسي فى النصوص المطبوعة من كتابه فى الجزائر سنة 1917 م ص 45

« وكان اليهود لا يسكنون مدينة مراكش عن امر اميرها علي بن يوسف بن تاشفين ..! ولا يدخلونها الا نهارا .. وينصرفون عنها عشية ..! وليس دخولهم فى النهار الا لامور له .. وخدم تختص به ..! ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ..! فكانوا يتافرون المبيت فيها حياطة على أموالهم وانفسهم ..!!! »

307 ـ ويجتمع الشمل ...!

وجدت فى كناشة احد العلماء الثقات قطعة شعرية للشيخ ابي عبد الله عبد السلام جسوس يقول فيها :

سلام على اهل الحمى حيثما حلوا
هنيئا لهم يا حبذا ما به حلوا
لهم اظهروا الرحمان سر بهائه
فيا ليت خدي فى التراب لهم نعل
صلوني على ما بي فاني لوصلكم
اذا لم أكن اهلا فانتم له اهل
متى يا عريب الحي ياتي بشيركم
فتبتهج الدنيا ويجتمع الشمل

فاس ـ عبد القادر زمامة





هي اربعة كتب دفعت الى قراءتها ، هذا الشهر، بدافع العمل الذي كان قد نيط بي ، وبحكم المهنة التي ازاولها .. :

كتاب احياء النحو ، وكتاب « من تاريخ النحو » وكتاب النحو العربي وكتاب الحركة اللغوية فى الاندلس .

اما الكتاب الاول فهو لاستاذي الذي ادين له بكثير من الفضل واعتبره اعظم استاذ للنحو فى مصر، بل فى العالم باسره ، لعصره وحتى الان ، الاستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمه الله رحمة واسعة .

لقد درست عليه النحو ، بكلية الآداب ، من جامعة فؤاد الاول ، فتلقيت عنه أشياء لم اتلقها من غيره ، وسلكت بهديه منهجا لم يسبق لي أن سلكته، وما اشد ما كان البون شاسعا ، حينما عهد لمعيده آنذاك ، احد الدكاترة العظام ، بأن يدرس لنا « **نحو المتنبي**» ، فكان نحو المتنبي هذا شيئا معروفا لنا فى الالفية ، رحم الله صاحبها ، واطال عمر الدكتور وجزاه خيرا .

لقد كان الاستاذ ابراهيم مصطفى يتحلى بما يتحلى به العالم الحق ، من اخلاص للعلم ولين للجانب ونشدان لضالة العلم اينما كانت وحيث وجدت ، فهذه بحوث للطلبة ، يحملونها الى بيته ، فيستقبلهم بترحاب ، ولا يكتفي بتسلمها منهم ، بل يدعوهم للمجالسة العلمية ، فيبحث موضوعهم معهم ، ويناقشهم فيه ، وينشد من وراء ذلك « ضالة » من ضواله ، وما اكثر هذه الضوال الشوارد له ؟ ويدعى الى بغداد لتدريس العربية بجامعته ، وحين يعود اجتمع به ، واهنئه بسلامة العودة ، فيقول لي : اني اريد أن اذهب الى بلادكم فأجيبه بما يجاب به عادة « تشرفنا يا بيه » ... فيقول لي : « ليست المسألة مسألة تشريف ، بل المسألة مسألة تعلم ... » فتخجلني هذه الكلمة من ذلك الاستاذ العظيم وتحيرني فى فهمها ، ولكنه يزيل هذا الخجل وهذه الحيرة ، حيث يبين لي أنه يستعين بهذه الرحلات الى البلاد العربية ، على فهم الاستعمالات العربية المختلفة فيها، وتنير له بعض الغوامض من مسائل النحو الذي عني به ..

هن ذكرات عن الاستاذ ، عزيزات على النفس ، حميدات لصاحبها عطرات ... نور الله ضريحه واكرم مثواه ، وخلد فى الصالحات مسعاه .

وبعد فان كتاب « احياء النحو » على صغر حجمه ، يعد ومضة من ومضات النحو ، التي خبت مثيلاتها ، منذ امد بعيد ، وثورة من الثورات على اوضاعه البالية ، ومسائله التي « احترقت » كما يقول السيوطي ، وحق ما يقول ، ولئن كان ابن مضاء رحمه الله قد رفع ، منذ ثمان سنوات ، راية الثورة، هذه الا ان رفعه لها ، كان ايذانا بها اكثر من كونه تحقيقا لأهدافها ، وعلى كل حال ، فالفضل الاول يرجع لهذه الثورة التي اندلعت فى المغرب ، بفضل الموحدين المجددين ، على الاوضاع عامة ، ومناهج العلوم ورجالها خاصة ، فكان منها ثورة ابن مضاء على النحاة ، فى رده عليهم ...

وقد استعان استاذنا رحمه الله ، فى احيائه للنحو ، بالمنهج البلاغي ، فى علم المعاني ، واستعان خاصة ، بآراء عبد القادر الجرجاني فى التركيب

المعنوي ، وحاول أن يتخلص من ربقة العامل التي خنقت بعض مسائل النحو أو ادت مواليده التي كان يرجى منها الخير العميم ، واراد ان يبسط الاعراب في الاسماء خاصة تبسيطا يجعله في متناول المستريح، فاخرج من محيطه الفتحة، وجعلها من الضمة والكسرة كالصفر في العدد « علامة الخلاء » كما يقول صاحب « المنية » وهي في الواقع منه وثبة من الوثبات التي تحتاج الى طول عناء لفهمها كما تطلبت من صاحبها طول عناء للقيام بها . وكثيرا ما يستعمل الاستاذ عملية الاحصاء لتثبيت قاعدة اقتعدها او راى ارتآه ، فيكون في ذلك مستعملا للمنهج الاستقرائي ، الذي عرفه المنطق الصوري ، واعتمد عليه ، كل الاعتماد، المنطق المادي ، ولكن هذا الاستقراء في بعض الاحيان ، قد يكون من باب الاستيناس ، لا من باب التقرير النهائي ، وبذلك لا تكون سورة الفاتحة مثلا او غيرها مما ينير لنا السبيل في استعمال ما اكثر من استعمال آخر .

هذا ولسنا نعرض ما في الكتاب من نواح طريفة ، نريد ان ننوه بها ، او نفصل من قضاياها وجزئياتها ، فالكتاب الذي تطلب من صاحبه ، على صغر حجمه ، سبع سنوات من العكوف ، نسي فيه الاهل والولد ، يتطلب منا ومن غيرنا اضعاف هذه السنوات من الاطلاع على امهات الكتب والقراءات ، وكل ما ناخذه عليه ، بل على طبيعته ، هو التصحيف الذي وقع بصفة خاصة في الآى القرءانية ، فقد وردت الآية « ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا » في صفحة 13 ... يرمي ... باثبات الياء .

وشكل الكاف في «مالك يوم الدين» على تقدير النداء ، بالكسر ، بدل الفتح ، في صفحة 14 .

ووردت في الآية « فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الاوليان » في صفحة 122 ... عليهما ، بدل عليهم ، سوى هذا فقد سقط في الصفحة 108 شرط « حيث الميم منه بانا » ونحوه ، مما يجب ان يقيد به « الفم » وهو من الاسماء الخاصة ، كما فعل ابن مالك بالحيث السابق الذكر .

كما سقط في الصفحة التالية ، هذه الجملة المعطوفة « او يضاف لياء المتكلم » ، عند ذكره لتلك الاسماء وهي معربة بالحركات حيث ذكر هذا الاعراب عند ما تعرف بال ، ولم يذكر ما ذكره ابن مالك بقوله « وشرط ذا الاعراب ان يضفن لا لليا » .

هذه لمحة خاطفة على الكتاب ، وهو حقيق بتلك الصفة ، التي جعلها صاحبه ، لكتاب سيبويه ، فقال لنا رحمه الله : « حينما اقرأ الكتاب فانه يترك في راسي دويا عظيما » وكذلك نقول في كتابه الصغير الحجم « احياء النحو » فانه يترك بقراءته فينا دويا، ولا دوى أبي الطيب المتنبي ...

والكتاب الثاني

لصديقي الاستاذ سعيد الافغاني ، فقد اهداه الي ، ضمن مجموعة من الكتب القيمة ، التي جادت بها قريحته ، والاستاذ سعيد الافغاني ، غني عن التعريف ، فهو استاذ الجيل من مثقفي سوريا ثم لبنان العرب ، حفظه الله ومتع بعلمه وبحثه .

لم يرد الاستاذ ان يدعي بكتابه ، انه استوعب تاريخ النحو وادواره ، بل جعله بعض هذه الدراسة الحافلة ولهذا صدره بمن التبعيضية ، على عادته من تواضع العلماء .

ومع انه استرسل فيه استرسال البحاث ، فقد احاطه بمنهج الدراسة ، فكان « وفق منهج شهادة فقه اللغة في الجامعة اللبنانية » .

ومما استفدناه من هذا الكتاب ، تنبيهه على قضية كانت مسلمة أو كالمسلمة بها ، وهي ان القياس لمدرسة البصرة والسماع الحفظ لمدرسة الكوفة ، فهو أولا لم يسلم بأن الكوفة كانت مدرسة بالمعنى الصحيح ، وبازاء مدرسة البصرة العتيدة ، ثم ان القياس ، يتجلى على صورة اوسع في الكوفة من كونه في البصرة ، وكل ما هنالك من فرق أن قياس البصرة قياس علمي متثبت منظم ، بينما قياس الكوفة قياس حاطب ليل متهور مبعثر ، ثم انه ليس هناك فواصل حاسمة بين رجال المدرستين ، عند ظهور رجالهما.. وان الخلود لم يكتب الا للبهرنة هذه المعالم العامة للمدرستين ، ان سلم بوجودهما معا ، وان كانت الكوفة في بعض الاحيان تصيب ولا تصيب البصرة.

وفيما عدا المدينتين ، فليس هناك في الاندلس او بغداد مدرسة ثالثة ، كما قيل ، فكلتاهما جمعت بين الآراء وحاولت أن توفق في بعض الاحيان ، ونادرا ما بدت ببعض الآراء ، التي لا تكفي أن تجعلها مدرسة تقوم بنفسها ، فتعد مدرسة ثالثة أو رابعة .

هذه نظرة على الكتاب باجمال ، ولا نلاحظ عليه الا بعض الهفوات القليلة واغلبها آت من الطباعة ، كما

نظن مثل ما وقع في الصفحة 12 من سقط « ومساكن ترضونها » من الآية الكريمة « قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها (ومساكن ترضونها) احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بأمره » ، ومثل ما وقع في الصفحة 68 من تكرار نحو اربعة اسطر .

وسوى هذه فقد ذكر المؤلف في صفحة 20 الفارابي اللغوي بكنية « ابي نصر » مع ان هذه للفيلسوف ، اما اللغوي فكنيته ابو ابراهيم ، وهو خال الجوهري ، وكذلك وقع في صفحة 97 حيث ذكر ابن مالك من المهاجرين بعد النكبة ، فاي نكبة يعني ؟ اهي نكبة الصعاب ام نكبة الجلاء ؟ ان كانت الاولى فصحيحة والا فان الاخيرة حدثت بعد ابن مالك كما يزيد على مائتي سنة ...

— * —

بعد هذا ياتي كتاب « النحو العربي » للدكتور مازن مبارك .

وهو كتاب تناول فيه صاحبه دراسة « نشأة النحو او تاريخ العلة النحوية » اي مسألة العامل الذي تركزت حوله قضايا النحو ، وخصوصا في مدرسة البصرة ، مدرسة النحو الحقيقية في جميع اطوار حياته واقطار دراساته .

وهذا الكتاب ميزته الاولى ميزة منهجية ، فلقد جعل الكاتب دراسته هذه في بابين ، مهد لهما بمقدمة وختمهما بخاتمة ، وقسم الباب الاول الذي اختص بالنحو العربي في نشأته الاولى ، الى مراحل ستة ، ابتدات الاولى بأبي الاسود ، والاخيرة بسيبويه وكتابه ، وهذا الباب ، اذا نظرنا اليه فاننا نجده ، يفتح على مصراعيه لاستقبال ما يفضي اليه .

الباب الثاني ، الذي تناول فيه العلة النحوية منذ نشأتها وتطورها حتى القرن العاشر للهجرة .

فهذا الباب الثاني هو صلب الكتاب او جوهره الحقيقي « العلة النحوية : نشأتها وتطورها »

والدكتور مازن على ما يبدو ، ليس من اولئك الذين يضيقون بهذا النحو ، فيريدون ان يبسطوه ، ويفرغوا في ذلك جهودهم ، بل هو من الذين يعترفون بالمنطق الذي يسود قضاياه وفصوله ، ويدعو الى الجدية في دراستها ، جدية تبعد عنا قسولة الناشئين المدللين .

وكأنه بذلك ، لا يقول بما يسعى اليه استاذنا ابراهيم مصطفى ، في محاولته الجريئة ، ولا يصيخ الى هؤلاء الذين يتجنون على النحو والنحاة ، بداعي الكسل والتفكير الرخو ، ثم انه بعد تناوله لكتاب الرد على النحاة ، لابن مضاء ، ينعطف على ما قاله استاذنا الدكتور طه حسين في حقه ، من كونه هادما وليس بناء بالاعتراض ، الذي يستغرب فيه من كون الدكتور طه حسين ، يحكم على كتاب ابن مضاء ، بحكم يخالف تماما ما جعله لكتاب « احياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى ، والكتابان معا لا يختلفان في دعوتهما ولا فيما اقاما للناس من معالم ، فان كان احدهما مجرد هادم فان الآخر يكون بتلك الصفة تماما ، وان كان احدهما مجددا في دعوته ومحييا للنحو ، فان الآخر يكون كذلك بتلك الصفة من التجديد والاحياء ، ولا فرق بينهما البتة .

ولنا في الكتاب وقفات جزئية ، منها انه بعد ما ساق رأي ابن فارس في كون العرب عرفوا العربية والعروض قديما وان ابا الاسود جدد العربية والخليل احيا العروض ، قال في صفحة 25 : اذا كان المراد بقوله معرفة عملية تطبيقية لا اثر فيها للقواعد النظرية ، فذلك امر معقول ... الخ .

وهذا الاحتمال الاخير لا يمكن ان يفهم من كلام ابن فارس في كتابه « الصاحبي » الذي نص عليه المؤلف ، فلم يبق الا الاحتمال الاول ، وهو ان العرب قديما عرفت النحو النظري ... والعهدة على ابن فارس ، رحمه الله .

واخيرا نجده في صفحة 157 يقول : « اذ الم يناد ابن مضاء بما ينادي به « احياء النحو » اليوم ؟

ونحن نستغرب من الدكتور ، وهو يتكلم عن النحو ، ورود « اذ الم » مع ان همزة الاستفهام لها من الصدارة ، ما يجعلها تانف من وقوعها في حيز المضاف اليه ، وهو كالجزء مما قبله .

— * —

وهنا ننتهي الى الكتاب الرابع والاخير ، وهو كتاب « الحركة اللغوية في الاندلس » لمؤلفه البير حبيب مطلق اللبناني ، على ما اظن .

وهذا الكتاب يختلف عن سابقيه الثلاثة ، فهو يتناول الحركة اللغوية ، كنشاط في نصوصها ومفرداتها ، نشاطا لغويا بالمعنى الضيق الذي لا يحتمل في دائرته النحو وصاحبه .

ثم انه بعد هذا كتاب حافل بدراسته الممعنة المركزة في موضوعها منذ الفتح العربي الى نهاية ملوك الطوائف واول ما يشكر عليه المؤلف ، عنايته بتصحيح كتابه ، عند الطباعة ، عناية ، تجعلنا مطمئنين لقراءة الكتاب ، اطمئنانا لا نظفر به في جل ما تتلقى عن الطباعة العربية ، مع الاسف الشديد .. وهذه بادرة طيبة ، اعادت الثقة الى نفوسها . وقلنا ان العربية كغيرها ، بحمد الله وشكره .

لقد جعل المؤلف تصنيفه في ثلاثة كتب :

الاول في الحركة اللغوية ، منذ نشاتها حتى اواخر القرن الثالث .

الثاني في الحركة اللغوية بالقرن الرابع الهجري

الثالث في الحركة اللغوية بالقرن الخامس .

وختم الابواب الثلاثة بخاتمة ، ذكر بها تذكيرا ، بعمله ومنهجه ، ولا زائد فيها على ذلك .

ونعود الى الابواب او الكتب ، فنراه في الاول منها، يتناول حالة المجتمع واللغة في العهد القوطي ، والاجناس المختلفة بعد الفتح ، وحالة اللغة بينهما ، ومقامها بين الاندلسيين ، وعوامل العناية باللغة ، ثم يعقد في هذا الكتاب فصلا اولا ، يجعله ، في بواكير الحركة ونشوء طبقة المؤدبين ، ويتعرض للرحلة العلمية بين الاندلس والمشرق ، وهجرة الكتب الى الاندلس ، ثم النشاط الشفوي ، تتلوه حركة التاليف اللغوي حتى اواخر القرن الثالث ، واشهر المدرسين والتلاميذ في هذا العهد ، وهل كانوا خلصا من العناصر العربية ؟

وفي الكتاب الثاني ، عقد فيه فصلا ثانيا تناول فيه عوامل النهضة اللغوية في القرن الرابع ومظاهرها بعواملها الجديدة ، وما كان للحكم من جهود فيها ثم المنصور ابن ابي عامر ، وما اعتور ذلك من عوامل اخرى تقليدية لعهده ، ونشاط الرحلة الى المشرق وقيام التاديب والتدريس على قدم وساق وظهور المتخصصين العظام في اللغة على حين تنعقد المناظرات بينهم في مسائلها وتتنوع حركة التاليف ويتسع نطاقها فيكون للاندلس ميدانه الخاص في الدراسات اللغوية .

وبعد هذا الفصل يعقد فصلا ثالثا ، يتناول فيه ائمة اللغة وانتاجهم ، كالزبيدي وابن القوطية من الاندلسيين والقالي من الوافدين ، ويذيل هذا الفصل بتقسيم للنشاط اللغوي وجعله في ثلاث موجات ، تمثلها شخصيات يوجز ترجمتها ونشاطها .

وينتهي الى الكتاب الثالث والاخير ، فيعقد فصلا رابعا ، يتناول فيه العوامل التي وجهت الحركة اللغوية في القرن الخامس ويصور الحالة السياسية الطارئة وما نجم عنها من عوامل جديدة ، والخصب الذي تركه القالي في تلاميذه الذين انتشروا في مراكز عديدة كان يقوم عليها ملوك الطوائف ، ثم ما كان من الاهتمام الزائد بتاسيس المكتبات العلمية والادبية والتسامح الذي كان يسود الميدان العلمي الذي كان منطلقا للبحث في اصل اللغة والاشتقاق فيها ومحاولة بطلان العلل النحوية لها والتماس الصلة بين اللغة والشريعة من ناحية وصلتها بالواقع العملي من ناحية اخرى ، الى غير هذه من الصلات بعضها بالحياة وآخر بالعلوم المختلفة ، ثم ما كان لهذه الحركة من عوامل تقليدية الى جانب الاخرى الجديدة ، وما كان يؤازرها من نشاط الرحلات الى الشرق ومنه الى الاندلس وحركات التدريس ورجاله الذين ذكر من شهر منهم .

ثم يعقد فصلا خامسا ، يتناول فيه حركة التاليف ووجهاته العديدة ، ويذكر بعض من يمثل هذه الوجهات ، ويخص البكري بدراسة شاملة لشخصيته العلمية وآثاره المتنوعة ، ثم يتفرغ لابن السيد البطليوسي ودراسته اللغوية المسجلة في تآليفه القيمة ، فكان هذا مسك الختام للكتاب كدراسة لتلك الحركة اللغوية .

اما الخاتمة التي ذكرها بعد ، فكانت كما وصفنا، ولم يكن فيها من مزيد على تلك الدراسة الهامة .

وهذه ملاحظتنا بعد ذلك على الكتاب .

ففي الصفحة 48 يذكر ان الحكم المستنصر استادب لبنيه عثمان بن سعيد المعروف بورش ، والحكم هذا توفي عام 366 بينما كان ورش قد توفي عام 197 بمصر ، فلعل المستادب له الحكم بن هشام المتوفى عام 206 ، والا فهل هناك ورشان ، احدهما المعروف بميلاده ووفاته في مصر ، والآخر الذي استادبه المستنصر ؟

وفي صفحة 50 يذكر ان الاندلس لم تعرف ما عرفه المشرق من امر المدارس ، وانما بقي التعليم فيها قاصرا على المساجد .. ونحن لا نعرف في المشرق على تلك الحقبة الا المساجد التي كانت المدارس ، ولم تكن قد بنيت المدارس لتختص بالدراسة دون المساجد الى ان كان القرن الخامس .

وفى صفحة 71 يعلق على كتابي ابن حبيب فى غريب الحديث وشرح غريب الموطأ بقوله : « ويبدو انهما قسمان من كتاب واحد ، ولا ندري كيف بدا له انهما قسمان ، فمترجمو ابن حبيب ذكروه بأن له من التآليف نحو المائة فيها « الواضحة » وفيها « شرح الموطأ » ، فهل هما كتاب واحد ، او هما كتابان ؟ قيل بهذا كما قيل بذلك ، وعلى كل فليسا قسمين من كتاب واحد .

وفى ترجمة الزبيدي التي بدأت بصفحة 123 يذكر هذا العالم العلمَ عالم اللغة على الاطلاق ، ويصفه بصفة « المتعالم » فان كان الزبيدي متعالما ، فان غيره يقصر عن صفة المتجاهل ، فيكون جاهلا حقا وحقيقة .. ايكون الزبيدي العظيم بهذه الصفة ، لا لشيء الا لكونه نبه على اغلاط الناس وتصحيحه هو لها ؟

وفى صفحة 154 يجعل من اصناف اخطاء العامة فى « لحن العامة » ما كان كتابيا وليس لفظيا، مثل دفلة اذ هي دفلى ، مع ان الزبيدي يقول : «ويقولون لضرب من الشجرة دفلة،والصواب دفلى» فلفظة « يقولون » تكفي وحدها لتجعل الخطأ لفظيا ، لا كتابيا فحسب ...

وفى الصفحة 189 وهو يتحدث عن القالي وسفره المبكر فيقول : « ومن المشكوك فيه ان يتمكن من هو فى الخامسة عشرة من السفر وركوب المشقات ، ما لم يكن مصحوبا بمن يهتم بشئونه » .

ونحن لا ندرك سببا للشك فى هذا ، فالرجولة السابقة لتاريخنا كانت رجولة مبكرة ، فمن كان فى سن الخامسة عشرة ، كان يقود الجحافل والجيوش، ولا يشق عليه ان يسافر فى طلب العلم ، وقد سافرنا فى مثل هذه السن واقتحمنا المشاق وحاقت بنا المصاعب فتغلبنا عليها .

وفى الصفحة 263 يذكر ان صاعد الاندلسي ، قبل ان يرتحل الى صقلية ، قصد مجاهدا العامري ، والواقع ان « صاعد » الذي ذهب الى صقلية ، هو صاعد البغدادي المتوفى عام 410 او 417 ، وهذا لم يحضر مجلس انس لاحد ممن ولي الامر بعد المنصور ، كما يقول أصحاب التراجم ، اما صاعد الاندلسي ، فقد توفي عام 462 ، وهو الذي قصد « مجاهد » الذي توفى عام 436 ، وكان قد استقل بدانية عام 412 ، اي بعد وفاة البغدادي بعامين على قول او قبلها بخمس على قول آخر ، وقد قضى سنتين بصقلية ، لا بالاندلس ، بعد وفاة المنصور .

وفى تناوله للمرابطين ، يذكرهم بمجرد « الصحراويين » المتسلطين المغتصبين الذين انتكست بهم هذه الحركة اللغوية كما يفهم من صنيعه ، وهذه قولة تمخضت بها بطون المسيحيين المليئة بالحقد والبغضاء لهؤلاء الذين انقذوا الاسلام ورفعوا رايته عاليـة .

وفى صفحة 324 نجده فى التعليق 3 ينص على ان شرح شواهد سيبويه للشنتمري توجد نسخة منه فى القاهرة ، مع انه مطبوع متداول بين الناس ، وعلى هامش الكتاب ، ولا حاجة للاخبار بكون نسخة منه موجودة بالقاهرة او بغيرها ، الا لمن يهتم بالمطبوعات وحدها .

وفى صفحة 358 يذكر ان ابن سيده « وجه شيئا من عنايته الى المنطق » مع ان ابن سيده نفسه يقول فى مقدمة المحكم « ان علم اللغة اقل بضائعي وأيسر صنائعي ، اذا اضفته الى ما أنا به من علم حقيق النحو ، وحوشي العروض ، وحفي القافية ، وتصوير الاشكال المنطقية ، والنظر فى سائر العلوم الجدلية ... » فباعه اذن فى المنطق اقوى منه فى اللغة ، التي اشتهر بها وبالنحو ، كما يقول المؤلف .

وفى صفحة 363 يعلق على قول ابن سيده فى حق مجاهد « هداني سواء السبيل الى علم كيفية التاليف ، واراني كيف توضع قوانين التصريف » بقوله « والواقع ان مثل هذا الكلام ... لا يمكننا ان ناخذه مأخذ الجد » .

وهذا الارتياب او التكذيب لا معنى له ، اذا علمنا ما كان عليه مجاهد من علم بالادب وعلوم القرآن، وأنه كان اديب ملوك عصره ، كما يقول مترجموه ، فلا غرابة ان يتدخل فى منهج كتاب ابن سيده وان يرشده بكيفية التاليف ، كما قال نفسه .

سوى هذه الملاحظات ، فهناك تعبيرات جرى فيها المؤلف مجرى معاصريه المخطئين ، مثل « بقدر او بآخر » بدل « بقدر ما » ص 286 ، ومثل « شتى المناسبات » بدل « مناسبات شتى » ص 337 ، ومثل « هو الآخر » بدل « هو ايضا » ص 384 ، زيادة على كونه استعمل فى صفحة 281 كلمة الاطلاع، بدل « الاضطلاع » فى قوله « معلم اللغة قد يحسن الاطلاع بتفسير المعاني » .

تطوان : محمد بن تاويت





فارق غرناطة – آخر الحواضر الاسلامية الكبرى التي بقيت بيد المسلمين – مفارقة نهائية ، ولم يقعده عن هذا الفراق لا رعاية زوجة ، ولا محبة ولد ، ولا ابهة وزارة ، ولا جاه وظيفة ، كما لم يزعجه ان يترك من ورائه المال العريض والعقارات المتعددة والقصور الفخمة ... انه يريد ، بعد كل ما فات ، ان يخلد الى السكينة والاستقرار ، وان ينصرف الى كتبه واوراقه ومحابره في ارض المغرب الطيبة ، بجوار السلطان في مدينة فاس او في سلا غير بعيد عن مثوى (ابي الحسن المريني) الخالد الذكر .

وكعادته المتاصلة فيه منذ فتوته ، استيقظ في الصباح باكرا ، واقبل ينجز عملا بعد عمل ، بحيوية تامة ونشاط وافر ، لا يكاد يقعد به العياء الذي انهك جسده النحيل ، ولا تكاد تؤثر في نفسه النواعج الاليمة .

اشرف – داخل القصر المجعول رهن اشارته – على اعمال البستانيين ومروض الخيول ، وعلى اعمال المكلفين برعاية البلابل في اقفاصها ، والدواجن في خممها ، واسراب النحل في خلاياها ، والحيتان الملونة في احواضها ... ثم انقلب بعد افطاره – الى مكتبه لاستقبال العرفاء والمقاولين ، الذين اسند اليهم عملية الاشراف على بناء قصوره ومنتزهاته ومخازنه واهرائه وفنادقه : ناقش التصاميم ، وفحص العينات ، وعدل الاثمان ، ووقع الصكوك ، وسلم الدراهم وتسلم العقود ...

وخصص ما بعد الظهر – اثر نومة القيلولة – للوقوف مباشرة على اعمال الصناع ، بنائين وجباصين وفسيفسائيين ونجارين وحدادين ، الذين كانوا منكبين بهمة وعزم على توسيع الجناح الايمن من قصره الذي خصصه له السلطان الابي المرحوم (عبد العزيز بن ابي الحسن المريني) وفعلا وجد كل واحد منكبا على القيام بمهمته ، بحسن ذوق ، ورهافة حس واتقان وضبط . كان بعضهم من صناع مدينة فاس الاصلاء ، وبعضهم من الصناع الواردين من العدوة الشمالية ، من اولئك الذين ساهموا في ارساء دعائم قصر الحمراء الزاهر ، وتحقيق آيات الفن النادر في جنباته ، وفي غرفه وابهائه . انهم كلهم يعرفون عن مستخدمهم (الوزير ابن الخطيب) رغبة قوية وحرصا شديدا على الاجادة والاتقان والتفنن ...

وحل المساء ، واخذت حرارة (فاس) تخف ، وهبت نسمات رقيقة منعشة ، حركت سواكن الاغصان ، تمازجها ذرات المياه المتدفقة في سواقيها او المنبجسة من انابيب النافورات المتتالية ، وحضر المشهد عديد من انواع الطيور الفريدة الصداحة واسراب من الحمام الابيض والملون الذي انطلق يتقافز او يحوم في الفضاء الفسيح ، متجنبا الاصطدام برؤوس اشجار السرو والاجاص والنخيل غير المتمر ... وهنا طاب (للوزير ابن الخطيب) ان يخرج من طور العمل المجهد الى طور التمتع بالطبيعة السخية ، فاتخذ مكانه في الظل الوارف ، تحت الكرمة واستوى

على الاريكة الوثيرة ، بينما الجوزى العبيد واقفون بين يديه فى اجلال واحترام ...

وتقدم منه ناسخه الخاص وقدم له كتابا مخطوطا اوشكت صفحاته أن تتم تسويدا ، وهو من مؤلفات الوزير الاديب نفسه ، الا انه عدل عن ذلك الكتاب واقبل على ورقة ينقح ما كتب عليها ، وكانت الورقة تضم عدة ابيات ، وكلما نقح ووصل الى آخر شطر امدته القريحة بأبيات اخرى ، فيروح يخطها فى الحين بحماس ودون توقف ، وعندئذ كان يرى لعينيه بريق خاطف وعلى محياه اهتمام ، وتلمح فى شفتيه اختلاجات وتمتمات وهمسات ، ولا يدري احد لمن هي تلك الهمسات والتمتمات والاختلاجات ... ! ؟

وكلما عاد الشاعر وقرأ من شعره كرة اخرى ـ ايقن بحق انه شاعر مفلق ، وتأكد فيما بينه وبين نفسه انه شاعر بارع اكثر مما هو ناثر ساجع ، واعتقد ـ من اجل ذلك ـ ان هذا اجدى ، لان الشعر ابقى على الالسن ، واثبت حفظا فى الصدور ، واحلى تغنيا فى الشفاه ، وادعى الى تفريج الهموم ، والى التعبير عما يخالج النفس من المشاعر والاحاسيس والاوهام ...

وعند اقتراب منتصف الليل ـ حيث الطبيعة ساكنة ، وكل حي ركن الى الانطواء والاختباء ، اللهم الا ما كان من الخفافيش ، وديوك (الارامل) التي تنعب صائحة بين الحين والحين ـ عندئذ شعر (الاديب الوزير) بأن لبدنه عليه حقا ، وانه جدير بأن يركن الى الارتخاء والنوم ، ولكن وااسفاه ، اين السبيل الى النوم ؟ واحداث هذه الايام لا تبشر بخير . واذا كان هناك من شخص عليه أن يتوجس شرا من الاحداث فهو هذا الوزير المستكين من استسلام تحت الكرمة الملتفة الاغصان .

ان البقية الباقية فى ارض الاندلس المسلمةمن الرجال كلها تتحرك ، سعيا وراء راس (الوزير ابن الخطيب) ، وشمال المغرب ثار وقامت فيه دولة جديدة ، هدفها الاول القبض على (ابن الخطيب) وامراء البيت المريني يتعاركون ، اما دفاعا عن (ابن الخطيب) او سعيا فى الايقاع به !!

وتساءل :

(الى هذا الحد ، هو ابن الخطيب السلماني مهم عندهم ؟ الم يترك لهم ارض الاندلس بما يوجد عليها ؟ الم يخرج منها بلا مال ولا اهل ؟ الم يسلم فى منصب الوزير الاول بكل ما فيه من جاه ورفعة ؟ الم يغادرهم غير مخاصم ولا معارك ولا دساس ؟ شيء وحد بقي ، وهو الامل الوحيد فى الدنيا ، ذلك ان ينعزل محسودكم (ابن الخطيب) ويعود الى معتزله فى (سلا) ، فى دار ولو بسيطة ، من حيث يرجع الى انتاجه العلمي والادبي ، ان هذا الانتاج هو ابقى على مر الدهور من مناصبكم وقصوركم وابهة مناصبكم . اتركوه ، اتركوه ، انسوا ان هناك شخصا فى الوجود يسمى (ابن الخطيب) لينس من اسدى اليه خيرا انه ممنون له ، لئلا يشعر ازاءه باى نقص ، وليتنس الذين سبق ان مسهم بسوء انه ما زال ذا سلطة تمكنه من الامعان فى مباشرة ضرره وسوئه ، انه ـ اليوم ـ عاجز ، مسلوب الجاه ، مجرد عن كل عز ، لا رغبة له ـ وقد مضت ستون من الاعوام ـ الا أن يركن الى ركن فى بيت زاخر بالمجلدات والمخطوطات والقصاصات الشعرية والزجلية ... اما هذا الذى يبنيه والذي يشيده والذي يسهر على تنميته وازدياده هو مستعد للتسليم فيه عند اول طلب ، من اول طالب .. !)

وكأنما كانت هذه الهواجس الداخلية الصاخبة تنبأ عن القدر المقدور ، فلقد طرق باب حجرة النوم على (الوزير السابق) ليقول له وصيفه : ان الذين كانوا ساهرين على ضياعك ومنتزهاتك فى ارباض المدينة قد وصلوا الساعة ، وهم يخبرون أن جنود السلطان (احمد بن ابي سالم) المريني ، ومعهم جنود اندلسيون من حاشية (ابن الاحمر) دخلوا تلك الممتلكات ، وعاثوا فى اشجارها ومغروساتها ، وافسدوا السواقي وفتكوا بالدواب والدواجن ، وطاردوا الحراس والعمال ، بل قتلوا بعض من دخل معهم فى جدال من اجل ذلك .

قام (ابن الخطيب) من فراشه مرتاعا ، فاقدا كل سيطرة على نفسه وعلى اطراف جسده ، ووجد ان الموقف امامه قد تحرج للغاية . وتجمد كل ما يوجد معه فى القصر ، فالخدم فاغرة افواههم مرتعدة ايديهم وارجلهم ، والنسوة توارين باكيات نادبات ، والحرس قد اخلى امكنة حراسته حين دبت فى الشوارع جحافل من الجند المريني ـ الاندلسي وقد جاءت جادة ، قاصدة دار (ابن الخطيب) للقبض عليه .

لم يفر الوزير ، ولم يحاول الفرار ، بل ان الفرار لم يخطر له على البال ، وبقي واقفا امام حجرته منتظرا الزوار غير الكرام الذين اقتحموا عليه

منزله، تطل من اعينهم الشراسة والقسوة، ويفوه الاندلسيون، من بينهم، بأقوال بذيئة لقنها لهم رؤساؤهم وشرع البعض بقيد اليدين بالحبال، والاخرون يكبلون الرجلين بسلاسل الحديد، وطوق كبيرهم عنق الرجل بحبل متين وشرع يجره جرا الى الخارج.

وبقي ابناء الوزير الكبار – الواردين اخيرا – مذهولين، والصغار زائغي الابصار، وهم جميعا يرون اباهم الذي كان يتلقى يوما من الايام من كل هؤلاء الجنود تحيات عميقة كبيرة بعبارات من الولاء مع الدعاء بطول العمر ودوام العز والشان... هؤلاء الجنود – الليلة يقومون بجر الوزير نفسه الى الحبس، ويدقون بقبضاتهم على ظهره، ويشددون دون احترام على طوقه من الخلف، وهم على استعداد للهجوم ببعض الركلات والضربات... والواقع ان تكديس القيود والاغلال على اطراف (الوزير المحبوس) ليس له من دليل الا كونه تعبيرا عن الحقد الشديد، على الرجل الذي ما وجدوه متلبسا بجريمة، او خارقا للقانون، او متحديا لاولياء امر، انما هي احقاد السادة ينفذها الاعوان بأقصى عنف... وطلع الفجر على فاس الناعسة التي لا علم بما جرى من قبض عنيف على ضيفها (الوزير) ثم اشرقت الشمس – شمس غشت – وهبت معها لفحات من اعماق الجحيم الحامية، وفتح السكان نوافذ حجراتهم التقاطا لنسمات قد يجود بها الطقس القاسي، وتمتعا بمنظر الخضرة الناضرة التي تمتاز اشجار مدينة فاس، وانصاتها الى رقرقة المياه التي تنحدر في كل زاوية وعند كل زقاق في مدينة فاس، اما السجين (ابن الخطيب) فلا نسمات ولا مناظر ولا ما يمتع السمع او يسر النظر... انه لم يعد يهتم بأية متعة، ولم يعد يهمه من شؤون الدنيا شيء، ولم تعد له الارغبة واحدة قبل مفارقة الحياة، الحياة لا شك انه مفارقها، سوى ان يتمعن هذه المناظر الدنيوية الدالة على الكثير من افكار الناس واغراضهم ومبادئهم... انها مناظر مؤسية، لو امهله الاجل لسجلها للتاريخ، وهنا غالبته عواطفه الفياضة فردد من شعره:

قل للعدا ذهب ابن الخطيب

وفات، ومن ذا الذي لا يفوت

واغرورقت العينان بالدموع، وفاض الصدر بآهات حرى، خرجت كانها لهيب من كانون مشتعل، ولكن دون احساس بأي انفراج، ان القوم متالبون، الاندلسيون منهم بالتحديد – عامتهم وخاصتهم – يريدون راس (ابن الخطيب) ليعلق في ساحة من ساحات غرناطة، جزاء فراره من سلطانه واحتمائه بالمغرب، والخاصة يريدون مثل ذلك جزاء ما كتب عن (زندقة) في تآليفه...

لو علموا وتأملوا لفهموا ان الفرار كان من اجل تجنب المشاكل، والدخول مع الاقران – رجال القصر السلطاني بغرناطة – في صراع ودسائس ومكر، تكون نتيجتها حتما اغتيالات او قتل على رؤوس الاشهاد، او نفي مرير في اماكن خالية من البراري والقفار، ولهذا فضل (ابن الخطيب) ان يترك ذلك الجو المسموم المشحون بفضاء وانصرف الى حال سبيله دون اذاية لاحد...

اما القدوم للمغرب فليس فيه من باس، فرغم فاصل الضيق فالمغرب والاندلس كانهما ارض واحدة، والتربة تشهد ان تمازجا قويا يجمع بين ذرات الاجساد الفانية لسبعة قرون خلت، فكلما احس هذا الجانب بنازلة مهلكة الا واستغاث بالجانب الاخر، لطالما كان الشاطىء الجنوبي مغيثا كريما سخيا ابيا... فاذا كانت الجماعات تستغيث، فلماذا يا ترى لا يستغيث الافراد؟ لقد استغيث بالمغرب فكان نعم المغيث المضيف، ونعم النصير، ونعم الشهم... الا حفظ الله المغرب، وابقاه ملاذا للاسلام وذرية الاسلام... وزاد ابن الخطيب قائلا (والان وقد اوشك ان ينتهي كل شيء فلأفتح العينين وللأرهف الاذنين، فالحياة تأبى الا ان تلقن دروسها حتى النهاية فمرحبا بدروسها مهما كانت قاسية وعسيرة عن الفهم، وبعيدة عن الادراك).

وتطمئنت نفس السجين على استيعاب المناظر المتمثلة، بنفس راضية وفؤاد ثابت:

– منظر السجن الرهيب، العابس الخرب، الشحيح الضوء، القليل العيش، الخبيث الشراب، مأوى الجرذان والخنافس والهوام، السام منها وغير السام... اين هذه الحقارة من قصور غرناطة، وقصور فاس... رحمة الله على الماضي الزاهر..

– منظر الحراس الخالين من كل لياقة، الذين يظهرون جبروتا ما عليه من مزيد، ويشددون الخناق اكثر ما يشددونه على اللصوص والسفاكين والمجرمين حتى اذا جاءهم وزير سجين احتاروا ماذا يفعلون، اذ الاوامر تلزمهم بارتكاب اساليب العنف والاضطهاد، وهم يستحون ان يفعلوا!

ـ منظره هو نفسه وقد اخذ الى حضرة (العلماء) ليحاكم على افكاره وتعابيره وتخطيطات قامه، وقصد الخصوم ان يتبثوا عليه تهمة الزندقة والمساس بالمقدسات .

ـ منظر تلميذه وربيب نعمته (ابن زمرك) وهو يشرف على المناقشة والمحاجة، معاندا مكابرا متطاولا، ساعيا فى تضييق الخناق على استاذه، ولا يرعوي عن ان يهين استاذه بالاشارة او بالقول، وان يحفر تحت قدميه ليوقعه فى حبائل الاعتراف .

ـ منظر السارد هو يسرد (صك الاتهام) الذي حرره قاضي الجماعة (السيد النباهي) النباهي الذي جثا يوما من الايام على ركبته يطلب من (ابن الخطيب) منصبا، فلما اعطيه سجد شاكرا، ذاكرا الفضل، والمنة التي عليه والتي ستبقى فى عنقه مدى الدهر .

ـ منظر الحراس وقد تكاثروا وتكاثفوا واحتلقوا يطوقون (الوزير السجين) وهو بحضرة العلماء، العلماء رفقاء الايام السالفة، الذين كانوا من المعترفين له بالفضل والسبق والتفوق، انهم يتعجلون اللحظة التي يؤخذ فيها من حضرتهم الى ظلمات السجن .

ـ منظر السجن الموحش، الخبيث الرائحة، القليل النور، المتعفن الهواء الذي صار لوزير سابق مقرا، بعد عز القصور الباهرة، والرياض الرائعة من حيث تفرد البلابل، وتعبق العطور، وترق النسائم، ويحلو الانسجام مع الهدوء وجمال الكون ...)

حتى السجن يوجد به هدوء، ولكن هدوء الان تزعجه حركة، حسبها السجين تارة جاءت تتسلل لتضايقه فى حصته القليلة من الطعام، الا أن الحركة كانت خطوات متطفلين دخلوا يقصدون شيئا باستعجال، ومن شدة عجلتهم ارتفعت اطراف ملابسهم الفضفاضة فانطفا المصباح، ومع ذلك لم يخطئوا قصدهم، فتقدموا اليه، وتحسسوا جسده فعنقه غير المتين، وشرعوا يغرزون اظفارهم فى حنجرته .

احس الوزير الاديب بشدة الضغط عليه، وبحرص المغتالين على ان يخنقوه، وان يقتلعوا الروح من بين جنبيه، فقاوم بآخر جهد بقي لديه، ولكنهم تقاسموا عملية الاجهاز عليه، هذا شد على الشعر والصق الراس بالارض، والآخر زاد ضغطا على اليدين بالاضافة الى ضغط القيد، وثالثهم جاس على الفخذين بكل ضخامته واخذ يدق البطن الواهن بعنف ... وعندئذ لم يسع الرجل الا ان يستسلم للقدر، وان يغالب سكرات الموت الى أن فاضت الـروح .

سلا : محمد بن أحمد اشماعو



قال البكري ص 33 فى كتابه ((المسالك والممالك)) .. وكانت بكنيسة شيفنارية فى سلطان الروم أعجوبة مرآة كانت اذا اتهم الرجل امرأته نظر فى تلك المرآة فيرى وجه المبتلي بها وكانت البربر قد تنصرت فكان بربري قد أظهر اجتهادا فى النصرانية حتى صار شماسا واتهم رجل من الروم امرأته فنظر فى المرآة فاذا بوجه البربري الشماس فدعا به الملك فقطع انفه ومثل به وطرده من الكنيسة فطوف قومه المرآة فكسروها فأرسل الملك الى حبسهم فاستباحه .

كانت قرية آمنة وكأنها ضاحية من الفردوس حطمتها اجنحة الملائكة الى الارض ، فالشمس تسطع فى سمائها مشرقة وكأنها قبس من نور لا تلفح الوجوه ولا تعشى الابصار ، والسحاب يعبر افقها متهاديا وكأنه ستائر الحرير تحجب الرياح وتصد الانواء ، وعندما يتساقط المطر يتجمد لؤلؤا على سنابل القمح وغصون الاشجار ! ! انها قرية آمنة ، يغشاها سكانها الابرياء فيغمر قلوبهم الطهر وتجلل وجوههم الوداعة ويبدو الوفاء على قسمات محياهم صارخا ... وكانت القرية الجميلة تتقارب منازلها وكأنها توحي بما فى قلوب سكانها من تضامن بينهم أجمعين ، وعلى ربوة المدينة تربط كنيسة كبرى رفعت اعمدتها سواعد سكان المدينة ونسجت خمائلها ضفائر العذارى ، ورصفت ارضها أوراق الورود والياسمين فكانت قصر القرية الفخم ، يأوون اليها جميعا كلما مسهم الم فيستجدي بها الفلاح المطر والغيث وتلتمس بها الادعية الصادقة مسامع السماء

ولم يكن منظر الكنيسة يوحي بالجمال والافتنان، وانما كانت تلقى فى الروع بالرهبة والجلال ، لم تكن عظمتها فى أساطينها المتعالية ، ولا فى تعاريج منحنياتها ولا فى تلاوين زجاجها ، وانما كانت الروعة كامنة فى هيبتها ووقارها وبساطة فنها ، ان منظرها البسيط العادي لا يغري بالتأمل والاستجلاء باستثناء مرآة صقيلة مثبتة فى زاوية من زواياها الاربع قرب كرسي الاعتراف ، تلك المرآة الصقيلة والرهيبة معا، والتي كانت سر سعادة هذه القرية وسر قداستها كأنها مرآة الاعتراف ! نعم كانت مرآة يتراءى فى ظهرها وجه الآثم المتلاعب والمفسد الباغي والظالم المتغطرس فكم ساق اليها سكان القرية الآمنة من امرأة ابت الاعتراف بخطيئتها ، فكان خليلها يبدو فى هذه المرآة لا سبيل لنكرانه ولا امل فى الافتراء على غيره ، لقد كان يتراءى فى صفحتها الواقع حتى يراه كل انسان فتنقطع على الالسنة الكذب والبهتان ، كانت المرآة سر سعادة هذه القرية التي لا يفتري نساؤها الكذب ، ولا يقترفن الجريمة خوفا من فضيحتها وصراحتها التي لا ترحم ، ولذلك سلمت القرية كلها من الحكام العابثين والشهود المفترين والحكام المستغلين ، واذا كان للجماد حكمة وفلسفة فان

مرآة الكنيسة كانت ترى فى المراة اساس الجريمة والذنب ، فالسارق يغصب المال ليقترف الخطيئة ، والظالم يقسو ليقطف ثمرة الخطيئة ، والحاكم يغصب ليرضى شبقه ونزاوته ، ان الجرائم كلها تهدف الى الخطيئة التي تظل سلبية بدون ابنة حواء فلا غرابة ان تصبح مرآة الاعتراف سبب السعادة المخيمة فى هذه القرية الآمنة حتى لى يعد ياوي اليها السارق الباغي والظالم الآثم اذ لا وسيلة الى اقتراف الاثم ، واجتراح الذنب ، ما دامت المرآة تعكس صورة خطيئة المراة ، واصبحت بنات حواء يابين على انفسهن الاثم والذنب ، فعف السارق وتاب الباغي وارعوى الظالم ، واذا بالانسان عنصر الخير فى الحياة .. ولهذا كانت الكنيسة مقدسة فى هذه القرية يخدمها بامانة ثلاثة رهبان ، اما احدهم فقد كان عمله الدائم ان يمسح عن المرآة ما عسى أن يعلق بها من غبار واتربة ونسيج عناكب، واما الثاني فكان يتلو الانجيل بصوته الرخيم ، ويرتل الادعية الدينية بحنان تذوب له القلوب ، وكان الثالث يسهر على جمع التبرعات والصدقات لاعانة الضعفاء ومواساة الفقراء .. ولعل اكثر الثلاثة حظا ذلك الراهب الذي يحرس مرآة الاعتراف ، حيث كان يتاح له ان يرى خفايا القلوب وصور الغيب ، فكم فضحت المرآة من اسرار رجل وقور لم يشك احد فى حسن تصرفه وقويم سلوكه ؟ وكم اجلت المرآة وجوها كانت مستترة فاذا هي كالبدر تألقا ولمعانا ؟ وكم اشارت الاصابع الى فتى بريء فاذا هو صافي السريرة طاهر العرض ... ان لهذه المرآة لسرا عجيبا ! ولم يكن الراهب وحده معتزا بعمله وخدمته ، بل كانت قبيلة الراهب كلها مفتخرة ان يكون سادن المرآة من ابنائها، وسكان القرية منذ القديم يعتزون بمن يعدل ويحكم خصوصا اذا كان يحكم بالحق ويؤثر الانصاف فكيف لا يفخرون بفتاهم اذا كان سادن مرآة الاعتراف ، بل ان المرآة مدينة لهذا السادن الذي يرعاها حق الرعاية بجليل عمله وصدق خدمته ، ومن يدري لعله يعرف الكثير من اسرارها ، بعد ان عرف الكثير من اسرار الناس ، واذا كانت القبيلة كلها معتزة بسادنها وراهبها فانه هو نفسه كان يرى فى عمله قرابة من المرآة وصلة متينة بها وربما تمنى ان تحرسه كما يحرسها ؟ وتدافع عنه ان زلت قدمه كما يدافع عنها ؟ وترعاه ان اخطا بعينها التي لا تنام كما يرعاها بعينيه ؟ وما اكثر غرور الانسان وحماقته ايضا ! فهو يخدم الفضيلة ما دامت الفضيلة وسيلة لكسب الرزق،وتقدير المجتمع،

حتى اذا تجاوزها أو تجاوز المجتمع ، تنكر لهذه الفضيلة المسكينة التي لا تتنكر لاحد وتظل دائما فى ردائها المتواضع لا يغريها زخرف الدنيا ولا مباهج الحياة ، وكذلك زين للراهب الذي يحرس المرآة ويرعاها ان يثق فى صداقتها وغفلتها عنه وتسامحها لما عسى ان يقترف من اثم وخطيئة .

كانت هذه الوساوس تراود الراهب كلما خلا الى نفسه مفكرا ، وكلما نمت ثقته فى صداقة المرآة سبح خياله فى عطفها ووفائها وصادف ان اخذت اميرة القرية (داهيا) الفاتنة اللعوب تتردد دوما على الكنيسة فتخلو الى المحراب متعبدة ، فكان سادن المرآة يقف من بعيد متاملا جمالها فتتراءى له ملاكا من ملائكة الفردوس ضل طريقه فوقع فى شباك الارض كانت تحمل اليه معاني الجمال والحب ، لهذا كان يتحسس طريقه اليها فى غيبة عن ارادته ، ويظل يحملق فى وجهها الملائكي الجميل من بعيد دون ان تراه فتفتنه عن صلاته ونسكه ، ويصبح راهبا فى محراب الجمال امام ملاك فى محراب السماء ! حتى اذا عاد اليه وقاره وتراءت له مرآة الاعتراف اطمئن الى نفسه وعمله ووثق فى المرآة الا تفشي خلجات قلبه ، وهكذا كان يقضي يومه فى احلامه والى المراة الجميلة التي اخذت بلبه وقلبه ثم مع مرآة الاعتراف التي لن يخشى فى شهادتها وهو ابنها البار وسادنها الوفى ! اما الجميلة (داهيا) فلم تشك اول الامر ان سادن المرآة راهب طاهر الذيل ، لا يدغدغ الشيطان وجدانه ، وانى لابليس ان يكون له عليه سلطان وهو الراهب الامين وسادن مرآة الاعتراف ، وليس فى لحظاته المتوالية ولا فى ابتساماته المتلهفة اكثر من دعابة اب رحيم لقلب امراة لعوب يحرس نزواتها ان تستجيب كلما آنست غيبة الرقباء وقسر المجتمع ! واعتادت داهيا على زيارة الكنيسة كلما سنحت لها الفرصة ، وكان لا بد ان يسرف الراهب نظراته ويطيل التامل فى وجهها الجميل ، بل عودته الايام ان يحدق اليها فيطيل النظر ، حتى اصبحت صورة داهيا مرتسمة من عينيه لا تمسحها الا دمعة الوجد وخوف الرقيب، هذا الرقيب الذي كان راهب الكنيسة المرتل لادعية الانجيل فى ساعات الخشوع والصلاة حيث كان يلقي الى صديقه بنظرات فيها شيء الحسد والعتب ، وفيها شيء من التربص والحذر ، وفى دنيا النظرات والحذر والتربص والارتياب كانت عواطف الراهب السادن تنزلق الى عالم الشهوات والجسد وكانت داهيا تتداعى ارادتها امام عاشق

ولهان لن يخشى المرآة ولا شهادتها ، وكان راهب المحراب ينبس دوما بادعية والتراتيل متربصا بزميله ليفشي اسراره ويتعقب زلته ! كانوا ثلاثة يحملون ليوم الخطيئة راهب المرآة يحلم بالثمرة الحلوة التي سيقطفها دون خشية او رهبة ، والفاتنة داهيا تحلم بالقلب الجديد الذي ستدميه بين أصابعها، اما راهب المحراب فينتظر ذلك اليوم الذي يصبح فيه سيد الكنيسة التقي ، وآدم الذي لم يتذوق التفاحة المحرمة ! ترى ايمكن لمرآة الاعتراف ان تغفر لسادنها زلته حتى اذا ارجف المتقولون وقدموا داهيا للمحاكمة قطبت المرآة جبينها وابت على ولدها البار أن يرجم بيد سكان القرية الحانقين ، اما السادن وقد زين له الشيطان عمله فاطمأن الى أن مرآة الاعتراف ستغضي الطرف عن زلة فتاها الامين الذي سوف لا يجلو عنها صدا الايام وغبار الزمان ليعسر على وجه الانسان ان يتراءى فى نضارتها متلبسا بخطيئته . واما داهيا فقد خيل اليها أن الراهب سيكون مجنها العتيد يرد عنها اقوال الحانقين وكلمات الشاكين ، اليس هو سادن المرآة وسيد الكنيسة . واما راهب المحراب فقد آمن ان المرآة لن تتخلى عن رسالتها مهما كانت قربة السادن بها وخدمته لها ولذا فلن يتسامح فى محاكمة صديقه مهما كان الثمن ، وعندما تتخلى المرآة عن اظهار الحقيقة وافشاء السر فسيتولى بنفسه محاكمة صديقه لتبقى للقرية قدسيتها وللكنيسة مكانتها .

ودابت دهيا على زيارتها الكنيسة كل مساء حيث يقتبلها سادن المرآة فى انتظار العاشق ورقابة راهب المحراب وما عتم زوجها امير القرية ان تراءى له فى ترددها على الكنيسة وايثارها للوحدة ما يثير الشك والقلق فطالما رغب ان يصاحبها فاعتذرت ؛ وكم من مرة وقف منتظرا فعادت وفى ملامحها ما لا تقدر المرآة على حمله من اسرار القلوب ، ولواعج النظرات ولكن الامير عز عليه ان يترك للشك طريقا الى قلبه ما دامت زوجته داهيا تتردد على بيت العبادة فى رقابة مرآة الاعتراف وبين يدى سدنتها الاوفياء ، واذا كانت معاول ارادة الزوج حطمت الشكوك والاوهام فان الايام ربطت بين قلب الراهب وداهيا وغيرة راهب المحراب وحقده ، فكان يوم الخطيئة يقترب ليواجهوا جميعا المصير المحتوم .

لم تعد داهيا وقد دابت ان تقصد محراب الكنيسة تتم خطواتها اليه ، وانما كانت تقصد لتوها زاوية مرآة الاعتراف لتجتلي محاسن وجهها ولتجلي للراهب العاشق ، فيعترف لها بحبه وآلامه وأحلامه، وقد نسي او انسى ان راهب المحراب يترصد اخطاءه ويقتفي زلاته وينتظر الفرصة المواتية ليعلن خيانة دهيا لزوجها وخيانة السادن لمرآته . فلم يكن سادن المرآة فى غفلة عن رقابة زميله راهب المحراب ولم تكن داهيا فى حمى من استطلاعات زوجها واقتفائه لآثارها كلما خطت فى الشارع خطوة ، او انزوت فى ظلال الكنيسة برهة بل كان يعيش مشاعرها النفسية وهواجسها القلبية وهل تستطيع العيون ان تخفي دوما لواعج القلوب ؟ بل هل تستطيع امرأة تحمل سر الانوثة دون ان تعلن قسمات وجهها عن تباريح وجدانها وظلت دهيا فى غفلتها عن الرقيب والزمان تتردد على الراهب فى كنيسته دون ان تعلم ان عليها من العيون نطاقا ودون ان تشعر ان البركان سوف يقذف الدخان ليوالي الحمم والصخور والاحجار ، وتلاحق رنين ناقوس الخطر مؤذنا بانبلاج فجر الخطيئة ، فقد اصبحت داهيا تستبطن وليدا جديدا سينكره ابوه ، وسيفجع المدينة الآمنة فى مرآتها الصادقة ، ولم يستطع الزوج ان يطبق على اقتراف زلتها صبرا فصاح فى داهيا بملء فيه : انك آثمة يا داهيا انك آثمة وان خطواتك الى الكنيسة كانت خطوات شيطان الى الجحيم ، اني اباهيك يا داهيا ، لقد اضمرت لك الحب فى قلبي فاضمرت فى احشائك ثمرة جريمتك ! ولم تستطع داهيا ان تنفلت من يديه المفتولين ولا من شرارة الغضب المتوهج فى عينيه بل عقد الاثم لسانها وخانتها ركبتاها ان تعدو مسرعة الى الراهب ليحميها غضب زوجها فلم تحر جوابا .

امام صريح التهمة وعظيم الجريمة . . ان سكان القرية الآمنة لن يصدقوا المرآة اذا كشفت عن وجه الراهب السادن النقاب . . وربما كتمت خطيئة فتاها الامين وفى لحظة خاطفة كالبرق فكر الزوج عما عسى تقول المرآة امام جريمة زوجته ؟ ترى أن تظل مخلصة للحقيقة كما كانت من قبل ، أم تتردد فى مهاوي الخداع والتضليل احتراما لسادنها الذي يرتبط معها بمودة خدمتها ورعايتها ، انه يتهم داهيا بعلاقة اثيمة مع سادن المرآة واذا فسيصبح السادن الخصم والحكم معا . . وانقشعت عن بصيرته الظنون، وعاد الى صوابه متذكرا عدالة مرآة الاعتراف ونزاهة حكمها ، لانها فوق الاهواء والعواطف البشرية انه يذكر عدالتها دائما كلما لجأت القرية اليها لاستجلاء حقيقة الاسرار والاهواء ، لقد عودتهم حقيقة الجاني

وصدق الصورة المنطبعة عليها ثم من عساه يحكم بينه وبين داهيا الا هذه المرآة الصادقة التي لم تخن قط سكان القرية الآمنة ولو رفض اللجوء اليها فهل يثق سكان القرية في غير حكمها وهل يركنون لغير عدالتها لذلك فلن يختار سبيلا آخر غير الالتجاء الى عدل المرآة ومن يدري فلعلها لن تخونه كما لم تخن الازواج من قبل ! وتعالى صياح الزوج مرة ثانية يتهمة زوجته داهيا ، وتعالت صيحاتها منكرة قوله، ومتهمة عقله ، وما أسرع ما تجمهر سكان الحي حولهما بين متفق ومتشفي وبين مصدق ومكذب وبين متلهي وجاد ، وكلهم رضوا بحكم المرآة التي كانت ولا تزال خير من يحكم ويعدل وتجلي الشك ليثبت اليقين ! وهل صدقت القرية غير حكم مرآتها الصافية وتسارع الجميع الى الكنيسة في مسيرة متدفقة كالسيل يلتقط في منعرجاته الفتاء والحجارة والصخور كان الرجال يسارعون الخطو فيلتحق بهم النساء لاهثات وبجانبهم الاطفال صائحين وما اسرع ما اصبح موكب السيل الجارف امام الكنيسة يدحرج المتهمة الى المرآة مرة بالشفقة وتارة في قسوة وعنف وبهت السادن حين راى حبيبته داهيا تتقاذفها أمواج الايد كالزبد في البحر ولو كان له في الامر من شيء احال بينهم جميعا وبينها ، ولا وصد باب الكنيسة في وجوههم جميعا ولكنه القدر ترصد له في نقطة عارمة فالقى اليه مباغتا بهذا السيل للزبد من الناس ولا سبيل الى رده ولا امل في صده ، فلينتظر حكم المرآة وليبتهل اليها في سره ونجواه عسى ان ترحم بلواه وساد الكنيسة صمت مطبق ووقف الجمع امام المرآة تتقدمهم داهيا وقد اصفر وجهها حتى أصبحت في عداد الاموات ، وانتظر الزوج ان يرى الحقيقة في المرآة أو يهوى عليها بيده المصبيتين لقد وقف الزمان وانفلت عقد الاملاك فأصبحت الثواني تعد بالسنين والاعوام واذا وجه سادن المرآة يتجلى واضحا في مرآة الاعتراف فتهوى داهيا على الارض ضارعة بغير لسان باكية بدون دموع منتحبة دون نفس واذا الراهب السادن ينقلب وجومه الى سخرية رعناء، وهياج مزبد ، لقد استيقظ حين هذا الجمهور فاندفع من وراء القوم الى مرآة الاعتراف كالصخرة العاتية ووثب كالنمر الغاضب وبيد حديدية هوى على المرآة بضربة قاضية فتساقط الزجاج متحاتا على ارض الكنيسة كحبات العقد حين ينفلت ، ثم صاح مدمدما حانقا يلعن سكان القرية الاغبياء انهم يثقون في حكم مرآة ويحتكمون الى الجماد وصاح لملء فيه فطلب عدالة القضاء وشهادة العدل واعتراف المجرم ان لن اقبل حكم المرآة وثار السادن ساخطا في الجمهور وهو يقول : لقد كنت دائما سادن المرآة التي لم تكن اكثر من وثن خداع ، ان ظنونكم جميعا تتجلى في المرآة ، ظنونكم جميعا أيها الاغبياء هي التي تتراءى لكم خداعا ، انكم جميعا ترون الوجه الذي تريدون .

وبهت القوم جميعا لهول ما رأوا وما سمعوا ، كيف ينقلب السادن التقي الورع الى فاجر آثم ؟ وكيف يتجرا حاقدا يكسر المرآة في قسوة وعنف ؟ وكيف ينكر حكمها عليه بعد ان كان المصدق المؤمن بها ؟ وكيف يسبهم جميعا ويتهم عدالتها وهي الصادقة الآمنة ، وثار القوم غاضبين تتسابق ايديهم جميعا اليه ممسكة بتلابيبه لئلا يتفلت من غضبهم، فاستسلم مذعورا حائرا وسط ضجيج لا يستبين فيه كلاما وحملق في وجه الجميع مودعا داهيا بدموع حائرة فاذا بوجه يتراءى له واضحا بين الوجوه وعين محدقة اليه في حقد واحتقار لم يكن وجهه هو في المرآة انما هو وجه راهب المحراب . لقد كان يلقي عليه نظرة عتاب مريرة ويلقي على شظايا المرآة المتساقط نظرات لهفة على البلور الذي لن يلتئم قط ، لقد انتهت خديعة السادن وماتت مرآة الاعتراف ولكن عدالة المرآة لم تغدر ولم تخن ولم تراع سادنها المخلص ولا خديمها الامين لانها فوق الاهواء والعواطف اما وقد تكسرت المرآة فقد حقت اللعنة على المدينة الآمنة فسوف تعيش بؤرة الرذيلة والانحراف وسوف تلجأ الى افتراء الشهود، وعبث الحكام وتزوير العابثين ، فوداعا ايتها العدالة ووداعا ايتها المرآة ووداعا ايتها القرية الآمنة ولتحل اللعنة بالقرية الآمنة لتصبح القرية الظالمة، تسفك فيها الدماء وتنتهك الاعراض وتأوي اللقطاء لا ترحم السماء ارضها ان اجدبت ، ولا يسطع النور في أفقها ان أظلمت ، ولا تشمل عناية الله ربوعها .. !

الرباط ـ ح. س

ديوان المجلة

في ذكرى نزول الوحي

للأستاذ الشاعر الحاج أحمد بن شقرون

من موطن الوحي شع العز والجاه ... وفى الحجاز ، حبانا آيه الله
على لسان نبي ، طاهر ، حدب ... ما كان يسعد هذا الكون ، لولاه
قد اصطفاه اله العالمين على ... حين ، تنابز بالالقاب افواه
فكان مقدمه حدا لمجزرة ... يخوضها من طغام الناس اشباه
مذ شع نور الهدى فى الكون هام به ... قلب الذكي ، وبات القدم ينساه
واتحف الله دنيانا بسنته ... وبالكتاب ، الذى بالحفظ يرعاه
ازاح عن اعين عمي غشاوتها ... وعن قلوب ، فمحض الرشد منحاه
وعلم الناس من جهل ، بسيرته ... وقادهم لسمو ، عز مرماه

❋ ❋ ❋

آي الكتاب التي صبت بدائعها ... فى معجز القول يرعاها وترعاه
جوامع الكلمات الغر من فمه ... دنيا مراع لها تنجو ، واخراه
ما زال يستقبل الآيات من ملك ... منجما بعثها من لوح مولاه
ويستلذ ، ولو جاءت كصلصلة ... او غادرت عرقا يعلو محياه
جبريل ما زال يأتيه يعارضه ... آي الكتاب ، وفى الفينات يلقاه

❋ ❋ ❋

ــ اقرأ ــ ، بها بدأ الرحمن، فانتبهوا ... فان خير اكتساب المرء معناه
قل : يا رب من ادب عال ومن حكم ... زدني ، وعلم ، فان الخلد عقباه
نبينا لم يعلم فى مدارسنا ... بل امي ، فجر العلام فصحاه

فجاءت «الضاد» منه جد كاسية ... بيانها جاز نطق الفصح ادناه

لم يستطع لسن منهم معارضة ... لبعض آي بها المولى تحداه

وفى حراء أتاه وحي خالقه ... لما اختلى ، وبشوق منه ناجاه

فى الاربعين ، اصطفاه الله مكتملا ... معززا بذكاء ، لذ فحواه

فانذر الناس طرا بعد عترته ... وتم فى الجن ايضا ما توخاه

فى ليلة القدر جاء الوحي تكرمة ... وطاف بالخلق روح فى مصلاه

وبات ينشر ازهار السلام على ... من بات يتلو ، ويرجو فى زواياه

كتاب ربك يهدي من يلوذ به ... سبل الفلاح ، بنور منه يغشاه

لفظ فصيح ، ومعنى خالد ، وهدى ... ومعجز ، عظمت حقا مزاياه

فمن يقضى ادبا جما ، ومقدرة ... على البيان ، ففى القرآن مرعاه

* * *

تدبروه كما قال الاله لنا ... وذاكروا تظفروا منه بجدواه

فقد اتانا بتقسيط ، لمصلحة ... بعد الوقائع ، مرعي ، لمغناه

فمكن العرب الاقحاح من حكم ... بعد التأهل — عقليا — لمرقاه

من احرف سبعة جاءت فرائده ... ووحد الصحب عن عثمان ماتاه

قريش سادت به فاختير منطقها ... من احرف سبعة حرفا : مؤداه

* * *

توافد الناس أفواجا ، يحثهم ... شوق لدين — يعز — الدهر — معطاه

وتوبعت حركات الفتح ظافرة ... فأصبحت وحدة القرآن ترعاه

خلافة المصطفى من بات يحرسها ... بآي خالقه ، قرت حناياه

* * *

هذا الكتاب الذى عشنا نؤرخه ... شعرا ، ونثرا ، فريد بدر علياه

الله انزله ذكرا لنا وهدى ... ودام يحفظه من كيد أعداه

فهو الشفاء لنا من كل معضلة ... تنال رحمته من عاش يهواه

آياته بينات فى صدوركم ... فاستمنحوا الله — دوما — ظل تقواه

ان فر الناس منه جانبا فهم ... لم ينظروا بعد الا بعض مجراه

مواقف العلم جاءت فى الاخير لنا ... عنه ببعض خفايا من خفاياه

فهو «الكتاب» الذى لا تنقضي ابدا ... عجائب كمنت فى روح معناه

يتلى مرارا وتكرارا بلا سأم ... ولا بلى ، فهو فى المقروء ابقاه

لو ان اشجار هذا الكون كاتبة   بمد بحر لما افنت مؤداه

❊ ❊ ❊

من كان اقرب من حبل الوريد درى   غوينا ، ومطيعا بات يخشاه

لكن من غره الشيطان ، ذكره   كتاب خالقه الهادي لتقواه

من يكسب الاثم يغرق من مصائبه   فى لجه ، ويكابد شر عقباه

ما ان يغير ربي سخف طائفة   حتى يغير كل خطر مسراه

فليحذر المترفون الحالمون فما   يغيب مكنونهم عن صوب مرآه

فهل قدرتم لهذا القول قيمته   فمن صميم كتاب الله مغزاه

❊ ❊ ❊

ما ذرة فى فضاء او على جبل   الا وعاها بليغ القول اسماه

من يهده الله ينفحه بحكمته   فيستحث الى العليا مطاياه

ويشرحن صدره للحق متضحا   وبالثبات على الاسلام يرعاه

فحجة الله فى القرآن بالغة   يهدي بها راسخ الايمان اقواه

من سخر الشمس فى هذا الفضاء لنا   ودبر الكون ، حتم بعد لقياه

وهذه الارض تسقى ماء غادية   وطعم بستانها ، صنفان ـ صنواه

يسبح الله فى الاكوان متعظا   من شاب من خشية الرحمان فوداه

وينبذ الافك برهانا على ثقة   بوعد خالقه ، شكرا لنعماه

❊ ❊ ❊

فاستغفروا الله علام الغيوب فما   يخفى على علمه فى الكون اخفاه

قد صور الناس فى الارحام من نطف   واسعد الناس بالايمان حلاه

فدع من الامر ـ اذا ـ غير محترم   فعن يمين الفتى محص ، ويسراه

ففى الحنيفية السمحاء خير حمى   لمن تخطفه لهو فاغواه

تبارك الله يهدي من يلوذ به   الى سنى تتجلى فيه بشراه

فسنة الرشد فينا حسبنا وزرا   وحسب متعظينا ظل منجاه

❊ ❊ ❊

من يسلم الوجه للرحمان ممتثلا   فانه ظافر منه بوثقاه

فكم قرانا بذا القرآن من مثل   مذكر بمصير سوف نلقاه

فما اشمازت قلوب من مشاكسة   ولا تعدت شذوذا عيب منحاه

❊ ❊ ❊

يا ايها الناس اني ناظم كلمي ... جواهرا ، في كتاب عشت ذكراه
لعلني ظافر من خالقي برضى ... به افوز سعيدا عند لقياه

❊ ❊ ❊

ان تشغلوا بكتاب الله وقتكم ... تستدفعوا عنكم بشرا بشوراه
وتصرفوا عن وخيم البغي نفسكم ... وعن كبائر اثم عيب مخزاه
وتحسبوا لاب حان ، ووالدة ... رؤومة ، ويتيم بعد قرباه
وتحفلوا بصلاة في مساجدها ... وتغدقوا الحق بالمكيال اوفاه
وتظفروا من متاع زائف بهدى ... باق ، وترتشفوا انداء مرعاه
وتستجيبوا لاصلاح ومنقلب ... وتبذلوا في سبيل الله اقصاه

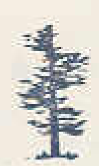
❊ ❊ ❊

فالمومنون جميعا اخوة صدقوا ... ما عاهدوا الله من رعي لرحماه
لا يغضبون ولا تدعوهم احن ... لظلم من يتعدى بله اتقاه

❊ ❊ ❊

اذا ذكرت مليكا مومنا حسنا ... يكون مسك قريضي ذكر حسناه
فلم يزل بكتاب الله محتفلا ... وبالحديث ، فصن يا رب علياه
وصن وليا لعهد بين اسرته ... مهذبا ، مشرقا بالخير مسعاه

فاس ــ الحاج احمد ابن شقرون





طيف نعمت به وارقني — وحديثه بالحب يسحرني

واتى يلملم شعره ، ويضمني — ويقول : هذا الدهر يمطلني

يرتد في تيه ، ويقبل منعما — ويصد في دل يتيمني ..

ويقول لي: (صبرا) ، ويرنو باكيا — ويزيد من (صبرا) يعللني

ويعيد في أسف ولوعة مشفق — آهات حب ـ آه ـ تقتلني

وجنيت منه جلاله وجماله — وجماله أبدا يعذبني

اخفي دموعي منه عنه، وصده — ووصاله ابدا يحيرني

قد نأى بي عنه في عدة اشهر — وكأنها كالدهر ينكرني

ما ذقت مر فراقه يوما ، فكيـ — ـف به وأيامي تفرقني

— * —

يا كل آمالي ومهجة خافقي — حسبي فعهد الحب يعرفني

انت التي أشعلت في قلبي المنى — وهواك صدق هواك يذكرني

حسبي ذنوبا في الهوى دهري الذي — بطموح نفسي عاد يحرمني

الرياض : د. محمد عبد المنعم خفاجي

ساعة الإقدام ...

للشاعر المدني الحمراوي

يأيها العربي ! بالاسلام … والحق ـ انك اشجع الاقوام
ولديك من كل الوسائل عدة … ومهارة دقت على الافهام
فلم التشاغل بالعواطف وحدها … ولم التشكي طيلة الاعوام ؟؟
ولم التعلل بالاماني غبطة … أحسبت انك فى رؤى «الافلام»
دع عنك تسويف الرجاء، ولا تضع … فرصا ، فهذه ساعة الاقدام
انصت الى وقع السلاح ، فانه … من عصبة عربية الارحام
المعتدون اذا دهوك فلن ترى … لصدورهم غير الرصاص الحامي
لغة المدافع والقنابل اصبحت … اجدى واشفى من شبا الاقلام
كبر أخي ، ولج المعارك حاملا … رشاشة مرهوبة الاحكام
واذق عدوك من جحيمك لفحة … تشفيه من كلب ومن اوهام
واغسل بمهجتك الكريمة بقعة … قد دنستها عصبة الاجرام
ما أنت الا من سلالة امة … للحرب فيها بهجة الانغام
عرفت بمجد السيف، والشرف الذي … يعنو له الثقلان بالاعظام
عرق العروبة فيك، فارفع شانه … واحم الشعار بغضبة الضرغام
عادات امتك العظيمة أن ترى … أوطانها مرهوبة الآكام

— ✻ —

باكر ربى القدس الشريف تجد بها … غر الكتائب من بني الاعمام
يتوثبون حماسة وضراوة … ويحطمون محصن الاطام
ترتاع من ابنائهم اعداءهم … ويرونهم كالعاصف الحطام
يتلفتون مخافة منهم وهم … يتخطفونهمو من الاقدام

لا يدركون ولا تـرى اشخاصهم فكأنهـم اسطـورة الايهـام

تلك العصائب من ارومة يعـرب احيوا بطولة سالـف الايـام

خلعوا الحرير، وحرموا شهواتهم وتسلحـوا بعقيـدة الاسـلام

وتقاسموا ان لا تنام جفونهـم حتى تكلنهم عـروس الشـام

ويحرروا ـ قسرا ـ فلسطين التى فى القلـب منها باهـظ الآلام

ويطهروا ارض النبوءة والهدى من بغي جاسـف حاقـد ظـلام

— * —

ويح القرود اذا دنت آجالـهم وتقدمـوا لعدالـة الحكـام

سيحاسبون بقسوة عن جرمهم ويوسـدون مجـازر الاعـدام

ويرون عاقبة الطغـاة فظيعـة تغتال من خلـف ومن قـدام

ان الحياة عدالـة وتناسـف لا بد من يـوم لهـم قصـام

اللاجئون مشـردون بجورهـم ومعذبـون بمنـة الانـعـام

تحت الخيام توسدوا احزانهـم وتسهدوا ـ ألما ـ مدى أعـوام

يتخيلون ربوعهـم وديارهـم ويدافعـون غوائـل الاسقـام

يتقلبون على اللهيـب تأسفـا ويساورون غرائـب الاحـلام

— * —

«صهيون»! هذه امة قد شمرت للحرب جدا ـ دونما احجـام

بدات ، وقد علم الزمان بانهـا ان تبتـدىء لابـد من اتمـام

عزم قوي سوف يدني نصرهـا والعزم حكم محكـم الابـرام

الرباط : المدني الحمراوي



الهي أنت النور والحق مشرق ... وانت الذى نعماؤه تتدفق

رحيم جواد عادل متفضل ... وفنك مشهود الروائع مونق

وانت جميل الذات والوصف دائما ... وانت انتصار للحياة محقق

تاملت فى اسرار خلقك كلها ... فآمنت ، والايمان بالسر ينطق

الهي لانت النور فى كل ظلمة ... ونحن لانوار الهدى نتشوق

الهي انت الذخر والكنز كله ... وغيرك مبخوس الوسائل مملق

وانت حبيب الكل تطفح رافة ... وفيك الرجاء الحق ، والهول محدق

الهي يا معبود عقلي ومهجتي ... لانت القوي الباريء المتفوق

الهي اني نادم متفجع ... على كل ما تجنيه نفسي وتعشق

الهي انت الحب والخير كله ... فجودك مشهود ، وفضلك اسبق

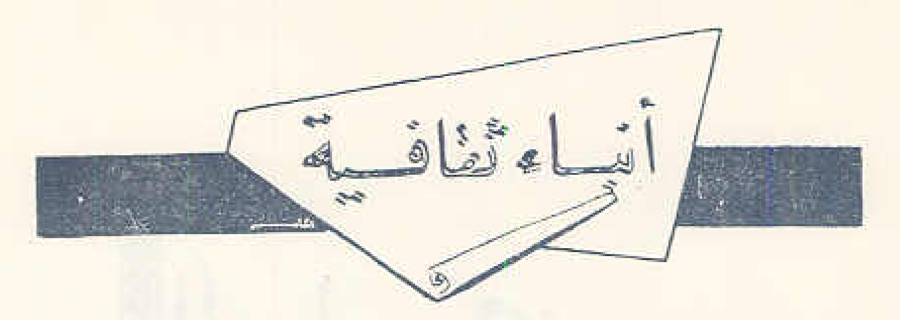
الهي قابلني بعونك ، انني ... عليك اعتمادي بالمحبة يصدق

اليك لقد فوضت أمري وغايتي ... وانت وكيلي للرشاد توفق

اليك لقد صليت بالقلب والحجى ... وانت الذي تعفو وتحنو وتعتق

الهي ، ان احرقت نفسي محبة ... لديك ، فمنك الطيب يزكو ويعبق

الرباط — محمد بن محمد العلمي



المغـرب :

* أصدرت كتابة الدولة المكلفة بالتخطيط لدى الوزير الاول كتابا يتضمن بيانات احصائية مفصلة حول قطاعات الصناعة ، والطاقة ، والمناجم ، وقد وضع قسم التخطيط والدراسات الاقتصادية هذه الوثيقة ارتكازا على التحقيقات الاقتصادية التي يجريها كل سنة لدى مختلف المقاولات .

* نظمت الجمعية الثقافية الايطالية معرضا للفيسيفساء الخاصة بمدينة رافين بتعاون مع سفارة ايطاليا واشراف وزارة الثقافة . ومن المعلوم ان الجمعية لها مركز قار بروما وتضم 400 لجنة وهدفها نشر الثقافة الايطالية .

* « عائشة » اسم مجلة جديدة صدرت فى الرباط عن الاتحاد النسائي المغربي . وقد اشتمل العدد الاول منها على مجموعة من المقالات التي تعالج بالخصوص القضايا النسائية والاجتماعية والتربوية. كما اشتمل هذا العدد على نص الخطاب الملكي التاريخي الذي ألقاه صاحب الجلالة بمناسبة افتتاح أشغال المؤتمر الثاني التأسيسي للاتحاد الوطني للنساء المغربيات .

* تحت اشراف سفارة ايطاليا والجمعية الثقافية الايطالية ألقت الاميرة مارتاريسبولي محاضرة بمركز داتي بالرباط فى موضوع « الاصول الغربية للحضارة المصرية ومرورها عبر المغرب العربي » .

* عقدت بالرباط المناظرة الافريقية لحقوق التأليف ، وذلك لدراسة التشريعات الوطنية فى بلدان افريقيا فى ميدان حقوق التاليف .

* انشأت جمعية تاريخ المغرب مؤخرا فرعين لها ، أحدهما بالدار البيضاء ، والآخر بفاس ، وذلك لمواجهة تضخم نشاطات الفرعين المذكورين .

* بمناسبة شهر رمضان المعظم نظمت جمعية أصدقاء المعتمد بشفشاون برنامجا ثقافيا حافلا شارك فيه كثير من المثقفين بالقاء المحاضرات وعقد الندوات والمناقشات .

* ألقى الاستاذ روبير دي فوك الذي يعد من كبار المختصين فى تاريخ الموسيقى بصفة عامة وتطور الآلات الموسيقية خلال التاريخ محاضرة هامة عن تطور الآلات الموسيقية فى مختلف بلدان العالم منذ فجر التاريخ ، حتى القرون المتاخرة . وذلك بقاعة المركز الثقافي الفرنسي بالدار البيضاء .

* كان ثالث ديسمبر 1970 موعدا لمناقشة الرسالة التي قدمها لكلية الفلسفة والآداب الاستاذ عبد الله العمراني لنيل شهادة الدكتوراه ، وقد ناقشته لجنة مؤلفة من الاساتذة الآتية اسماؤهم :

ـ الدكتور دون دافيد غونثالث مايسو أستاذ اللغة العبرية بهذه الكلية .

ـ الدكتور دون لويس سيكودي لوثينا استاذ اللغة والادب العربيين ومدير مدرسة الابحاث العربية بغرناطة .

ـ الدكتور دون خائيتنه بوش بيلا نائب العميد وأستاذ التاريخ الاسلامي .

الدكتور الاب داريو كابنيلس عميد الكلية سابقا وأستاذ اللغة العربية .

ـ الدكتور دون أندريس ضوريا أورتيقا أستاذ اللغات الرومانية .

ودامت المناقشة أزيد من ساعتين ، خصص منها أربعون دقيقة للاستاذ عبد الله العمراني ليلقي

عرضا عن اهمية رسالته ، وقد قام بالمهمة خير قيام اعجبت اللجنة الفاحصة وسائر الحاضرين ثم بدات بعد ذلك المناقشة التي شاهدها جمهور غفير من طلبة الكلية وغيرهم ، وقد ابدى الجميع اهتماما متزايدا بموضوع الرسالة الذي كان يتعلق بالعلامة احمد بن علي البلوي من رجال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي .

وقد حضر المناقشة بعض الصحفيين المحليين.

وبعد المداولة تولى رئيس اللجنة القاء النتيجة معلنا ان اللجنة تمنح السيد العمراني لقب دكتور بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الاولى وباجماع الاراء .

وهكذا يكون الاستاذ العمراني اول مغربي يحرز على دكتوراه فى الفلسفة والآداب من جامعة غرناطة .

※ اعلن المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي عن نتائج مسابقة « اهم مخطوط فى اللغة العربية » على الشكل الآتي :

الاحتفاظ بالجائزة الاولى .

الجائزة الثانية منحت للاستاذ هلال ناجي من العراق عن كتابه « متخير الالفاظ » وقدرها 3000 درهم .

الجائزة الثالثة منحت للاستاذ حسين محمد ، من الجمهورية العربية المتحدة عن كتابه « الاضداد فى اللغة » وقدرها 2000 درهم .

الجائزة الرابعة منحت للدكتور محمد عيد من الجمهورية العربية المتحدة عن كتابه « العوامل الطارئة على اللغة » وقدرها 1000 درهم .

وقد شارك فى هذا المسابقة نحو خمسة عشر باحثا من مختلف الاقطار العربية .

※ بمناسبة شهر رمضان المعظم ، وحرصا من جلالة الملك على ان يتمتع رعاياه الاوفياء من الجاليات المغربية فى بعض الدول الاوربية بنفس ما يتمتع به اخوانهم المقيمون داخل تراب المملكة من الاستماع الى دروس الوعظ والارشاد والتوعية الدينية اثناء شهر رمضان المبارك ، فان وزارتي الاوقاف والشؤون الخارجية تنفيذا للتعليمات الملكية السامية قامتا بتوجيه وفد يتركب من اثني عشر عالما الى أوربا لالقاء محاضرات دينية بكل من فرنسا والمانيا وبلجيكا وهولندا .

※ افتتحت مؤخرا بالرباط المناظرة الوطنية حول التعليم الطبي بحضور وزيري الصحة ، والتعليم العالي ، وشخصيات من عالم الطب فى الداخل والخارج .

※ افتتح بمعهد غوته بالدار البيضاء معرض تاريخي وثائقي عن حياة الموسيقار بيتهوفن ، وذلك بمناسبة احياء الذكرى المائتين لميلاده .

※ أصدر الاستاذ عبد الله العروي كتابا جديدا بالفرنسية عن تاريخ المغرب ، وهو عرض تحليلي لما كتب عن تاريخنا فى مختلف المصادر .

※ مثل المغرب فى المؤتمر الرابع لكتاب افريقيا وآسيا الذي عقد بنيو دلهي الاستاذ السيد محمد زنيبر .

※ تستعد وزارةالدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي لاصدار كتاب ضخم يشتمل على المنجزات الثقافية الذي تمت فى عهد جلالة الملك الحسن الثاني .

وذلك بمناسبة الذكرى العاشرة لتربع جلالته على عرش اجداده المنعمين . وينتظر صدور هذا الكتاب فى هذه الذكرى المجيدة .

※ نظمت رابطة المجودين بالمغرب ، بمسرح محمد الخامس بالرباط ، مهرجانا لتجويد القرآن الكريم ، اشترك فيه مجودون من كل انحاء المغرب ، وقد اسفرت نتيجة هذه المسابقة على اعطاء الجائزة الاولى لكل من السيدين أحمد الدمناتي ، ومحمد الترابي ، ومنحت الجائزة الثانية للسيد الجيلالي العزاوي ، والثالثة للسيد ابراهيم امنى ، والرابعة للسيد عبد اللطيف الترابي .

※ انعقد بالرباط اجتماع الجمعية العامة لاتحاد الاذاعات والتلفزات الوطنية الافريقية .

* عقدت بمدينة المحمدية ندوة حول الثقافة العربية والاسلامية لحوض البحر الابيض المتوسط. حضر هذه الندوة كثير من المستشرقين ، وبعض المفكرين المغاربة . ودامت ثلاثة ايام .

* نشطت الحركة الفكرية والثقافية بمناسبة شهر رمضان المعظم . فقد القيت فى هذا الشهر عشرات المحاضرات ، ونظمت عديد من الندوات فى مختلف انحاء المملكة المغربية .

* بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة صاحب الجلالة محمد الخامس ، اقيم حفل ديني كبير بضريح مولاي الحسن تراسه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ، كما اقيمت بهذه المناسبة عدة احتفالات دينية بمختلف المساجد فى المغرب .

* عن الدار التونسية للنشر بتونس صدر للكاتب المغربي محمد حمادي العزيز كتاب بعنوان : « الانسان ، المجتمع الله » .

* يصدر قريبا عن دار الكتاب بالدار البيضاء كتاب بعنوان : « من وحي البينة » للاستاذ محمد الفاسي ، وزير الثقافة، والكتاب يشتمل على مجموعة من المقالات والابحاث الذي كان ينشرها فى مجلة « البينة » التي كانت تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية سنة 62 و 63 و 1964 .

* بتاريخ 16 دجمبر انعقد بالرباط المؤتمر الثالث لاتحاد كتاب المغرب .

* عقدت بالرباط اشغال اللجان المختصة التابعة للاتحاد الافريقي للاذاعات والتلفزة ، وتضم ممثلين دائمين من الكونغو برازافيل ، وغانا ، وليبيا ، وموريطانيا ، والسنغال ، ومالي ، وفولتا العليا ، والكامرون ، وساحل العاج ، ونيجريا .

* نظم بمجموعة المدارس الايطالية بمدينة طنجة مناظرة حول طريقة بيداغوجية للتعليم العصري . شارك فى هذه المناظرة موظفون سامون من المغرب، وفرنسا ، وايطاليا واسبانيا .

* سافر الى طرابلس الدكتور المهدي ابن عبود لحضور اشغال مؤتمر الدعوة الاسلامية الذي نظمته الحكومة الليبية بطرابلس . وقد شارك فى هذا المؤتمر وفود العلماء والمفكرين من العالم الاسلامي .

* ابتدا بوزارة الدولة للثقافة موسم المحاضرات الذي تلقى كل يوم الاثنين من كل اسبوع .

تونس :

* صدر عن الدار التونسية للنشر فى تونس « مختارات من مجلات مشاهد » وهو كتاب فى الادب الشعبي التونسي من تاليف محمد المرزوقي . والجزء الرابع من « تفسير التحليل والتنوير » تاليف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . وعن الشركة التونسية للنشر والتوزيع صدر كتاب « تاريخ السينما بالبلاد التونسية » تاليف المخرج السينمائي عمار الخليفي .

ليبيا :

* انعقد فى طرابلس مؤتمر اسلامي بحضور نخبة من علماء المسلمين فى كافة انحاء العالم .

نيجيريا :

* جاء فى تقرير صدر اخيرا عن اللجنة الاسلامية بنيجريا ان عدد الذين اعتنقوا الاسلام خلال سنة 1969 بلغ 10137 شخص . وتقوم جماعة«نصر الاسلام» بنشاط ملحوظ فى الدعوة الاسلامية والعمل على توفير متطلبات المسلمين فى نيجريا من ناحية الكتب والنشرات حسب قدرتها وامكانياتها .

الجمهورية العربية المتحدة :

* يقوم وفد اسلامي يمثل الازهر ومجمع البحوث الاسلامية برئاسة الدكتور عبد الحليم محمود بجولة فى بعض الدول الافريقية والاسيوية لمتابعة تنفيذ قرارات وتوصيات مؤتمر علماء المسلمين . وكان هذا المؤتمر قد عقد فى القاهرة فى شهر فبراير الماضي وحضره علماء من 40 دولة اسلامية . ومن ناحية اخرى سيتم فى اوائل فبراير القادم عقد المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية فى القاهرة برئاسة الدكتور محمد الفحام شيخ الازهر ، لمناقشة

عدد من الابحاث والموضوعات التي تتعلق بالنواحي الاسلاميـــة .

✻ « كتابات معاصرة » اول مجموعة قصصيـة من الادب الالماني المعاصر صـدرت مترجمـة الـى العربية بقلم فوزي سليمان ونبيل راغب .

✻ « عناق الازرق والاحمر » اسم رواية تمثيلية عن حياة الفنان التشكيلي سيـف واللـى اصدرتهـا الهيئة العامة للتاليف والنشر بالقاهرة .

✻ نصح الاطباء الدكتور طه حسين بعدم الكتابة والمطالعة لمرضه ، ويبلغ الدكتور طـه حسيـن 82 سنـــة .

✻ صدر فى القاهرة كتاب « اخبـار الاذكيـاء » لابي الفرج بن الجوزي وهو من تحقيق محمد مرسى الخولي ، ويضم اطرف الاخبار والنوادر والقصص والاشعار عن الاذكياء العرب .

✻ « البطولة فى الشعر العربي » اسـم كتـاب صدر فى سلسلة « اقرا » من تاليف الدكتور شوقـي ضيـــف .

✻ يجري اكتتاب فى أسوان لاكمال مبنى مدرسة اسوان الثانوية التي تحمل اسم الكاتب المرحوم عباس محمود العقـــاد .

✻ فى سلسلة « دراسات فى الاسلام » التـي يصدرها المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية فى القاهرة ظهر كتاب « البطولة العربية فى الاندلس وفرنسا » لمؤلفه الاستاذ عبد العزيز حافظ دين .

✻ تم انشاء أول يونيسكو للثقافة العربية تضم جميع الدول العربية على غرار هيئة اليونيسكو العامة . ومن المنتظر تعيين الدكتور عبد العزيز السيد امينـا لليونيسكو الجديد .

✻ اصدرت سعاد ابيض كتابا عن ابيهـا عميـد المسرح الفقيد جورج ابيض حيث ارخـت للنهضـة المسرحية فى المائة سنة الاخيرة .

✻ يصل عدد السكان فى العالم العربـي عـام 1985 الى حوالي 168 مليون نسمة .

جاء ذلك فى تقرير احصائي الى المؤتمر الثقافي العربي قدمه المركز الديموغرافي بالقاهرة .

✻ « الزراعة المصرية » اسم كتاب صدر للسيد سيد مرعى وزير الزراعة والاصلاح فى القاهرة .

✻ يعكف الاستاذ توفيق الحكيم على كتابة رواية حول الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

من الكتب التي صدرت فى القاهرة :

« ليلى والمجنون » مسرحية شعرية لصلاح عبد الصبور . « عبودية الانسان » تاليف سومرت مـوم ترجمة حسين صبحي . « صلاة ورفـض » ديـوان شعر لمحمد حسين اسماعيل . « احلام شهـرزاد » للدكتور طه حسين . طبعة ثانيـة . « المفـردات فى غريب القرآن » تاليف الحسين بن محمـد المعـروف بالراغب الاصفهاني . « اسـس المنطق الرمـزي » للدكتور عزمي اسلام . « مع العقاد فى سبحات الحب والجمال » لمؤلفه محمد طاهر الجبلاوي . « احـلام تغنى » لمؤلفه يوسف بدوس .

✻ جاء فى الملحق الادبـي لجريـدة « لومنـد » الفرنسية ان الناشر الفرنسي جيروم مارتينو ، قـد اصدر سلسلة جديدة تحمل اسم « المكتبة العربية » التي دشنها بنشر ترجمة فرنسيـة لروايـة نجيـب محفوظ . وستصـدر قريبا ضمن نفـس السلسلـة الترجمة الفرنسيـة لديواني : « اغاني مهيار الدمشقي » و « كتاب التحولات والهجرة فى اقاليم الليل والنهار » للشاعر السـوري المقيم فى لبنان علي احمد سعيد .

✻ « جورجي زيدان » كتاب جديد لمؤلفه محمد عبد الغني حسن صدر فى سلسلة اعلام العرب التي تصدرها الهيئة العامة للتاليف والنشر بالقاهرة .

لبنـــــان :

✻ صدر عن دار الكتاب اللبناني ببيروت كتـاب « البشائر » ، وهو من تاليف الاب لويس ابى عتمة ، يتضمن مقالات فى الثقافة والاجتماع والدين .

✻ صدر فى مطبوعات جماعة بيروت العربيـة كتاب « التامين الصحي فى الجمهوريـة اللبنانيـة » الدكتور عادل عبد الحميد عزمي كلية تجارة جامعـة بيروت العربية والقاهرة ، كما صدر عن نفس الدار

كتاب : « التجمعات السكنية للمصانع » للدكاترة محمود يسري وأحمد منير وعبد المحسن برادة .

❋ توفي في بيروت الصحفي اللبناني المعروف جورج خليل غصن .

❋ يوجد الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في لبنان للاشراف على طبع بعض داوينه الشعرية .

❋ اقترح وزير الانباء اللبناني منح الشاعر فوزي معطوي وسام الأرز الوطني .

❋ للشاعر محمد زين جابر صدر ديوان شعر بعنوان : « زورق الرحيل » .

❋ أصدر الاديب الديبلوماسي نجدة فتحي صفوة كتابا جديدا بعنوان : « حكايات ديبلوماسية » .

سوريا :

❋ انتهى العالم الحلبي خير الدين الاسدي من تأليف كتابه « موسوعة حلب » في خمسة مجلدات يبلغ عدد صفحاتها 3000 من الحجم الكبير . وقد قررت بلدية حلب طبع الكتاب على نفقتها .

❋ « بابل ، والضوء الجديد » مجموعة شعرية صدرت للشاعر المقدم الطيار الركن منذر لطفي .

❋ ديوان شعر جديد صدر للشاعر شكري هلال بعنوان : « الضياع الحزين » .

❋ انهى الدكتور بكري شيخ امين كتابا بعنوان : « الشعر في عصر المماليك والعثمانيين » .

❋ عن دار مجلة الثقافة في دمشق صدرت مجموعة شعرية بعنوان : « ازهار » لمنير سليمان .

❋ مجمع اللغة العربية بدمشق قرر أن يطبع كتاب : « شرح اختيارات المفضل » للخطيب التبريزي . وقد قام بتحقيقه الدكتور فخر الدين قباوة معتمدا على نسخة بخط المؤلف ومعارضا اياها بنسخ اخرى .

« الحماسة في حياتنا وتراثنا » عنوان كتاب صدر في سلسلة تحقيقات فولكلورية للاستاذ عبد القادر عياش .

❋ نعت سوريا الكاتب المعروف سهيل عجمي .

❋ « ديوان علقمة الفحل بشرح الاعلم الشنتمري » صدر هذا المخطوط بتحقيق الاستاذ لطفي الصقال والاستاذ دية الخطيب ومراجعة الدكتور فخر الدين قباوة .

❋ رشح اتحاد الكتاب العرب العلامة محمد عزة دروزة لنيل الجائزة التقديرية التي يمنحها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بسورية . والاستاذ دروزة اصدر مجموعة من الكتب القيمة تعد بالعشرات .

❋ ترجم الى العربية الاديب السوري سعد صائب ديوان « أم » للشاعر البلجيكي موريس كريم . وستقوم دار الندوة للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق بنشره .

العراق :

❋ « اوراق على رصيد الذاكرة » عنوان كتاب صدر في بغداد للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد .

❋ في سلسلة التراث التي تصدر عن وزارة الاعلام في بغداد ، صدر « ديوان عمر بن معد يكرب » الذي قام بجمعه وتحقيقه هاشم الطعان .

❋ ترجم الى اللغة العربية الدكتور صفاء خلوصي كتاب « تاريخ العرب الادبي في الجاهلية وصدر الاسلام » وهو من تأليف البروفسور رينولد نلكسن . صدر هذا الكتاب مؤخرا في بغداد بمساعدة جامعة بغداد .

❋ هذه الكتب صدرت مؤخرا في العراق :

« ابتسامات للناس والريح » لفازي العبادي . « القناع » لخالد حبيب الراوي . « يرفضون بلا حدود » لتوفيق رؤوف . « الوجه الغائب » لاسعد

محمد علي « وجوه تبحث عن ظل » لمحمد علي ناصر.
« مخلوقات فى متاهات الحياة » لعبد الجبار البياتي.
« حاقت الغربان على الخفاش » لعبد الرزاق الخالدي
« الموقعة » لعائد خصباك . طبعة جديدة لقصة ذو النون ايوب بعنوان : « اليد والارض والماء » .

* اقيم بالعراق مؤخرا مهرجان كبير احتفالا بالشاعر بدر شاكر السياب تقديرا له على مساهمته فى تطوير الحركة الشعرية فى العالم العربي .

المملكة السعودية :

* صدر عن مؤسسة مكة للطباعة والافلام فى السعودية مجموعة شعرية لابراهيم خليل العلاف بعنوان : « جلنار » .

* عن دار الاصفهاني بجدة صدرت مجموعة شعرية للشاعر بن علي السنوسي بعنوان : «الاغاريد» بتقديم محمد العمودي .

* اشتركت المملكة السعودية فى المؤتمر الثالث للعلوم الزراعية الذي انعقد فى واشنطون مؤخرا . وقد بحث المؤتمر معظم الامور المتعلقة بالعلوم والابحاث الزراعية .

* عن وزارة المعارف السعودية صدر كتابان حول التعليم فى المملكة السعودية . يتحدث الكتاب الاول عن « التعليم الابتدائي بين الامس واليوم » ويتناول موضوعات هامة . اما الكتاب الثاني فهو عبارة عن تقرير حول المنجزات التي تمت عن التعليم الخاص لتربية العاقين وتأهيلهم .

اليمن :

* قررت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الاول للكتاب والادباء اليمنيين تشكيل لجنة تاسيسية للمؤتمر تضم 17 اديبا من شمال وجنوب اليمن تعمل على تعميق الثقافة الوطنية اليمنية ومحاربة الدعوات الانفصالية والقبلية . وقد تأجل عقد هذا المؤتمر بسبب وفاة الرئيس جمال عبد الناصر .

* تم تكوين تجمع تنظيمي للدعاة الاسلاميين اسموه « الجمعية العلمية اليمنية » بعد ان تم اتصالهم بالقاضي عبد الرحمن الارياني رئيس الجمهورية ، وحسن العمري رئيس الوزراء حيث باركا هذه الخطوة .

وتكونت الهيئة التاسيسية للجمعية فى صنعاء حيث انشات فروعا لها فى الالوية والنواحي .
ولخصت اهدافها العامة فى اقامة المؤسسات العلمية اليمنية على العمل على توحية كلمة العلماء .

وتقوم الجمعية بممارسة اعمالها بطريقة النشر، والمحاضرات ، والمخاطبات والنشرات والاذاعة وغير ذلك من وسائل النشر .

ولقد قامت الجمعية فى سبيل ذلك بتنفيذ مبادئها .

— تكوين لجنة الشباب للارشاد والدين .
— تبني مشاريع مدارس تحفيظ القرآن .
— ايجاد حلقات قرآنية فى المساجد لاجادة تلاوة كتاب الله .
— تدعيم الدروس الدينية بالمساجد واقامة الندوات بها .
— طبع الكتب والرسائل المفيدة وتوزيعها بأثمان رمزية .
— مد نشاط الوعظ والارشاد الى جميع المؤسسات من المستشفيات والسجون والقرى والقوات المسلحة .
— العمل على احياء الشعائر الاسلامية .

تايلاندا :

* لاول مرة ستصدر فى التيلاند الترجمة الكاملة لمعاني القرآن الكريم باللغة التيلاندية تحت اشراف السيد ابراهيم القرشي احد كبار العلماء فى تايلاند .

نيو دلهي :

* افتتح فى نيودلهي المؤتمر الرابع لكتاب افريقيا وآسيا بحضور ممثلين عن اكثر من خمسين

دولة . ويتضمن جدول اعمال المؤتمر المسائل المتعلقة بدور كتاب آسيا وافريقيا فى النضال ضد الاستعمار ومساندة الامة العربية والتضامن مع الشعوب التي لا زالت تعاني من سيطرة الاستعمار والامبرالية .

* طائفة البهرة الاسلامية بالهند التى اهدت مقصورة نادرة للامام الحسين (مائة الف جنيه) ، وصنعت مقصورة اخرى (مائة الف جنيه) فى طريقها الى مقام السيدة زينب ، ستنقش مصحفا كاملا (6666 آية) بالذهب الخالص على صحائف من (المرمر) لاول مرة فى التاريخ .. حيث تزين بهذه اللوحات مسجد سلطان الطائفة الراحل .

وقد طلب السلطان الحالي برهان الدين صاحب الى فضيلة الشيخ محمود الحصري شيخ المقارىء العربية القيام بمراجعة وتصحيح آيات هذا المصحف الشريف فى الوقت الذي يحدده باعتباره مرجعا للقرآن الكريم .

الكويت :

* صدر الجزء الاول من الموسوعة الكويتية المختصرة لمؤلفه احمد محمد السعيدان والكتاب دائرة معارف كويتية تصدر فى ثلاثة اجزاء ضخمة رتبت فيها المعارف حسب الاحرف الابجدية وقد حوى الجزء الاول من حرف الالف الى حرف الخاء .

والموسوعة مرجع تاريخي وادبي وثقافي وجغرافي للكويت يجد الانسان فيها :

— اللهجة الكويتية تفسيرها ومصادرها
— العادات والتقاليد والمعتقدات .
— الالغاز والحكم والامثال .
— الطب الشعبي وتركيباته ومعتقداته .
— الحروب والمعارك والشهداء .
— اللباس فى الكويت وتطوره وانواعه .
— الاغاني والاهازيج والالعاب الشعبية عند الصغار والكبار .
— البحر والسفن والغوص واللؤلؤ والمحار .
— الطيور والنباتات والاسماك والحيوانات .
— الفلك والنجوم عند الكويتيين .
— الجمعيات والاندية والمدارس والمساجد فى الكويت .
— القرى والمناطق والسكان والبراري والابار .
— رجال من التاريخ ورجال معاصرون .
— الاسر والعائلات الكويتية .
— ادباء وشعراء وكتاب وشخصيات كويتية .

* كلف سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الشيخ جابر الاحمد ، الجهات المختصة بجامعة الكويت بدراسة امكانية انشاء مركز للابحاث العلمية فى الكويت يستقطب العلماء والباحثين الكويتيين والعرب الذين يتجهون الى الخارج لاجراء بحوثهم وتجاربهم العلمية وتهيئة الفرصة لهم لافادة بلادهم من هذه الابتكارات بما يحقق الخير للكويت وللامة العربية.

وقد أوضح مصدر مسؤول ان مثل هذا المركز سيساهم كثيرا فى توفير الاحتياجات والامكانيات اللازمة للعلماء والباحثين فى اية دولة عربية ، بعد ان قام هؤلاء بالالتحاق بالمراكز العلمية فى الخارج فحرمت بلدانهم العربية من جهودهم وابحاثهم الفنية والعلمية ..

الاتحاد السوفياتي :

* نشرت الصحيفة السوفييتية « الجريدة الادبية » رسالة احتجاج الكاتب السوفييتي فلا ديمير فوانوفيتش على قيام مجلة : « تحارني » التي تصدر بالمانيا الغربية بنشر مسودة كتاب لم ينته من كتابته بعد . وركز الكاتب السوفييتي فى رسالته على ان ما نشر فى الجريدة المذكورة ليس سوى جزء ضئيل من قصته التي لم تنته بعد ، ووصف الكاتب عمل اللجنة بانه لا يختلف فى شيء عن اساليب قطاع الطرق .

* صدر العدد الاخير من مجلة « الادب الاجنبي » السوفييتية ، وهو خاص لادباء آسيا وافريقيا . ومن المعروف ان المكتب الدائم لرابطة كتاب آسيا وافريقيا كان قد اتخذ فى دورته التي انعقدت فى الصيف الماضي قرارا حول منح جائزة «اللوتس» لعامي 1969 — 1970 . وقد منحت هذه الجائزة لشعراء وكتاب بارزين اسهموا بقسط كبير فى تطوير أدب هاتين القارتين ومنهم الكاتب الفيتنامي توهواي والروائيالافريقي اليكس لانجوما والشاعر الفلسطيني محمود درويش ، وشاعر أنغولا ساغوستينونيتو والشاعر زولفيا والشاعر الهندي هاريو انشراي باتشنان .

* فى العيد المائوي والخمسين لميلاد انجلز رفيق كارل ماركس . يصدر عن منغوليا الجزآن

الثاني والثالث في مجلد يضم مؤلفاته التي تصل الى 30 مؤلفا .

السويد :

✻ حصل البروفسور نورمان ارنست على جائزة السلام تقديرا لابحاثه في انواع الحبوب التي اعطت نتائج كبرى في كثير من البلاد الآخذة في طريق النمو

✻ منحت جائزة العلوم الاقتصادية التي انشاها قبل البنك الملكي للسويد تخليدا لذكرى الفريد نوبل في هذه السنة الى البروفسور بول ساموبلسون من معهد التكنولوجيا « ماسوشوسيتس » بالولايات المتحدة . ويطلق عادة على هذه الجائزة اسم « جائزة نوبل » للعلوم الاقتصادية ، رغم ان البنك هو الذي يمنح هذه الجائزة .

بلجيكا :

✻ تم تدشين أول مسجد في مدينة ليبج بفضل جهود صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني ، ومنظمة العمال المغاربة المقيمين في تلك المدينة وناحيتها . وبهذه المناسبة بعثت وزارة الشؤون الاسلامية المغربية السيدين محمد البصري واحمد سحنون لالقاء دروس دينية امام افراد الجالية المغربية في بلجيكا بمناسبة شهر رمضان المعظم .

✻ انعقد مؤخرا ببلجيكا الملتقى الدولي الثامن للشعر . كان شعار المؤتمر « الشعر في سنة 1970 : تطور ام ثورة » .

المانيا :

✻ افتتح فرانكفورت معرض دولي للكتاب ، حضره اكثر من ثلاثة آلاف ناشر يمثلون 64 دولة مشتركة في هذا المعرض . وقد اقامت الدول العربية عرضا مشتركا . وقد قدرت الكتب المعروضة بـ 213 الف كتابا ، من بينها 69 الف كتاب جديد .

وقد خصص جناح خاص للكتب العربية الذي نظم تحت اشراف جامعة الدول العربية . زيادة على الكتب الادبية والكتب الاخرى ، فان الكتب التي اعطيت لها اهمية هي الكتب التي تتحدث عن القضية الفلسطينية او الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ذلك ان الجمهور او بالاحرى القراء الاجانب لا يريدون ان تكون معلوماتهم مستقاة من جانب واحد .

اسبانيا :

✻ منحت اكاديمية المعاهد الوطنية الايطالية جائزتها العالمية « فلزفلا » الى الكاتب الاسباني : كلاوديو سانتش البوزنوث ، تقديرا لابحاثه التاريخية وجهوده الثقافية التي استمرت طوال خمسين سنة. شغل الفائز منصب عميد جامعات مدريد . وهو مؤرخ مختص في الفترة التي تتناول : « اسبانيا في العصور الوسطى . قيمة الجائزة 20 مليون ليرة ايطالية اي ما يعادل 700 178 فرنك فرنسي جديد.

✻ حصلت دار النشر الاسبانية الشهيرة « اغيلار » على حق نشر المؤلفات الكاملة للفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر . والمعروف ان الرقابة الاسبانية كانت تحول دائما دون انتشار الفكر الوجودي في اسبانيا بسبب مواقفه الثورية ، وكونه يمثل الاتجاه الملحد في المدرسة الوجودية .

✻ ابدت جامعة غرناطة نشاطا ملحوظا في المدة الاخيرة ، وذلك فيما يختص بالعرب والعربية ، فبالاضافة الى مؤتمر المستشرقين الذي احتضنته الجامعة في اكتوبر الماضي والذي تمخض عن توصية بتقوية الاستعراب بين الطلبة الاسبان نجد اعمالا اخرى كالآتي :

في 21 نوفمبر 1970 منحت جامعة غرناطة الدكتوراه الفخرية للكاتب العربي الشهير الدكتور طه حسين مع الحلة الجامعية ودبلوم يشهد بذلك . وخلال زيارة وزير التربية والعلم الاسباني للقاهرة تولى الوزير نفسه الباس الدكتور طه حسين تلك الحلة بمساعدة زوجة الكاتب القدير حسبما ظهر في الصور التي نشرتها الجرائد المحلية ، وكان نص تقديم الحلة وشهادة الدكتراه الفخرية ـ كما يلي :

تمنح جامعة غرناطة الاستاذ الشهير الدكتور طه حسين الذي يجمع الى معارفه العلمية العميقة ومواهبه الادبية الفذة رغبة شديدة في البحث تبلورت في انتاج دراسات اساسية لصالح تحسين المعرفة بالتاريخ والثقافة العربيين ... تمنحه الدكتوراه الفخرية معززة بهذا الدبلوم » .

✻ وفي فاتح دسمبر 1970 على الساعة العاشرة والنصف بالتوقيت المحلي ، القى الدكتور محمد عبده

حتاملة الاستاذ بكلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة محاضرة بالاسبانية عن الاردن ومشاكله وذلك في المركز التابع للجامعة المعروف باسم كوليخيو مايور دي غرناطة . ودامت المحاضرة والمناقشة التي اعقبتها أزيد من ساعتين . وقد أجاب المحاضر الدكتور حتاملة بكفاءة ولباقة عن الاسئلة الدقيقة التي وجهت اليه من طرف طلبة كليات الجامعة ومن بعض الاساتذة ومدير المركز الدكتور نيقولاس كاريلا .

وبهذه المناسبة وجه مدير المركز الى الدكتور عبد الله العمراني الذي رافق المحاضر الى مكان المحاضرة سؤالا عن نظم التعليم الجامعي بالمغرب وانواعه وحالة سيره ، فأجاب بما يشفي الغليل ملقيا اضواء على هذه الناحية الحيوية في حياة الشعب المغربي .

وفي الختام قدم مدير المركز هدية رمزية الى الاستاذ المحاضر الدكتور حتاملة تعبيرا عن تقدير المؤسسة واعجاب الطلاب .

هذا وقد أسند الى الدكتور حتاملة في مطلع السنة الدراسية منصب تدريس الاسبانية للاجانب الذين يودون الالتحاق بكليات الجامعة المختلفة . وبهذا تكون الجامعة قد وضعت ثقتها في الدكتور حتامله وحملته مسؤولية اجراء امتحانات اللغة الاسبانية للاجانب قبل السماح لهم بالالتحاق بكليات الجامعة الغرناطية .

* نظمت كلية الفلسفة بجامعة كوميلاس في مدريد بالتعاون مع المعهد الثقافي الاسباني – العربي دورات دراسية للطلاب العرب لتعلم اللغة والثقافة الاسبانية .

هذه الدروس تتم بطريقة النظر والسمع – التلفزيون – والتي تختص بنطق اللغة والحياة الاسبانية ، وتنجز بالتعاون تحت رعاية وزارة التربية والعلوم .

خلال اربعة اشهر وبمعدل اربع ساعات يوميا يتعلم الطلاب اللغة والثقافة الاسبانية الضرورية لدخولهم الجامعة حيث يوجد سبعة آلاف طالب عربي .

فرنسا :

* ذكرت جريدة « لوموند » الباريسية انه بيعت مائة الف نسخة من مذكرات الجنرال ديكول في اليوم الاول من صدورها .

* قررت منظمة اليونيسكو التابعة للامم المتحدة ان تكون اللغة العربية هي خامس لغة تستخدم في المنظمة المذكورة ابتداء من سنة 1974 . تقرر ذلك خلال اجتماعات الدورة 16 للمؤتمر العام لليونيسكو والجدير بالذكر ان اللغات الاربع المستخدمة حاليا في اليونيسكو هي : الانجليزية ، والفرنسية، والروسية، والاسبانية .

* خصصت مجلة « الازمنة الحديثة » عددها الاخير لقضايا النضال في أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية .

* جائزة جان كوكتو للشعر لسنة 1970 فاز بها الشاعر ميشيل باناي عن مجموعته « صرخة في الجدار » .

* « نقاد عصرنا » اسم السلسلة الجديدة التي صدرت في فرنسا باشراف رونيه بومو ستهتم بدراسة كبار الادباء في فرنسا ، والبلاد الاجنبية حيث ستقوم بتغطية شاملة لحيات كل كاتب . العدد الاول خصص لـ : مالرو ، وكامو ، وكلوديل .

* منحت جائزة « كونكور » الادبية لهذا العام الى الاديب الفرنسي ميشيل تورينيي عن روايته « ملك الاولى » الذي صدرت عن دار غاليار .

* « حقوق التخيل » ذلك هو الموضوع الذي اجتمع لدراسته ومناقشته في ندوة واسعة أزيد من 50 كاتبا وشاعرا وناقدا ومؤرخا من فرنسا واوربا الشرقية واليونان بدعوة من بيير امبانويل مدير مكتب الثقافة في وزارة الارشاد الفرنسية .

* أصدرت دور النشر الفرنسية كل مؤلفات الكاتب السوفياتي سولجنستين الذي فاز بجائزة نوبل للآداب في هذا العام . أعلنت دار النشر « جوليار » انها انزلت الى الاسواق مليون نسخة من كتب الاديب الروسي المذكور .

* صدرت فى فرنسا مجلة جديدة تحمل اسم « مقاطع » يديرها جان ديف .

* قررت اليونيسكو ان تجعل سنة 1972 سنة عالمية « للكتاب » .

* تغيب الاستاذ السيد عثمان يحى عن باريز منذ اوائل هذا الصيف حيث قضى تلك الفترة فى القاهرة من اجل طبع كتاب « الفتوحات المكية » لابن العربي الحاتمي والتزود من بعض المصادر العلمية هنـــاك ...

أمريكـــا :

* افاد التقرير السنوي لمصالح الامم المتحدة المختصة ، ان الانسانية اذا استمرت فى التكاثر كما هو الحال عليه ، فان سكان العالم سيزيد سنة 2006 عن سبعة ملايير نسمة،وذلك على الرغم من الانخفاض الذي سجل فى نسبة المواليد منذ 1960 .

هذه الفقرة وردت فى التقرير السنوي الذي اعده خبراء الامم المتحدة حول التطور الديمغرافي فى العالم . ففي سنة 1969 كان عدد سكان العالم ثلاثة آلاف و 552 مليون نسمة ، موزعون هكذا :

56 فى المائة بآسيا . 13 فى المائة فى اوربا. 9 فاصلة 7 بالمائة فى افريقيا . و 7 فاصلة فى المائة فى الاتحاد السوفياتي . 6 فاصلة 3 فى المائة بأمريكا الشمالية . صفر فاصلة 5 فى المائة باستراليا .

ويشكل هذا العدد زيادة قدرها 69 مليون نسمة عن سنة 1969 ، كما يتحدث التقرير عن الازدحام وتكاثر السكان فى مختلف العواصم .

* عقد اتحاد الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا مؤتمره السنوي الثامن . وقد كان موضوع المؤتمر « الحركات الاسلامية المعاصرة » . وحضر هذا المؤتمر ما يزيد على 600 مسلم ومسلمة يمثلون ما ينيف عن 40 دولة و 100 مؤسسة علمية وذلك من اطراف أمريكا وكندا من الشرق الى الغرب، ومن الشمال الى الجنوب منهم الطلبة والمهندسون والعلماء والاطباء والمحامون والاساتذة والموظفون والنساء والاطفال .

* « محاولة التفسير الكاسترونية » كتاب الفه امريكي ليبرالي تربطه صداقة شخصية بفيدبل كاستـــرو .

* « لوف ستورت » هو كتاب الموسم فى الولايات المتحدة الامريكية حيث ان عدد نسخه بلغ 360 الف . ولقد تهافتت على شرائه بمجرد ظهوره اربع اندية للكتب . لكن عدد النسخ نفذ بسرعة كبيرة. وبعد ذلك طبعت منه اربعة ملايين من كتاب الجيب ، وتهافتت بعد ذلك على قراءته 10 ملايين من القراء .

البــرازيـــل :

* كان الحفل الذي اقامته الجمعية الاسلامية العلوية فى الشهر الماضي تكريما للاديب الاستاذ عبد اللطيف اليونس مهرجانا رائعا للادب العربي فى المهجر ، فقد كان بما القى فيه من شعر رائع ، ونثر بليغ ليلة من ليالي الادب والعروبة .

هذا وقد حضر الحفل مدير الدراسات العربية بجامعة سان باولو ، والقنصل الاردني وكبار الادباء وممثلو الجمعيات والمؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية .

وزار الشيخ حسن الصافتلي المركز الاسلامي بسان باولو حيث ناقش مع فضيلة رئيس المركز القضايا التي تهم الطائفة الاسلامية .

* اعلنت الجمعية الاسلامية البرازيلية عن فتح باب قبول طلبات الترشيح للادارة الجديدة وانتخابات الادارة بمقر مسجد البرازيل وقد تمت الانتخابات بعد ذلك برئاسة رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية احمد حسين عـرة .

* سان باولو : عقد اجتماع اللجنة العليا للمؤتمر الاسلامي للمؤسسات الاسلامية بالبرازيل بدار المحسن الكبير السيد محى الدين الهواش دعا اليه سيادته باعتباره رئيسا للجنة التحضيرية للمؤتمر حيث حضره رؤساء المؤسسات الاسلامية الحاليين والسابقين بسان باولو وبعض شخصيات الطائفة الاسلامية ، وقد درست بالاجماع الخطوات التنفيذية الواجب اتخاذها واختيرت اللجنة المالية لصندوق

المؤتمر ، وكذلك اللجنة الخاصة لدعوة السفارات العربية والاسلامية والقنصليات فى كل من ريو وسان باولو . وقد قدمت تبرعات لصندوق المؤتمر بلغت 20 الف كروزيرو ، واتفق على أن تكون اللجنة المالية مكونة من الاخوة :

صالح الصميلي ـ رئيس الجمعية الاسلامية .
رفيق الطقش ـ رئيس النادي الاسلامي. الكومندادور مصطفى الابن ـ رئيس الجمعية الاسلامية العلوية .
ابو طاهر محمد العره ـ رئيس الجمعية الاسبق .
الدكتور رشيد القباني ـ قنصل عام سوريا السابق .
وسيدرس تكوين اللجان ثانية فى الاجتماع القادم الذي سيكون بقصر الوجيه السيد مصطفى عره ان شاء الله تعالى .

❊ سان باولو ـ جاء وفد يمثل الجمعية الخيرية الاسلامية فى باراناغوا للتباحث مع فضيلة الشيخ عبد الله عبد الشكور كامل مدير المركز الاسلامي بالبرازيل والمشرف على شؤون الدعوة الاسلامية بامريكا الجنوبية بشأن وضع الحجر الاساسي للجامع والمدرسة .

وهكذا يكرم الله عقيدته واسلامه بالبرازيل حين يجاهد المؤمنون لاقامة المسجد والمدرسة بكل تجمع اسلامي حفاظا على العقيدة ، ومدا لروحها وحياتها ، وهو تحقيق مخلص للشعور والذكرى نادى به فضيلة الشيخ منذ ان وطئت قدماه البرازيل الذي ظهرت نتائجه بحمد الله تعالى فى مدن سان باولو، وكورتيبا، وباريتوس ، وباراناغوا ، وفى الشهور القادمة فى مدينة لوندرينا .

ولكل عامل شكر الله وتقديره ، ولابناء باراناغوا تحية لجهودهم وسعيهم فى سبيل اعزاز الاسلام ورفع رايته .

❊ سان باولو ـ تناولت دروس الندوة فى الاجتماعين اللذين يعقدان كل يوم اثنين الموضوعات التالية التي دار حولها حديث فضيلة الشيخ عبد الله الشكور كامل .

1 ـ دعاة المناسبات ودعاة الثبات .

2 ـ الحوار الهادف والمثير .

3 ـ من عدة النصر (وحدة وتحمل) .

4 ـ القرآن يقول .

كوبنهاكن :

❊ فى تقرير اخير صدر فى كوبنهاجن جاء فيه ان عدد المسلمين فى الدانمارك يبلغ اكثر من اربعة آلاف مسلم ، منهم واحد واربعون مسلما جديدا من اصل دنماركي .. وقد شيد اول مسجد اسلامي فى كل البلاد الاسكندنافية فى ضاحية من ضواحي مدينة كوبنهاكن عاصمة الدنمارك ...

وقد جاء المسجد مثلا لمدى سخاء المسلمين ، وكرمهم فى سبيل عقيدتهم . فقد تكفل بكامل مصاريف تشييد المسجد والمكتبة الاسلامية الملحقة به ثري باكستاني هو السيد احمد جمال ، وقد تكلف المشروع 50 الف جنيه استرليني وابتدا العمل فيه منذ عام 1961 م .

وللمسلمين هناك نشاط تجاري وسياحي كبير، فمنهم من يمتلك الفنادق ومنهم من يمارس الاعمال الحرة الاخرى .

وقد ابدى احد الصحفيين العرب دهشته عندما علم ان الفندق الذي ينزل فيه بكوبنهاكن هو ملك لمسلم دنماركي الاصل يدعى السيد « الن » الذي اخذه الى المسجد الاسلامي وشرح له اوضاع المسلمين فى البلاد .